منشورات جمعية تطاون أسمير
سلسلة تراث 9

النعيم المقيم

في ذكرى مدارس العلم، ومجالس التعليم
لمحمد بن محمد المُرير



تخريج : ذ. أحمد بن محمد المُرير
مراجعة : أ.د. جعفر ابن الحاج السُّلَمِيّ

الجزء السابع

تطوان 1430هـ - 2009 م

منشورات جمعية تطاون أسمير
سلسلة تراث 9

النعيم المقيم

في ذكرى مدارس العلم، ومجالس التعليم

لمحمد بن محمد المُرير

تخريج: ذ. أحمد بن محمد المُرير
مراجعة: أ.د. جعفر ابن الحاج السلمي

الجزء السابع

تطوان 1430هـ - 2009

الكتاب : النعيم المقيم، في ذكرى مدارس العلم ومجالس التعليم

(الجزء السابع)

تخريج : ذ. أحمد بن محمد المرير

مراجعة: أ.د. جعفر ابن الحاج السلمي

الناشر : منشورات جمعية تطاون أسمير

الطبعة : 1430 هـ - 2009 م.

رقم الإيداع : 2020 / 2009MO

الطباعة: مطبعة الخليج العربي 152، شارع الحسن الثاني - تطوان

الهاتف : 25 02 71 39 05/ الفاكس: 37 05 71 39 05

الجزء الســابع من الفهرسة المسماة بـــ :

النَّعيم المُقيم
في ذكرى مدارس العلم ومجالس التعليم
لجامعها العُبَــيْد الفقيــر:

محمد بن محمد الفريــر
وفقه مولاه
لما يُحبه ويرضــاه
وهو نعم المولى ونعم النّصير

فهرسة:

علمية تفسيرية حديثية فقهية صوفية، كلامية أدبية تاريخية، ذات أبحاث عصرية، وحوادث وقتية، زيادة على موضوعاتها الأصلية.

[تطوان ــ المغرب]

ابتداء المجلد السابع
من "النعيم المقيم"، أعاننا الله على إكماله، بمنه وفضله، بجاه خير أرساله، صلى الله عليه وآله

بسم الله الرحمان الرحيم

وصلى الله على من أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدِّين كله، ولو كره المشركون. آمنا بالله وبما أنزل على رسوله من الذكر الحكيم.

[مبحث
استمرار هذا الدّين وظهُوره، وقوله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) الخ الآية(*)]

وعليه؛ فمن المُؤكد علينا أن نفتتح هذا المجلد السابع، من هذه "الفهرسة"، ببعض ما أسلفناهُ، مما يؤذن باضمحلال هذا الدين القويم، واندماجه بأصوله وفروعه في الأديان الباطلة وأهل الإلحاد، على وجه الإدماج الكليّ، والكفر بالله العلي العظيم؛ كلاً، بل والله لا تزال هذه الأمة - على ضعفها، وتداعي أمم الكفر على إرادة محو آثارها - قائمة بالله، ظاهرة على غيرها بنفسها، وباتخاذ أعدائها أسباب ظهورها، من بناء المساجد في أعظم عواصمهم، وإن كان ذلك قصدُهم به الخداع؛ باتخاذ طرق التضليل في صور النصيحة والإصلاح. ولكن يأبى الله إلا أن تكون في تلك الأفعال الكاذبة، تقوية عامة لعموم أهل الإسلام، وإن قلّت منهم الجماعة، تصديقا لقوله، عليه السلام: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحقّ، لا يضرهم من خالفهم إلى أن تقوم الساعة". فلنرجع إلى ذلك، ونقول:
إن هذا الدّين لا يزال ظاهرًا، ولن يؤثر في محقه وإعدامه ماكر، ولا يقطع الإعلان بـ"لا إله إلا الله، محمد رسول الله"، خادعٍ كافر. وهنا أذكر ما كنت أجبت به بعض

(*) التوبة: 33 - الصف:9

نبلاء الفقهاء من أصدقائنا؛ إذ كتبت له في هذا، وبسطت القول في ذلك في رسالة ضلّت عني الآن، وكنت[أتيت] في ذلك بكلام العارف بالله، والمشهود له بالفتح الرباني، سيدي عبد العزيز الدباغ؛ إذ كان سأله تلميذه، علامة زمانه، وفريد المعارف والتحقيق في أوانه بفاس، سيدي أحمد بن مبارك، عن هذه الآية الكريمة، مستشكلا لها من حيث إن زمانه، الذي هو قريب من زماننا، ظهر في أمم الإسلام بعض فتور وخمول، وغلب على إظهارهم أهل الكفر والطغيان؛ حتى ظهر لسيدي أحمد أن الدّين الإسلامي أخذ في الخفاء.(*)

فأجابه العارف بالله، سيدي عبد العزيز بقوله، رضي الله عنه: هذا الدين الطاهر، أظهره الله على الأديان كلها من كل وجه؛ من جهة أنه ناسخ لها، ومن جهة سطوع حجته، ومن جهة كثرته على وجه الأرض، حتى إن الأديان بالنسبة إليه كلا شيء؛ وذلك أن من فتح الله بصيرته، ونظر إلى وجه الأرض، عامرها وغامرها، رأى أن في كل موضع أقواما يعبدون الله تعالى ويقدسونه، وهم على الدين المحمدي. والأرض عامرة بهؤلاء السادات، رضي الله عنهم، فهم في هذا البر، وفي ذلك البر، يعني بر أهل الكفر، وفي الكهوف والجبال والسهول، وفي عامر الأرض وغامرها. ومما اختص به هذا الدين الشريف، جعلنا الله من أهله، أن فيه نورًا يمنع الأمة المشرّفة الآخذة به، من الارتداد والرجوع إلى الكفر، وذلك لمحبة الله تعالى في هذا النبي الكريم، صلى الله عليه وسلم؛ فجمع الله في دينه خصالا كثيرة، مجموعها عاصم لأمته الشريفة من الارتداد، بخلاف غيرها من الأديان، فإنه لم يستوف الخصال المانعة من الرِّدَّة. قال رضي الله عنه: ومن نظر إلى اللوح المحفوظ، ونظر فيه إلى المرسلين، وإلى شرائعهم التي هي مكتوبة فيه، علم دوام شريعة نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم، وعدم ارتداد أمته.[الإبريز:167/1].

ثم صار العارف الدباغ، رضي الله عنه، يبين ذلك لتلميذه العلامة ابن مبارك، وهو يتلقى ذلك بالقبول، لاعتقاده الصادق في هذا العارف بأسرار لا يقبلها إلا ذو قلب سليم من ظلمات الجهل الذي لا يقبل إلا الأمور الظاهرة، ولا يعتبر بقوله تعالى: (ألاَ إنَّ أوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عليهِمْ ولاَ هُمْ يَحْزَنُونَ، الَّذِينَ آمَنُوا وكَانُوا يَتَّقُونَ، لَهُمُ البُشْرَى في الحياةِ الدّنيَا وفي الآخِرَةِ)، الآية.[يونس: 62- 64].

(*) تناول المؤلف بعض جوانب من هذا الموضوع في الجزء الثالث، ابتداء من ص:308.

[تذييل كلام العارف الدباغ، بردّ ما يمكن أن يُنتقد به]

ثم إني أذيّل هذا المقال، بردّ ما يمكن به أن ينتقد هذا الكلام، بقوله: [إن] ما قاله هذا الشيخ، إن سلم، مما لا يمكن أن يشترك فيه العام والخاص، ولا يتلقاه إلا من له اعتقاد في الشيخ خاصّ؛ إذ لا نصّ فيه من النقول عن صاحب الشريعة، وهو الرسول المعصوم، ولا عن أصحابه الكرام، ما يحقق هذا المقام، إذ إنما هو من قبيل الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، الذي لا يُظهر عليه إلا من ارتضى من رسول. وعليه، ما يمكن أن يقول فيه المصدق به؛ إلا أنه من قبيل الكشف. ولا يخفى أن الكشف الذي يظهر من بعض الأولياء، عند القائل به، يقول: إنه لا يصح أن يكون حجة شرعية صحيحة، لأنهم يقولون إنه يقبل الغلط.

فالجواب عندي أن ذلك، إن لم يرد فيه نص خاص، فإن هناك أحاديث كثيرة تشهد لهذا، وفي "شفاء" القاضي [عياض] أدلة كثيرة من هذا النوع. ومن الأحاديث التي تؤيد مقالة الشيخ الدباغ، حديث رواه ابن عساكر [عن عمرو بن عثمان، مرسلا]، وأشار له الحافظ السيوطي في"الجامع الصغير"، بعلامة الحُسن، وهو قوله، عليه السلام: "أمتي أمة مباركة، لا يُدرى أولها خير أو آخرها". وفي [حديث] آخر، رواه الحاكم عن أنس، وأشار له الحافظ برمز الصحة:["أمَّتي أمَّة مرحومة مغفورٌ لها، متابٌ عليها"](*).[54/1].

وناهيك شاهدًا لما أشار له العارف الدباغ؛ ما ورد عن سيدنا موسى، عليه السلام، لما اطلع على ما في التوراة من مدح هذه الأمة؛ قال: يا رب أجد في الألواح أمة هم الآخرون السابقون؛ فاجعلهم أمتي. قال: تلك أمة محمد. ثم ذكر ذلك مع أوصاف أخر، وكرر جوابه كذلك. قال: يا رب فاجعلني من أمة محمد، فقال: (يا مُوسَى إنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاس بِرِسَالَتِي) الآية[الأعراف:144]، فقال: رضيت يا رب. وفي رواية أنه سأل ربه: "هل في الأمم أكرم عليك من أمتي"؛ فبين أن فضل أمة محمد، صلى الله عليه وسلم، على سائر أمم الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، كفضله، صلى الله عليه وسلم، على سائر خلقه هـ. قاله الحافظ الهيتمي في شرح قول البوصيري(**)

وَلكَ الأمَّةُ التي غبطتْها بِكَ لَمَّا أتيْتَهَا الأنبيَاءُ

وهو كاف لما يؤيد ما استكشفه بنور الولاية من أسرار هذه الخصائص، التي اكتسبتها هذه الأمة من النور المحمدي، حتى وصفها، عليه الصلاة والسلام، بأنها أمة مباركة، وأن آخرها كأولها، كما سبق في الأحاديث.

(*) كذا في نسخة "الجامع الصغير"، طبعة القاهرة، 1321هـ؛ لكن في"فيض القدير"(186/2)،أشار له السيوطي برمز الضعيف. أم

(**) "شرح الهمزية"، ص:346.

وأما ما ظهر للعلامة ابن مبارك من النقصان في هذه الأمة، وأنه أثر في ظهورها؛ فقد بين به شيخه الدباغ، أن ذلك من تقصير النظر، وقصره على ما هو محسوس. وعند توسيع الأنظار، والاعتبار لما غاب عن الأنظار، فإنه يرى أن الآية محكمة في الدلالة على الظهور، ظهور الشمس في واضحة النهار.

وأنا أبيّن لك أيها السامع إن ألقيت السمع وأنت شهيد، وإني، وإن كنت في هذا الاستدراك، أستحيي أن أتعقب به على شيخ المعارف، وإمام العلوم من تالد وطارف، سيدي أبي العباس ابن مبارك؛ ولكن في بعض الأحيان، قد يفهم القاصر في الفهم، ما لا يهتدي إليه المتبحر في العلوم:

فأقول: رضي الله عن سيدي عبد العزيز، فإنه ما تكلم إلا عن كشف ظاهر، وإلهام من الله باهر، شهدت له النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية، حسبما سبق، بل والمشاهدة في الماضي والحال. ولا يزال الأمر كذلك إن شاء الله في الاستقبال.

فلا يخفى ما كانت عليه الأمم من الضلالة، وما كان يعم من العَمَه والجهالة، فجاء رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بهذا الدين الحنيف، والحق البيِّن الذي لا يزيغ عنه إلا الأعمى الأصمّ، والتائه في بيداء الجهالة وبحار الظلم، كما قال باب العلوم والمعارف ومفتاحها،[الذي] فتح مغلقات الحقائق، واتضح به لأهل العلم إصباحها، أمير المؤمنين، سيدنا علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، في وصف بعثة الرسول، عليه السلام، ما لفظه:

"بعثه، والناس ضُلاّلٌ في حيرة، وخابطون في فتنة، قد استهوتهم الأهواءُ، واستزلّتهمُ الكبرياء، واستخفتهُم الجاهلية الجهلاء، حيارى في زلزال من الأمر، وبلاءٍ من الجهل. فبالغ، صلى الله عليه وسلم وآلهِ، في النصيحة، ومضى على الطريقة، ودعا إلى الحكمة والموعظة الحسنة".

وقال، رضي الله عنه:

" مُستقرّه خير مُستقرٍّ، ومنبته أشرفُ منبتٍ في معادن الكرامة، ومماهد السلامة. قد صُرفت نحوه أفئدة الأبرار، وثُنيت إليه أزمّة الأبصار، دفن به الضغائن، وأطفأ به الثوائر(*)، ألّفَ به إخوانًا، ومزّق به أقرانًا. أعزَّ به الذّلة، وأذلَّ به العزّة. كلامه بيانٌ، وصمته لسانٌ". هـ[نهج البلاغة:203/1].

وبهذا تفهم قوله تعالى: (هُو الذي أرسل رسُولهُ بالهُدى ودين الحقّ)إلخ. وفي قوله تعالى: (واللهُ متمّ نُورهُ)؛ للمفسرين احتمالات، ففي "تفسير" الفخر، عن الكشاف:

وقوله (واللهُ مُتمّ نُورَهُ): متمّ الحق ومبلغه غايته. وقيل: دين الله، وكتاب الله، ورسول الله؛ وكل واحد من هذه الثلاثة بهذه الصفة، لأنه يظهر عليهم من الآثار.

(*) جمع ثائرة، وهي العداوة الواثبة بصاحبها على أخيه ليضره، إن لم يقتله هـ. من تعليق الشارح.

وثانيها: أن نور الله ساطع أبدا، وطالع من مطلع لا يمكن زواله أصلا، وهو الحضرة القدسية، وكل واحد من الثلاثة كذلك.

ثم زاد في ذلك إيضاحا وبيانا واحتمالات. ثم قال، وهو النص في موضوعنا، وهو إظهاره على كل أديان الخلق :

وثانيهما: الإضافة إلى الحضرة. ومنها أنه، إذا كان نورا من أنوار الله تعالى، كان مشرقا في جميع أقطار العالم،لأنه لا يكون مخصوصا ببعض الجوانب؛ فكان رسولا إلى جميع الخلائق، لما روي عنه، صلى الله عليه وسلم: "بعثت إلى الأحمر والأسود"، فلا يوجد شخص من الجنّ والإنس، إلا ويكون من أمته؛ إن كان مؤمنا، فهو من أمة المتابعة، وإن كان كافرا، فهو من أمة الدعوة. هـ[مفاتيح الغيب: 140/8].

[سرعة انتشار الإسلام وغلبته على المعمور]

ثم إن خلاصة ما حصله فهمي القاصر، وثبت في فكري الفاتر، واستنتجتُه من نفائس الدفاتر؛ أن الله، جل وعلا، أخبر رسوله المصطفى، وخاتم رسوله المجتبى، وبشره أن دينه الذي أرسله به هُو دين قيّم، هادي الخلق إلى دين الحقّ، وأنه دينٌ سيظهره ويغلبه ويعليه على سائر الأديان الموجودة في سائر الأقطار والبلدان، شرقا وغربا، شمالا وجنوبا. ولقد صدق تعالى وعدَه، ونصر عبدَه، وأذاع دينه الحق في المعمور، ودخل الناس في الدين أفواجا بابتهاج وسرور. قال الإمام أبو السعود، في قوله تعالى: (لِيُظهِرَهُ عَلَى الدِّين كُلِّـهِ): ليُعليه على جميع الأديان المخالفة له. قال: ولقد أنجز الله، عز وعلا، وعده، حيث جعله بحيث لم يبق دين من الأديان، إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام. هـ[144/8].

قلت: وهذا يقوله أبو السعود في عصره، وهو واضح؛ أما في العصور الأولى والقرون المتقدمة، التي هي خير القرون، فإن هذا الدين انتشر انتشارا ارتاعت له الأمم التي كانت تملك الدنيا، وترى أن كلمتها هي العليا،[حيث] أصبحت تحت [نفوذ] شرذمة قليلة خرجت من أفق ضعيف، إقامتها بوادٍ غير ذي زرع؛ فصارت تفتح البلاد والأقطار، مع ما هي فيه من عوز وافتقار، ليس لها مال يُستمدّ به، ولا عدد كثير يُعتمد عليه، ولا آلة حرب يُستعان بها، ولا زاد تستصحبه في حربها، بل كثيرا ما كانوا يقتاتون بأوراق الأشجار، حيث لا قوت ولا ثمار؛ فملكوا في مدة ثمانين عاما ما حولهم من الشام والعراق، وتعدّوا في إغارتهم، بقوة إيمانهم، حتى ملكوا ما وراء البحار.

وصارت كلمة التقوى وقول: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"، ترنّ فوق إيوان كسرى، من بلاد فارس، التي استولت عليها بحذافيرها، من قارة آسيا، وبلاد الشام، من بلاد الروم.

أما فارس، فقد تمّ فتحها أيام خلافة سيدنا أبي بكر، رضي الله عنه. وانطلقت إلى إفريقيا وأوربا، وحازت بذلك الأراضي الكثيرة،[حتى وصلت إلى] بلاد فرنسا. ولولا تلك الفتن الخلافية، ووقوع التنافس بين الغزاة ورؤسائهم، لملكوا فرنسا بحذافيرها. بل لو استمر الحال من الاتحاد وحسن النية وفتح البلاد، لملكوا[جميع] بلاد الشرق، واخترقوا أوربا، كما كان المؤمل عندهم. ولكن التنازع والخلاف، هو الداء العضال المؤدي إلى الإتلاف.

[وقد] ملكت[الدولة الإسلامية] جملة من قارة إفريقيا، المعمور منها ومشاهير عواصمها، من مصر وطرابلس والقيروان، وهي تونس وما حولها. بل فتحوا داخل إفريقيا من السودان المصري، وأذاعوا الديانة الإسلامية في ناحية النيل السوداني، وأسسوا شبه دولة مستقلة إسلامية، عاصمتها(تنبكتُو) التي منها الشيخ بابا؛ وهي العاصمة التي احتلتها الدولة السعدية بالمغرب، حتى وصلوا بهذه الفتوح إلى (الدَّاهُمي)، وملكوا الشاطئ البحري بناحية[رأس]الرجاء الصالح.

وهكذا كانت حالة الفتوحات مستمرة إلى الشرق. وانظر ما كتبه تاج الدين ابن السبكي في "طبقاته"، عما كان للسلطان العادل، البطل الشجاع، محمود بن سُبكتكين، من الفتوحات العظيمة، ومن اتساع ولايته وانقياد [رومية] له، حتى عده أحد أربعة ولاة لا خامس لهم، في حسن السيرة والعدل. وهم كما قال: سلطانان، وملك، ووزير في العجم. وهما هذا السلطان، والوزير نظام الملك، وبينهما في الزمان مدة، وسلطان وملك في بلادنا، هما السلطان صلاح الدين بن أيوب، فاتح بيت المقدس، وقبله الملك نور الدين زنكي الشهير.

ثم ذكر استطرادا تفسير معنى السلطان والملك، وما عليه الاصطلاح إذ ذاك في العرف.

<u>والمراد</u> هنا أن الفتوحات كانت متوالية في الغرب، كما كانت متوالية في الشرق.

أما تفصيل ما فتحه السلطان ابن سُبكتكين من الأقاليم والبلدان، فعليك بما كتبه في ذلك التاج في "طبقاته"، في ترجمة هذا الرجل الفاتح العظيم. وغيرها من "التواريخ" القديمة والحديثة، والطويلة والقصيرة؛ ترى أن هذا الدين الحق، الذي أرسل به الحق تعالى[رسوله]إلى كافة الخلق، ظهر في الدنيا بأسرها، وأن رسالة هذا الفاتح الخاتم، تعمّ الشرقي والغربي، والأعجمي والعربي، والأبيض والأسود، والأحمر والأدهم؛ ولكن، كما تقدم من كلام الفخر الرازي، إن الدعوة عامة، والإجابة خاصة، فما في الدنيا من الخلق، جنيّها وإنسيّها،[من لا] تعمه الدعوة إلى هذا الدين الحق؛ وإنما الفرق في الإجابة وعدمها، كما سبق.

[معنى الماحي من أسماء النبي، صلى الله عليه وسلم]

وبهذا التعميم في الرسالة؛ فسّر القاضي في "الشفاء"، في أحد الاحتمالات، اسم النبي، صلى الله عليه وسلم، الماحي، فقال: أو يكون المحو عاما بمعنى الظهور والغلبة، كما قال الله تعالى: (ليظهَرهُ على الدِّين كُلِّـهِ)هـ. قال الشهاب الخفاجي إثر كلام القاضي:

"فالمراد بالمحو، علوّ الدين وغلبته لغيره من الأديان، بنسخها وبيان ما غُيِّر وبُدِّل منها، وعلوّ أهله على جميع من عداهم، بتسليطهم عليهم وقهرهم، وإيقاع الرعب في قلوبهم، كما هو مشاهد".

ثم كرر الاستدلال بالآية، ثم قال: ويوضحه أن المحو لغةً إذهاب الأثر، وهو قد يكون مع بقاء العين، وإن ما لا أثر له، كالعدم. ولذا عبَّر بالماحي دون المزيل.هـ[نسيم الرياض:416/2].

وقد جاء بهذا المعنى مبسوطا، صاحب "المواهب" فقال:

وأما الماحي؛ ففسر في الحديث بمحو الكفر. ولم يمح الكفر بأحد من الخلق، ما مُحي بالنبي، صلى الله عليه وسلم، فإنه بُعث وأهل الأرض كلهم كفار، ما بين عباد أوثان، ويهود ونصارى ضالين، وصابئة دهرية، لا يعرفون ربّا ولا معادًا، وبين عُبّاد الكواكب وعُبّاد النار، وفلاسفة لا يعرفون شرائع الأنبياء ولا يقرّون بها؛ فمحاها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حتى أظهر دينه على كل دين، وبلغ دينه ما بلغ الليل والنهار، وصارت دعوته مسير الشمس في الأقطار. ولما كانت البحار هي الماحية للأدران، كان اسمه، عليه الصلاة والسلام، فيها الماحي.هـ[المواهب:187/1].

وعلى وجه الإجمال، حسبما قدمناه، إن الآية الكريمة محكمة، صادق معناها على أوائل الأمة المحمدية وأواخرها، لِما صحّ في ذلك من الأحاديث والآثار، وشهد له مشاهدة الأسماع والأبصار، وأنه، صلى الله عليه وسلم، بُعث إلى الناس عامة، وإلى سائر أقطار وأمصار الدنيا من المغارب والمشارق، وأنها باقية ما لاح طالع، وذرّ شارق، وبه صرّح الحديث الذي في "الصَّحيحين" وغيرهما، وقد كرّر البخاري روايته، فرواه في كتاب التيمّم، وفي كتاب المساجد. قال الحافظ في "الفتح"، في حديث باب التيمّم:

وأما قوله: "وبعثت إلى الناس عامة"، فوقع في رواية مسلم: "وبعثت إلى كل أحمر وأسود"، فقيل: المراد بأحمر، العجم، وبالأسود العرب. وقيل: الأحمر: الإنس، والأسود: الجن. وعلى الأول التنصيص على الإنس، من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، لأنه مرسل إلى الجميع. وأصرح الروايات في ذلك وأشملها، رواية أبي هريرة عند مسلم:"وأرسِلتُ إلى الخلق كافة".هـ[300/1].

[انحطاط أحوال المسلمين بسبب
مخالفتهم أحكام القرآن]

قلت: ولنرجع إلى وجه توقف العلامة ابن مبارك في الآية،[و]هو في فهم: (لِيُظْهِرَهُ على الدِّين كُلِّهِ)، وأنه كان يرى عدم ظهور هذا الدين، بل هو آخذ في الخفاء، بل والاضمحلال في كل يوم، وهو مقتضى قوله، عليه السلام: " لا يأتي على الناس يوم إلاّ والذي بعده شرّ منه".

وهو في عصرنا اليوم أشدّ؛[بـ]انحطاط أهله في مخالفتهم أركان الدين، وارتكابهم كل رذيلة، حتى عمّت المنكرات كل الآفاق، وأعلن أهلها بفعل المحرّمات دون مبالاة. فالفسق في المجالس والمحافل ذائع، ولا يدفعهم عن ذلك دافع، بل لم يقف الأمر هنا في المحرمات، بل تعدّوْا بفسقهم إلى المروق من الدّين، وانتحائهم منحى المرتدّين.

وإذا أمكن لمن فيه بقية من دين، أن ينهاهم عن هذه الأعمال المُردية، والأقوال التي هي إلى الارتداد مُؤدية؛ أوسعُوه سبّا واستهجنوه، وجهروا له بأسوء الأقوال؛ إذ الفسوق عندهم هو أجمل الأوصاف، والعفاف والتمسك بالدين وأخلاقه،[هو]عما يقتضيه العصر الممدوح عندهم، والموصوف بالحضارة، في غاية الانحراف. وهنا ينشد قول القائل:

وأقبح شيء في زماننا أنه   به الجهل علم، والفسوق عفاف

وزاد الحال تفاقما بالطامّة العظمى في عصرنا هذا، أن رفضت كل الأمم التي تنتسب للإسلام؛ الحكم بمقتضى الشريعة الإسلامية، من الحدود وغيرها، وأقامت مقامها القوانين الأجنبية؛ فحكمت بغير ما أنزل الله، ولم تبال بقوله تعالى: (ومَن لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أنزلَ اللهُ فأولئِكَ هُم الكَافِرُونَ)، وقال: (يُرِيدُونَ أنْ يَتَحَاكَمُوا إلى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أمِرُوا أنْ يَكْفُرُوا بِهِ). وصار الجل يهزأ بهذه الأحكام الشرعية، ويقول إنها لا تليق بهذا العصر، وهو عصر الحضارة، وهذه الأحكام كانت تليق بالعصر الذي كان فيه [المركوب] الحمار والجمل، لا عصر السيارات والطائرات ونحو ذلك؛ وهذا كله هدم للشريعة الإسلامية، وهي طامة عظمى أصابت هذه الملة الإسلامية.

ولم يزل الفقهاء ينكرون ذلك في أول إحداث هذا الداء العظيم، والغارة على تغيير معالم هذا الصراط المستقيم. ولكن ما ردّ[ذلك] إقدام هؤلاء الهاجمين، حتى ارتكز في أذهان العامة أن هذه الأحكام لا حرج فيها ولا على العمل بها من آثام.

فتبًا لعقول تقبل هذا الإجرام، وتعدّه مما جاء به الوقت، وهو يلائم في هذا العصر؛ إذ هو تجديد لأمر تهلهل وبلي، وصار من سَقط المتاع، مما لا ينبغي أن يُنشر أو يذاع، بل هو مما تنكره الأفكار، وتمجّه الأسماع!.

دارك الله هذه الأمة بألطافه، ووفق الله المجدّدين لهذا الدين، الواردين في الحديث، من أن الله يبعث منهم على رأس كل قرن من يُرشد هذه الأمة إلى الصراط المستقيم، (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ، غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ)،آمين.

[حديث حذيفة
وسؤاله عن الشر الذي يقع بهذه الأمة]

هذا؛ وهذا التبديل وهذا التغيير الذي يسعى لمحو هذه الشريعة الغراء، ومحو آثارها؛ كله قد أخبر به الرسول، عليه الصلاة والسلام، وجعله من أشراط الساعة. وقد فصلنا ذلك في المجلد الثالث من هذه "الفهرسة".

وأجمعُ ما في ذلك من الأحاديث، ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما، عن حذيفة بن اليمان، قال: كان الناس يسألون رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنّا في جاهلية وشرّ، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم. قلت: فهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال:" نعم. وفيه دَخَن". فقلت وما دَخَنُه؟ قال: "قوم يستنّون بغير سنتي، ويهتدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر"، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: "نعم. دعاة على أبواب جهنم؛ من أجابهم إليها قذفوه فيها"، قلت يا رسول الله: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: "تلزم جماعة المسلمين وإمامهم"، قلت: فإن لم يكن جماعة ولا إمام؟ قال: "فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعضّ بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك". ذكره في "تيسير الوصول"، وقال: أخرجه الشيخان وأبو داود.[158/3].

قلت: وقد ذكرنا جملة من الأحاديث الواردة في انحراف أهل هذا الدين، وخروجهم عن الصراط المستقيم. وأكبرها وأعظمها هو رفضهم الأحكام الشرعية، واستبدالهم لها بالقوانين الوضعية. وهذا غاية الضلال والجهالة بعدالة الشرع الإسلامي، المأخوذ من الوحي الإلهي. فليحذر الذين يخالفون عن أمره، ويعملون بغير ما وضعه الباري لخلقه، مما يصلحهم في حال دنياهم، ويكون جزاء امتثال أمره في أخراهم؛ فقل هل يستوي الشرع، الذي هو نور كله،[مع القوانين الوضعية]؛ إذ الأحكام الشرعية من نور القرآن، وهو كلام إلهي، أو من حديث نبوي تلقاه الرسول، عليه الصلاة والسلام، من وحي رباني، إذ هو، صلى الله عليه وسلم، لا ينطق إلا عن وحي من الله، ولهذا قال تعالى: (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى). وهذا شيء من الضروري عند أهل الإسلام. أما ما ألحِق بهما من القياس والإجماع، فهو راجع إليهما.

ثم بعد هذا كله، فإن هذا التغيير وهذا الإلحاد،[يخالف] ما جاء به الرسول، وبلّغ في ذلك به أمته ما أمره به ربه من الهدى ودين الحق، ليُظهر بهذا الحق هذا الدين على الأديان كلها، وينسخ ما قبله، ولم يبق بعد هذا الوحي على الأرض دين يدان الله به، ولا فُرْقَانٌ يفرّق به بين الحق والباطل؛ وأرسِل بذلك إلى كل الخلق، كما سبق، فلم يبق أحد على وجه الأرض، شرقيها وغربيها، إلا وهو مأمور باتباع هذه الشريعة؛ لأن الدين إذ ذاك، هو الإسلام، وإن من اتخذ غير الإسلام[دينا]، فعمله باطلٌ، وصفقته خاسرة، وهو في الآخرة من أهل الوُجوه الباسرة. قال تعالى: (إنَّ الدِّينَ عندَ اللهِ الإسْلام)،[آل عمران:19]، وقال: (ومن يَتَّبعْ غيرَ الإسْلام دِينًا فَلنْ يُقبَلَ مِنْهُ، وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)،[آل عمران:85]، ولهذا قال تعالى: (هوَ الّذِي أرْسَلَ رَسُولَهُ بالهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظهِرَهُ على الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ)،[التوبة:33].

[نور الإسلام دائم الإشراق، لكونه من نور الله]

وإذا كان هذا الدين الحق، الذي أرسل الله به رسوله المختار، وجعله دينا يعمّ الأقطار والأمصار، فمن الحمق والبله محاولة الكافر به، أن يبطله ويمحو أثره من هذه البسيطة بقوله وكلامه، والقدح فيه، مع كونه نور الله وحيه إلى نبيه. ونوره تعالى من صفاته، فلا يؤثر فيه طعن هؤلاء الطاعنين، ولا لغو هؤلاء اللاغين؛ بل هو دائم الإشراق، ذائع في الآفاق.

وعليه، فمن رأى أن دين الإسلام أصابه نقص، أو اعتراه اختلال، أو شابه انحلال؛ فهو غير مُصيب. و(ما) هذا النقصان وهذا الاختلال وهذا الاعتلال؛ إنما هو في أهله والمنتسبين إليه، لعدم امتثال أوامر ربهم. ولو أنهم استقاموا على الطريقة التي أمرهم الله بها،[مع] التعاضد فيما بينهم والتناصر، وعدم التنازع والتنافر؛ لما تأخروا، وما ضعفوا وما استكانوا. ولكنهم خالفوا ما رسم الله لهم في دينهم، فتداعت عليهم الأمم، فاستعبدوهم، وصارت يد الكافر عليهم هي العليا، والله تعالى يقول: (ولا تنازَعُوا فتَفْشلُوا وَتذهَبَ رِيحُكُمْ)، كما أشرت إلى هذا الموضوع في غير هذا المحلّ.

<u>أما الدِّين</u>؛ فهو على عزّته وظهُوره باق، ونوره مشرق في الأقطار، ولا تنقصه الأوزار، بل هو دين قيّم ظاهر عالٍ على الأديان، على مدى الأوقات والأزمان، ولو كره من كره، من أهل الطعن فيه وفي رسوله وكتابه، من أهل الطغيان[في]هذا الزمان. ويحقق هذا ويبيّنه للعيان، أن كل الأمم الكافرة، والمنابذة له والمنافرة، تعمل غاية مجهودها، وأقصى مقاومتها في القضاء عليه، ومحو اسمه من لوحة الوجود في هذه الغبراء، وهدّ أركانه من تحت هذه السماء؛ فتارة بالاجتماع، وتارة

بالافتراق، وطورا بسيوفها الماضية التي تهرق بها الدماء، وتارة بسمّ السياسة وبث حسن المعاملة والتقرب بالخدع التي تخدع بها عموم الدهماء.

[الحروب الصليبية
كان هدفها القضاء على الإسلام،فخيّب الله سعي الأعداء]

وفي قضية بيت المقدس، اتحدُوا للاستيلاء عليه وعلى ما جاوره من البلاد المقدسة، وعلى سائر بلاد الشرق، إذ استعدّوا لذلك بطرق لا يشكّ انهم سينتصرون[بها]، ويملكون بذلك أمصار الإسلام، ويجبرونهم على التعبد بالصلبان والأصنام، وجيشت لذلك الجيوش، التي كانت تهتز من كثرتها الأرض وتنشق منها الجبال؛ لأنهم قد اتخذوا في ذلك طريقا لحرب الإسلام، يجعل أن هذه الحرب إنما هي للدفاع عن عمدتهم وعمادهم، وهو الصليب الذي يعبدونه؛ فينحشر لهذه الحرب سائر من يعبد الصليب، ويكون التوجه إليه بقلبه وإخلاصه، وأن حربهم هذه ليست لمجرد التغلب وامتلاك البلاد، بل هي دينية؛ وكأنهم أرادوا أن يقلدوا في ذلك أهل الإسلام، لأن جهادهم كان لله، وبجعل كلمته[هي] العليا. واجتمع في هذه الحملة جميع الدول الفرنجية، أي دول أوربا العظيمة، كفرنسا وألمانيا وغيرهما.[وكانوا يعتقدون] أن النصر سيكون حليفهم، وأن الإسلام سينهدّ ويضمحلّ، والمسلمون سيُمحى من هذه البسيطة اسمهم.

فخيّب الله سعيهم، وفرّق شملهم، وقيّض الله لفلّ حدّهم، وحلّ عقدهم، البطل الشجاع، السلطان المطاع، الجامع بين الدين والدنيا، المجاهد في سبيل الله وجاعل كلمته العليا، صلاح الدين الأيوبي، القائد البطل الأسمى، الذي وافق اسمه المسمى؛ فقاوم هذا الجيش الجرار بجده واجتهاده، ولم يرعه بحدة سلاحه وكثرة أجناده، فاقتحم هذه العقبة الكؤود، وقاسى فيها الشدائد وتفانى في ذلك مع الجنود، حتى ارتاع الجمهور من كثرة الموتى والانكسارات السود.

ولكن البطل المقدام، لم تزلّ له في تلك المعارك الأقدام، ولو أنذروه ونبهوه إلى عاقبة هذه الحروب، وما يعاني منها جيشه من الإعدام والفناء، الذي لا فائدة له سوى سوء العاقبة، والصفقة الخاسرة، وندبه إلى إعمال المهادنة وعقد الصلح؛ فأبى هذا القائد العالي الهمة،[أن] ينثني عن قضاء المهمة، حتى يتم العمل كما أمّل. فكان كذلك، حتى استولى على مدائن وأقاليم، وملك ما يجاور القدس المعظم.

[فتح صلاح الدين للقدس، وتطهيرها، وتعميرها وبناء مسجدها]

ثم احتل بيت المقدس، بعد أن كان جانبه محصنا تحصينا بالنار والحديد، لا يبالي أهله بأي هاجم هاجمهم، ولو أطال الحصار عليهم الزمن المديد. ولكن صلاح الدين الذي جاء بجيش جرار، لا[يتردد] لبذل نفسه في سبيل الانتصار، ويقتحم تلك التحصينات بسلاح الالتجاء إلى الله الواحد القهار، واقتداء في صدق النية بالمهاجرين والأنصار.

ولهذا قال ابن الأثير في "كامله"، بعد أن وصف فتح هذا البيت الشريف، وما فعله فيه صلاح الدين من الإصلاح والتزيين، وهدّ آثار الصليب وإحياء معالم الدين، مما يطول وصفه، حتى قال:

" فعاد الإسلام هناك غضا طريا. قال: وهذه المكرمة، من فتح البيت المقدس، لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، غير صلاح الدين، رحمه الله، وكفاه ذلك فخرا وشرفا.هـ[250/11].

قلت: وقعة هذا الفتح المبين، سارت بها الركبان، وذرّت ذرُور الشمس في البلدان، منذ ذلك الزمان، وكتب في تفصيلها المتقدمون والمتأخرون من المؤرخين في كل أوان، على اختلاف موضوعاتهم من التواريخ العامة والخاصة بمشاهير الرجال.

ومما فعله صلاح الدين، بعد فتح البيت المقدس، وتم الاستيلاء عليه؛ [أنه] صار يمحو من أثر الكفر، ويعيد إليه أثر الإسلام، ويقيم فيه شعائره. فمن ذلك أمره بتطهير المسجد والصخرة من الأقذار والأنجاس. ولما كانت الجمعة الأخرى، رابع شعبان، صلى المسلمون فيه الجمعة، ومعهم صلاح الدين، وصلى في قبة الصخرة، وكان الخطيب والإمام، محيي الدين ابن الزكي، قاضي دمشق. ثم رتب فيه صلاح الدين خطيبا وإماما برسم الصلوات الخمس، وأمر أن يعمل له منبر؛ فقيل له: إن نور الدين محمودا،(الأمير الشهير بالشام، ابن زنكي، الذي كان سائرا على سيرة صلاح الدين)، كان قد عمل بحلب منبرا أمر الصناع بالمبالغة في تحسينه وإتقانه، وقال: هذا قد عملناه لينصب بالبيت المقدس. فعمله النجارون في عدة سنين، لم يُعمل في الإسلام مثله. فأمر بإحضاره من حلب، ونصب بالقدس. وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة، وكان هذا من كرامات نور الدين، وحسن مقاصده. قاله ابن الأثير[250/11].

وهكذا استمر صلاح الدين في الاعتناء بالبيت المقدس، وغيره من الأقطار التي احتلها وطهرها من الكفر، ساهرا على إحياء معالم الدين، وتطهيره من أرجاس الكفرة، لا يهتم بغير ذلك، كما تقتضيه ديانته ومعارفه، وإخلاصه لله ولرعيته، كما كان شأن الخلفاء الراشدين ومن سار بسيرهم.

ولهذا أجمع الناس على صلاحه، وقيامه بأمر الأمة. وتعددت فتوحاته وانتصاراته، بعد أن بذل نفسه وماله في سبيل رب العالمين، وقاسى شدائد تلك الحروب، دون سآمة ولا فرار، ولا استجار ولا ولى الأدبار، مع التواضع مع جيوشه، وعمله معهم، كأنه واحد من الجند في الدفاع، في الأعمال الشاقة وفي كل الأوضاع.

ومن ذلك أنه لما تم فتح البيت المقدس، وانتقل الفاتح لجهة أخرى من إيالته، رجع بعد ذلك للوقوف على رم ما وهى من الأبنية والحصون بسبب الحرب، واحتاج في ذلك إلى الأحجار التي تليق بتلك الأبنية، ونفذت الأحجار الملائمة في البلد، واضطر الحال إلى نقلها من خارج المدينة؛ وصار الجيش والعملة ينقلون ذلك من بعيد. فكان صلاح الدين، رحمه الله، يركب وينقل الحجارة بنفسه على دابته، من الأمكنة البعيدة، فيقتدي به العسكر. قلت: وهكذا يكون القيام بأمر الأمة.

[اقتداء صلاح الدين بسيد المرسلين
في عمله مع أصحابه في بناء المسجد، وحفر الخنق]

وما فعله هنا صلاح الدين ليس بدعا؛ فقد كان سيد العالمين بإطلاق، وإمام الرسل بلا شقاق، ينقل الأحجار والتراب كذلك عند بناء مسجده الشريف، تنشيطا لأصحابه واقتداء به. قال في "الروض الأنف"، عن الخطابي عن الشموس بنت النعمان، قالت: كان النبي، صلى الله عليه وسلم، حين بناء مسجد قباء يأتي بالحجر، قد صهره إلى بطنه، فيضعه؛ فيأتي الرجل يريد أن يقله، فلا يستطيع، حتى يأمره أن يدعه ويأخذ غيره. يقال: صهره وأصهره: إذا ألصقه بالشيء، ومنه اشتقاق الصهر في القرابة.هـ.[11/2].

وفي "سيرة" الحلبي، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، في عمل الخندق على المدينة، لما أحاط العدو بها، جريا على إشارة سلمان الفارسي أن الفرس كان[ذلك] من مكائدهم؛ إذ قال لرسول الله، صلى الله عليه وسلم: إنا كنا بأرض فارس، إذا تخوفنا الخيل، خندقنا علينا. فشرع، صلى الله عليه وسلم، في إعمال الخندق على المدينة. وبذلك سميت غزوة الخندق، قال الحلبي: فضرب على المدينة الخندق،

وأمرهم بالجد، ووعدهم النصر، إن هم صبروا. فعمل فيه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، مع المسلمين، أي وحمل التراب على ظهره الشريف".[341/2].

فصلاح الدين، رحمه الله، هو الرجل المسلم السني، الذي أعماله هذه تدل على أنه يتبع النبي، صلى الله عليه وسلم، حتى في أعماله العادية، رحمه الله.

[مناقب صلاح الدين
الجهادية والعلمية، واتباعه السنة المحمدية]

وصلاح الدين -[كما] اتفق أهل العلم من المؤرخين وغيرهم -لم يكن طالع سعد في فتوح الأقطار، وقائدا ممتازا في اقتحام الأخطار، عارفا بالطرق الحربية، بطلا شجاعا، لا يبالي برمي المجانيق وحديد السلاح ولو وقع عليه وقوع وابل الأخطار فقط؛ بل كان عالما فقيها محدثا، روى الحديث، ورُوي عنه، مع مسارعته إلى الخيرات، وصحيح الاعتقادات، وصدق الثبات.

ومجمع ما أشرت إليه، قول الإمام تاج الدين ابن السبكي، في ترجمته في "طبقات الشافعية"، بعد أن ذكر مولده ونشأته، ومن سمع منه الحديث من أكابر المحدثين، كالحافظ السلفي وغيره، قال:

وكان فقيها، يقال إنه كان يحفظ القرآن، والتنبيه في الفقه، والحماسة في الشعر. وملك البلاد، ودانت له العباد، وأحبه الخلق، ونصر الإسلام وهزم الفرنج وكسرهم مرات، وفتح المدن الكبار، وأقام في السلطنة أربعا وعشرين سنة، يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله. وكان ملكا عظيما، شجاعا مهيبا عادلا، يملأ العيون روعة، والقلوب محبته، قريبا بعيدا، عابدا قانتا لله، لا تأخذه لومة لائم. مجلسه يجمع الفضلاء والفقراء. وأصحابه كأنهم على قلب رجل واحد، محبة فيه واعتقادا وطواعية. قال: ولقد صنف في سيرته القاضي ابن شداد كتابا مستقلا، وابن واصل وآخرون. قال: التاج:

وما عسى الذي نعرفه، بعد ما كل هؤلاء اعترفوا بالقصور والتقصير في حق هذا السيد الكبير.هـ كلام التاج ببعض اختصار،[الطبقات:325/4].

وبالجملة؛ فهذا الرجل الفاتح، وصلاح الدين الصالح، قد شرق ذكره في الآفاق، وعلى جلالته وأعماله العظيمة في نصرة الإسلام من فضلاء الملة الاتفاق؛ فليكن لمن أتى بعده من ذوي الغيرة والهمة العالية[به]الاقتداء؛ وليكن في ذلك سلاحهم الماضي الائتلاف وترك الشقاق، ثم التعلق بمالك الملك الواحد القهار، القادر الذي هو فوق عباده، العليم الخلاق. ولا يصرفهم عن ذلك تقلب الذين كفروا في البلاد، ولا هذه الآلة التي اخترعوها عُدة في هذه الميادين الحربية، [ومواجهة ذلك] بالائتلاف والاتحاد، وبالأخوة الإسلامية التي يصير بها المسلم في كل الأقطار

والآفاق أخا للمسلم، ويكون الكل كالجسد الواحد إذ اشتكى منه عضو اشتكى سائر الجسد.

[التدمير الشامل في الحروب، لا يجوز في دين الإسلام المبنيّ على العدل والرحمة]

أما هذه الآلة الحربية التي ترمي بشرر نيرانها، ولها القوة على تهديم الديار، وتمحق من الأبنية الآثار، في أقرب من لمحة الأبصار، وتخرب البلدان في أقرب وقت، وتأتي على الأنفس الحية من الإنسان والحيوان، وتدمر كل شيء بسمومها ونيرانها الفتاكة؛ فإنه الآن لا قوة لهذه الأمم الإسلامية على مقاومتها.

وعليه؛ فيقال: إنها تسقط المقاومة والدفاع عنها، وما عليها إلا الانقياد وإلقاء السلاح. وهذا لا يصح أن يقال، بعد إمكان المقاومة؛ فنقول:

أولا: إن هذه السموم وهذه النيران، التي تعم الكبير والصغير، والذي يمكنه أن يشارك، والذي لا يمكنه من الصبيان، والعجزة والنساء، والحيوان غير الناطق من الدوابّ والأنعام، وغير ذلك، لأنها إذا رُمي بها لا تأتي على شيء إلا جعلته كالرميم؛ لا يجوز في الملة الإسلامية استعمالها في الحرب، لأنها تخرج عن دائرة المحاربة، وتعم الداخل في الحرب وغيره؛ ولأن هذه الديانة الغراء، والشريعة المُشفقة السمحاء، أصولها مبنية على الرحمة، والشفقة على الحيوان، فضلا عن البشر؛ إلا بالطريق المشروعة المعهودة في محلها.

وعليه؛ فمحاربة العدو، وطرق نكايته، محدود مذكور في باب الجهاد، من كتب الفقه؛ فمن الكتب المختصرة التي لا بد فيها من شرح، قول الشيخ خليل في "مختصره":

" وإلاَّ قوتلُوا وقُتِلُوا؛ إلاَّ المرأةَ؛ في مقاتلتها، والصبيِّ والمَعتُوه: كشيخ فانٍ، وزمِنٍ وأعمى، وراهبٍ منعزل بديْرٍ، أو صَوْمَعَةٍ، بلاَ رأي، وتُركَ لهُمُ الكفايةُ فقط". ثم ذكر ما يقاتلون به، فقال: " بقطع ماءٍ وآلةٍ وبنَار؛ إن لم يُمكن غيرها". ثم قال: " وحَرُم نبل سُمٍّ".

وفي "البداية" لابن رشد:

وأما النِّكاية التي تكون في النفوس؛ فهي القتل. ولا خلاف بين المسلمين أنه يجوز في الحرب قتل المشركين الذكْران من البالغين المقاتلين. قال: وكذلك لا خلاف بينهم في أنه لا يجوز قتل صبيانهم، ولا قتل نسائهم، ما لم تقاتل المرأة والصبي؛ فإذا قاتلت المرأة، استبيح دمها. ثم ذكر ما ثبت عن النبي، صلى الله عليه وسلم، في ذلك. قال ابن رشد:

واختلفوا في أهل الصوامع المُنتزعين عن الناس، والعميان والزمنى، والشيوخ الذين لا يقاتلون، والمعتوه والحراث والعسيف. قال مالك:

لا يقتل الأعمى ولا المعتوه، ولا أصحاب الصوامع. ويترك لهم من أموالهم بقدر ما يعيشون به. وكذلك لا يقتل الشيخ الفاني عنده. وبه قال أبو حنيفة وأصحابه.[1-310].

ثم استمر بذكر ما في ذلك من الأقوال، مع ذكره أن المثلة لا تجوز، وهو القتل الخارج عن المعتاد، ولم يذكر في ذلك خلافا.

وأما السلاح الذي يستعمل في القتال والحرب، فقال ابن رشد في "البداية" أيضا:

واتفق المسلمون على جواز قتلهم بالسلاح، واختلفوا في تحرقيهم بالنار؛ فكره قوم تحرقيهم بالنار ورميهم بها، وهو قول عمر، وروي عن مالك. وأجاز ذلك سفيان الثوري. وقال بعضهم: إن ابتدأ العدو ذلك؛ جاز، وإلا فلا.

ثم قال: واتفق عوام الفقهاء على جواز رمي الحصون بالمجانيق، سواء كان فيها نساء وذرية، أو لم يكن، لما جاء أن النبي، عليه الصلاة والسلام: نصب المنجنيق على أهل الطائف.[1-311].

انظر تمام ذكر ما تقع به النِّكاية في الحرب في أمتعتهم وأموالهم؛ من المباني والحيوان، والأشجار والثمار وغيرها. وانظر شرح ما قدمناه في نصوص الشيخ خليل.

وبذلك تعلم النظام العادل في الحرب والقتال، ويتبين لك أن هذا التحفظ،[القصد منه] عدم استعمال ما يُؤْذي الداخل والخارج فيها، وعدم قتل من ليس له يد في القتال، ولا قدرة له من النساء والشيوخ والصبيان، والعُمي والحمقى، ونحو ذلك.

[أصحاب الحروب العدوانية المعاصرة وادعائهم السعي في إسعاد البشر]

كما أن هذه الآلة المدمرة،[تشمل] حتى الخارج عن دائرة المحاربة، والذين هم بمعزل عنها؛ إذ اخترع أهل هذا العصر من المدمرات التي تنسف البلدان والبقاع نسفا، فتذرها قاعا صفصفا في لحظة واحدة. مع أنهم يزعمون أنهم يرأفون حتى بالحيوان، وأنهم يَرقُّونَ للضعيف، ويبُثُّون الحضارة والترقي بين هذا البشر، وأنهم مصلحون، منظمون لهذه الدنيا، ويُرقون أهلها، ويسعون بهم إلى الراحة والهناء!.

كلاَّ؛ والله ما هُم إلا معتدُون، يسعون مجدِّين في إهلاك هذا العالم بأسره. ولكنهم والله ممّن يجري على حتفه بيده، ويحد سيفه ليقطع عنقه بحده؛ هذا والله هو الجنون، والجنون فنون.

[غفلة أهل الإسلام، وعدم استعمالهم لعقولهم باتخاذ أسباب القوة، اقتداء بهدي نبيهم]

ثم نرجع لمُهم موضوعنا، فنقول: إن أهل الإسلام الموجودين على ظهر هذه الغبراء، وإن كان لهم عينٌ فهم لا يبصرون بها، وآذان[فهم] لا يسمعون بها، وأيد،[فهم] لا يعملون بها شيئا إلا شرب الشاي، ومصّ الدخان ونحو ذلك. كما أن أعينهم، يرون بها هذه المخترعات ويعجبون منها، وأن آذانهم يسمعون بها هذه الأغاني من الآلة الجامدة، والصور المتحركة، ويبذلون فيها أموالهم، ويصرفون فيها نفيس أوقاتهم، ويرون الطائرات في جو السماء ويركبون فيها، ويشاهدون ما تلقيه ـ عند محاربتهم ـ من المدمرات؛ ولا يفكرون في ذلك، وأنه كله لمحاربتهم: إما في النفوس والأموال، وإما في صرفهم عن عقائدهم الإسلامية، وإدماجهم في كفرهم وملتهم،(وَلَنْ تَرْضَى عَنكَ اليَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُم).
أفلا ينظرون في المخرج من هذه المكائد؟ ويفكرون في ماذا يقابلون به هذه الصواعق، وينظرون إلى الحال في المآل، ولماذا يصرون[على]هذه الغفلة والإهمال، واشتغالهم في مجالس اللهو واللغو بقيل وقال! بل عليهم أن يستحضروا عقولهم ـ إن كان لهم عقول باقية ـ وينظرون في تاريخ ما كان عليه الصدر الأول، ويتخذون سيرتهم ونظامهم، في دولهم وخلافتهم، إسوة عليها المعوَّل.

[سيرة سيد المرسلين في الاستعداد لمواجهة الأعداء حسب وسائل ذلك العصر]

وأكبر سيرة يجب عليهم التمسك بها؛ سيرة سيد الأولين والآخرين،[الذي كان] في جانبه جبريل وميكائيل والملائكة أجمعين، ولينظروا ما كان يفعله في محاربة الأعداء من الاستعداد، على حسب المعتاد في العدة في كل وقت وفي كل حين، بحسب ما يقتضيه الزمان، ويمتثلوا قوله تعالى: (وأعِدّوا لهُمْ مَا اسْتطعْتُم مِن قوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ، تُرْهِبُونَ بِهِ عَدو الله وَعدُوَكُم).[الأنفال: 60].

فكان النبي، صلى الله عليه وسلم، يعمل بذلك عمل واحد من البشر، بل كان يجاهد بنفسه، ويخدم مع أصحابه في التحصينات الحربية، ويقلد فيها حتى ما كان يتخذه في ذلك المخالفون للدِّين والجنس؛ كما قبل إشارة سلمان الفارسي لما أحاط الأعداء به، عليه السلام، في المدينة، وذلك كما في "طبقات" ابن سعد، أنه لما بلغ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فصول الأعداء من مكة، ندب الناس وأخبرهم بسير عدوهم، وشاورهم في أمرهم؛ فأشار عليه سلمان الفارسي بالخندق، فأعجب ذلك المسلمين، وعسكر بهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى سفح سلع، وجعل سلعا خلف ظهره، وكان المسلمون يومئذ ثلاثة آلاف. قال:

" ثم خندَقَ على المدينة، وجعل المسلمون يعملون مستعجلين، يبادرونَ قدوم عدوّهم عليهم. وعمل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، معهم بيده ليُنشّط المسلمين، ووكّل بكلِّ جانب منه قومًا". قال ابن سعد: "وكان سائر المدينة مشبّكًا بالبنيان، فهي كالحصن".هـ[66/2].

فانظر إلى هذا الاستعداد العادي؛ لم يعتمد، عليه الصلاة والسلام، فيه على خرق العوائد؛ بل صار إلى التحصين العادي، الذي كانت أرقى الأمم تتخذه في ذلك. ونظم، صلى الله عليه وسلم، كيفية العمل وتقسيم الأعمال، حتى يتم العمل في أقرب وقت. ولذلك فرغوا من هذا العمل بعد ستة أيام.

وكل هذا يبين لهذه الأمة كيف يقاتلون عدوهم، ويتبعون في ذلك عوائد البشر، والاتفاق والاتحاد، وتوزيع أعمال الدفاع بينهم، لا فرق بين جليل القدر وحقيره. وهو، صلى الله عليه وسلم، وهو أفضل الخلق وأعظمهم منزلة عند الله، صار يباشر العمل بيده معهم. وهكذا سيرته، صلى الله عليه وسلم، في سائر مهمات الإسلام، في الحروب كلها، وفي كل ما يقمع أعداء الإسلام، والمشاركةِ في الحروب كلها بنفسه وبرأيه، حتى تم الدين وكمل، وجاء النصر من عند الله، وصار الناس يدخلون في الدين أفواجا، وطلع دين الإسلام في الآفاق سراجا وهاجا.

وهكذا شأن الخلفاء الراشدين، حتى فتحوا الأقطار، ومصروا الأمصار، واتبعهم من اتبعهم في سيرتهم، ففازوا بالانتصار، وخالفهم من خلفهم، فوقعوا في هذا الانكسار والاندحار.

فنصروا الله في حقوقه؛ فنصرهم في مواقفهم، وثبّت أقدامهم في حروبهم؛ فهَابتهُم أعداؤهم، وخافتهم كل أمة تناوئهم وتود هلاكهم،(إنْ تنْصُرُوا اللهَ ينْصُركُم ويُثبِّت أقدَامَكُم).[محمد:7].

وهذا الذي سطرناه في هذه الورقات، يعرفه ويعلمه كل ذي فهم ثاقب من المسلمين في الماضي والحال.

ولكن أين الجد والاجتهاد في اتباع الأعمال، دون قيل وقال. وما أتيْتُ بهذا إلا قصد البكاء والاستبكاء، لما نرى من تراكم سحب الضلال، وزيادة سوء هذه الأحوال. وما يروم إليه المتأمل في العواقب الآن هُو من قبيل قضايا المحال، فنحن ننشد قول الشاعر:

فإن يمنعُوا ليلى، وطيبَ وصالِها   فلن يمنعُوا عنيّ البُكا والقوافيا

ولكن الرجاء في الله لا ينفصل، وتعلقنا في حبل الله واعتصامنا به، وتمسكنا بقوته، ما دمنا، متصل.

وهذه الجملة، إنما هي للتنبيه على أن المقاومة لأهل هذا العصر، الذين اخترعوا هذا السلاح الجديد، من المدمرات والمحرقات، بل والسموم التي هي لهذا العالم بأسره مهلكات؛ لا بُدَّ منها، وإعمال المجهود في مماثلتهم فيها؛ إذ تلك أمور كلها من خواص الأرض مصنوعة، ومن تتبع آثارها مخترعة؛ وما قام بتتبعها إلا إنس مثلنا.

وقد ذكر العلماء، أهل الشريعة، أن استعمال مثل هذه المُهلكات من التحريق والقتل بالسموم، وإيذاء البرئ المعتزل عن المعترك؛ لا يجوز، [ولا تجوز] إذايته بهذا العذاب.

ولكن قيدوا ذلك بما إذا أمكنت لنا المقاتلة بغير ذلك، وبما إذا لم يبدأ العدو بها؛ وإلا فنحن نعاقبهم بما عاقبونا به، وإلا آل أمرنا إلى الهلاك العامّ.

وقدمنا لك الموافقة عن النبي، صلى الله عليه وسلم، فيما كان يقلد به غيره من أهل الكفر في استعمال مكائد الحرب وآلاتها، وهكذا كانت سيرة السلف الصالح. وليعتبر المعتبر بقوله تعالى: (وأعِدّوا لَهُمْ مَا اسْتطعتُم مِن قوَّةٍ)(*)، في هذه الصيغة العامة. وإني[إن] لم أكن أجد في كتب "التفسير"، من أهل القرون التي قبل هذا القرن الرابع عشر، من تعرض لهذا التعميم؛ فالعذر لهم أن هذه الاختراعات لم تكن موجودة، ولا تستعمل في القتال.

(*) [الآية. الأنفال:60].

وما تبدل الحال، وظهرت هذه الأمور الغريبة، إلا في هذا القرن الرابع عشر الهجري، والقرن العشرين المسيحي؛ بل كان ظهر قبل ذلك استعمال تلك المواد الملتهبة من النار، وظهر استعماله في الآلة المعدة لذلك، والترامي بقطع الرصاص، أي بنادق الرصاص.

[اختراع المدافع، واستعمالها في الحرب بين المغرب وإسبانيا، وبين الجزائر وفرنسا]

ثم ترقوا بذلك إلى اختراع آلة كبيرة حديدية أو نحاسية، تجعل فيها كورة كبيرة للمحاربة، ولإيداعها ونصبها في الأبراج والحصون، لدفع العدو الغاشم. وكانت أولا ترمي [بها كما هي]، ثم عولجت حتى صارت، إذا وقعت، تنفجر بالنيران، وعليه أدركنا الحال.

وبهذه الآلة النارية، كانت الحرب الأخيرة بين إسبانيا والمغرب، عام سبعين بعد المائتين والألف؛ فكان السلاح متقاربا، إذ كان لجيش المغرب عدة بذلك؛ لكن كانت عدة إسبانيا أرقى من عدة المغرب. ونحو ذلك كانت بها حرب الجزائر مع فرنسا؛ إلا أن الغلبة كانت لإسبانيا وفرنسا، بسبب الجيش النظامي، والاستعداد التام. والله غالب على أمره.

[مادة البارود، وحدوثه واستعماله في الحروب، وفي الصيد]

وقد ذكر في "دائرة" وجدي، البارُود ومواد تركيبه، وقال: هذا المخلوط كان معروفا في الصين من عهد بعيد جدًا، وفي غيرها من الممالك. ولكن لم يُستعمل في قذف المقذوفات إلى مسافات بعيدة، إلاّ حوالى القرن الرابع عشر. ولم يُعلم إلى الآن مكتشف ذلك. وقد زعم بعضهم أن الصين عرفت ذلك قبل غيرها بعدة مئات من السنين. وادّعى آخرون أن العرب هم أول من استعمله في الحرب، وقيل غير ذلك.هـ[18/2].

وذكره الشيخ داوُود في "التذكرة"، في المفردات الطبية، وذكر تركيبه، وأطال في خواصه؛ ولكن كلامه في ذلك غير مفيد.

وذكر الفقهاء في (باب الصيد)، هل يؤكل بصيد هذه الآلة التي تسمى عندنا بـ "المكُحْلة"، التي يجعل فيها الصائد بارودا، ويقتل بها الصيد؛ فأفتى العلماء المتأخرون من أهل فاس، وفي مقدمتهم شيخ الإسلام، وإمام الأئمة الأعلام، سيدي

عبد القادر الفاسي، بجواز أكل ما صيد بهذه البنادق. وقال ولده في "نظم العمل"، في قوله:

وما ببندق الرصاص صيدا   جوازُ أكله قد استفيدا
أفتى به والدُنا الأوّاهْ   وانعقد الإجماعُ من فتواهْ

وذكر في "الشرح" أن البارُود استخرجه حكيم كان يستعمل الكيمياء، ففرقع له فأعاده فأعجبه؛ فاستخرج منه هذا البارُود، وذلك في المائة الثامنة.هـ باختصار.[شرح العمل للرباطي:325/2].

* * *

[مواصلة الكلام في شأن إعداد القوة]

وهنا نرجع إلى ما تفيده الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: (وأعِدّوا لهُم مّا اسْتطعتُم مِّن قوّةٍ)،[الأنفال:60]، وهل تفيد هذه القوة سلاحا خاصا يمكن الدفاع به، ويكون مقاوما لسلاح العدو؟. اختلف فيه المفسرون على ثلاثة أقوال:

ففي "تفسير" الفخر: والمراد بالقوة هاهنا، ما يكون سببا لحصول القوة، وذكروا فيه وجوها:

الأول: المراد من القوة أنواع الأسلحة.

الثاني: إن القوة[هي الرمي]، وفيه الحديث على المنبر، إذ قال، عليه السلام: "ألا إنّ القوة الرمي"، قالها ثلاثا.

الثالث: قال بعضهم: القوة هي الحصون.

الرابع: قال أصحاب المعاني: الأولى أن يقال: هذا عام في كل ما يتقوى به على حرب العدو، وكل ما هو آلة للغزو والجهاد. قال: وقوله، عليه السلام: "القوة هي الرمي"، لا ينفي كون غير الرمي معتبرًا.

أخذ الفخر من الآية: أن الاستعداد للجهاد بالنبل والسلاح ، وتعليم الفروسية والرمي؛ فريضة، إلا أنه من فروض الكفايات.هـ[مفاتيح الغيب:381/4].

واقتصر الشربيني على الأقوال الثلاثة، وختم بالثالث، فقال: والثالث أنها جميع الأسلحة والآلات التي تكون لكم قوة في الحرب على قتال عدوكم.هـ[السراج المنير:555/1].

قلت: وهذا القول هو المرويّ عن ترجمان القرآن، سيدنا عبد الله بن عباس، إذ فسر القوة بأنواع الأسلحة، فيكون ذلك بحسب الأزمنة والأمكنة؛ فإن السلاح يتنوع حسب الأوقات والأعصار. وانظر سلاح هذا القرن الرابع عشر، وتنوعه، وهل يمكن أن يقاومه النبل والرمح ونحو ذلك!.

ومن يحارب بمثل هذا، ويجعله قوة يقاتل بها هذه الصواعق المحرقة، والآلات المدمرة، التي إذا أتت على ناحية أو مدينة أو مصر، مزقته كل ممزق؛ يُعد في العصر الحاضر من أهل البله، والفاقدَ للعقل.

فعلى أهل الإسلام أن يستعدوا للدفع عن الإسلام وعن أنفسهم، بالقوة التي جاء بها العصر، وليس هنا في اتخاذ هذه الآلة مانع شرعي، بل هو مقتضى ما دل عليه عموم الآية وتفسير المفسرين، وفي مقدمتهم ترجمان القرآن، سيدنا عبد الله بن عباس، بأنواع الأسلحة، كما قاله عنه في "روح المعاني".

ثم ما قلناه من وجوب مجاراة أهل هذا العصر، في الاستعداد بهذه القوة الجديدة، بدون زيادة على ما يقتضيه عموم هذه الآية، فإنه أيضا من قبيل ما لا يحصل الواجب من الجهاد والدفاع عن بيضة الإسلام إلا بالقوة.

والقوة اليوم؛ هو هذا السلاح الجوي، من الطائرات، وهذه الصواعق المحرقة والقنابل المفرقعة؛ وما يتوقف عليه الواجب، فهو واجب.

[اعتبار المصالح المرسلة، في مسألة القوة، وهي من أصول مذهب الإمام مالك]

كما أن المصلحة العامة، والقياس المرسل، يوجب ذلك على الأمة؛ وهو، أي المصلحة العامة والقياس المرسل، أصل من أصول مذهب مالك، رضي الله عنه، وتبنى عليه الأحكام على الإطلاق، كما قاله الشاطبي في "الاعتصام"، وبين معناه بيانا شافيا يؤيد ما ذهب إليه مالك، والرد على من خالفه فيها، وذلك ما اشترطه في اعتباره هنا واضح، لأنهم اعتبروا في العمل بها[أي المصالح المرسلة] أمورا؛ منها، كما في "الاعتصام":

أحدها: الملاءمة لمقاصد الشرع، بحيث لا تنافي أصلا من أصوله، ولا دليلا من دلائله.

والثاني: إن عامة النظر فيها إنما هو فيما عقل منها، وجرى على ذوق المناسبات المعقولة، التي إذا عرضت على العقول، تلقتها بالقبول، بلا مدخل لها في التعبّدات، ولا ما جرى مجراها من الأمور الشرعية. هـ[307/2].

وانظر الكلام في المصالح المرسلة، في كتابنا "الأبحاث السامية"، فقد بسطنا ما فيها من الأقوال، وحققنا فيها مذهب مالك، وأن المذاهب التي أنكرتها على مالك ـ من أنكرها من تلك المذاهب ـ أنكرتها، وعملت بها أكثر مما عملت به المالكية؛ فانظره، فإنك ما أظنك أن تجده مجموعا كذلك في كتاب. والعلم كله لله، جل وعلا.

ثم إن هذه الأسلحة الحديثة المُبيدة، إنما كان حدوثها أواسط هذا القرن الرابع عشر، ولم يتكلم على حكمها أهل "التفسير" من المتقدمين، ولا الفقهاء كذلك، وما ظهرت أوائل أدواتها، فيما يظهر، إلا بعد المائة العاشرة من الهجرة، أو نحو ذلك.

ولما كانت شائعة في عصر العلامة الألوسي، صاحب التفسير، المسمى "روح المعاني"، ذكر جملة يسيرة في حكم استعمالها في الحروب عند المسلمين، فقال في تفسير قوله تعالى: (وأعدّوا لهُم مَا استَطعتُمْ)، بعد ما نقل ما قاله المفسرون في ذلك، ما لفظه:

" وأنت تعلم أن الرمي بالنبل اليوم لا يصيب هدف القصد من العدو، لأنهم استعملوا الرمي بالبندق والمدافع، ولا يكاد ينفع معهما نبل. وإذا لم يقابلوا بالمثل، عم الداء العضال، واشتد الوبال والنكال، وملك البسيطة أهل الكفر والضلال. فالذي أراه، والعلم عند الله تعالى، تعيّن تلك المقابلة من أئمة المسلمين وحماة الدين. ولعل فضل ذلك الرمي، يثبت لهذا الرامي، لقيامه مقامه في الذبّ عن بيضة الإسلام. ولا أرى ما فيه من النار، للضرورة الداعية إليه، إلا سببا للفوز بالجنة، إن شاء الله. ولا يبعد دخول مثل هذا الرمي في عموم قوله سبحانه: (وأعِدّوا لهُم مَا استَطعتُم)". هـ[23/10].

قلت: وما قاله العلامة الألوسي، قد بسطناه سابقا بأدلته. ثم هذا قد يقوله، وهو في أواخر القرن الثالث عشر، فكيف لو رأى ما أحدثوه أثناء قرننا هذا، وهو الرابع عشر، مما يدهش العقول، ولا يبقي للحكم بوجوب الجد والاجتهاد في صنع ما يماثل آلاتهم، لقائل ما يقول.

[الرجوع إلى مسألة الأسلحة السامّة والمُحرقة، والمخاطرة بالنفس في الحرب]

أما ما يرد من كون هذه الآلة كلها راجعة إلى التحريق بالنار، والآلات ذات الالتهاب والانفجار، الممزوجة بالسموم، التي تعم في إطلاقها الداخل في الحرب والخارج عنها، بإصابته بالأخطار؛ فكل ذلك قد بيّنا حكمه من نصوص الفقهاء الأجلة الأخيار، من أنه إن بدأ العدو بإعمال هذه المواد المحرقة المسمومة؛ فنحن نقابلهم بمثلها، حسبما تقدم تفصيله.

أما ما يرجع لاستعمال الطائرات والصواريخ، من المخاطرة بالنفس، وهو لا يجوز في الجملة؟ فالجواب عنه أن المخاطرة بالنفس، إن كانت في إعزاز الدين، فهي مشروعة. قال الإمام عز الدين بن عبد السلام، المعروف بسلطان العلماء:

" والمخاطرة بالنفوس مشروعة في إعزاز الدّين، ولذلك يجوز للبطل من المسلمين، أن ينغمر في صفوف المشركين". قال:

" ومن قال بأن التغرير بالنفوس لا يجوز، فقد بَعُد عن الحق، ونأى عن الصواب. وعلى الجملة فمن آثر الله على نفسه آثره الله، ومن طلب رضى الله بما يُسخط الناس، رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن طلب رضى الناس بما يُسخط الله، سخط الله عليه، وأسخط عليه الناس. وفي رضى الله كفاية عن رضى كل أحد". هـ[طبقات الشافعية:91/5].

وعلى كل وجه؛ فإن الطائرات اليوم لمحاربة العدو، هي من قبيل السلاح، ولا بد منها، كما هو ظاهر؛ فيجب على الأمة إنشاؤها أو اشتراؤها، والتمرّن عليها، والعمل بها؛ ولا سيما قد ظهر في أهل الإسلام، في المغرب وغيره، تفوق في الطيران بها في جو السماء؛ فعلى الدول الإسلامية أن تجعلها في سلاحها، وتعلم صناعتها.

والله الموفق والمرشد لهذه الأمة الضعيفة الآن، ويزيل ضعفها الذي نشأ عن تفريطها، وعدم استعدادها، وعدم استحضارها لما يأمر به القرآن، ويرشد إليه ما كان عليه رسول الأمة ومرشدها، في حروبه وغزواته.

* * *

[الرجوع إلى أصل هذا المبحث، وهو قوله تعالى:(هُوَالذِي أرْسَلَ رَسُولهُ بِالهُدَى)إلخ]

ثم لنرجع إلى تحصيل هذه الأبحاث التي جرنا إليها الكلام على الآية التي افتتحنا بها هذا المجلد، وهي قوله تعالى: (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق لظهره على الدين كله) الآية(*)، وما وقع في خاطر الإمام أبي العباس ابن مبارك، حتى سأل عنه شيخه العارف بالله، سيدي عبد العزيز الدباغ إلخ.

وحاصل ما هنا، أن النظر إلى هذه الأمور المشاهدة، التي عليها هذه الأمم الإسلامية، شرقا وغربا، من الانحلال والضعف، وإهمال غالبهم أمر الديانة، وانقيادهم الآن لسطوة أهل الكفر، واقتدائهم بهم في عوائدهم، من أزيائهم واشتغالهم بالباطل من أعمالهم؛ لا في جدهم واجتهادهم في حفظ أقطارهم وأمصارهم، واستعدادهم لما يُتوقع ممّن يعاديهم.[كذا].

ثم إننا تركنا كل ما أمرنا[به]شرعنا، وأفصح به لنا كتابنا، الذي هو كلام ربنا؛ فصرنا طعمة ومائدة، تداعت على أكلنا دول الكفر المختلفة، فأكلتنا أكلا لمّاً، ومكرت بنا مكرا عاما،[كما]هو مقتضى الحديث الذي رواه ثوبان عن النبي، صلى الله عليه وسلم، وهو الصادق المصدوق؛ بأنه سيكون بفقد العلماء، لأن بفقدهم يضعف الإسلام، ويصير غريبا.

(*) التوبة:33

وكان الداعي لجلب هذا المبحث، هو ترجمتنا هذه، وهي ترجمة شيخنا العلامة سيدي عبد السلام بناني، لما ذكرت موته*،[و]أن موت هذا الشيخ الجليل، الذي كان ركنا من أركان الدين، وعُمدة من عُمَد الشريعة الغراء؛ كان منذرا بانهيار قواعد ذلك المعهد العالي لجامع القرويين، الذي ورث المعاهد العليا التي كانت منبعا للعلوم الإسلامية بقرطبة الغراء، وبالقيروان الزهراء، ومنها يتخرج أعلام المغرب ونواحيه؛ فصار، بعد سقوطها، هذا الجامع الفاسي قبلة لطلبة المغرب الذين يرغبون في التعليم العالي، والحصول على مرتبة العلوم، حتى كان الطالب لا يُعطى اسم عالم، حتى يدرس بهذا المعهد، كما كان معروفا.

ولما مات شيخنا بناني، تلته أمثاله من أقطاب أهل العلم، الذين كانوا بدورًا طالعة في سماء هذا المعهد العالي، وهم كانوا أشياخنا، ومنهم أخذنا ما أخذنا، واستفدنا منهم من العلوم والمعارف، وعليهم قرأنا. ولم يبق بعد هؤلاء الأعلام إلا القل القليل، الذين رُموا بالتضليل، وصارت علومهم عند القوم خالية من الفائدة، وأنها مجرد قال وقيل، وخبت أنوار المعارف بخسوف هذه البـدور الساطعة أنوارها في قلوب من يريد العلم.

واستمر الحال في انحطاط وانحلال، وتغلب أهل الباطل على أهل الحق، وترويج قضايا الإلحاد والضلال، كما سبق معنى هذا في تفسير حديث النبي، خاتم النبيئين والأرسال، بأن ذهاب العلم يكون بموت العلماء، فإذا لم يبق عالم يجري الحق مجراه، ويهدي إلى الحق بصريح فتواه؛[ضلّ]الناس، وساد الجهال، فأفتوا، فضلوا وأضلوا. وبين ذلك سيدنا عبد الله بن مسعود، وقال: إن هؤلاء الجهال هم الذي يثلمون الدين ويغيرونه. كما هو مشاهد في زماننا.

[الاقتداء بالرسول في بالرأفة بالناس وعدم التضجر من سوء حالهم]

ولكن، لا بد أن نرجع إلى قول رسول الله، صلى الله عليه وسلم، مرشدا إلى عدم التضجر من سوء حال الناس، والنظر إليهم بعين الرحمة والرأفة، كما هو وصفه، صلى الله عليه وسلم، الذي وصفه به الباري، جل وعلا: (بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ)؛ ولا ينظر إليهم، إذا رآهم خرجوا عن الصراط المستقيم، بعين السخط وإظهار الإياس من الرجوع إلى الحق؛ فقال، عليه الصلاة والسلام، فيما رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة: "إذا قال الرجل: هلك الناس، فهو أهلكهم"، روي بفتح الكاف ورفعها. وهذا، كما قال الأبّي، سياقه يدل على ذم قائل ذلك. وقال المازري: وذلك إذا قاله

(*) ابتدأ المؤلف ترجمة هذا الشيخ في الجزء السادس ص 334.

احتقارا للناس، وإعجابا بنفسه. وأما قوله ذلك تفجعا على ذهاب الصالحين، ونقصهم عمن مضى من الأولين؛ فليس من ذلك، لأن الأول عنوان الكِبْر، والثاني عنوان الإشفاق وتعظيم السلف، والتقصير بالنفس.هـ من"شرح مسلم"[61/7].

وبكل حال؛ فالتأسف والفجع من هذه الأحوال التي أحاطت بنا في هذا العصر، فهو من محض الإيمان والإشفاق على عباد الله مما أصابهم؛ ولكن مع عدم [تيئيس]الناس من رحمةَ الله تعالى، والدعاء لهم ولنا بالهداية والتوفيق، والرجوع إلى الطريق المستقيم، إذ لا ييأس من رَوْح الله إلا القوم الكافرون.

[كلام الإمام الشاطبي في غربة الإسلام، وتفسيرالحديث الشريف:"بدأ الدين غريبا"إلخ]

ثم الخلاصة، بعد هذا كله، أن لدين هذه الأمة الإسلامية: أولا، ووسطا، وآخرا. أما أوله، فكان غريبا، وآخره كذلك، ووسطه تارة وتارة. وهو مفاد الحديث الذي رواه مسلم وابن ماجه، عن أبي هريرة، وأنس وابن عمر، بألفاظ مختلفة، ولفظ مسلم، حسبما في "التمييز": "بدأ الدين غريبا وسيعود غريبا؛ فطوبى للغرباء". رواه مسلم في "صحيحه" عن أبي هريرة مرفوعا.

وفي "الاعتصام" للشاطبي، الذي تصدى لشرح الحديث؛ فأفاد وأجاد بما لفظه: " بُدئ الإسلام غريبا، وسيعود غريبا كما بُدئ، فطُوبى للغرباء". قيل: ومن الغرباء، يا رسول الله؟ قال: "الذين يصلحون عند فساد الناس". وفي رواية قيل: ومن الغرباء؟ قال: "النزوع من القبائل". وهذا مجمل، ولكنه مبين في الرواية الأخرى.[1-3].

ثم أتى الإمام الشاطبي بروايات أخر عن الطبراني والترمذي، وأبي نصر في "الإبانة" والإمام أحمد. وكل الروايات مآلها إلى الحديث الأول. ثم قال أبو إسحاق:

وجملة المعنى فيه من جهة وصف الغربة، ما ظهر بالعيان والمشاهدة في أول الإسلام وآخره، وذلك أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بعثه الله تعالى على حين فترة من الرسل، وفي جاهلية جهلاء، لا تعرف من الحق رسما، ولا تقيم به في مقاطع الحقوق حكما؛ بل كانت تنتحل ما وجدت عليه آباءها، وما استحسنته أسلافها من الآراء المنحرفة، والنحل المخترعة، والمذاهب المبتدعة. فحين قام فيهم، صلى الله عليه وسلم، بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله باذنه وسراجا منيرا؛ فسرعان ما عارضوا معروفه بالنكر، وغيرُوا في وجه صوابه بالإفك، ونسبوا إليه، إذ خالفهم في الشرعة، ونابذهم في النحلة، كل محال، ورموه بأنواع البهتان؛ فتارة يرمونه بالكذب، وهو الصادق المصدوق، الذي لم يجربوا عليه قط خبرا بخلاف مخبره. وآونة يتهمونه بالسحر، وفي علمهم أنه لم يكن من أهله ولا ممن يدعيه. وكرة

يقولون إنه مجنون، مع تحققهم بكمال عقله، وبراءته من مس الشيطان وخبله. وإذا دعاهم إلى عبادة المعبود بحق، وحده لا شريك له؛ قالوا: (أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِدًا. إِنَّ هَذَا لَشَيءٌ عُجَابٌ)[1].[الاعتصام:1-5].

ثم صار، رحمه الله، يسرد ما وقع له مع هؤلاء القوم الذين وصفهم الله بأنهم قوم ذوو مجادلة، ولَدَدٍ ومعارضة، [وأنهم] اجتهدوا جهدهم في رد حقه، صلى الله عليه وسلم، الذي دعاهم إليه، بالباطل،[و]رجعوا إلى أنهم في ذلك الاحتجاج، الذي مرجعه الاستحسان العقلي، كأنهم مخطئون في ذلك، وأن مستندهم في تلك الأباطيل التي هم بها متمسكون، إنما هو التقليد المحض، وهو غير مفيد.

ثم صار الشاطبي يذكر ما وقع لسيدنا إبراهيم، عليه السلام، من ردود قومه، لما سألهم عما يعبدون؛ فـ (قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلّ لَهَا عَاكِفِينَ، قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ، أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرّونَ، قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ)[الشعراء:74/71].

ثم صار يذكر ما وقع لسيدنا إبراهيم، عليه السلام، من المحاجّات مع قومه، حتى آلت[بهم] إلى العجز عن الجواب الصحيح عما سألهم عليه، وإلى التمسك بالتقليد.

ثم ذكر الإمام الشاطبي شأن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، مع القوم اللّدّ، إذ أنكرُوا ما توقعوا معه زوال ما بأيديهم، لأنه خرج عن معتادهم، إذ عجزوا عن معارضته بتلك الأقوال السخيفة، حتى أرادوا أن يستنزلوه على وجه السياسة في زعمهم، ليوقعوا بينهم وبينه المؤالفة والموافقة، ولو في بعض الأوقات، أو على بعض الوجوه، ويقتنعوا منه بذلك، ليقف لهم بتلك الموافقة واهي بنائهم؛ فأبى، عليه السلام،إلا الثبوت على محض الحق، والمحافظة على خالص الصواب، وأنزل الله: (قُل يَا أَيّهَا الكَافِرُونَ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)إلخ السورة؛ فنصبوا له عند ذلك حرب العداوة، ورموه بسهام القطيعة، وصار أهل السلم كلهم حربا عليه، وعاد الوليّ الحميم، عليه كالعذاب الأليم؛ فأقربهم إليه نسبًا كان أبعد الناس عن موالاته، كأبي جهل وغيره.

قال الشاطبي: فأي غربة توازي هذه الغربة ؟!.[1-7].

[الهدي النبوي في الدعوة إلى الله، وحال المسلمين أول الإسلام، وغلبة الكفار]

ثم ذكر، أي الشاطبي، ما كانت عليه سيرته، صلى الله عليه وسلم، في استمراره في إبلاغهم دعوة ربه باللطف واللين، على وجه من الحكمة عجيب، وهو التأليف بين أحكام الشريعة الغراء، وبين أكابرهم في أصل الدين الأول من الأنبياء

(1) سورة ص، الآية:5

والمرسلين، كقوله تعالى، بعد ذكر كثير من الأنبياء: (أولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُم اقْتَدِه)، وقوله: (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّين مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أوْحَيْنَا إليْكَ، وَمَا وَصَّيْنا بِهِ إبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى) إلخ الآية[الشورى: 13].

وما زال، صلى الله عليه وسلم، يدعو إلى الشريعة، فيتقرب إليه الواحد بعد الواحد على حكم الاختفاء. فلما اطلعوا على المخالفة، قاموا وقعدوا، ولهم السطوة والقوة، وهم في كثرة، والداخلون في الإسلام في قلة، ومآل أهل الإسلام أنهم في خطر؛ فمنهم من لجأ إلى قبيلة، ومنهم من فرّ بدينه من الإذاية وهاجر إلى الله، ومنهم من لم يجد ملجأ ولا من يحميه، فلقي من هؤلاء الكفار من الشدة والغلظة أوالقتل، إلى [غير ذلك مِـ] مَّا هو معلوم في كتب السيَر. ومنهم من ركن إلى التقية التي أشار إليها الكتاب العزيز بقوله: (إلاَّ مَنْ كَفَرَ وَقَلبُهُ مُطمَئِنٌ بالايمَان). وهذا كله بالمعنى، فيما بينه الشاطبي.

ثم قال الشاطبي: وهذه غُربة(*) أيضا ظاهرة، وإنما كان هذا جهلا منهم بمواقع الحكمة، وأن ما جاءهم به نبيهم، صلى الله عليه وسلم، هو الحق، ضد ما هم عليه؛ فمن جهل شيئا عاداه.هـ [الاعتصام:1-9].

[زوال غربة الإسلام مدة حياة النبي، عليه السلام، وأكثر قرن صحابته، إلى أن ظهرت البدع]

قلت: ولما تبين لهم الحق، وأشرق نور الشريعة لذي عينين، وظهر للعقلاء الصراط المستقيم، الذي أنعم الله به على النبيئين والصديقين، بلا شك ولا مين؛ صار الناس يدخلون في هذا الدين أفواجا، إذ تبين لهم أن هذا الداعي لهم إلى الحق، أطلعه الله عليهم سراجا وهاجا. قال الشاطبي:

ثم استمر تزايُدُ الإسلام، واستقام طريقه على مدة حياة النبي، صلى الله عليه وسلم، ومن بعد موته، وأكثر قرن الصحابة، رضي الله عنهم، إلى أن نبغت فيهم نوابغ الخروج عن السنة، وأصغوا إلى البدع المضلة، كبدعة القدرية وبدعة الخوارج. قال:

ثم لم تزل الفرق تكثر حسبما وعد به الصادق، صلى الله عليه وسلم، في قوله: " افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة". وفي الحديث الآخر: "لتتبعُنَّ سَنَنَ من كان قبلكم، شبرا بشبر، وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتموه"، قلنا: يا رسول الله. اليهود والنصارى؟ قال: " فمن؟!". وهذا الحديث أعم من الأول، فإن الأول عند كثير من

(*) أي غربة الدين في أول الإسلام و غلبة الكفار.

أهل العلم خاص بأهل الأهواء، وهذا الثاني عام في المخالفات. ويدل على ذلك من الحديث قوله: "حتى لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتموه". قال: وكل صاحب مخالفة، فمن شأنه أن يدعو غيره إليها. إلخ.[الاعتصام:1-10].

[انطباق معنى الحديث الثاني
على عصرنا، وعلى عصر الإمام الشاطبي أيضا]

قلت: وما قاله أبو إسحاق في الحديث الثاني، هو الذي ينطبق على زماننا؛ فإن الأمة الإسلامية في عصرنا هذا، أطبقت على اتباع الأمم النصرانية، بل على اتباع الملحدة، إذ النصرانية الحقيقية عندهم، لا وجود لها، بل الذائع الشائع عند هذه الدول الأوربية والأميركية المتحضرة، في دعواها؛ هو الإلحاد المحض. والجيل الحاضر من هذه الأمم التي تنتمي إلى الإسلام، كله أشرب حب هذه الأمم الملحدة، وتقليدها في أحكامها وعوائدها، واتخذوها قدوة، وجعلوها في كل أمورهم إسوة؛ لكن في كل رذيلة من أخلاقها، كما قدمنا.

وكأن الإمام الشاطبي[يشير] إلى هذا الحال الذي كان يشاهد بعضه في عصره، لأن عصره كان يشبه عصرنا، أو يقاربه؛ لأنه كان عصرا ضعف فيه العلم والدين في المسلمين،[وعصرَ]غلبة الكافرين المجاورين، الذين سرت أخلاقهم وعوائدهم في جيرانهم المسلمين. وفي ذلك يقول العلامة الاجتماعي ابن خلدون، في "المقدمة": إن المغلوب دائما شأنه الاقتداء بالغالب. وقد تقدم نقل نص كلامه في الموضوع، في هذه "الفهرسة".(*)

[انهيار آخر معاقل الإسلام بالأندلس
بسبب غربة الدّين]

والإمام الشاطبي كان من أهل غرناطة، وغرناطة كانت إذ ذاك تحت ملك بني نصر، وملوكهم كانوا إذ ذاك في شقاق وخلاف، وتنازع على الملك، والوثوب عليه، والفوضى لازمة لهذا الحال. وضعف الائتلاف الفاشي من اعتلال الديانة وغربتها، منذر بالاستيلاء والاحتلال.

وهذا الحال الذي كان يشاهده الإمام الشاطبي في غرناطة، التي كانت إذ ذاك القطعة الضعيفة الباقية من الأندلس، وهي قاعدة الملك، وقد بلغت روح تلك المملكة الواسعة الأندلسية التراقي، ولم يبق متخلفا من استيلاء الإسبان إلا هذه القطعة

(*) الجزء الخامس، ص311

الضعيفة السالمة من الهُلك؛ ولكن الإمام الشاطبي اكتفى بالتلويح عن التصريح؛ إما تقية، وإما رجاء عودة أهل الوطن إلى الجادّة التي تنجيهم من يد أعدائهم.

وهو تعالى القاهر فوق عباده، وكل شيء يجري في العالم، إنما هو بقدره وقضائه. اللهم الطف بعبادك فيما قضيت وكن لهم وليا ونصيرا.

وفي هذا العصر العصيب، الذي بلغت فيه روح هذا القطر العزيز التراقي، ولم يبق لها واق ولا راقي، إلا التوجه لله الدائم الباقي، ألف إمام هذا القطر وعالمه الديني والسياسي، ووحيده الراقي في مقامات المعارف والعلوم أرقى المراقي، أبو يحيى ابن عاصم، الوزير الشهير، الذي كان له المقام الفائق في الرئاسة، والمنزلة السامية في الدراية بالسياسة، وهو من تلامذة المؤلف الشاطبي، الذي نحن بصدد الكلام على ما نقلناه من كتابه "الاعتصام"؛ فإنه، رحمه الله، لما رأى اختلال أمر الأندلس، وانحلال أمر سكانها وانحطاطها، ووقوع الضعف في هممها، وقلة دينها في رؤسائها وأوساطها؛ رجح اعتماد الحديث الثاني في كلامه، وهو قوله، عليه السلام: "لتتبعن سنن من كان قبلكم"إلخ، على قوله: "ستفترق أمتي"إلخ؛ لأن هذا الثاني يشمل الاتباع للنصارى واليهود، والأول خاص بأهل البدعة من المسلمين.

وذلك أن هذا الوزير، لما رأى الخرق اتسع على الراقع، وأنه اعترى هذه الجزيرة أمر ما له فيها من مدافع؛ ألف في ذلك مؤلفا مضمنه بيان أسباب هذا المصائب،[وأنه]إنما دهى هذه الجزيرة من داء الافتراق، وأنه لا دواء له إلا الرجوع لله الواحد الخلاق، والتسليم لما قضاه وقدره، إذ هو الفاعل المختار على الإطلاق؛ سمى هذا المؤلف "جنة الرضى"[حسبما سبق ذكره في هذه الفهرسة].

وفي حالة هذا التأسف والتباكي، يقول في "أزهار الرياض"، إذ ذكر قصيدة العلامة الرندي، إذ يندب بلاد الأندلس، ويبعث العزائم ويحركها من أهل الإسلام، لنصرة الدين وإنقاذ البلاد من يد الكافرين، ولسان الحال ينشده: (لقد أسمعت لو ناديت حيا)، ثم أنشد القصيدة المبكية بتمامها، التي صدرها صاحبها بمواعظ وحكم، ووصف حال الدنيا وتقلبها بأهلها، وفتكها بنفوس زعمائها وكبرائها، من ملوكها وأمرائها، مما يلين القلب القاسي، وصدرها بقوله:

لكل شيء إذا ما تم نُقصانُ فلا يُغرّ بطيب العيش إنسانُ

ثم انبرى في هذا الموضوع، حتى تخرج لحال القطر الأندلسي المسلوب، وما عرى أهله، مما يبكي العيون، ويجرح القلوب، فقال:

دهى الجزيرة أمر لا عزاء لـــه هوَى له أحُدٌ وانهدّ ثهْلانُ
أصابها العين في الإسلام فارتُزئتْ حتى خلت منه أقطار وبلدانُ
فسأل بَلنسيَة ما شأن مُرسِيَــةٍ وأين شاطبة أم أين جَيّانُ
وأين قرطبَة دار العلوم فكم من عالم سمَا فيها له شانُ

وأين حِمْص[2] وما تحويـه من نـزه   ونـهرها العذب فياض وملآنُ
قواعدٌ كُنَّ أركـان البـلاد فمــا   عسَى البقاء، إذا لم تبق أركـانُ

إلى أبيات في هذا الرثاء، تلين القلب القاسي، وتزحزح الجبل الراسي.
ثم صار يستعطف ملك المغرب، من الدولة المرينية، وكان إذ ذاك أبا يوسف، ويستنجده لإغاثة هذا القطر العزيز، ويحميَه من هذا الهاجم الماكر الظلوم الكافر، فقال:

يا أيها الملك البيضاءُ رايتــه   أدرك بسيفك أهل الكفر؛ لا كانُوا
أيا راكبين عتاق الخيل ضامـرةً   كأنها في مجال السَّبق عِقبــانُ
كم يستغيث بنوالمستضعفين وهم   أسرَى وقتلى، فما يهتزّ إنسـانُ

ثم استمر في هذا الاستعطاف، وهذا التذلل كي يحصل الإسعاف. وكان هذا الرثاء، وهذه الاستغاثة، عندما أحاطت إسبانيا بمعظم قواعد الأندلس، ولم يبق به إلا ابن الأحمر، الذي كانت مملكته لا تتعدى غرناطة ونواحيها؛ واشتد الأمر على ابن الأحمر، حتى بذل لهم صلحا عدة مدن، منها شريش والمدينة والقلعة، وغيرها من المدن والقرى، كما قاله صاحب "الذخيرة السنية".

ولكن، كانت هذه الاستغاثة من قبيل استغاثة غريق بغريق، إذ كانت الحكومة المرينية في فتن داخلية؛ تعاني غارات متواصلة، وتقول بلسان حالها، جوابا لهذا التعلق والاستغاثة لها: نفسي نفسي، إني في غمرة يومها أشد من أمس. فلم تجد هذه الحكومة المرينية المثلومة، سعة وقوة لمساعدتهم، وإن كان في كلام صاحب "نفح الطيب"، أنها لم تساعدهم مع الإمكان، وفي هذه الحالة، قال المقري:

ولما أخذت قواعد الأندلس، مثل قرطبة واشبيلية، وطليطلة ومرسية وغيرها، انحاز أهل الإسلام إلى غرناطة وألمرية ومالقة ونحوها. وضاق الملك بعد اتساعه، وصار تنين العدو يلتهم كل وقت بلدا أو حصنا، ويهصر من دوح تلك البلاد غصنا. وملك هذا النزرَ الباقي من الجزيرة، ملوكُ بني الأحمر؛ فلم يزالوا مع العدو في تعب وممارسة، كما ذكره ابن عاصم قريبا، وربما أثخنوا في الكفار، كما عُلم في أخبارهم، وانتصروا بملوك فاس، بني مرين، في بعض الأحايين.

ولما قصد ملوك الإفرنج السبعة، في المائة الثامنة، غرناطة ليأخذوها؛ اتفق أهلها على أن يبعثوا لصاحب المغرب، من بني مرين، يستنجدونه. وعينوا وفدا مؤلفا من الأفاضل، كما ذكرهم في "نفح الطيب"، فلم يوافقهم السلطان المذكور. قال: ثم بعد سفر الوفد، نازل الإفرنج غرناطة بخمسة وثلاثين ألف فارس، ونحو مائة ألف راجل؛ ولكن قضى الله بانكسارهم. ثم قال المقري:

([2]) هي اشبيلية، سميت بحمص لشبهها بها، ولأن الذين سكنوها عند الفتح كانوا من أهل حمص بالشام. المؤلف

ثم إن بني الأحمر، ملوك الأندلس الباقية بعد استيلاء الكفار على الجل، كانوا في جهاد وجلاد، في غالب أوقاتهم. ولم يزل ذلك شأنهم حتى أدرك دولتَهم الهرمُ الذي يلحق الدول. هـ كلام "النفح".[607/2].

قلت: ولم تزل حال هذه البقية في اختلال، وفي تمهيد الطرق الخلافية لإغارة العدو على تلك البقعة والاحتلال، حتى إذا بدت فرصة لرؤساء الأندلس لإصلاح الحال، وحماية النزر الباقي؛ بالاستعداد لمواجهة هذا الداء العضال، لأنه في هذه الحالة العصيبة، وإحاطة بلادهم هذه المصيبة؛ ظهرت لهم فرجة بانقسام أعدائهم من الإسبان، إذ اختلفوا وتقاسموا البلاد، وصار كل فريق بناحية؛ فبعضهم استقل بناحية قرطبة، وبعضهم بإشبيلية، والبعض بشريش.

وهذه فرصة كان يمكن فيها لصاحب غرناطة - إذ كان إذ ذاك[هو] أبا الحسن، من بني الأحمر - أن يستغل هذا الخلاف، ويبادر إلى الهجوم على ما أمكنه من الأطراف المجاورة ويستردها.

ولكن تلك الفرصة جعلها داعية له إلى الاطمئنان لخاطره وسكون باله، وإقباله على لذاته وقبيح أفعاله. قال في "نفح الطيب":

وركن إلى الراحة، وأضاع الأجناد، وأسند الأمر إلى بعض وزرائه، واحتجب عن الناس، ورفض الجهاد والنظر في الملك، ليقضي الله تعالى ما شاء. وكثرت المظالم والمغارم؛ فأنكر الخاصة والعامة ذلك منه. هـ [607/2].

قلت: واتصلت هذه الحالة السيئة في ازدياد، والعدو يغتنم الفرصة في تنازع الرؤساء، وهو داء عظيم قديم، به انحطت الأمم الإسلامية وخسرت مجدها؛ فاستمر العدو في الاستيلاء على باقي المدن والقرى في تلك البلاد، حتى استولى على غرناطة، وهي عاصمة تلك المنطقة وما أضيف إليها، وقلبه مطمئن من أن يقف دون احتلال تلك الأطراف، جيش له حكومة ذات اتحاد وائتلاف، وعدة وعدد، مقدم في إقدامه، صادق على دفع عدوه دون تنازع ولا خلاف؛ ولكن حيث فسدت أخلاق أهل هذا القطر، الذي كان جنة رائعة، ومحاسنها بين الأقطار ذائعة، إذ تحفها الأنهار، ويزينها ألوان الأزهار؛ إذ فيها يقول القائل:

يا أهل أندلس لله دركم ماء وظل وأزهار وأنهار

ولكن، من كان في نعمة ولم يشكر، خرج منها ولم يشعر، وما أصابهم من مصيبة إلا بما كسبت أيديهم.

[الرجوع إلى تفسير حديث: "بدأ الدين غريبا"الخ]

ولنرجع الآن إلى تفسير الحديث الذي صدر به العلامة الشاطبي، في أول "الاعتصام"، وهو قوله، عليه السلام: "بدأ الدين غريبا" إلخ، وهو الذي استطاب

ذكر هذه الاستطرادات، التي لو تتبعناها لاتسع المجال، وطالت المباحث والأقوال، ولما كان لسير القلم عن شريط هذا المقصد انتقال. وقد تقدم شرح الغربة أوله.

ثم لما تمهد الإسلام، وتكاثر أهله، وتمكن في كل الأقطار المشهورة ذكره، وسكن في أفئدة أهل العقول الكاملة عقده؛ زالت غربته بكثرة أهله، وتعاضد ناصريه. قال الإمام الشاطبي:

وكان الإسلام في أوله وجدّته مقاومًا بل ظاهرًا، وأهله غالبين، وسوادهم أعظم الأسودة؛ فخلا من وصف الغربة بكثرة الأهل والأولياء الناصرين، فلم يكن[إلاّ] لغيرهم ممن لم يسلك سبيلهم، أو سلكه، ولكنه ابتدع فيه صولة يعظم موقعها. ثم قال:

إلى أن أخذ اجتماعه في الافتراق الموعود، وقوته إلى الضعف المنتظر، والشاذ عنه تقوى صولته، ويكثر سواده. واقتضى سرّ التأسي المطالبة بالموافقة. ولا شك أن الغالب أغلب، فتكالبت على سواد السنة البدع والأهواء، فتفرق أكثرهم شيعاً. وهذه سنة الله في الخلق: إن أهل الحق في جنب أهل الباطل قليل، لقوله تعالى: (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)، وقوله تعالى: (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)؛ ولينجز الله ما وعد به نبيه، صلى الله عليه وسلم، من عود وصف الغربة إليه؛ فإن الغربة لا تكون إلا مع فقد الأهل أو قلتهم، وذلك حين يصير المعروف منكرا، والمنكر معروفا، وتصير السنة بدعة، والبدعة سنة؛ فيقام على أهل السنة بالتثريب والتعنيف، كما كان أولا يقام على أهل البدعة، طمعا من المبتدع أن تجتمع كلمة الضلال؛ ويأبى الله أن تجتمع حتى تقوم الساعة، فلا تجتمع الفرق كلها على كثرتها على مخالفة السنة، عادة وسمعا، بل لا بد أن تثبت جماعة أهل السنة، حتى يأتي أمر الله.هـ كلام الشاطبي([3]) عن مرادنا من تفسير حديث: " بدأ الدين غريبا"إلخ.

وهو كلام في غاية النفاسة، وموافق لمقصدنا، وهو قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)، وأنه نور الله الذي لا تبطله أفواه المبطلين، ولا إعراض المعرضين عنه، ولا طعن الطاعنين؛ لأنه نور الله الذي لا يختص بجهة ولا بقطر من الأقطار، ولا بأمة من الأمم، ولا ينقضي ولا ينقص، لأنه من حضرة الباري جل جلاله، كما قدمنا ذلك عن الفخر الرازي، وهو معنى قول العارف الدباغ لتلميذه، أي ابن مبارك، في جوابه: لو اطلعت[على] ما لهذه الأمة من الفضائل في اللوح المحفوظ، إلخ ما قدمناه.

ثم إن ما ذكره العلامة الشاطبي، من محاولة أهل البدع محق أهل السنة، وإدماجهم في عقائدهم، كذلك يقال في عصرنا هذا مع المنسلخين عن الديانة

[3] [الاعتصام:1-11].

الإسلامية. ولهؤلاء الكفار الذين يحاولون القضاء على الإسلام ومحوه من هذه البسيطة، رغما على غربته وقلة أهله وضعفهم، كما هو مشاهد.

ثم على وجه التحقيق، إن حالة أهل الإسلام على العموم، شرقا وغربا، من حيث تدينهم[فهم ينتسبون] إلى الإسلام الجغرافي؛ أما الجيل الحاضر، كهولهم وشبابهم، [فـ]لا يعرفون من الإسلام إلا قولهم: أنا مسلم. وهذا في النادر منهم. وأما الغالب ،[فـ]لا يقول ذلك، بل على حسب ما نسمع أنهم يقولون: إن الإسلام دين متأخر، لا يليق بهذا العصر. وكثير منهم، الذي يسمع بالقرآن، يقول: إنه كتاب كان يليق بعصر البداوة، لا بعصر الحضارة. وربما صرحوا بكلمات يُحكم بكفر قائلها وردته.

ثم إن السواد الأعظم من أهل البادية، والمعظم من أهل الحاضرة، لا يصلون، ويضحكون على أعمال الصلاة. و[بعض]الخواص منهم، الذي يدعي الثقافة والدراية، يلاحظ على كثير من الكلمات القرآنية، ويقول: إنه يجب إسقاطها. وربما تذاكرنا مع من سمع هذا من قائله، وصرتُ أنا أسبه وألعنه، وقلت: إن هذا لو كان السامع له من المسلمين حقا لقتله. ولكن قال لي هذا المذاكر: إنه لما أخبر بهذه المقالة من يعد من أهل الرياسة، قال: إن نية هذا القائل حسنة! وعندي أنا، أن هذا الذي أجابه بهذا، يضاف إلى هذا القائل في الكفر. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أما مسألة التحليل والتحريم، فهي مرفوضة في سائر العامة وغالب الخاصة، في سائر أقطار الإسلام، إلا ما شذّ، حتى في الربا والخمر والزنى، وغير ذلك من المحرمات، وإذا قال قائل اليوم: هذا حرام، يسخر منه، إلى غير ذلك من المنكرات، التي صارت في زماننا هذا من قبيل المباح، ومن قبيل العوائد المستحسنة؛ كإسناد الأمر إلى النساء، والتحكم في الرجال، وتبرجهن تبرج الجاهلية، ولبس هذه الثياب الشفافة، ويُرَيْن يتهادين في الطرقات العامة، وهن كاسيات عاريات، ولا ينكر عليهن ذلك. بل الآن أباح الرجال السفور، والظهور لنسائهن عاريات كاشفات لما هو عورة شرعا من صدورهن وأفخاذهن. وتجد الرجل - وهو يعد من أهل الفضل - يقدم زوجته لصديقه، وهي مزينة في أحسن زينة، ويعرفها به، ويصافحها وتصافحه، وهو ممن يقرأ القرآن، أو يسمع به، من قوله تعالى: (وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأولى)، حتى صار هذا الأمر عاما في المدن الإسلامية، حتى في مدينتنا هذه! ومن أنكر هذا المنكر العظيم، يجهّلونه ويسمُونه بالتأخر، إلى غير ذلك من المنكرات.

ولكن هذا كله، مما يزيد المؤمن إيمانا وتصديقا بما أخبر به الصادق المصدوق، مما ذكرناه في المجلد الثاني من هذا الكتاب، وذكرنا الواقع من ذلك في مدينتنا؛[في] حديث رزين، من حديث سيدنا علي، رضي الله عنه، أنه قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "كيف بكم إذا فسق فتيانكم، وطغى نساؤكم؟!"، قالوا: يا رسول الله وإن ذلك لكائن؟ قال: "نعم وأشدّ. كيف أنتم إذا لم تأمروا بالمعروف، ولم تنهوا عن المنكر"، قالوا: يا رسول الله، وإن ذلك لكائن؟، قال: " نعم وأشدّ. كيف بكم إذا أمرتم

بالمنكر، ونهيتم عن المعروف"، قالوا: يا رسول الله، وإن ذلك لكائن؟ قال: " نعم وأشدّ. كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكرا، والمنكر معروفا"، قالوا: يا رسول الله. وإن ذلك لكائن؟، قال: "نعم ". ونقله عنه في "تيسير الوصول".[157/3].

والأحاديث في هذا المعنى، كثيرة في "الصحيحين" وفي غيرهما، مما قدمنا بعضه. وذكرنا فيما سبق أن النبي، صلى الله عليه وسلم، أخبر حتى بهذه الأحوال التي وصل إليها أهل الإسلام، من الإلحاد والخروج عن الدين بالكلية، وما قاله من أن الناس يدخلون في الدين أفواجا، ويخرجون منه أفواجا. وانظر صحيح البخاري، "وشرح" ابن حجر، وما ترجمه في أشراط الساعة. وما في "الدر المنثور"، من الآثار والأحاديث، كاف في الاطلاع على ما قاله النبي، صلى الله عليه وسلم، في هذه الفتن، وهذه التغيرات في هذا الدين المبكية،[التي] تُرَى، كأن النبي، صلى الله عليه وسلم، حاضر معنا. وكيف، وهو صلى الله عليه وسلم، لا ينطق عن الهوى.

[شيوع الإلحاد والزندقة ورفض الدّين]

ثم إن الطامة الكبرى، والمصيبة العظمى، هو ما شاع وذاع في هذه الأقطار الإسلامية من قبل الشباب، بل والكهول، من رفضهم الديانة بالكلية، وميلهم للإلحاد والزندقة. وهذا المذهب كاد يعم اليوم العالم بأسره؛ ولا سيما والدولة الروسية، يعم نفوذها المهم من الشرق، وهي آخذة في تعميم مذهبها الشيوعي. والله تعالى يقينا شرها، ويبعد عنا ضرها. والله غالب على أمره.

ولكن، ليطمئن قلب المؤمن الديّن، وليعلم أن هذا الدين المحمدي لا يزال ظاهرا غالبا في المعنى، وأن طائفة منه لا تزال قابضة على أطرافه، لا يضرها من أغار عليها.

[كلام بعض ساسة أوربا المنصفين في مدح دين الإسلام، وإبراز عظمته وتسامحه، والتنويه بالشريعة المحمدية]

ومن المعجزات الباهرة في هذا العصر، الذي تداعت الأمم فيه على أهل الإسلام، وإبطال دينهم، وتنفير أهله من التديّن به وتضليلهم؛ أن طائفة من كبراء أهل أوربا ونبلائهم وعلمائهم، يتركون التعصب، ويميلون إلى الإنصاف، ويقولون الحق، ويذكرون محاسن الإسلام، ويعجبون غاية الإعجاب بالقرآن، ويمدحون شريعته السمحاء؛ فيقول جان مِليا:

" من الواجب أن يطرح بعد الآن ما ادعاه في القرآن بعض المتفلسفين من الفرنسيس؛ فالقرآن تجب تلاوته بتؤدة، وليس فيه ما يتهمه به الأعداء من أنه يُلقن التعصب. والإسلام دين سماوي، وهو دين حب وعاطفة وشرفٍ، وأكثرُ الأديان تساهلا". هـ بنقل صاحب كتاب"الإسلام والحضارة"[4][1-72].

ونقل أيضا عن كارلايل، في القرن التاسع عشر:

"إن فرط إعجاب المسلمين بالقرآن، وقولهم بإعجازه أكبر دليل على تباين الأذواق في الأمم المختلفة. والترجمة تذهب بأكثر جمال الصنعة، وحسن الصياغة".

قال: وجاهَر كلود فارير في القرن العشرين، بأن آيات القرآن جميلة وتحسن تلاوتها،[و] فيها نفحة طاهرة عجيبة، لأنها تأمر بالشجاعة والصدق والأمانة، وتدعو إلى حماية الضعيف، وإلى عبادة إله واحد.[1-69].

وبعد أن نقل مقالة هؤلاء الحكماء في القرآن، قال: وتابعهم في مذهبهم كثيرون، وقالوا بقولهم. قال:

ويكفينا في فضل الإسلام، أن نعمد أيضا إلى نقل كلام بعض علماء الأفرنج فيه؛ فقد قال ولز، المؤرخ الإنجليزي:

"كان الإسلام في أول أمره خاليا من التعقيدات اللاهوتية، التي طالما ارتبكت بها النصرانية، وأحدثت شقاقا قضى على الروح النصرانية. وليس للإسلام كهنة، بل له علماء ومعلمون ووعاظ، وهو حافل بروح الرأفة والسخاء والإخاء، كما أنه ينطوي على عاطفة النجدة التي تنبت في الصحراء؛ ولهذا جاز إلى قلوب عامة الناس، دون أن يجد ما يصدّه في غرائزهم".

وقال مُونتيه السويسري:

"لما كان الإسلام دينا من الأديان، أصبح قوة أدبية عظيمة جدا، جديرة بالاحترام من وراء الغاية، ولذا تقضي الحال بأن تقوم الصلات مع أهله على أساس الإخاء والحب. وأهم الشروط في هذه الروابط الحسنة، احترام الإسلام احتراما مطلقا. وإن هذا الدين، بفضل ما نشره بعض الباحثين من العلماء المجرّدين عن الأغراض، وما وقف عليه بعض أرباب الرحلات؛ قد أصبح معروفا في أوربا معرفة تامة، وغدا يقدر قدره أكثر من قبل". هـ بنقل محمد كرد علي.[الإسلام والحضارة العربية:1-70].

ثم قال إثر هذا الكلام: ورأينا حكماء الغربيين لا يذكرون الإسلام إلا بالتعظيم. ثم استمر في هذا الموضوع، وذمّ هؤلاء الذين يتكلمون من الأجانب في شأن الإسلام بغير معرفة ولا دراية، إلى أن قال: ومن أعظم ما يُعاب به العالِم، أن يقول جزافا، ويتكلم بلا وزن ولا روية. والعاقل من يحرص على أن لا تبدو مَقاتله، ولا يستحي، إن لم يكن عارفا، من قول: لا أدري، وقد قالوا: إن لا أدري نصف العلم.

---

[4]) "الإسلام والحضارة العربية"، لمحمد كرد علي. مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة،1934. أ.م

ثم قال: عن آرثر جلين ليُونارد:

"يجب أن تكون حالة أوربا مع الإسلام، بعيدة عن كل هذه الاعتبارات الثقيلة، وأن تكون حالة شكر أبدي، بدلا من إنكار الجميل الممقوت، والازدراء المهين. فإن أوربا لم تعترف إلى يومنا هذا، بإخلاص طوية وقلب سليم، بالدَّيْن العظيم، المَدِينَة به للتربية الإسلامية، والمدنية العربية. فقد اعترفت به بفتور وعدم اكتراث، عندما كان أهلها غارقين في بحار الهمجية والجهل، في العصور المظلمة فقط. ولقد وصلت المدنية الإسلامية عند العرب، إلى أعلى مستوى من عظمة العمران والعلم، فأحيت جذوة المجتمع الأوربي، وحفظته من الانحطاط. ولم نعترف، ونحن نرى أنفسنا في أعلى قمة من التهذيب والمدنية، بأنه لولا التهذيب الإسلامي، ومدنية العرب وعلمهم وعظمتهم في مسائل العمران، وحسن نظام مدارسهم، لكانت أوربا إلى اليوم، غارقة في ظلمات الجهل". قال:

"هل نسينا أن التسامح الإسلامي، كان يختلف اختلافا شديدا عن الحالة التي كانت عليها أوربا إذ ذاك! هل نسينا أن الخلافة نشطت في أعظم أيام الانحطاط الروماني والفارسي، وأن السواد الأعظم من أوربا، كان في غشاوات الوحشية السوداء القاتمة! أتهمل أوربا، حقدا منها وإنكارا للجميل، تلك الأعمال التي قام بها العرب وتركوها وراءهم في كتبهم! ألم نكُ ممن فقد نشاط العالم الإسلامي في عصره الذهبي العجيب، وذلك في عصوره الأولى، ولا سيما في زمن العباسيين! وكيف ننسى الخسارة الفادحة التي جنيناها على آداب العرب، بل الجناية التي جنيناها على العالم أجمع، بتدميرنا، عن جهل وغرور، ألوفا من كتبهم ساقنا إلى إبادتها التعصب النصراني".[1-70].

ثم انصرف يُخطئ أوربا النصرانية كلها في هذه الأفعال الذميمة مع أهل الإسلام.

ثم قال صاحب كتاب "الإسلام والحضارة"، عن إدموند يورك، ما لفظه:

" القانون المحمدي قانون ضابط للجميع، من الملك إلى أقل رعاياه. وهو قانون نسج بأحكم نظام حقوقي، وأعظم قضاء عالمي، وأعظم تشريع منوّر، لم يسبق للعالم إيجاد مثله".

ثم قال: يقول لِبُون، خلال كلامه على أن وحدة الإسلام الخلقية، واحدة من أساسها، لأن الإسلام قام على كتاب واحد، وهو القرآن:

"إن هذا الكتاب قانون ديني وسياسي واجتماعي، وأحكامه نافذة منذ عشرة قرون". ثم قال:

" إن سذاجة الدين الإسلامي، وإيمان المؤمنين به، قد أورثاه قوة، فهو يكتفي بقول: لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله. قام بالدعوة إلى هذه الحقيقة، والمسلمون اخوة، لأنهم يعبدون إلها واحدا، وشريعتهم واحدة".

ثم قال أيضا: " إنه بفضل تجار من المسلمين، يدخل في إفريقية ألوف من الوثنيين في الإسلام، حتى ليكاد هذا الدين يمدّنهم. وإن المسلم حيث يمرّ يترك أثرا من دينه. وإن من الممالك ما لم يطأه المسلمون فاتحين، فوطنها أناس منهم متجرين؛ مثل بعض أنحاء الصين وإفريقية الوسطى وروسيا. والمسلمون في هذه الأقطار التي نزلها تجارهم، أصبحوا يعدون بالملايين". [1-72].

ثم قال لِبُون، نقلا عن دوفال، شيئا مما يشبه هذا. ثم نقل صاحب "الإسلام والحضارة"، عن فاليري، ما لفظه:

"فرضت الأديان على من يدينون بها، معتقدات ثقيلة يصعب القيام بأعبائها، لبعدها عن مدى الأفهام، على حين كان الإسلام عجيبا في سهولته، صريحا في فروضه. وهذا كان سببا آخر في سرعة انتشاره بين الشعوب التي اضطربت أخلاقها كل الاضطراب، بما أصابها من الشكِ المضني بعقائدها الدينية. وهذا أيضا، كان، ولا يزال، السبب في انتشاره المتواصل بين الأمم المتوحشة في آسيا وإفريقية، لنفوذه إلى أرواحهم، دون الحاجة إلى التطويل في شرحه، والتلطف في الدعاية له". [1-73].

قال في كتاب "الإسلام والحضارة"، عن جيبُون:

"جاءت الشريعة المحمدية عامة في أحكامها، يخضع لها أعظم ملك، وأقل صعلوك، فهي شريعة حيكت بأحكم منوال شرعي، وليس لها مثيل في العالمين".

وقال ليودور وش:

"إن الإسلام دين إنساني طبيعي اقتصادي أدبي. ولم أذكر شيئا من قوانيننا الوضعية إلا وجدته مشروعا فيه. بل إنني عدت إلى الشريعة التي يسميها جُول سيمُون: "الشريعة الطبيعية"؛ فوجدتها كلها أخذت عن الإسلام. ثم بحثت عن تأثير هذا الدين في نفوس المسلمين، فوجدته قد ملأها شجاعة وشهامة، ووداعة وجمالا وكرما. بل وجدت هذه النفوس على مثال ما يحلم به الفلاسفة، من حب الخير والرحمة والمعروف، في عالم لا يعرف الشر واللهو والكذب؛ فالمسلم ساذج لا يظن بأحد سوءا، ولا يستحل محرما في طلب الرزق. ولذلك كان أقل مالا من اليهود، ومن بعض النصارى". قال:

" ولقد وجدت فيه حل المسألتين الاجتماعيتين اللتين تشغلان العالم طرا: الأولى في قول القرآن: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)؛ فهذا أجمل مبادئ الاشتراكية. والثانية فرض الزكاة على كل ذي مال، وتخويل الفقراء حق أخذها غصبا[5]، إن امتنع الأغنياء عن دفعها طوعا، وهذا دواء الفوضوية". [1-74].

ثم نقل عن ما سينيون أنه قال:

---

[5]) لو قال جبراً، وهو مراده، لكان أحسن. مؤلف هذه "الفهرسة".

"يمتاز الإسلام بأنه يمثل فكرة مساواة صحيحة، بمساهمة كل فرد من أفراد الشعب بالعُشر في موارد الجماعة. والإسلام ينبذ التبادل غير المقيد، كما يناوئ الأموال المصرفية (الربا)، والقروض الحكومية، والضرائب غير المباشرة على ضروريات الحياة، في حين أنه شديد التمسك بحقوق الوالد والزوج والملكية، ورؤوس الأموال التجارية؛ فهو بذلك يقف موقفا وسطا بين البورجوازية الرأسمالية، والشيوعية البلشفية. وللإسلام ماض بديع من تعاون الشعوب وتفاهمها. وليس مجتمع آخر له مثل ما للإسلام: ماض كله نجاح في جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة، على بساط المساواة في الحقوق والواجبات. ولقد برهنت الطوائف الإسلامية الكبرى في أفريقية والسند والهند الشرقية، والجماعات الصغيرة منهم في الصين واليابان، على أن الإسلام يستطيع أن يوفق بين العناصر التي لا سبيل إلى التوفيق بينها".

[أول من وضع أساس الزكاة في البشرية هو الدين الإسلامي]

ثم ذكر صاحب كتاب "الإسلام والحضارة" عن مقالة لماركس في المجلة الإسلامية الإنجليزية، جملة رائقة في التنويه بمسألة الزكاة، التي هي من أركان الإسلام. ومن جملة ما قاله في التنويه بهذه الفريضة الإسلامية، التي هي أحد أركانه وقواعده الخمسة، ما لفظه:

" فالزكاة نظام اجتماعي عام، ومصدر تدخر به الدولة المحمدية ما تمدّ به الفقراء وتعينهم، وذلك على طريقة نظامية قويمة، لا استبدادية تحكمية، ولا عرضية طارئة. وهذا النظام البديع، كان الإسلام أول من وضع أساسه في تاريخ البشرية عامة" إلخ.[1-75].

[الإقرار بعدالة الشريعة الإسلامية من طرف هؤلاء الأجانب، وإنكار ذلك من بعض من ينتسب إليها في عصرنا]

وإذا سمعت هذا، وما صرح به هؤلاء العلماء الكبراء، من نبلاء هذه الدول الكبرى، من فرنسا وانكلتيرا وسويسرا، وغيرهم من الباحثين النقاد في أديان العالم الآن،[حسب]استطاعتهم ـ على ما في ذلك من المقبول والمردود ـ وبذل جهودهم، وإعمال أفكارهم، [حتى] وقفت عقولهم وكمال نبلهم، على ما يدعوهم إلى

الاستحسان أو الانتقاد في الأعمال، أو في الاعتقاد؛ إذ أدت بهم خاتمة المطاف إلى الديانة الإسلامية، فتتبعوا أصولها، واختبروا أبوابها وفصولها؛ فقادهم الإنصاف إلى الإقرار بالحقيقة والاعتراف بأن طريقتها أحسن طريقة، وأثنوا عليها الثناء الذي تستحقه، مما تقدم لنا نصه في القرآن الكريم، وفي الشريعة المأخوذة منه، مثل الزكاة وغيرها، ومن الأخلاق والآداب، وحسن المعاملة، دون خداع ولا ارتياب، ولا أكل أموال الناس بالباطل، ومن سدّ أبواب الربا كل باب، وإعطاء الفقير حقه الذي يستحقه في كل مال. بل تعدوا إلى العقيدة وجعلوها من أسهل العقائد، التي يسهل فهمها على كل واحد، بخلاف عقائد النصرانية، إلى غير ذلك مما تقدم نقله عن أربابه.[أقول]:

إذا قرأت هذا؛ فلتقل لهذه الفئة الضالة، والناشئة الملحدة التي أنكرت هذه الديانة، ديانة آبائها وأجدادها، ولم تقلد في هذا أربابها، الذين اتخذتهم أئمة تقتدي بهم في أزيائها وعوائدها المضرة، وأخلاقها الفاسدة؛ ولم تقلدهم في التنويه بالشريعة الغراء، شريعة سيدنا محمد، صلى الله عليه وسلم: فما هذا إلا انحراف في المزاج، وفساد في العقل، أو طمس الله على قلوبهم، وأضلهم وأعمى أبصارهم، كما قال تعالى: (تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا، لَبِيسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ. وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)[المائدة: 80-81].

[القصد مما ذكر من هذه النقول، هو مواصلة التأييد والتوضيح لظهور دين الإسلام على سائر الأديان]

ثم اعلم أن التطويل بهذه النقول، المختلفة الأصول، عن الموافق والمخالف، هو تأييد وإيضاح لما في القرآن الكريم، من أن هذا الدين الذي أرسله الباري، جل شأنه، لهذه الأمة بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله، وأنه نور الله الذي جاء من عنده؛ هو نور لا تطفئه أفواه الضالين، ولا يؤثر في نقص إشراقه وإضاءته إلحاد الملحدين، (بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم) وما يجحد نور هدايته، وينكر بينات معجزاته، إلا الكافرون.

وقد بينتُ لك أن من ظهوره على الأديان كلها؛ ما قاله النصارى وعلماؤهم في هذه الشريعة، التي اعترفوا بأنها أعدل شريعة في هذا العالم، وأن القرآن كتاب فيه كل شيء، وأنه لم يغادر صغيرة ولا كبيرة، مما يحتاج إليه هذا العصر، إلا ذكره وبينه؛ حتى قال أحد كبرائهم، كما سبق: "ولم أذكر شيئا من قوانيننا الوضعية إلا وجدته مشروعا فيه". والحق ما شهدت به الأعداء. ثم إني أقول: يتجلى

للمخالفين، من كل ماض وأتٍ، من الآيات البينات في القرآن، والأخبار، حتى يتبيّنَ لهمُ أنه الحق.

وبهذا يعلم أن هذا الدين، من حيث المعنى، في الزيادة لا في النقصان؛ فإننا نشاهد أن هذا القرن الرابع عشر، وإن ظهر فيه على أهله كثرة الارتداد، وذاعت فيهم عقيدة الإلحاد؛ فهناك طوائف في مختلف الأقطار، امتلأت قلوبهم إيمانا، وحواسهم إسلاما، وكثرت فيهم عمارة المساجد، لم تكن قبيل هذا القرن، بالمصلين شيوخا وشبابا. بل أقبل الناس في المدن والقبائل على بناء المساجد [في أماكن] لم يكن فيها مسجد قط، وإقامة الجماعات فيها باجتهاد من مالهم الخاص، وهم يتسابقون عليها تسابقا فائقا، دون أمر من ذي سطوة ولا جبر.

ثم إن المساجد الكبرى تمتلئ بالمصلين امتلاء لم يكن معهودا، ولا سيما في يوم الجمعة.

[تكاثر المساجد في هذا العصر، وتزايد عدد المصلين بها، وخاصة في الجُمع]

ومثال ذلك أن مدينة تطوان ـ وهي مدينتنا حماها الله وحرسها من كيد النفاق والإلحاد ـ كانت مساجد الجمعة[فيها] لا تزيد على ثمان، والغالب منها لا يتم امتلاؤه. والآن، صارت مساجد الجمعة، بين ما في داخل المدينة وما في خارجها، ثمانية عشر مسجدا، ومنها ما يمتلئ، ولا يجد المتأخر إلى السعي إليها موضعا يصلّي فيه.

وهكذا شاهدت ذلك في مدينة طنجة القريبة منا. ومن العجب أن مدينة الدار البيضاء، في أول هذه المائة الرابعة عشرة وبعدها، كانت الصلاة في مساجدها ـ على قلتها ـ قليلة جدا أو معدومة؛ واليوم، وقد بني فيها مسجد عظيم، وهو مسجد ابن يوسف. وحكى لي بعض سكانها، أنه إن لم يبكر إلى الصلاة فيه يوم الجمعة، لا يجد موضعا يصلي فيه. وذكر هو عن نفسه أنه تأخر يوما، فلم يجد موضعا فيه فرجع.

وكذا بلغني عمن سافر لمدن المشرق كذلك؛ بل حكى لي هذا المسافر أنه شاهد في بلاد تركيا ـ التي انصرفت حكومتها عن الدين الإسلامي، وأعلنت أنها حكومة لا دينية ـ أمرا عجيبا في شأن إقبال مسلمي هذه البلاد على عمارة المساجد بها، واعتنائهم بأمرها اعتناء فائقا في تزيينها وتنظيفها، وتفريش أراضيها بالزرابي الرفيعة، والمصابيح الجميلة، وعمارتها بالعبادة والمصلين والتالين لكتاب الله، مع شدة الخشوع في صلواتهم وتلاوتهم؛ حتى قال ذلك الحاكي، وكان من نجباء الطلبة: حتى إنك إن أمعنت النظر في عبادتهم، تحسب أن هذه الصلوات في مساجدنا ودورنا، إنما هي من قبيل اللعب. هكذا قال لي هذا الحاكي، وأيده غيره في ذلك.

وقلوب العباد تحت قدرة الفاعل المختار، يفعل فيها ما يشاء، يوفق للدين الحنيف من أراد بفضله، ويضل من يشاء بعدله.

[مسألة قيام الساعة
وظهور بعض أشراطها، واستمرار هذا الدين]

فتمسك هذه الأمة، التي هي غريبة في الديانة في هذا العصر، بشعائر الإسلام، يدل على أنها لا زالت في امتداد، وإن كانت قد بدت أشراط من أشراط قيام الساعة، لأنه يحمل في ذلك على القرب النسبي، بالنظر إلى ما مضى من القرون، لأن الحق، كما قررنا سابقا عن ابن حزم، أن مبدأ الدنيا لا يعلمه إلا الخالق، وأن من حدده بسبعة آلاف سنة ونحوها، لا يصح عمن لا ينطق عن الهوى، ومن قال في ذلك برأيه، أو بروايات واهية، فهو في الباطل هوى، كما يأتي نص ابن حزم بتمامه. ويؤيد هذا، ما في الحديث الذي رواه الحكيم الترمذي، وذكره السيوطي في"الجامع"، وأشار له بعلامة الضعف، وهو قوله، عليه السلام: "أول ما يرفع من الناس الأمانة، وآخر ما يبقى من دينهم الصلاة. ورب مصل لا خلاق له عند الله تعالى". هـ[ص94].

<u>قلت</u>: أما رفع الأمانة فقد وقع، والعياذ بالله، إذ لا تجد في عصرنا هذا أمينا تتوفر فيه شروطها. وحديث رفع الأمانة، في "صحيح" البخاري وغيره. وهناك بين ابن حجر ما هي الأمانة التي ترفع، وأطال في ذلك.

<u>وأما الصلاة</u>؛ فمما بينا سابقا، تعلم أنها لم تنقطع، وإنما هي في زيادة بحسب الظاهر؛ فهذه الزيادة تدل على أن هذا الدين الحق لا يزال مستمرا، واستمراره يدل على أن الساعة لا تزال بعيدة. وما ورد من أشراطها في الآثار والأحاديث، فلا ينافي هذا، وإن ظهر جل الأشراط كما قدمنا في المجلد الثاني،[ص:268]؛ لأن القرب نسبي، كما قدمنا، وسيأتي بسط لهذا المبحث، إن شاء الله.

<u>قلت: وأما الحج</u>؛ فقد ورد فيه أن الساعة[لا تقوم] حتى لا يبقى من يحجه. ففي الحديث الذي ذكر الحافظ السيوطي أن الحاكم رواه عن أبي سعيد، وقال على شرطهما، وهو قوله عليه السلام: " لا تقوم الساعة، حتى لا يُحَجّ البيت".[الجامع: 191/2].

ثم إن الواقع في عصرنا هذا، وهو القرن الرابع عشر الهجري، أن الحج يزداد كل سنة زيادة فائقة. وقد أخبر الحجاج في هذا العام، وهو عام 1392، أن[عدد]الناس الذين وردوا إلى البيت من كل ناحية وقطر، من الشرق والغرب، قد حيّر الألباب، وضاقت الأرض بهم على رحْبها، وسترت بسيط ظهرها، بتراكم أفواجها؛ فلا يرى الرائي إلا تموجاً يموج بسحبها. واستجاب الله دعاء خليله سيدنا

إبراهيم، عليه السلام، لما أمره الله به بقوله: (وأذِّنْ فِي النَّاس بِالْحَجِّ يَأتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ) الخ.[الحج:28/27]. وقال تعالى عنه في دعائه: (رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ) الآية[إبراهيم:37].

وهذا من معجزات النبي ، صلى الله عليه وسلم، وهو بشارة لهذه الأمة بأنها لا زالت قائمة بأركان دينها، ومحافظة على شعائرها، رغم ما يسعى إليه أعداؤها من تمزيق قواعد عقائدها؛ فالحمد لله، ثم الحمد لله، حمدا يملأ ما بين الأرض والسماء، ويتوالى ما توالت أنوار الغزالة في جو الخضراء، على هذه النعمة العظيمة باستمرار ظهور هذه الشريعة الغراء.

أما ما ورد في الحديث الذي رواه الحاكم، وقال على شرط البخاري ومسلم؛ فهذا لا يدل على قرب رفع الكعبة، بل يدل على عكس ذلك، والوقوع يؤيد ذلك، لأنه كما قدمنا أن الحج اليوم يكثر ويزيد كل سنة، ويعظم شوق أفئدة المؤمنين إلى الطواف بهذا البيت الذي قال الله تعالى فيه: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدىً لِّلْعَالَمِينَ، فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا)، الآية[آل عمران:97/96].

نعم؛ ورد في الحديث أن الكعبة ستخرب، ويخربها ذلك العبد الحبشي، وأنها إن خربت لا تعود. وقد ذكر الفقهاء أن موضعها يخطط، ومنه يقع الطواف. وهو يدل على أن الإسلام لا يزال مستمرا، وإن خربت الكعبة ونقضت، وأن الطواف يبقى، وأن الرجال من المسلمين يأتون إلى الحج رجالا وعلى كل ضامر، إلى أن تقوم الساعة التي لا يجليها لوقتها إلا هو، جل وعلا. وسيأتي بعد هذا زيادة الكلام في هذا الموضوع.

والمقصود هنا أن الإسلام في هذا القرن الرابع عشر الهجري، لا يزال مستمرا، بل في ازدياد؛ فليسكن جأش من يقول: إنه اضمحل وانتقض أمره.

[لا عبرة بما قيل في تحديد عُمر الدنيا، والكلام على حديث" بعثت أنا والساعة كهاتين"]

ومن هذا يؤخذ بطلان أقوال من حدد لهذه الدنيا أمدا، لأن المؤرخين من أهل الإسلام اغتروا بأقوال في ذلك، كل أصولها ترجع إلى أخبار إسرائيلية لا يصح فيها [شيء] عن النبي، صلى الله عليه وسلم.

والذي صحّ عنه، صلى الله عليه وسلم، حسبما رواه البخاري ومسلم، ولفظ مسلم في رواية أبي حازم، أنه سمع سهلا يقول: سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يشير بأصبعه التي تلي الإبهام والوسطى، وهو يقول: "بعثت أنا والساعة

هكذا"، ومن روايته عن قتادة، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: " بُعثت أنا والساعة كهاتين". وهذا حديث مشهور بين الناس.

وحاصل معنى هذا الحديث الصحيح، كما نقله الأبّي عن القرطبي، إذ قال: والحاصل تقريب أمر الساعة، كما قال تعالى: (فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا)، قال الحسن: أول أشراطها محمد، صلى الله عليه وسلم.هـ[شرح مسلم:283/7].

أما المؤرخون؛ فقد جاء زعيمهم الإمام الطبري بهذا الحديث الصحيح بطرق في روايته، وفي كلامه ما يشعر بأن ذلك هو الصحيح، وقد صدّر بقوله: اختلف السلف قبلنا من أهل العلم في ذلك، أي في قدر مدة الدنيا. ثم صدر بحديث بسنده إلى ابن عباس، رضي الله عنهما، أنه قال: الدنيا جمعة من جمع الآخرة: سبعة آلاف سنة فقد مضى ستة آلاف سنة، ومئو سنة، وليأتين عليها مئون سنين، وليس لها موحد. وقال آخرون: قدر جميع ذلك: ستة آلاف سنة.هـ[تاريخ الأمم والملوك:5/1].

ثم روى عن من قال ذلك، وما في هذا الموضوع من الروايات عن بني إسرائيل، من اليهود والنصارى. ثم أفاد في طالعة كلامه، أن كل ذلك لم يصح، وما صح إلا هذا الحديث ونحوه، الذي فيه تقريب أمر الساعة، لا التحديد بستة آلاف ولا بسبعة آلاف. ولكنه تراجع في آخر كلامه، وجعل القول بتحديد الزمان الوارد عن ابن عباس، من مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وعن كعب الأحبار ستة آلاف سنة، هما أولى بالصواب، مؤيدا لذلك بما رُوي عن أبي ثعلبة الخشني، عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "لن يعجز الله هذه الأمة من نصف يوم"، وكان مقدار اليوم ألف سنة، قال: وكان الخبر كذلك صحيحا، فإنه أخبر عن الباقي من ذلك في حياته: خمسمائة سنة، وهو نصف اليوم. ولكن تعقبه على ذلك أهل العلم، فقد نقل الحافظ ابن حجر، في "شرح" البخاري، آخر سورة لقمان، في التفسير، عن ابن التين، عن الماوردي، أنه أنكر على الطبري دعواه أنه بقي من الدنيا من هجرة المصطفى نصف يوم، وهو خمسمائة عام. قال: وتقوم الساعة، ويعود الأمر إلى ما كان عليه، قبل أن يكون شيء غير الباري تعالى، فلا يبقى غير وجهه؛ فرد عليه بأن وقت الساعة لا يعلمها إلا الله، فالذي قاله مخالف لصريح القرآن والحديث.

ثم تعقبه من جهة أخرى وذلك أنه يوهم من كلامه أنه ينكر البعث؛ فأقدم على تكفيره، وزعم أن كلامه لا يحتمل تأويلا. وليس كما قال، بل مراد الطبري أنه يصير الأمر - أي بعد فناء المخلوقات كلها - على ما كان عليه أولا، ثم يقع البعث والحساب. هذا الذي يجب حمل كلامه عليه.

وأما إنكاره عليه استخراج وقت الساعة، فهو معذور فيه. ويكفي في الرد عليه أن الأمر وقع بخلاف ما قال: قد مضت خمسمائة، ثم ثلاثمائة وزيادة. قلت: وهذا ما قاله الحافظ ابن حجر في أول القرن التاسع. وجاء بعد الحافظ السيوطي، وكان في القرن العاشر، وهو فيه قد مضى عن تاريخ الهجرة، ألف سنة؛ وألّف تويليفه

المشهور: "الكشف، في مجاوزة هذه الأمة الألف". ولكنه نحا أيضا منحى التحديد أخيرا، فقال: لأن هذه الأمة لا تجاوز ألفا وخمسمائة. وهو أيضا مخالف في هذا التحديد لما في القرآن، إذ فيه: (لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إلاَّ هُوَ)،الآية[الأعراف:187]، وقوله: (يَسْأَلُونكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا، قُلْ إنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ) الآية[الأعراف:187]، إلى غير ذلك.

أما صاحب "الكامل"، فاختصر ما قاله الإمام ابن جرير. ولكنه اعتمد ما صدّر به الإمام المذكور، وأن الصحيح عن النبي، صلى الله عليه وسلم، هو حديث: "بعثت أنا والساعة كهاتين"الخ، دون تراجع، بخلاف ابن جرير الذي اغتر[بما] روي عن ثعلبة الخشني.

والخلاصة هنا، أن ما روي من تحديد أمد الدنيا وبقائها بستة آلاف سنة، أو سبعة آلاف؛ لا يصح، وإنما ذلك مروي عن الإسرائليات. ويُحمل ما ورد عن سيدنا عبد الله بن عباس، إن صحّ عنه، أنه نقل ذلك عن الإسرائليات، بيانا منه إلى أن ذلك من قبيل التاريخ والأخبار التي قال فيها، عليه السلام:" خذوا من بني إسرائيل، ولا حرج". والله أعلم.

ولنرجع إلى الحديث الصحيح في هذا الموضوع، الذي رواه الشيخان وغيرهما، حتى قال الحافظ السيوطي إنه متواتر، وهو قوله، عليه السلام: "بعثت أنا والساعة كهاتين". وقد تصدّى لشرحه شراح البخاري ومسلم، وغيرُهما: أن معنى الحديث، تقريب أمر الساعة. قال المناوي في "شرح الجامع الصغير":

(بعثت أنا والساعة كهاتين): الأصبعين، السبابة والوسطى. وقال عياض: هو تمثيل لاتصال زمنه بزمانها، وأنه ليس بينهما شيء، كما أنهما ليس بينهما أصبع أخرى. ويحتمل أنه تمثيل لقرب ما بينهما من المدة، كقرب السبابة والوسطى.

ثم ذكر المناوي تنبيها عن القرطبي أنه قال: لا منافاة بين هذا وبين قوله: " ما المسؤول عنها بأعلم من السائل"، لأن مراده هنا أنه ليس بينه وبين الساعة نبي، كما ليس بين السبابة والوسطى أصبع. ولا يلزم منه علم وقتها بعينه، لكن سياقه يفيد قربها، وأن أشراطها متتابعة.هـ [202/3].

وقد أطال صاحب "هداية الباري، إلى ترتيب أحاديث البخاري"، العلامة السيد عبد الرحيم عنبرالطهطاوي المصري، أحد علماء أول هذا القرن، لأنه أتمّ هذا المؤلَف سنة1337 هـ، ولفظه:

"بعثت أنا والساعة كهاتين": الإشارة إلى أصبعيه، صلى الله تعالى عليه وسلم، الوسطى والتي تلي الإبهام. والمعنى أن نسبة تقدم البعثة النبوية على قيام الساعة، كنسبة فضل إحدى الأصبعين على الأخرى: يريد تقريب أمر الساعة وسرعة مجيئها، (ومَا أمْرُ السَّاعَةِ إلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أوْ هُوَ أقْرَبُ)،[النحل:77].

هذا، وفي الحديث إشعار بأنه، صلى الله تعالى عليه وسلم، علم قربها على الإجمال. أما وقت قيامها، فمما استأثر به علم الربوبية، كما نطق به الكتاب:

(يَسْألونكَ عن السَّاعةِ أيَّانَ مُرْسَاهَا، قل إنَّمَا عِلمُها عِنْدَ رَبِّي، لا يُجَلّيهَا لِوَقْتِهَا إلاَّ هُوَ)الآيـة[6]، أي لا يكشف عنها، ولا يُظهر للناس أمرها في وقتها، إلا الله سبحانه بالذات، من غير أن يشعر به أحد من المخلوقين، فيتوسط في إظهاره، ولكن لا بطريق الإخبار، بل بإظهار عينها في وقتها الذي تسألون عنه.

[و] في النظم الكريم، بيان لاستمرار خفائها إلى حين قيامها، وإقناط كلي عن إظهار أمرها بطريق الإخبار. وإنما أخفى، جل شأنه، أمر الساعة، لاقتضاء الحكمة التشريعية ذلك، لأنه أدعى إلى الطاعة، وأزجر عن المعصية؛ كإخفاء الأجل الخاص بالإنسان، ليكون دائم الأهبة إلى الارتحال: فإخفاء أمرها مبدأ للنفس تبني عليه شؤون مستقبلها، من الرغبة والرهبة، المترتب عليهما الجزاء، كما قال تعالى: (إنَّ السَّاعةَ آتِيَةٌ أكَادُ أخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى)،[7] إلخ.[1-285].

ونسب صاحب "هداية الباري"، هذا الحديث بخصوص روايته لمسلم والنسائي، مع أن الحديث رواه أيضا البخاري والإمام،[كذا]، وغيرهما. بل قال الجلال السيوطي: إن هذا الحديث من قبيل المتواتر، كما سبق لنا. وما بسطه هنا صاحب هذا الكتاب، إنما هو بسط لما أسلفناه. بل ما تقدم فيه من زيادة لبعض المآخذ. وإنما ذيلنا به ما قدمنا، اغتباطا بما قاله هذا العالم المصري، لنذل الغافل على أن هذه الأمة لا يزال فيها من يقوم فيها بالقول الحق، ويجري على الصراط المستقيم، دون اتباع هذه الفئة الضالة المتبعة للمنهج السقيم.

وبعد هذا كله، فالذي لا يمكن أن ينحرف عنه الفكر الصائب، والواقف عند حدود الكتاب والسنة؛ أن الساعة لا يعلمها إلا الواحد الأحد، ولا يعرف وقتها من البرية أحد. ولهذا لا يدري منتهى هذا الخلق إلا الله تعالى. ولهذا قال الحافظ ابن حزم، في كتابه "الفِصَل"، مؤيدا لهذه المقالة، وطاعنا فيما سواها، ما لفظه:

" وأما اختلاف الناس في التاريخ؛ فإن اليهود يقولون: للدنيا أربعة آلاف سنة ونيف، والنصارى يقولون للدنيا خمسة آلاف سنة. وأما نحن، فلا نقطع على عدد معروف عندنا. وأما من ادعى في ذلك سبعة آلاف سنة، أو أكثر أو أقل، فقد كذب وقال ما لم يأت قط عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فيه لفظة تصحّ. بل صحّ عنه، عليه السلام، خلافه؛ بل نقطع على أن للدنيا أمدا لا يعلمه إلا الله، عز وجل. قال الله تعالى: (مَا أشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ والارْض وَلاَ خَلقَ أنْفُسِهِمْ)،[الكهف:51]، وقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: " ما أنتم في الأمم قبلكم، إلا كالشعرة البيضاء في الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في الثور الأبيض". هذا عنه، عليه السلام، ثابت، وهو، عليه السلام، لا يقول إلا عين الحق، ولا يسامح بشيء من الباطل. وهذه نسبة من تدبرها، وعرف مقدار أعداد أهل الإسلام، ونسبة ما بأيديهم

---

[6]) الأعراف:187
[7]) طه: 15

من معمور الأرض، وأنه الأكثر؛ علم أن للدنيا عددا لا يحصيه إلا الله الخالق تعالى، وكذلك قوله، صلى الله عليه وسلم: "بعثت أنا والساعة كهاتين"، وضم أصبعيه المقدستين السبابة والوسطى. وقد جاء النص بأن الساعة؛ لا يعلم متى تكون إلا الله عز وجل، لا أحد سواه، فصحّ أنه، عليه السلام، إنما عنى شدة القرب، لا فضل طول الوسطى على السبابة، إذ لو أراد فضل ذلك، لأخذت نسبة ما بين الأصبعين ونسب ذلك من طول الوسطى؛ فكان يعلم بذلك متى تقوم الساعة، وهذا باطل. وأيضا فكأن تكون نسبته، عليه السلام، إيانا إلى ما قبلنا، بأنه كالشعرة في الثور، كذبا. ومعاذ الله من ذلك. فصح أنه، عليه السلام، إنما أراد شدة القرب. وله عليه السلام منذ بعث أربعمائة عام ونيّف، والله أعلم بمقدار ما بقي من عمر الدنيا".[2-84].

قلت: وأما في زماننا، وهو أواخر القرن الرابع عشر(1393)؛ فإن قول من قال: الدنيا أربعة آلاف، أو خمسة آلاف، أو سبعة آلاف -كما سبق التنبيه لهذا - فإن الدلائل قطعية على بطلان تلك الأقوال. ومن نسبها لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، فإنه إما متبع لرواية باطلة، أو هو محض كذب على رسول الله؛ فإن كان متعمدا، فليتبوأ معقده من النار، كما في الحديث.

ثم ذيل ابن حزم كلامه السابق بقوله: وقد رأيت بخط الأمير أبي محمد، عبد الله بن عبد الرحمان بن الناصر، رحمه الله، قال: حدثني محمد بن معاوية القرشيّ أنه رأى بالهند(بُدَا)، له اثنان وسبعون ألف سنة. وقد وجد محمود بن سبكتكين بالهند، مدينة يؤرخونها بأربعمائة ألف سنة.

ثم قال ابن حزم: إلا أن لكل ذلك أولا ومبدأ، ولا بد من نهاية، لم يكن شيء من العالم موجودا قبلها. ولله الأمر من قبل ومن بعد.هـ[2-85].

وهنا ينتهي بنا المقال، في واسع هذا المجال. ونكل الأمر فيما عجزنا عن فهمه، أو لم نقف على من أحرز التبريز في قوله، إلى الأول والآخر، والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم.

هذا ما لأهل الإسلام في مسألة تحديد بقاء هذه الدنيا الفانية، وغيرهم من قدماء اليهودية والنصرانية.

[كلام أهل العلم الحديث في تحديد ما مضى من الزمان، وتذييل ذلك بجواب سيدنا موسى لفرعون في الموضوع]

أما أهل هذه العصور الأخيرة، من أهل العلم الحديث، الذين لا يتعبدون بدين، ولا يرجعون في أبحاثهم إلى إسناد متين، بل يستندون في أقوالهم في تواريخهم إلى آثار واهية، وأدلة لا برهان لها، ولا شواهد واضحة عليها؛ إلا مجرد عقولهم، وأخذهم

عدد السنين الماضية من أحجار في الفيافي والقفار، وعظام حيوانية أبلاها مرور الليل والنهار، وفيافي ناضبة تداولتها المياه والبحار، وانجلت عنها وتركت فيها من حصى المياه قطعا قديمة وأحجار؛ ويعتمدون على ذلك، ويقدرون ما مر عليها من الأزمان والأعصار، فيعدونها بالملايين العديدة التي لا يحصيها إلا خالقها، وهو الواحد القهار.

وأنت، إذا سمعت ما استندوا عليه في ذلك، مجّه سمعك، وألفيته أوهى من بيت العنكبوت في ذلك. وإنْ بحثتهم في الاحتجاج، وجدت المناضل في ذلك فاسد المزاج؛ إذ حاولوا الاطلاع على الأسرار الغيبية التي انفرد بها رب البرية.

ويعجبني أن أتلو عليهم جواب نبي الله وكليمه، سيدنا موسى، عليه الصلاة والسلام، لما أراد عدوّه، فرعون الضال، أن يشغله عما جاء به، عليه السلام، من مهمة الإرشاد، وهي الدعوة إلى توحيد الرب الذي أعطى كل مخلوقاته جميع ما يحتاجون ويرتفقون به، ثم هدى وأرشد. ودل سبحانه بذلك على وجوده ووحدانيته، وجوده وكرمه، إذ قال الضال لموسى، أو لهما، موسى وهارون، على وجه الإنكار: (فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى؟!)، فأجابه سيدنا موسى بقوله: (رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى)،[طه:50]. فلم يجد اللعين جوابا يرده به، إلا إرادة صرفه عن هذا الموضوع بسؤال أجنبي عن الموضوع، وهو سؤاله عن التواريخ القديمة وأخبار القرون الأولى، فكان جوابه مفحما صارفا له عن البحث في هذا الموضوع، بأن هذا الأمر لا يطلع عليه إلا علام الغيوب؛ فقال له إن علم أحوال هذه القرون، أمرٌ إلهي عند رب الأرباب، مثبت بتفاصيل في اللوح المحفوظ.

وعليه، فالجواب في عدد هذه القرون الماضية على الدنيا إلى يوم القيامة، لا يعلمها إلا الله، جل وعلا، الذي لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات وفي الأرض، سبحانه جل وعلا.

[ما قيل في طريقة نشأة الكون، ومسألة تقدير ما مضى من الزمان قبل ذلك]

أما هؤلاء الذين حاولوا بفلسفتهم وإقدامهم، الذي مآله إلى العجز لا محالة؛ فإنهم قالوا قولة مضحكة، لا دليل عليها، لا نقلا ولا عقلا، وإنما هي قولة قالها قائل، وهي: ان مادة الكون كلها، كانت محشوة في ذرة ضخمة، ظلت ساكنة مستقرة إلى قبل عشرة آلاف مليون سنة، ثم انفجرت فجأة، كما ينطلق صاروخ من الصواريخ النارية العلوية في حفلة وفاء النيل؛ فانتثرت منه الشموس التي يتألف منها الكون.

هذا ما صدّر به صاحب كتاب " فتوحات العلم الحديث"، واستمر في هذه التسورات على الخفايا والأسرار المستورات، وتعدد الأنظار في ذلك واعتراضها

وإبطالها، ثم الإدلاء بنظريات غيرها. وكلها شبه الخرافات والهذيان الذي يصدر عن أهل الحميات؛[وتجافوا]أن يردوا العلم لباريها، ويفوضوا الأمر، فيما لم يروه ويشاهدوه، إلى منشئها ومدبر[أمرها].

ثم بعد ذكر هذه الأفكار، وجعلها مما تعجب منه الحكماء الكبار، قال: ولكن الجيولوجيين يقولون: إن عمر الأرض لا يقل عن ألف مليون سنة.[ص88-89].

ثم استمر هذا الناقل للأفكار، التي لا تستند إلى قول ثابت يستحق القبول والاعتبار، والتجافي عن أن يقول الحق الذي لا يعتريه التباس ولا اشتباه، وهو قوله تعالى: (قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ الغَيْبَ إلاَّ اللهُ)الآية.[النمل:65]، ويقول، كما قاله الحافظ ابن حزم فيما تقدم: إنا لا نقطع بشيء مما قيل في تحديد هذه الدنيا بأمد محدود، وإنما نقول: الله أعلم بمبدئها ومنتهاها، إذ لو علمنا منتهاها لكنا نعلم[وقت] قيام الساعة، والله تعالى يقول: (لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إلاَّ هُوَ)، حسبما قدمنا ذلك عنه وعن غيره، وهو مقتضى الآيات والأحاديث الصحيحة.

[مواصلة الكلام على غربة دين الإسلام]

وإنما نرجع إلى ما كنا بصدده من[أن] أمر هذه الأمة استحال، واختلط أمر دينها بقضايا خارجة عن صحيح ديانتها بالاختلال، وظهرت فيها أشراط الساعة المتعددة، التي أخبر بها الذي لا ينطق إلا عن وحي من الكبير المتعال، حسبما قدمنا جملة منها في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

ثم صار هذا الدين غريبا، كما بدأ غريبا، حسبما سبق بيانه. وشرح هذه الحالة التي كان عليها هذا الدين من الغربة، والنبي، عليه الصلاة والسلام، بين أيدي الأمة، وكيف كانت مقابلة تلك الحال السيئة باللطف واللين، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ومجادلتهم بالتي هي أحسن، حتى انقاد الكل إلى الحق، وصار الناس يدخلون في دين الله أفواجا، حسبما سلف، وانتشر نور الله في الأقطار، وأفحم كل فاجر كفار.

ثم عاد في هذه العصور الأخيرة إلى ما كان عليه من الغربة، كما هو مشاهد في عصرنا هذا؛ إذ اختلت الأحوال، وعم في الديانة الاختلال. ولكن أبى الله إلا أن يتم نور الإسلام، وهو نور الله الذي لا تطفئه صواريخ النيران، ولا يؤثر في عقائده الصحيحة شرّ صحائف الأقلام.

فتبين من هذه المقالات العديدة، والنقول السديدة، أنه لا خلاف بين ما ارتاع له العلامة ابن مبارك،[وبين جواب شيخه العارف الدباغ]، من مشاهدة كثرة الانحراف من أهل هذا الدين، ودخول جملة منهم في زمرة المنافقين والملحدين الذين قل بانحرافهم حماته وأنصاره، وإحاطته به من كل جانب ملماته وأخطاره، وصدق عليه

ما أخبر به خاتم الرسل وإمام الأنبياء، في الحديث الذي رواه مولاه ثوبان، كما في سنن أبي داود، وذكره صاحب كتاب "تيسير الوصول"، قال ثوبان: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "يوشك الأمم أن تتداعى عليكم كما تتداعى الأكلة على قصعتها". فقال قائل: من قلة نحن يومئذ؟ قال: "لا. بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل؛ ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن". قيل وما الوهن؟ قال: " حب الدنيا وكراهة الموت". هـ.(التداعي: يدعو بعضهم بعضا فيجيب. والأكلة: جمع آكل. والغثاء: ما يلقيه السيل).[154/3].

هذا، والله قد تداعت الأعداء من الأجانب، وبجانبهم الأعداء من أبناء جلدتنا، واجتمعت كلمتهم على محو كلمة التوحيد، وتفريق أهله وتضليلهم عن دعوة الحق الذي هو الصراط المستقيم.

ولكن يأبى الله بلوغ مقاصدهم، والقضاء الكلي على أهل الإسلام وعقائدهم في دينهم، رغم اتفاقهم على ذلك وتداعيهم، كما قال العلامة الشاطبي في شأن أهل البدع الخارجين عن السنة، ومحاولة تحويل أهل السنة إلى بدعهم الضالة، وعقائدهم الفاسدة، ويكونون تحت جماعتهم، كما يحاول الآن أهل الفسوق والعصيان، والكفر بالملك الواحد الديان، أن يرتدوا على عقبهم، ويخلعوا حلة التوحيد البيضاء من قلوبهم، وتغشى أفئدتهم قطعٌ من الإلحاد السوداء المظلمة،(وأوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)،[البقرة:217].

وفي موضوعه يقول الإمام، عمدة أهل الإسلام(*): ويأبى الله أن تجتمع، حتى تقوم الساعة، فلا تجتمع الفرق كلها، على كثرتها، على مخالفة السنة، عادة وسمعا. بل لا بد أن تثبت جماعة أهل السنة حتى يأتي أمر الله.هـ.

قلت: وهو مصداق الحديث الصحيح، الذي سبقت الإشارة إليه في هذا الكتاب غير ما مرة، وهو قوله، عليه السلام: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق"الخ، وأيدناه بكلام سيدنا علي بن أبي طالب، الذي هو باب العلوم ومفتاحها، وكاشف أسرارها، وفاتح أغلاقها.

ومما قدمناه، يفهم القارئ النبيل أنه لا مخالفة بين استشكال العلامة ابن مبارك، وأن الدين الحق لا يزال ظاهرا على سائر الأديان، لأنه من نورانية الحق الباقي، وهو من صفاته، كما صرح بذلك الفخر الرازي، وقد قدمنا نصه، وأن الخفاء الذي أوجب للعلامة ابن مبارك أن يسأل عنه شيخه العارف الدباغ؛ فأبان له ذلك أوضح بيان، وأن ما نطق به القرآن، هو كلام محكمٌ، وخبر حق، لا ينسخه ناسخ، ما دامت السماوات والأرض، وما امتد الزمان، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

(*) كذا في الأصل.

ثم بعد[هذا] أقول: إن الحالة في عصرنا هذا تبعث على الأسى والأسف، ونرى هذه الحوادث المتتابعة في ضلال أهل هذه الأمة تزداد شرًا بعد شر، وتُباين في أفعالها وعقائدها وأخلاقها السلف الصالح من أهل الدين والخير، وتطعن فيهم، وتزدري أصول ديانتها، وتنظر إليها بعين الاستهزاء والاحتقار، بل وتلعن منهم من تلعن، وتضلل منهم من تضلل. وكل ذلك يَدل على الاختلال، وعلى الفناء والاضمحلال؛ إذ كل ذلك أخبر به من لا ينطق عن الهوى، وهو لا يخفى عن كل عالم.

والمولى يداركنا بألطافه، ويعامل هذه الأمة، فيلهمها رشدها، بوافر كرمه، وجميل ألطافه.

[التوسل إلى الله بدعاء سيدي محمد بن ناصر، الذي دعا به لما ساءت الأحوال]

ثم تنوسل إلى الله، بما توسل به إليه ذاك الإمام الناسك، والعلامة الذي منحه الله العلمين: الظاهر والباطن، فسلك فيهما أقوم المسالك، قدوة السالكين الأخيار، ونخبة المرشدين الأبرار، سيدي محمد بن ناصر الدرعي، لما ضاق عليه الحال من كثرة الأشرار، وتتابع الطامات الكبار، وضعفت الدولة، وتكاثرت الثورات في الجنوب والشمال، والسهول والجبال؛ فهذه الشبانات تحاول الملك، وتسعى في أهلاك تلك الشرذمة الباقية من أصل المملكة، وهذه الزاوية الدلائية تنضم إليها جماعة من أهل فاس، الذين أضناهم الخوف وفقد الأمان، حتى حصل لهم الإياس، مع معاضدة جماعة ممن ملوا الفوضى؛ إذ النفوس كل يوم تراها مسفوكة، والإغارة على الدور والمساكن مسلوكة؛ فاندفع أهل الدلاء للدفاع ورد هؤلاء المعتدين الذين يسعون في الأرض فسادا؛ فالواجب إجراء حكم الله فيهم، وهو (أنْ يُقَتَّلُوا) إلخ[الآية].

ولكن من نظر إلى هذه الحالة التي كانوا يجتازونها،[علم]أنها كانت صعبة التدبير؛ إذ قام في المغرب كل ثائر من الداخل والخارج، والجنوب والشمال، [ففي] الجنوب يتنازع ورثة الملك السعدي، والتقاتل بينهم [على الدوام]، وكل يدعي أنه على الحق، والناس معهم في تقاتل وتضارب. وبعد انهيار الدولة بالكلية، قامت الزاوية الدلائية تروم القيام بأمر الملك، بطلب من انضم إليها؛ والعياشي قائم بالفرض في دفع العدو، الذي فغر فاه على الكل، ونزل ببعض الشواطئ. ومحاربته ودفاعه العظيم، شهير، وأمره مبسوط في كتب التاريخ.

وأما في الخارج، فكانت المدن التي في الشواطئ تترامى عليها الدول، من طنجة والعرائش وآسفي وغيرها. وأما من جهة البر فكان الأتراك بالجزائر يحاولون ضم المغرب كله إليها، وفي الدولة السعدية[لما]استجارت بهم، دخل جنودهم مدينة فاس واحتلوا باديس، من شواطئ الريف، ولكن انصرفوا عن ذلك.

وهذه فتن عظيمة كان فيها المغرب[في] أخطار تضطرب لها الأفئدة، ويملؤها الرعب والحذر، ولا ينفع في ذلك إلا التعلق بخالق القوى والقدر. فلهذا أنشأ هذا العارف، هذه القصيدة، التي ندعُو نحن في هذا العصر بها، راجين من الله الاستجابة. وأولها:

يا مَن إلى رحمته المفـــــرّ ومَن إليه يلجأ المضطـــــرّ
ويَـا قريب العفو يـا مــــولاهُ ويا مغيث كل من دعــــاهُ
بك استغثنا يا مغيث الضعفــا فحسبنا يا رب أنت وكفــى
فلا أجل من عظيم قدرتــــكْ ولا أعزّ من عزيز سطوتـكْ
لعز ملكك الملــوك تخضـــعُ تخفضُ قدر من تشَــا وترفعُ
والأمر كلـهُ إليـــــكَ ردّهُ وبيديك حلـهُ وعقـــــدهُ
وقد رفعنا أمرنــا إليــــكَ وقد شكونا ضعفنا عليــكَ
فارحمنا يا من لا يـزال عـالمًا بضعفنا ولا يـزال راحمــا
انظر إلى ما مسَّنـا من الورَى فحالنا من بينهم كما تـرَى
قد قلّ جمعنا وقلّ وفرنــــا وانحط من بين الجموع قدرنا
واستضعفونا شوكة وشــدّة واستضعفونا عُدّة وعـــدّة
فنحن يا من ملكه لا يُسلـــبُ لذنــا بجاهك الذي لا يغلـــبُ
إليك يـا غوث الفقيـر نستنــدْ عليك يا كهف الضعيف نعتمــدْ
أنت الذي ندعو لكشف الغمراتْ أنت الذي نرجو لدفع الحسراتْ
أنت العناية التي لا نرتجـــي حماية من غير بابها تجـــي
أنت الذي نسعى بباب فضلـهِ أكرمُ من أغنـى بفيض نيلـــهِ

إلى أن قال:

يا رب وانصر ديننا المحمّدي واجعل ختام عزه كما بـُدي
واحفظه يا رب بحفظ العلمَــــا وارفع منار نوره إلى السّمَــا

وهي قصيدة في موضوع هذا التوسل طويلة، مشهورة في المغرب بين الناس؛ وعهدي أنها تقرأ في المساجد في بعض المدن بالمغرب، بعد صلاة المغرب عند الفراغ من قراءة حزب القرآن المعهود، ما عدا بتطوان، فإنه ربما كانت تقرأ في الزاوية الناصرية.

[الدعاء مرّغب فيه للمؤمن، وأنه مخ العبادة]

وإني إنما أشرت [إلى]هذا القدر منها هنا، توسلا بما توسل به هذا العارف الرباني، لأن حالنا اليوم كحاله، من كثرة أوصابه وأوجاله. والله جل وعلا، لا يخيب سائله، ولا يرد من وقف بباب فضله وجوده، لأنه، جل وعلا، يقول: (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)، وفي الحديث عن النعمان بن بشير، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " الدعاء هو العبادة"، ثم قرأ (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) الآية. وقال صلى الله

عليه وسلم: "الدعاء مخ العبادة". وروى أبو هريرة أنه، صلى الله عليه وسلم، قال: " ليس شيء أكرم على الله عز وجل من الدعاء"، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث في الترغيب في الدعاء وفضله. ولا يقنط الداعي من دعاء، ولا يقول: دعوت فلم يستجب لي؛ ففي الحديث: "يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول: قد دعوت فلم يستجب لي ؛ فإذا دعوت، فاسأل الله كثيرا، فإنك تدعو كريما".

ثم إن الداعي المخلص في دعائه، لا بد أنه يجد في دعائه نوعا من الفرح، وانشراحا في القلب، لغلبة الرجاء عليه ولو لم تحصل الإجابة، لغلبة الثقة بربه، وامتلاء قلبه بجلالته وحبه، ولو لم تقع الإجابة، لما في الرجاء، كما في الحديث: " إن النصر مع الصبر، وإن مع الشدة الفرج، وإنّ مع العُسر يُسرا"؛ لأن الدعاء، كما قدمنا، هو مخ العبادة وخلاصتها، فالداعي لله مخلصا هو في نوع من العبادة، ولهذا ورد في الحديث: " إن العبد لا يُخطئه من الدعاءِ إحدى ثلاث: إما ذنب يغفر له، وإما خير يعجل له، وإما خير يدّخر له". والكلام على الدعاء وفضله، وما ورد فيه من الفضل في القرآن الكريم، وحديث النبي، عليه أفضل الصلاة، وأزكى السلام، وعن أصحابه الكرام، وعن أماثل العلماء الأعلام. ومن أراد الاتساع، فعليه بكتاب "الإحياء"، و"الأذكار" للإمام النووي، وغيرهما من شروح البخاري ومسلم، وغير ذلك.

والخلاصة في هذا، أن الدعاء مرغب فيه للمؤمن، وأنه من أكبر التعبد لله، وقد وعد الله الداعي بالإجابة في أمور الدنيا والآخرة، وبذلك علمنا تعالى في كتابه العزيز في قوله: (ومنهُمْ مَّنْ يقولُ رَبَّنا آتنا فِي الدّنْيَا حَسَنَةً وفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّار، أولئِكَ لهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا)الآيةَ[البقرة:202]. ثم رغب عباده في ذلك، ووعدهم بالإجابة، كما تقدم.

وقال في الحديث القدسي: "أنا عند ظن عبدي بي". قال عياض في هذا الحديث: قيل معناه بالغفران إذا ظنه حين يستغفر، وبالقبول إذا ظنه حين يتوب، وبالإجابة إذا ظنها حين يدعو، وبالكفاية إذا ظنها حين يستكفي؛ لأن هذه صفات لا تظهر إلا إذا حسن ظنه بالله تعالى. قال القرطبي: وكذا تحسين الظن بقبول العمل عند فعله إياه. ويشهد لذلك قوله، صلى الله عليه وسلم: "أدعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة".أنظر تمامه في شرح الأبِّي لمسلم:110/7.

[لا يجوز تضليل مجموع الأمة، واجتناب إساءة الظن بالمسلمين]

وعليه، فلنرجع لبعض ما قدمنا، مما يُوهم الإياس والتحسر، مما عليه حال هذه الأمة من انحراف الجل منها، أو التعبير في بعض المواطن بتضليل الكل. [ولكن]

إن[تأملت] في بعض عبارتنا، فيما تقدم، فإنك ترى[فيها] ما يفيد خلافه، وأن الحق، كما قدمنا، هو أن الدين القيم الذي قال الله فيه: (يُرِيدُونَ أنْ يُطفئُوا نُورَ اللهِ بأفواهِهِمْ، ويأبَى اللهُ إلا أنْ يُتمَّ نُورَهُ ولَوْكَرِهَ الكافرُونَ)،[التوبة:32]، وأن نور الله من صفاته، باقية ببقائه، وأن هذا الدين، ثابت في اللوح المحفوظ، كما قال العارف الدباغ.

وعليه، فلا ينبغي للمؤمن أن يسيء الظن بمن يقول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. بل يحسن الظن به، إلا إن رأى منه الكفر الصراح الذي لا يقبل التأويل؛ كيف والنبي، صلى الله عليه وسلم، يقول، كما في صحيح مسلم: "من قال: هلك الناس، فهو أهلكهم"، بفتح الكاف وضمها. وهذا الحديث الصحيح صريح بأنه لا يجوز تضليل أهل الإسلام جملة. قال الأبي: سياق الحديث، يدلّ على ذمّ ذلك هـ. وذلك إذا قاله، كما قال المازري، إعجابا بنفسه، واحتقارا للناس. وأما إذا قاله -كما هو موضوع كلامنا السابق - على سبيل التفجع والتوجع، والإشفاق على هذه الأمة، من تبدل حالها، واختلال أحوالها، وإحداثها في الدين ما لم يأذن به الله، وكثرة ارتكاب المنهيات والمحرمات، والمجاهرة بالفسوق والعصيان، الذي يخرج عن المعتقدات والتوحيد للملك الديان؛ فهذه الأحوال هي من قبيل المنكرات التي يجب تغييرها وإنكارها باليد، وإلا فباللسان والقلب، وهو أضعف الإيمان، كما في الحديث، وهو ظاهر.

وهنا نستوقف القلم عن السير في هذه التوسلات والاستطرادات، التي جرّ إليها المقام، في ترجمة الشيخ سيدي عبد السلام بناني، ونرجع إلى إتمام تراجم بقية أشياخنا الفاسيين، فأقول:

ترجمة شيخنا العلامة ابن القرشي

[مقروءاته المؤلفه عليه]

ومنهم شيخنا العلامة المشارك في الفنون، الحافظ للمصنفات والمتون، القائل بالحق ولا يبالي، أبو زيد، سيدي عبد الرحمان ابن القرشي الفيلالي.

قرأت عليه "مختصر" الشيخ خليل، من باب الكناية إلى الختام، قراءة كان يستوعب فيها مضمن الخرشي والزرقاني، وما حققه محشّوه، مَن بناني والشيخ الرهوني. كما قرأت عليه في أشهر العطلة "همزية" الإمام البوصيري، في مدح خاتم الأنبياء، الذي هو بكل مدح حريّ.

وقرأت عليه منظومة سيدي العربي الفاسي في مصطلح الحديث، التي افتتحها بقوله:

حمدًا لمن نزل أحسن الحديث إلخ.
وذلك من أولها إلى آخرها، بشرح المحقق العلامة، فرع من نشر للمعارف والعرفان راياته وأعلامه، إمام المغرب الذي كان قدوة لأهله، أعلى مكانته في العلم ورفع مقامه، سيدي محمد بن عبد القادر الفاسي. وهذا الشرح، على وجازته، كما قاله محشيه، جامع لكثير من الفوائد.

[التنويه بحاشية العلامة كنون، والإشارة إلى ترجمته]

وكنت أراجع في درس هذه المنظومة، "حاشية" العلامة المحقق سيدي مَحمد، فتحا، ابن مُحمد، ضما، ابن عبد السلام كنون، الذي قال فيه صاحب "رياض الجنة": إنه من أشهر علماء فاس، وذوي المشاركة التامة في كثير من العلوم الحديثية والفقهية والأصولية والعربية، متضلع في العلوم المعقولية. له حفظ عجيب، إلخ ما حلاه به، مما كنت أسمعه من بعض نبلاء الطلبة الذين قرأوا عليه.
قلت: وهذه "الحاشية" التي كتبها على شرح المنظومة المذكورة؛ حاشية مبسوطة، آتية بتتميمات ومهمات من مباحث هذا الفن، كافية في المراد. ومن عادته فيها أن يأتي بالنصوص كاملة عن أربابها، دون تصرف أو تغيير. نعم؛ يُذيل ذلك بتحقيق ما اشتبه، وتبيين ما أجمل، وتقييد ما أطلق من كلام أئمة الفن؛ وكنت أنا أثناء القراءة، أراجع تلك الحاشية الجليلة.
أما شيخنا، فلم يكن ينحو نحوها، ولا يُجري ذكرها، لأن مؤلفها من أقرانه ومعاصريه؛ والفقيه ابن القرشي يرى نفسه أعلى من ذلك، وهو ظاهر. نعم؛ كان شيخنا يحاذي "ألفية" العراقي، لأنها المعتمدة في هذا الفن، لأن الحافظ العراقي حاذى بهذه الألفية كتاب "علوم الحديث" لابن الصلاح. وكان هذا الشيخ يملي من ألفية العراقي، عند ما يقتضي الحال طلب شاهد منها على الموضوع، الأبيات الكثيرة من حفظه، لأنه كان حافظا للمتون، كما سبق.
أما اختيار الحافظ العراقي لهذا الكتاب الفريد، فإنه هو الكتاب الجامع في هذا الفن ، وهو عمدة الراغبين بعد موت مؤلفه. وقد تقدم لنا ترجمة هذا الإمام[أي ابن الصلاح] في المجلد الخامس، في مبحث المرحلة السادسة من مراحل اجتياز علم الحديث، فانظر ذلك أول المجلد المذكور.
أما "حاشية" الشيخ سيدي مَحمد كنون، فهي حاشية واعية، تشنف كل أذن مستمعة صاغية. ولقد كنت أود لو أدركت هذا الشيخ الجليل، وتشرفت بسماع دروسه، لِما كنت أسمع من أصحابنا النبلاء وغيرهم، من جميل الثناء على هذا الإمام، الذي كان من أركان جامع القرويين. ولقد استوفى ترجمته صاحبنا سيدي

عبد الحفيظ الفاسي في "رياضه"؛ فليكرع الظمآن لسماع مجالس هذا الشيخ، من رحيق حياضه.

وإني أقول في هذه "الحاشية" النفيسة، التي استوعبت المهم من مسائل من الاصطلاح: ولشدة اغتباطي بمؤلفها، وتلهفي على ما فاتني من حضور مجالسه العلمية، ولاتفاق الألسن على الثناء عليه، وانتفاع الطلبة بالإقبال عليه؛ أعدّ نفسي كأني حضرت تلك المجالس الرائقة، بمطالعة تلك "الحاشية"، لدى قراءتي منظومة العلامة المتفنن، سيدي العربي الفاسي، كما سبق، على شيخنا الحافظ، سيدي عبد الرحمان ابن القرشي، المترجم هنا.

[أخذ المؤلف بالوجادة عن الشيخ كنون، شرحه للحديث الوارد في العلم، واعتباره من شيوخه]

وأذيل ذلك بصلة الوصل بالأخذ عنه بنوع الرواية بالوجادة، وأخص بذلك، ذلك الحديث الذي ورد في شأن علم الكتاب والسنة، وتوسع هذا الإمام في تفسيره. ولفظه، في تعداد ما ورد في فضائل رواية الحديث، وما لأهله من الفضائل والخصائص، وتنوير قلوبهم، وشرف مقاماتهم، فقال:

ومنها ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص عنه، صلى الله عليه وسلم، قال: "العلم ثلاثة: آية محكمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة؛ وما سوى ذلك فهو فضل". رواه أبو داود وابن ماجه. وأل في العلم للعهد، والمعهود علم الشريعة. والمعنى أن علم الشريعة منحصر في ثلاثة:

الأول: علم التفسير، وما يتوقف عليه من الأصلين والعربية، وإليه أشار بقوله: " آية محكمة"، أي أحكمت عبارتها بأن حفظت من الاحتمال والاشتباه، فكانت أم الكتاب، فتحمل المتشابهات عليها وترد إليها. ولا يتم ذلك إلا للماهر الحاذق في علم التفسير والتأويل، الحاوي لمقدمات يفتقر هو إليها من الأصلين والعربية.

الثاني: علم الحديث، رواية ودراية، وهو المشار إليه بقوله: "أو سنة قائمة"، إذ معنى قيامها دوامها وثباتها بالمحافظة عليها: من قامت السوق إذا نفقت، لأنها إذا حوفظ عليها، كانت كالشيء النافق الذي تتوجه إليه الرغبات، ويتنافس فيه المخلصون بالطلبات. ودوامها: إما أن يكون بحفظ أسانيدها، من معرفة أسماء الرجال والجرح والتعديل، ومعرفة الأقسام من الصحيح والحسن، والضعيف المتشعب منه أنواع كثيرة، وما يتصل بها من المتممات، مما يسمى علم الاصطلاح. وإما أن يكون بحفظ متونها من التغيير والتبديل، بالإتقان وتفهم معانيها، واستنباط العلوم منها.

الثالث: علم الفرائض، وإليه أشار بقوله: "أو فريضة عادلة"، أي مستقيمة مستنبطة من الكتاب والسنة والإجماع. وقوله: "وما سوى ذلك، فهو فضل"، أي لا

مدخل له في أصل علوم الدين. هـ مما تكلم فيه هذا العلامة على ما في الحديث من تخريج فوائده التي يمكن استنباطها منه، وهو استنباط حسن جميل.
فلهذا أخذتُ هذه الجملة عنه، على وجه الرواية بالوجادة، وأعدّه من شيوخي، لأنه كان وحيد عصره، وفريد أوانه، كما شهد له بذلك نبلاء الأعلام، وأذكياء الأفهام.
أما الكلام في العلوم العربية وغيرها، وتفصيل ما يجب منها وما يستحسن، وما يجوز وما يستهجن، فقد أفضت القول فيه في أول المجلد الأول، وبسطت فيه الكلام، مما فصّله علماء الأمة الأعلام. والله الموفق لصوب الصواب.

[تنبيه بشأن اسم العلامة كنون، أو(كُنِيون) كما أطلق عليه]

وهنا أنبه على أني كنت أشرت سابقا، كما وجدته في اسم هذا العلامة، أنهم يقولون في اسمه: (كنِيون) بالتصغير العامي. ثم إنهم قصدوا بذلك الفرق بينه وبين شيخ شيوخنا، العلامة الشهير، سيدي الحاج مُحمد كنون، صاحب "اختصار الرهوني"، الذي هو من شيوخ هذا الذي صغروا اسمه للفرق، لا أنهم صغروه قصد التحقير والتنقيص؛ كلاً. بل هو العلامة الكبير قدرا، الكامل علما وفهما. وهذا التصغير بهذه الصورة، كثير واقع في كلام أعلام أجلة، بل واقع حتى في كلام رسول الله، صلى الله عليه وسلم، مخاطبا لسيدنا عمر. ففي "شرح" ديوان العارف ابن الفارض، إثر شرح قوله في فائيته:

أسْعِدْ أُخَيَّ وغَنِّنِي بِحَديثِهِ وانثُرْ على سمعي حُلاهُ وشَنِّفِ

ما لفظه: وقد حج أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، مرة، فجاء لوداعه النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال له الرسول، صلى الله عليه وسلم: " لا تنسني من دعائك يا أخي"، فقال رضي الله تعالى عنه: والذي بعثه بالحق، لقد قال كلمة هي عندي خير من حُمُر النعم. وقال رضي الله عنه:

ما قلتُ حبيبي من التحقير بل يعذب اسم الشخص بالتصغير

هـ.[185/1].
قلت: وهذا المعنى ذكره النحاة في فوائد التصغير، ففي "شرح الألفية" للعلامة الأشموني، عن الكوفيين، أن من التعظيم كقول عمر، رضي الله عنه، في ابن مسعود: كُنَيف ملئ علما، وقول بعض العرب: أنا جذيلها المحكَّك، وعذيقها المرجَّب، وقوله:

وكل أناس سوف تدخل بينهم لويهية تصفرّ منها الأنامل

انظر تمامه. وزاد العلامة الصبان في "حاشيته" عن الفارضي: زيادة التحبب كيا بني، والترحم كمسيْكين.[101/4].

قلت: هذا كله سائغ اليوم في الاستعمال. وقول سيدنا عمر في ابن مسعود، رضي الله عنهما: كنيف؛ هو بكسر الكاف، وسكون النون، تليها ياء، وهو كما في "القاموس": وعاء أداة الراعي، أو وعاء أسقاط التاجر. شبه به ابن مسعود، بجامع حفظ كل لما فيه. قاله العلامة الصبان.[الحاشية:102/4]. قلت: فيه مدح لسيدنا عبد الله بن مسعود، وأنه حافظ العلوم جامع لها؛ من علوم القرآن والحديث وغير ذلك، كما هو معلوم في ترجمته. نفعنا الله به وبأمثاله من أصحاب الرسول الكرام، الذين هم نجوم المعالي والمعاني، الذين تألقت بهم هذه الأمة بما وعوه ونقلوه إلينا من العلوم عن سيد الأنام، منتهى الأماني.

* * *

[الرجوع إلى ترجمة الشيخ ابن القرشي ووصف دروسه، وما انتقد عليه فيها]

ولنرجع الآن إلى ترجمة شيخنا ابن القرشي، فأقول: هو شيخنا الحافظ المشارك في كل الفنون، المنتفع بها في عصره، والمثابر على الدراسة والتعليم بجد واجتهاد، مع الحدة والصرامة. يملي دروسه بقوة حفظ، نظما ونثرا، لأنه، رحمه الله، كان يحفظ كثيرا من المتون، وفي غالب أحواله لا يتأنق في إلقائها، فربما وقع منه بعض لحن في بعض الكلمات، لسرعته في الإلقاء؛ فكان بعض المنحرفين عنه يجعلونها وسيلة للقدح في علمه. وهذا غاية الخطإ، ونهاية التحامل للطعن في هذا الشيخ الكبير. كما لا يخفى أن علم النحو عند أصغر الطلبة المبتدئين، في ذلك العصر، هو أسهل علم عندهم.

وهذا اللحن كثيرا ما يقع لعامة المدرسين، إذ شأنهم الاعتناء بإلقاء المعاني وتقريبها للطلبة، لا التأنق في التعبير، وتتبع تزين التحبير. ولهذا الخطإ الملغى لدى إلقاء الدروس، وجدت الطبلة الذين كنت أرافقهم، يصرفونني عن حضور مجالسه، ويزهدونني في الاجتناء من ثمرات غروسه. ولكني كنت أجعل كلامهم وراء ظهري، وأقلد في ذلك، بعد سماع دروسه، فهمي وفكري.

تحامل أهل فاس على شيخنا ابن القرشي [التعصب المحلي، ومسألة الجنسية]

ولكن لا غرو في استخراج عيوب هذا الحافظ الكبير، فإنه لا يعد عندهم من أهل فاس الأصيل، بل هو من الطارئين عليها. فحملهم التعصب الخارج عن منهج الإنصاف، إلى ارتكاب [ما ينافي] حميد الأوصاف، و[إلى عدم]الاعتبار بقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ)، وقوله: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ اخْوَةٌ)، وقوله عليه السلام: "الناس

من آدم، وآدم من تراب، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم". وإن كل من في فاس، أو غيرها من المدن، لم تلده تلك المدينة وإنما[هو] طارئ عليها؛ إن لم يكن أبوه فجده، وإن لم يكن جده فجد أبيه، وهكذا. وقد كنت سألت يوما بعض من هو اليوم من أهل فاس: ما شأن أهل فاس، لا يقيمون للشيخ ابن القرشي وزنا؟ فقال لي: إنهم لا يعدونه من أهل فاس. وهذا غاية التباعد عن الأخوة الإسلامية التي أمر بها القرآن.

ولقد كنت سئلت قبل هذا من قبل الحكومة، عمّا هي الجنسية المعتبرة في هذا الزمان، فأجبت بجواب مضمنه أن الجنسية الإسلامية هي الدين الإسلامي، وأن المسلم المغربي أخو المسلم المشرقي، والمشرقي أخو المسلم الصيني والهندي والأوربي؛ فالجامع في الجنسية هو الدين، وقد جئت في ذلك بالنصوص. والله الموفق.

أما ما وقع للشيخ ابن القرشي، فهو قريب مما وقع لغيره من الطارئين على فاس من العلماء، ومقابلتهم بالإهمال، بل والسعي في إذايتهم والانتقاد عليهم.

[ما وقع لأبي علي اليوسي، بسبب التعصب، وتحاسد أهل العلم]

فمن أشهر ما وقع بمدينة فاس لما دخل إليها الإمام أبو علي، الحسن اليوسي، من انحراف بعض أهل العلم عنه، وإعراضهم عن مجالسه العلمية، إذ أقبل الناس عليها إقبالا عظيما، وجرى له معهم في بعض المجالس ما جرى، مما دعاه أن أنشأ أبياتا في ذلك، منها قوله:

ما أنصفت فاس ولا أعلامها ... علمي، ولا عرفوا جلالة منصبي
لو أنصفوا لصبوْا إليّ كما صبا ... راعي سنين إلى الغمام الصيِّب(*)

ثم لا يخفى أن من ظهر من أهل العلم، وارتقى فيه المراقي العالية، والمقامات السامية، يكتسب بذلك في قلوب من عاصره من أهل العلم، حسدا يورثه حقدا وبغضا يحمله على السعي في تنقيصه، وتنفير العامة عن احترامه والإقبال عليه.

وهذا شيء متمكن، ساكن في نفوس المتشاركين في كل صنعة وحرفة. ومن أمثال العامة: صاحب صنعتك عدوك إلخ. قال حجة الإسلام الغزالي في "إحيائه"، بعد أن ذكر عدة أسباب لحسد الحاسد، قال: وهذه الأسباب، إنما تكثر بين أقوام تجمعهم رابطة يجتمعون بسببها في مجالس المخاطبات، ويتواردون على الأغراض؛ فإذا خالف واحد مهم صاحبه في غرض من الأغراض، نفر طبعه عنه وأبغضه،

(*) انظر ما تقدم في ترجمته، في الجزء السادس، ص375

وثبت الحقد في قلبه. فعند ذلك يريد أن يستحقره ويتكبر عليه، ويكافئه على مخالفته لغرضه، ويكره تمكنه من النعمة التي توصله إلى أغراضه.

وأشار إلى أن التحاسد لا يكون إلا بين متواطنين، إذ لا رابطة بين متباعدين في الوطن، ولا مخالفين في الخطة والحرفة. قال: ولذلك ترى العالم يحسد العالم دون القائد، وهكذا.

ولهذا كان يكثر تحاسد أهل العلم بعضهم على بعض، حتى رد الفقهاء شهادة عالم على مثله، كما قال خليل فيمن ترد شهادته ولا تقبل: " ولا عالم على مثله"،[المختصر:265].

وقد ترجم الإمام أبو عمر ابن عبد البر، في كتاب "جامع بيان العلم وفضله"، وصدّر هذا الباب بذكر حديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عن الزبير بن العوام، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: " دَبَّ إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء، البغضاء هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين. والذي نفس محمد بيده، لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا؛ ألا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم: أفشوا السلام بينكم". ثم أخرج بسنده عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: "استمعوا علم العلماء، ولا تصدقوا بعضهم على بعض؛ فوالذي نفسي بيده، لهم أشد تغايرا من التيوس في زربها".هـ[150/2].

حِدّة طبع شيخنا ابن القرشي، وشدته في المعاملة، وما شاهدته منه في ذلك

ثم إن تحامل أهل فاس، وبالأخص طلبتها، وتتبعهم لعثراته، وإمعانهم في الانتقاد عليه، واقتداء شذّاذ الآفاق بهم؛ ليس من هذا القبيل الذي قدمنا، وإنما هو ناشئ من صرامته واشتداد معارضته لمن خالفه، وعدم مقابلة أهل الجاه والظهور بالتي هي أحسن، لأنه كان يعد فيهم غريبا، وطريق مثله أن يعاملهم بطريق الملاينة والملاطفة، ويقتدي بقوله تعالى: (ادْفَعْ بِالتِي هِيَ أَحْسَنُ فإذَا الذِي بيْنَكَ وبينهُ عدَاوةٌ كأنَّهُ ولِيّ حَمِيمٌ). ولكنه لم يكن طبعه ينقاد للمجاملة، عند ما يعرض له ما يستدعي المعارضة، أو دفع ما يقلقه، ويرمي بما يظهر[له] أنه الحق، بسهام نقده على مقابله ولا يبالي، أكان ذلك المقابل من العامة، أو من ذوي أهل القدر، وذوي الرقي في المعالي.

<u>وقد رأيت شيئا</u> من هذا، ونحن في درسه؛ إذ كان[يجلس قرب] مجلس درسه، وسط الجامع؛ الشريف العظيم القدر، مولاي إدريس بن عبد الهادي، الجامع لأنواع المعالي والمفاخر، من شرف النسب العلوي، وشرف اتصاله بالعائلة العلوية المالكة، إذ كان[والده] صهرا للسلطان مولاي عبد الرحمان، كما كان هو صهرا

لخاله المولى محمد، وكان والده مولاي عبد الهادي قاضي القضاة بفاس، بل من أشهر قضاتها، والذي له المكانة المكينة في ولا يتها، والشهرة الذائعة فيها.
فمولاي إدريس هذا، ممن أحرز كل شرف نسبي وعلمي، ودنيوي وديني. ولهذا كان معظما عند سلاطين المغرب وملوكه قديما وحديثا.
وكما شاهدته أنا بنفسي في ذلك، أنه لما مرّ بطنجة ـ وأنا إذ ذاك هناك ـ متوجها إلى بيت الله الحرام، عام 1331، وكان نزل بدار قرب داري التي أنا بها بحومة دار البارود، قرب الزاوية القادرية. وكان إذ ذاك بطنجة السلطانان اللذان أخّرا عن السلطنة، ولكن أبقيا على جلالتهما وحظوتهما، من سكناهما القصور، وتقاضي الرواتب المالية؛ فكان[لما] وصلهما قدوم مولاي إدريس بن عبد الهادي، أسرعا إلى السلام عليه بمنزله؛ فاتفق أن كان السابق إليه السلطان مولاي عبد العزيز. ولما وصل المولى عبد الحفيظ، ألفى معه القادم المذكور، صنوه المولى عبد العزيز، ولا يخفى ما كان بينهما من العداوة، لأن المولى عبد الحفيظ، كان ثار عليه، كما هو معلوم في التاريخ؛ فكرّ راجعًا. ولكن اتفق أن جيء به إلى دار الفقيه ابن يحيى، وكان له سابق معرفة به، إذ كان شهد له ببعض وثائق بينه وبين الدولة، أو قل السفارة الفرنسية، فمكث بداره ريثما يخرج صنوه ـ عدوه ـ فكان كذلك. ولكن كان ذلك من سعادة الفقيه العدل المذكور، إذ لما خرج من داره، أنعم عليه، فيما أظن، بمائة ليرة ذهبية إنجليزية. فكان من الحظوظ التي حظي بها، وبها أصلح تلك الدار التي تشرفت بدخول السلطان المذكور إليها. ومحل هذه الدار، بالزقاق النافذ لسوق وادي أحرضان. والآن انتقلت عن ملكه، وانتقل مالكها إلى ربه، والسلطانان كذلك. وهكذا الدنيا أضغاث أحلام، فقد انتقلا من بهجة القصور، إلى وحشة القبور، وما البقاء إلا للعزيز الغفور.
أما الشريف الجليل، فقد أتاه حمامه بالمدينة المنورة، فاتح عام 1331. وفي هذا العام، مرّ علينا صديقنا الشريف الجليل، سيدي محمد بن المكي، ونزل عندنا بطنجة، قاصدا الحج، رحمه الله، وأكرمنا وإياه برضاه. وقد كان حكى لي، رحمه الله، أنه اجتمع هناك بهذا الشريف الجليل، وأنه شاهده في يوم وفاته، أو قبله بيسير، يخرج إلى السوق يقضي مآربه بيده. قال لي: ورأيته وهو يحمل بيده قالب سُكر. ودفن الشريف المذكور بالبقيع. تقبل الله حجّهم، وأثابنا بفضله ومنّه معهم، آمين.
أما شيخنا ابن القرشي، فإن جلالة هذا الشريف العالي المقام، لم تبدل من حدّة صرامته، ولم تلينه عن شدة فظاظته؛ فقد رأينا الشيخ قد التفت بشدة وقلق، مناديا الشريف المذكور- الذي استدار عليه جماعة من أصحاب المآرب، وهو يجيب كل واحد بما اقتضاه حاله ـ بعنف: (قُمْ قُمْ أخُويَ) الخ. فقلق الشريف من ذلك العنف، ولكنه لم يسعه إلا حل المجلس والنهوض، وأثر الغضب عليه لائح، وهو يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله. وذلك أن شيخنا، رحمه الله، عامله معاملة مطلق السوقة، ولم يرع جلالته.

[تذييل هذا الموضوع
بالتماس العذر والمخرج اللائق بالشيخين]

والحق أن كلا من الشيخين له وجهة يعذر فيها؛ فالشيخ ابن القرشي، في حاله يقول: إن ذلك التجمع ورفع الأصوات، قرب مجلس من مجالس العلم، غير محمود، كما لا يخفى، لأن مجالس العلم هي مجالس من مجالس الذكر، بل ورد فضلها في الحديث على مجالس الذكر؛ ففي الحديث الذي رواه ابن ماجه، وذكره أبو حامد في "إحيائه"، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، خرج ذات يوم، فرأى مجلسين، أحدهما يدعون الله، عز وجل، ويرغبون إليه، والثاني يعلمون الناس؛ فقال: " أما هؤلاء فيسألون الله تعالى، إن شاء أعطاهم، وإن شاء منعهم، وأما هؤلاء فيعلمون الناس؛ وإنما بعثت معلمًا"، ثم عدل إليهم، وجلس معهم.هـ[الإحياء:8/1].

فإغلاظه على الشيخ ابن عبد الهادي، هو انتصار للحق، فلا يلام على ذلك.

وأما ابن عبد الهادي، فإنه يجاب عنه؛ بأنه لم يتخذ هذا المجلس قصدا، وإنما كان شأنه أنه بعد الفراغ من درس العلم الذي كان يلقيه قبل درس ابن القرشي، يجلس لأداء بعض النوافل، كصلاة الضحى أو غير ذلك من أوراده. واجتماع هذه الجماعة عليه، إنما كانوا يأتونه بقصد قضاء حوائجهم الخاصة بهم، أو المتعلقة بالشيخ ابن عبد الهادي.

ثم إنه، وإن كان لكلٍ وجهة تقتضي معذرته، فالتوفيق بين العالمين الشيخين الكبيرين: أنه كان من حق ابن عبد الهادي أن يتباعد في مجلسه، الذي يقصده فيه أهل الحاجة، عن مجلس درس ابن القرشي، لأنه، وهو أحد علماء الجامع، أحق باحترام مجالس العلم، ويعلم ما في ذلك من التشويش على المعلم والمتعلم.

والشيخ ابن القرشي، حيث إذ وقع هذا الاجتماع المشوش، كان عليه أن يتلطف في إبعاد هذا الشيخ الشريف، المبجل عند الخاصة والعامة، ويدفع ذلك بالتي هي أحسن.

وهذا هو الأمر اللائق بأمثال هؤلاء الشيوخ العلماء، الذين بهم يُقتدى، إذ هم للناس كالنجوم في الاهتداء.

وكلامنا هذا مع الأمثال. أما غير العالم، من الخاصة والعامة، فلا يجوز لهم أن يتكلموا في أمثال هؤلاء، بل عليهم أن يتأدبوا معهم، ولا يذيعون ما جرى بينهم، ويلتمسون لهم، ما أمكن، من الأعذار، لا كما يفعله بعض من ينتمي إلى هذه الطرق، ويتتبعون زلات أهل العلم، ويتكلمون فيهم بما لا ينبغي أن ينسب إليهم، وفي ذلك إثم كبير. وهذا في مطلق المسلم، فما بالك بالمسلم العالم؟!

وفي هذا يقول شيخ الإسلام، تقي الدين ابن دقيق العيد، في كتابه "الاقتراح": أعراض المسلمين حفرة من حفر النار. انظر تمام ذلك في "طبقات" التاج السبكي، في قاعدة الجرح والتعديل، في الجزء الأول من صفحة 190.

[حال الشيخ ابن القرشي، ومقامه في الديانة]

أما حال هذا الشيخ على الإجمال، فهو كما قدمنا العلامة المشارك، أحد مشاهير العلماء المدرسين بجامع القرويين بجد واجتهاد، ومثابرة على إلقاء دروسه به دون ملل ولا تخلف عن الميعاد. وكل دروسه يزينها بالاعتناء وبذل المجهود في استحضار ما يتعلق بشرح تلك المتون المقررة، دون إخلال بالمعاني ولا بنص، بل يأتي بها على التمام. يلقي نصوص متونها من حفظه، ويأتي بشاهدها بنصه ولفظه، إلا أنه لا يتأنق في الإلقاء وينمقه في أحسن مساق، بل يلقيه من غير مبالاة، ولا يتكلف في ذلك؛ فربما يقع في إلقائه بعض لحن في ألفاظ، فكان بعض من يتتبع أخطاءه ممن يعاديه[ينتقد عليه ذلك، كما سبق].

أما حاله في التمسك بالديانة،[فكان] يُقبل على شؤونه، والمحافظة على مقامه العلمي، دون الاشتغال بلهو المجالس ولغو الحديث، وما لا يليق بذوي المروءة من سقط القول وسفاسف خطوات الشياطين وآثام الأباليس، مع الإقبال - فيما سمعناه ممن هو مطلع على أحواله - على التهجد والنوافل وقيام الليل، كما هو شأن أمثاله من العلماء من إدمان الذكر، وكثرة التوجهات. رضي الله عنهم، ونفعنا بهم.

[ولايته للوظائف الكبرى في عهد الحماية الفرنسية، وحال الدولة المغربية آنذاك]

ومع هذا، كانت الدولة تقدمه للمناصب الشرعية المهمة، فيقبلها ويمتثل أمرها، مع عدم الخروج عن الصرامة والإعلان بالحق، واتباع طريق العدالة؛ فمن جملتها أنه قُدِّم بعاصمة فاس لقضائها؛ ولكن لحدته وإعلانه بالحق، أُخِّر عنها.

ثم لما استحالت الحال بعد إقامة الحماية بالمغرب، مع إقامة صورة الملك والسلطنة في الظاهر على حالها، وإبقاء الوظائف المخزنية على صورها، مع زيادة تعظيم أسماء الخطط وتكثيرها؛ ولكن إنما هي أشباح ساكنة دون حركة، وطيور واقفة في وكناتها دون جَناح، إذ كانت كما قال الخليفة العباسي:

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا ... وما من ذاك شيء في يديْهِ

فكان شيخنا ممن قدم لتلك الوظائف الجديدة المحدثة؛ فعين في رئاسة مجلس الاستئناف، فسار فيه على طريقته. ثم ترقى إلى منصب وزارة العدل، فقام في ذلك بالصرامة المعهودة.

والمراقبة الفرنسية إذ ذاك، باسطة نفوذها وأجنحتها على كل الوظائف والخطط المخزنية والشرعية؛ وكل مصلحة لها مراقب خاص يراقب أحوالها، فيقبل ويرد. وكان من هؤلاء وزير العدل الشيخ ابن القرشي، فصار عندما تقع المخالفة مع المراقب، يقوم في وجهه، ويرد رداً عنيفا، كما حكى لنا من ذلك هذا الشيخ بنفسه جزئيات كثيرة. فكانت هذه المعارضة من هذا الشيخ، دعت إلى عزله، فأخر عن الوظيف تماما، واستقر في بيته ساكن البال، غير مغاضب ولا متأسفا على الرئاسة، متمسكا بولاية العلم التي لا يمكن تأخيره عنها، معتزًا بتلك الصرامة التي كان يعارض بها وأخّر بسببها. فيالها من همة عالية، ونفس لمبدأ محافظتها على إقامة العدل مُراعية.

[زيارة الشيخ ابن القرشي لمدينة تطوان والمذاكرة التي جرت معه في مسائل علمية]

وقد زارنا هذا الشيخ، بعد انفصاله عن تلك الوظائف، في إحدى سياحاته، بتطوان، واجتمعنا معه وتذاكرنا في مسائل علمية، على عادة العلماء في ذلك العصر الذهبي الذاهب. وكتبت في دفتر التذاكر، في تاريخ رحلته ما لفظه:

زائر كريم: زار هذه المدينة التطوانية، في 18 صفر، عام 1353، العالم الكبير، والحافظ الشهير، شيخنا المسن، سيدي عبد الرحمان ابن القرشي، أحد علماء فاس، بل أكبر علمائها في هذا الأوان.

وقد أقيم له احتفال من جانب طلبة المدينة، يوم الأحد20 من الشهر المذكور، بحديقة الوجيه المدير، سيدي محمد ابن العلامة سيدي الحاج أحمد السلاوي، حضره العلماء والطلبة، ووقعت هناك مذاكرة علمية مع الشيخ المذكور، منها: نوم النبي، صلى الله عليه وسلم، هل ينقض الوضوء؟ وكان الحاضر فيها شيخنا الرهوني، وكاتبه؛ فأملى الشيخ المحتفل به أن نوم النبي، صلى الله عليه وسلم، لا ينقض الوضوء إجماعا على الأصح. فسكت العلماء الحاضرون، وقلت أنا: إن الإجماع غير مسلم. فأشار علي بعض الحاضرين أن الشيخ لا يرجع. فسكتّ، وسكت كل من حضر من أهل العلم.

[مسألة نوم النبي، صلى الله عليه وسلم، هل ينقض الوضوء]

وكنت كتبت إثر الافتراق ما لفظه:

ثم إن المسألة خلافية، ففي "نسيم الرياض" للشهاب الخفاجي، كان النبي، صلى الله عليه وسلم، لا ينتقض وضوؤه بالنوم مضطجعا بخلاف غيره، وهو من خصائصه. وحكى الشافعية قولا أنه، صلى الله عليه وسلم، كغيره في الانتقاض.هـ.

وفي الحطاب، عن جلال الدين: أنه لا ينقض في أحد الوجهين على الأصح.هـ من الخصائص.[402/3].

وكأن شيخنا ابن القرشي اعتمد على ما ذكره ابن حجر الهيتمي من تقريره قول البوصيري في"الهمزية":

سيد ضحكه التبسمُ والمشـــــيُ الهُوينا ونومه الإغفـاءُ

إذ قال: " وأما نومه فهو الإغفاء، أي أخف النوم بحيث لا يستغرق، لأن الاستغراق إنما يتولد عن نوم القلب وغفلته المتولدين عن الشبع المفرط. وهو صلى الله عليه وسلم، كسائر الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، كان تنام عينه، ولا ينام قلبه، كما صحّ عنه، صلى الله عليه وسلم. ومن ثمّ لم ينتقض وضوؤه بالنوم. وسِرّ ذلك: كمال حياة قلبه، صلى الله عليه وسلم، ويقظته، ودوام شهوده لربه عز وجل. ومن ثمّ كان، صلى الله عليه وسلم، إذا نام لا يوقظ، لأنه لا يدرى ما هو فيه".

وأجاب عن قضية الوادي في نومه، صلى الله عليه وسلم، عن صلاة الصبح، حتى حميت الشمس. ومن جملة الأجوبة، أنه كان له نوم ينام فيه قلبه أيضا، وهو الذي كان حينئذ. قال ابن حجر إثره: وردوه بأنه لم يثبت، فهو مردود على قائله.هـ[شرح الهمزية:137].

وعلى ما قرر في عدم نقض الوضوء منه، صلى الله عليه وسلم، بالنوم، درج الشيخ جسوس في "شرح الشمائل"، والشيخ بنيس في "شرح الهمزية"، ولفظ جسوس في شرح حديث كريب عن ابن عباس، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، نام حتى نفخ، وأنه نام فصلى ولم يتوضأ، لأن من خصائصه، صلى الله عليه وسلم، أن وضوءه لا ينتقض بالنوم مطلقا، لأنه لا تنام عينه ولا ينام قلبه، فلو وقع حدث لأحس به. وسر ذلك، كمال حياة قلبه، ويقظته ودوام شهوده لربه. ونحا في ذلك نحو اختصار ما بسطه ابن حجر. ومثل ذلك فعل الشيخ بنيس في "شرح قول الهمزية":(ونَوْمُهُ الإغْفاءُ).

أما صاحب "المواهب"، فإنه ذكر في باب صفة نومه، عليه الصلاة والسلام، ما لفظه:

وكان، عليه الصلاة والسلام، تنام عينه ولا ينام قلبه. رواه البخاري من حديث عائشة، قاله لها، عليه الصلاة والسلام، لما قالت له: أتنام قبل أن توتر؟. وإنما كان، عليه الصلاة والسلام، لا ينام قلبه، لأن القلب إذا قويت فيه الحياة، لا ينام إذا نام البدن. وكمال هذه الحالة كان لنبينا، صلى الله عليه وسلم، ولمن أحيا الله قلبه بمحبته واتباع رسوله، من ذلك جزء بحسب نصيبه منها؛ فمستيقظ القلب وغافله،

كمستيقظ البدن ونائمه. وإلى هذا الذي ذكرته، أشار صاحب "المعارف السنية"، سيدي علي بن سيدي محمد وفا:

عيني تنام ولكن قلبـــــي والله لا ينــــام

.[344/1]

ثم ذكر في"المواهب" أيضا، ما قاله العلماء في الجواب عما ورد عن نومه، صلى الله عليه وسلم، في الوادي حتى أوقظ، كما نقل الهيتمي في "شرح المهمزية"، وأشرنا إلى ذلك سابقا. ثم نقل ما قاله النووي في ذلك، وما عقبه فيه بكلام "الفتح" من القبول والرد. وفيه عن ابن العربي في "القبس" ما لفظه:

"النبي، صلى الله عليه وسلم، كيفما اختلف حاله، من نوم أو يقظة؛ في حق وتحقيق، ومع الملائكة في كل طريق، إن نسي فبآكد من المنسي، اشتغل، وإن نام، فبقلبه ونفسه على الله أقبل. ولهذا قال الصحابة: كان صلى الله عليه وسلم، إذا نام لا نوقظه حتى يستيقظ، لأنا لا ندري ما هو فيه. فنومه عن الصلاة، أونسيانه لشيء منها، لم يكن عن آفة، وإنما كان بالتصرف من حالة إلى حالة مثلها، لتكون لنا سنة". هـ[المواهب:346/1].

هذا ما ذكره في صفة نومه، من جزمه بعدم نقض نومه مطلقا، إذ هو ظاهر حديث عائشة، رضي الله عنها. وذكر في خصائصه ما يفيد عدم النقض، مقيدا بكونه مضطجعا، إذ قال:

"ومما اختص به أيضا، أنه لا ينتقض وضوؤه بالنوم مضطجعا". هـ[المواهب:391/1].

وعليه، فغاية ما في هذه النقول، أن عدم نقض وضوئه، عليه السلام، بالنوم مطلقا، هو الذي يفيده الحديث الصحيح عن السيدة عائشة، رضي الله عنها، وأن كلام الأئمة وجمهورهم، استندوا إلى ذلك الحديث الذي جاء على سبب. ولكن خالف من خالف، وأوّل الحديث؛ فالإجماع غير مسلم. وغاية ما هناك، أنه الراجح الذي يشهد له الحديث الصحيح، والله أعلم.

[مسألة إسلام أبي طالب، عمّ النبي، صلى الله عليه وسلم]

وقد وقعت فيه أيضا المذاكرة مع هذا الشيخ(*)، في مسألة إسلام أبي طالب، عم النبي، صلى الله عليه وسلم.

قلت: وهذه المسألة جرى فيها الكلام قديما وحديثا؛ فمنهم من أثبت إسلامه، واستدل بشيئين: أحدهما ما كان له من شدة حبه لسيدنا محمد، صلى الله عليه وسلم، والرأفة به ونصرته، والذبّ عنه وحمايته عن أن يصل إليه أذى من أعدائه،

(*) أي الشيخ ابن القرشي، أثناء زيارته لمدينة تطوان.

وإعلانه في قصائده وأشعاره بأنه صادق في أقواله، موفق في أعماله، ومنها ما اشتهر عنه أنه قال:

ودعوتني وعلمت أنك صادق   ولقد صدقت، وكنت قبل أمينا
ولقد علمت بأن دين محمـــد   من خير أديان البرية دينـــا

إلى غير ذلك مما ورد عنه، فيما نُسب إليه من قصائد. وبمثل هذه المقالات عنه، استدل من قال بإسلامه، وأنه مات مسلما. ومنها ما ورد عن سيدنا عبد الله بن عباس، عن أبيه سيدنا العباس، كما سيأتي.

وبالجملة؛ فهذه المسألة مما اعتنى به أهل السير، من متقدم ومتأخر. فمنهم من أطال، ومنهم من اختصر.

فمنهم إمام السيرة وعمدتها، المرجوع إليه في أخبارها، ومنه يستقي حملتها، الإمام الشهير ابن إسحاق. ومنهم العلامة ابن هشام، الذي لخص ما رواه في ذلك ابن إسحاق في "سيرته" الشهيرة، التي كتب عليها الإمام العمدة، الفقيه المالكي، أبو القاسم السهيلي، الأندلسي المالقي، الشهير بالسهيلي، المتوفى بمراكش سنة581.

قلت: وهو أحد الرجال السبعة [بها]، الذين اشتهر ذكرهم على لسان أهل المغرب، ويعبرون عنهم بـ (سبعة رجال). وهم يتبركون بزيارتهم، ويلتمسون بركاتهم. وفضل الله واسع، ولا يرد فضله دافع ولا مانع، فمن يمسسه الله بضرٍ فلا كاشف له إلا هو، وإن يرده بفضل، فلا راد لفضله.

ولنبدأ بما ذكره ابن هشام، ناقلا عن ابن إسحاق، الذي قدمنا أنه جهينة الأخبار، وعيبة مملوءة بأسرار السيرة وغرائب الآثار، وإلى "سيرته" المرجع في تدوين الأسفار، وإن كانت لا تخلو عن نقد وإنكار. وإنما تلقيت من أهل العلم بالإقبال، لأنهم عدوها من قبيل فضائل الأعمال، التي يقبل فيها من الأحاديث الضعيف، وما لم يستوف الشروط المعتبرة في السند من الرجال.

وخلاصة ما تكلم فيه ابن هشام، في موضوع العم أبي طالب، أنه ذكر ما حصل بموته من حلول المصائب، لخلو الجو لأعداء الرسول، عليه السلام، فطغوا بذلك، وتجرأوا عليه، صلى الله عليه وسلم، لفقد هذا الحامي لحماه، والواقف بسلطته في وجه عداه؛ فذكر ابن هشام عن ابن إسحاق، أنه قال: ثم إن خديجة بنت خويلد، وأبا طالب، هلكا في عام واحد، فتتابعت على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، المصائب بهلك خديجة، وكانت له وزير صدق على الإسلام، يشكو إليها، وبهلك عمه أبي طالب، وكان له عضدا وحرزا في أمره، ومنعة وناصرا على قومه، وذلك قبل الهجرة إلى المدينة بثلاث سنوات. فلما هلك أبو طالب، نالت قريش من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب. وذكر من ذلك أن سفيها من سفهائهم، نثر على رأس رسول الله، صلى الله عليه وسلم، التراب، فدخل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بيته، وعلى رأسه ذلك التراب، فقامت إليه إحدى

بناته، فجعلت تغسل عليه التراب وهي تبكي، ورسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول لها: "لا تبكي يا بنية، فإن الله مانع أباك".

ثم ذكر ابن هشام عن ابن إسحاق، أن قريشا لما بلغها أن حمزة وعمر بن الخطاب أسلما، وأمر أمر سيدنا محمد، صلى الله عليه وسلم، وارتاعت لذلك؛[رأت] أن تؤلف وفدا من زعمائها وأشرافها، كأبي جهل، وعتبة بن ربيعة، وأبي سفيان بن حرب، وأمثال هؤلاء، وتوجهوا إلى أبي طالب، وهو في حال مرضه، فقالوا: يا أبا طالب، إنك منا حيث قد علمت. وقد حضرك ما ترى، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادعه، فاخذ له منا، وخذ لنا منه، ليكف عنا، ونكف عنه، وليدعنا وديننا، وندعه ودينه. فقال له: يا ابن أخي: هؤلاء أشراف قومك، قد اجتمعوا بك ليعطوك وليأخذوا منك. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: يا عم: كلمة واحدة ليعطونيها يملكون بها العرب، وتدين لهم العجم. قال أبو جهل: نعم، وأبيك وعشر كلمات. قال: تقولون: لا إله إلا الله. وتخلعون ما تعبدون من دونه. قال: فصفقوا بأيديهم، ثم قالوا: تريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلاها واحدا؟، إن أمرك لعجب.

ثم لما لم يحصلوا على ما أمّلوا، تفرقوا؛ فقال أبو طالب لرسول الله، صلى الله عليه وسلم: والله يا ابن أخي. ما رأيتك سألتهم شططا. فلما قال أبو طالب هذه المقالة، طمع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في إسلامه، فجعل يقول له: أي عم؛ فأنت فقلها، أستحلّ لك بها شفاعتي يوم القيامة. فلما رأى حرص رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عليه، قال: يا ابن أخي. لولا مخافة السبّة عليك، وعلى بني أبيك من بعدي، وأن تظن قريش أني إنما قلتها جزعا من الموت، لقلتها لأسرك بها.

[شهادة سيدنا العباس
بأن أخاه أبا طالب نطق بالشهادة سرًا]

قال: فلما تقارب من أبي طالب الموت، قال: نظر العباس إليه يحرك شفتيه، قال: فأصغى إليه بأذنه. قال: فقال يا ابن أخي: والله قد قال أخي الكلمة التي أمرته أن يقولها، قال: فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: " لم أسمع".

ثم ذكر ابن هشام نزول آية قوله تعالى: (صَ. وَالقُرْآن ذِي الذِّكْر) الخ الآيات. هذا مضمن ما قاله ابن هشام في مسألة إسلام أبي طالب. وهو بظاهره يقضي تسليم ما شهد به سيدنا العباس.

وهذه الرواية، هي أكبر حجة استدل بها الشيعة، ومن نحا نحوهم، في صحة إسلام أبي طالب. ولكن جمهور أهل السنة، أو كلهم، على عدم صحة إسلامه، وأجابوا عن هذا الأثر بأجوبة.

ما سبق لنا في هذه المسألة
من المذاكرة والمراجعة للنصوص المتعلقة بها

ثم بعد ما كان القصد الإتيان بالنصوص من أصولها الأولى في هذه المسألة؛ تبين عندي أني كنت اعتنيت بهذه المسألة، وراجعت نصوص كل المراجع التي أمكنتني إذ ذاك، من مطول ومختصر، وذلك إثر مذاكرة وقعت بين يدي بعض أشياخنا، وكان ذلك، فيما أظن، لرد ما كان يزعمه بعض الأشياخ من صحة إسلام أبي طالب. وكنتُ سهوت عن ذلك كله، ولكن عند مراجعة بعض المراجع، وجدت كتابتي على هامشها، فتذكرت حينئذ أن المسألة سبقت، وأظن أني كنت كتبت فيها. ثم إنه الآن بعد تكرار المراجعة، وجدت[كتابة مؤيدة] بالنقول. وأجمعها للنقول، وما فيها من المقول:

أولا: [كتابة] الإمام المفسر، المحدث المؤرخ، أبو الفداء سيدي إسماعيل ابن كثير، القرشي الدمشقي، المتوفى سنة 774، في كتابه "البداية والنهاية" في التاريخ.

ثانيا: ما كتبه خاتمة الحفاظ، ابن حجر العسقلاني، في "فتح الباري"، وفي "الإصابة". وفيها استوعب النصوص، وردّ على كل نص بالخصوص، وحرر كل التحرير؛ فكان هذا المرجع الذي استقى منه صاحب "المواهب"، [وأكد] ذلك شارحها الشيخ محمد الزرقاني. أما صاحب "إنسان العيون"، الشيخ الحلبي؛ فإنه أخذ من كل مرجع، فصارت أيضا من المراجع المهمة في هذا الشأن.

وكل هذه المراجع، انفصل أصحابها على ما صح من الحديث الذي في البخاري وغيره، من أنه امتنع [من قول] الكلمة التي أمره النبي بها، صلى الله عليه وسلم، وأنه مات على غير ملة الإسلام. وأجابوا كلهم على حديث سيدنا العباس، بأجوبة: منهم من ضعف هذا الأثر، ومنهم من قال إن العباس لما روى هذه الرواية، كان لا زال على غير الإسلام. وسيأتي ما ارتضاه الحافظ ابن حجر في رد هذا الأثر.

<u>أما الحافظ ابن كثير</u>، فإنه لما ذكر ما قاله ابن إسحاق في ذلك، وما حرر فيها، واعتماده ما في صحيح البخاري وغيره، بأن أبا طالب لم يقل: لا إله إلا الله، وبعد أن روى عن البيهقي، عن عطاء عن ابن عباس، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، عاد من جنازة أبي طالب، فقال: "وصلتك رحم، وجزيت خيرا يا عم"، قال: وروي عن أبي اليمان الهوزني، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، مرسلا، وزاد: ولم يقم على قبره. قال: وإبراهيم بن عبد الرحمان هذا - أي الذي في سند الحديث - هو الخوارزمي، تكلموا فيه.[البداية:125/3].

<u>قلت</u>: وهذا الحديث لو سلم في السند، لكان حجة في أن النبي، صلى الله عليه وسلم، كان يرى أنه قال الكلمة، والله أعلم.

ثم عقب ما ذكره هذا الحافظ بقوله: قلت، أي قال الحافظ ابن كثير، وقد روى عنه، أي عن الخوارزمي، غير واحد، وذكرهم، قال: ومع هذا، فأحاديثه عن كل ما روي عنه، ليست بمستقيمة.هـ[البداية:126/3].

قلت: وغاية ما يؤخذ من كلام الحافظ ابن كثير، أن حديث هذا الترحم من النبي، صلى الله عليه وسلم، هو ضعيف فقط.

قلت أنا: ومما وقفت عليه، مما هو قريب من هذا الحديث، ما رواه الحافظ الثقة، ابن سعد في "الطبقات"، عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث، قال: قال العباس: يا رسول الله، أترجو لأبي طالب؟ قال: " كل الخير أرجو من ربي" وسلمه. ولكن سبق له قبل ذلك تعضيد ما عليه الجماعة، والله أعلم.

ثم إن الحافظ ابن كثير كان ذيل ما روي عن الجماعة، بذكر ما يؤخذ منه ما أخذ بخاطره من الميل للرجاء في نجاة هذا العم المحب لابن أخيه، وعطفه عليه، ورفقه به، وشفقته عليه، وذبه عنه أعداءه بيده ولسانه، وتصديقه فيما جاء به من عند ربه.

وقد قدمنا ما كان يتعاطاه أبو طالب من المحاماة والممانعة عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، والدفع عنه وعن أصحابه، وما قاله في المدح والثناء عليه، وما أظهره له ولأصحابه من المودة والمحبة والشفقة في أشعاره.

قلت: وقد ذكر هذا الحافظ في (باب أمر الله رسوله بإبلاغ الرسالة) وإعلانه بها، في شأن ما كان لهذا العم الشفيق،[من] توفيق الله له، وهدايته لمعاضدة رسوله في إبلاغ هذه الرسالة، فقال:

وكان من أشد الناس عليه، عمه أبو لهب. قال: وخالفه في ذلك عمه أبو طالب بن عبد المطلب، وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أحب خلق الله إليه طبعا، وكان يحنو عليه ويحسن إليه، ويدافع عنه ويحامي، ويخالف قومه في ذلك، مع أنه على دينهم وعلى خُلتهم، إلا أن الله تعالى قد امتحن قلبه بحبه حبا طبعيا لا شرعيا. وكان استمراره على دين قومه من حكمة الله تعالى، ومما صنعه لرسوله من الحماية، إذ لو كان أسلم أبو طالب، لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ولا كلمة، ولا كانوا يهابونه ويحترمونه. ولتجرأوا عليه، ولمدوا أيديهم وألسنتهم بالسوء إليه. (ورَبكَ يخلُقُ ما يَشاءُ ويَخْتار).

ثم قال ابن كثير: وأما أبو طالب، فكان في غاية الشفقة والحنو الطبيعي، كما سيظهر من صنائعه وسجاياه.

ثم ذكر أن قريشا جاءت إلى أبي طالب فقالوا: إن ابن أخيك هذا، قد آذانا في نادينا ومسجدنا، فانهه عنا: رواه البخاري في "التاريخ". وفي رواية البيهقي من طريق يونس عن ابن إسحاق، أن قريشا حين قالت هذه المقالة، بعث إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال له: يا بن أخي. إن قومك قد جاءوني، وقالوا كذا وكذا؛ فأبق عليّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق أنا ولا أنت. فاكفف عن قومك ما

يكرهون من قولك. فظن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن قد بدا لعمه فيه، وأنه خاذله ومسلمه، وضعف عن القيام معه، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: " يا عم: لو وضعت الشمس في يميني، والقمر في يساري، ما تركت هذا الأمر، حتى يظهره الله أو أهلك في طلبه". ثم استعبر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فبكى. فلما ولى قال له، [لما] رأى ما بلغ الأمر برسول الله، صلى الله عليه وسلم: يا ابن أخي، فأقبل عليه فقال: امض على أمرك، وافعل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا. قال ابن إسحاق: ثم قال أبو طالب في ذلك:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا
فامض لأمرك، ما عليك غضاضة أبشر، وقر بذاك منك عيونا
ودعوتني، وعلمت أنك ناصحي فلقد صدقت، وكنت قدمًا أمينا
وعرضت دينا قد عرفت بأنه من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة، أو حذاري سبة لوجدتني سمحا بذاك مبينا

ثم قال البيهقي: وذكر ابن إسحاق لأبي طالب في ذلك أشعارا، وفي ذلك دلالة على أن الله تعالى عصمه بعمه، مع خلافه إياه في دينه، وقد كان يعصمه، حيث لا يكون عمه، بما شاء. لا معقب لحكمه.هـ[البداية:41/3].

رجاء الخير لأبي طالب
يُؤخذ من كلام النبي، صلى الله عليه وسلم

قلت: وقد كنت قدمت عن هذا الحافظ ابن كثير، ما يشعر بمثله عن إسلام أبي طالب، بعد أن ذكر حديث ابن عباس عن أبيه العباس، رضي الله عنهما، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، عاد من جنازة أبي طالب، فقال: " وصلتك رحم، وجُزيت خيرا يا عمّ".

وبكل حال، إذا نظرت إلى أثر ابن سعد، الذي قدمناه، من قوله عليه السلام، لما قيل له أترجو لأبي طالب؟ فقال: "كل الخير أرجو من ربي"، مع تلك الأخبار التي ذكرها ابن حجر في "الإصابة"، مما استدل بها الرافضة وغيرهم، على إسلامه؛ [فإن] غاية ما ردت به هو ضعفها، لا إبطالها بالكلية، مع سياق ابن حجر والسهيلي وغيرهما على أن حديث سيدنا عبد الله بن عباس، عن أبيه سيدنا العباس، هو أثر صحيح، إلا أنه عارضه ما هو أصح منه[مما] يوقع في النفس شبهة كبيرة.

ولهذا ذيل ابن كثير كلامه، الموافق لما عليه الجماعة من عدم الأخذ بأثر سيدنا عبد الله بن عباس، واتباع ما نقله الجماعة في ذلك؛ قال في آخر مقالته التي ذيل بها ما أطال به من النقول، في ترجمة موت أبي طالب:

وأبو طالب، لم يكن بهذه المثابة، أي التي كان عليها أبو لهب وأمثاله من قريش. قال: بل كان يصد الناس عن إذاية رسول الله، صلى الله عليه وسلم،

وأصحابه، بكل ما يقدر عليه من فعال ومقال، ونفس ومال. ولكن مع هذا، لم يقدر الله له الإيمان، لما له في ذلك من الحكمة العظيمة، والحجة القاطعة البالغة الدامغة، التي يجب الإيمان بها والتسليم لها. ولولا ما نهانا الله عنه من الاستغفار للمشركين، لاستغفرنا لأبي طالب، وترحمنا عليه.هـ[126/3].

[ميل مؤلف هذه "الفهرسة" إلى الترحم على أبي طالب]

قلت: أي قال العبد الفقير الحقير، محمد المُرير، الذي لا يمكن له مخالفة هذه الجماعة من الأعلام، الذين معارفهم في بحر التحقيق والتدقيق كالأعلام: أميلُ ميلاً عظيمًا إلى الترحم على هذا العم الشفيق الرقيق، وأستند إلى ما ورد في الأثر الذي رواه ابن سعد في قول النبي، صلى الله عليه وسلم، إنه يرجو لعمه كل خير، كما سبق؛ وفي أثر عطاء عن ابن عباس أن النبي، صلى الله عليه وسلم، لما رجع من جنازة أبي طالب قال: "وصلتك رحمٌ، وجزيتَ خيرًا يا عم"؛ وأقلد هذه الرواية وأعمل بها، لأنها من فضائل الأعمال، التي يعمل فيها بالضعيف، وأغض طرفي عن معارضته بغيره.

ثم إنه بعد هذا، إني أرى الأولى في مثل هذا المقام، لزوم الأدب مع الجانب النبوي في شأن هذا العمّ، الذي كان بابن أخيه بارا، رؤوفا رحيما، كما سبق. وغاية ما يقال هنا: إن المسألة خلافية، وليست ذات إجماع، وليست هي مما يجب الاعتقاد فيها. وإدخال أبي طالب في حظيرة الإسلام، استنادا إلى ما رواه سيدنا العباس، عم النبي، صلى الله عليه وسلم، الذي كان يَستسقي به، بعد موت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، سيدنا عمر بن الخطاب للناس فيسقون، وكان سيدنا عمر يقيمه مقام رسول الله في ذلك؛ وهذه الرواية غاية ما ألفت الجماعة الاعتماد عليه، أنه عارضها ما هو أصح منها، لا أنها رواية باطلة موضوعة؛ وكم من مسألة عمل بها بالصحيح، ورفض ما هو أصح منه!.

[استيعاب الحافظ ابن حجر لمسألة إسلام أبي طالب وما فيها من الخلاف]

ولقد اعتنى الحافظ ابن حجر بترجمة أبي طالب، في "الإصابة"، وجمع فيها وأوعى فيها الروايات، قبولا ومنعا، حتى استحق أن يستخرج منها مؤلفا مفيدا، جاء في هذا الموضوع بحرا مديدا، وصدر هذه الترجمة بقوله:

ولما مات عبد المطلب، أوصى بمحمد، صلى الله عليه وسلم، إلى أبي طالب، فكفله وأحسن تربيته، وسافر به صحبته إلى الشام وهو شاب. ولما بعث، صلى الله عليه وسلم، قام بنصرته وذبّ عنه من عاداه، ومدحه عدة مدائح، منها قوله لما استسقى أهل مكة فسقوا:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى، عصمة للأرامل

ومنها قوله في قصيدة:

وشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود، وهذا محمـــد

قال ابن عيينة، عن علي بن زيد: ما سمعت أحسن من هذا البيت.هـ[الإصابة:115/4].

ثم ذكر الحافظ جملة مما قدمنا في شأن إسلام أبي طالب؛ فقال: وذكر جمع من الرافضة أنه مات مسلما، وتمسكوا بما نسب إليه في قوله: * ودعوتني وعلمت أنك صادق * إلخ، وتقدم ذلك. ثم قال: قال ابن عساكر في صدر ترجمته: قيل إنه أسلم، ولا يصح إسلامه، ولقد وقفت على تصنيف لبعض الشيعة أثبت فيه إسلام أبي طالب.

ثم ذكر الحافظ تلك الآثار التي استدل بها الشيعة على إسلامه، وأتى بها بأسانيدها، ونسبها لمخرجها، وتتبعها وبين عللها، وفي بعض شانها، قال: وأسانيد هذه واهية. ثم قال إثر هذه المقالة: وعلى تقدير ثبوتها، فقد عارضها ما هو أصح منها.[الإصابة:116/4].

ثم بعد أن أطال الحافظ في مسألة إسلام أبي طالب، وجمع في ذلك الموضوع ما لم يجمعه غيره، مما هو واه من الأخبار وما هو صحيح؛ ختم هذا الموضوع بقوله، عن ابن سعد في "الطبقات" قال: أخبرنا إسحاق الأزرق، حدثنا عبد الله بن عون، عن عمرو بن سعيد، أن أبا طالب قال: كنت بذي المجاز مع ابن أخي، فأدركني العطش فشكوت إليه، ولا أرى عنده شيئا، قال: فثنى وركه، ثم نزل فأهوى بعصاه إلى الأرض، فإذا بالماء، فقال: اشرب يا عم. ثم قال: ومما لم يذكره الرافضي من الأحاديث في هذا الباب، ما أخرجه تمام الرازي في "فوائده"، من طرق الوليد بن مسلم، عن عبد الله بن عمر، رفعه: أنه إذا كان يوم القيامة، شفعت لأبي وأمي وعمي أبي طالب، وأخ لي كان في الجاهلية"، وقال تمام: الوليد منكر الحديث. قال ابن عساكر: والصحيح ما أخرجه مسلم، من حديث أبي سعيد الخدري، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ذكر عنده أبو طالب، فقال: "ينفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه، يغلي منه دماغه".هـ[الإصابة: 119/4].

وخلاصة ما يؤخذ من كلام الحافظ ابن حجر، أن مسألة إسلام أبي طالب، فيها خلاف، وأن الصحيح من الأحاديث، أنه لم يصح إسلامه. وما صحح إسلامه إلا الشيعة، واستدلوا بتلك الأحاديث التي وهاها الحفاظ، منهم الحافظ، وتتبعها كاف، وأن الجماعة من أهل السنة كلهم، على اعتماد ما في "الصحيح".

ولكن يؤخذ من كلام الحافظ أن الخلاف في إسلامه معتدّ به، ولهذا ـ والله أعلم فيما يظهر ـ ذكره في عداد الصحابة، وذكره في كتابه "الإصابة"، والله أعلم.

قلت: وممن مال إلى ما لمحنا إليه سابقا، من الميل إلى الترحم عليه، كما سيأتي، ما قاله أحد المفسرين من المتأخرين، العلامة الألوسي، في "روح المعاني"، في الكلام على تفسير آية:(مَا كَانَ للنَّبِيءِ والَّذِينَ آمَنُوا أنْ يَّسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ)الآية، في سورة التوبة:[113]، وذلك أنه قال، بعد ما ذكر ما عليه الجماعة، وما ذهب إليه في ذلك الشيعة، ووهى ما احتجوا به إجمالا، قال:

وسبّ أبي طالب، مذموم جدا، لا سيما إذا كان فيه إيذاء لبعض العلويين، إذ قد ورد: " لا تؤذوا الأحياء بسبب الأموات"، و"من حسن إسلام المرء، تركه ما لا يعنيه". هـ[31/11].

ثم حاصل ما في المسألة أنها من قبيل المتشابه، أو من المضاف إلى المتشابه الذي [ينبغي اجتناب] كثرة الكلام فيه، إذ لم يكلفنا الله بالنظر فيه، إذ ليس مما يجب اعتقاده ولا انتقاده؛ فنقول: أبو طالب عم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وكان به رءوفا رحيما، ودافعا عنه، وعونا له على إبلاغ الرسالة، والله أعلم بحاله عند انتقاله من هذه الدار، ونكل الأمر إلى أحكم الحاكمين، والعلم بأمره إلى رب العالمين؛ إذ ذلك هو الأولى، والحمد لله في الآخرة والأولى.

[ختام ترجمة الشيخ ابن القرشي]

هذا ما جرته المذاكرة مع شيخنا ابن القرشي، وبقيت علينا مسائل وقع السهو عنها. وفي هذا القدر كفاية. أما موته وختام حياته، فلم أقف عليه الآن، وقد قدمنا أنه زار حضرتنا في 18صفر من عام 1353.

* * *

شيخنا سيدي الفاطمي الشـــرادي
[ترجمته، ومقروءات المؤلف عليه]

ومن أشياخنا بفاس، الفقيه العلامة، سيدي الفاطمي الشرادي، نسبة إلى قصبة الشراردة، أو قبيلة الشراردة.

أما قصبة الشراردة، فهي القصبة المعروفة بظاهر فاس، التي كان بها سكنى جيش القبيلة. وشيخنا، فيما كنا نأثره بفاس، كانت سكنى عائلته بها؛ ولكن كان أيام قراءتنا بفاس، يعد من أعيان علمائها، ونخبة مشاهيرها، المثابرين على تدريس العلوم بجامع القرويين وإلقائها. وشيخنا هذا كان تحفة المدرسين، ولباب أهل العلم المتواضعين. وهو السيد الفاطمي بن محمد بن حمادي بن بلعيد بن محمد الشرادي، الفاسي قرارا.

قلت: وقد أجرى ذكره العلامة المؤرخ ابن زيدان في "تاريخ مكناس"، في ترجمة التواتي، فقال في تعداد شيوخ المترجم: وبفاس، أي قرأ بفاس، على شيخنا العلامة الناسك، السيد الفاطمي الشرادي.هـ ص469 جزء1.

قرأت عليه جملة من فنون متعددة، فحضرت عليه "مختصر" الشيخ خليل، في كتاب الزكاة؛ إذ وجدته فيه. واستمررت في دروسه إلى أن انتقلت لمسقط رأسي، وجملة كثيرة من "تحفة" ابن عاصم، وجملة من "جمع الجوامع"، في أصول الفقه، للسبكي. وجملة كثيرة من "التلخيص" في المعاني والبيان والبديع، قاربت الختام للكتاب معه أواخر البديع. وكتاب "الشمائل" للترمذي، في شمائل المصطفى، عليه الصلاة والسلام، و"سلم" الأخضري في المنطق.

ودروس هذا الشيخ، كلها كانت ذات تحقيق وإفادة، لحسن إلقائه في تلك الدروس، في تأن واتساع في التعبير، وسكون دون تعب واضطراب، ولا حشو ولا تردد في المقال. بل ينثر درسه كنثر الدّرر، ويلقيه إلقاء اليواقيت على طرر الغرر، مع تؤدة ولين، إذ كان الشيخ المترجم متصفا بحسن الأخلاق، وجميل الصفات ولطف التلاق.

وقد كنتُ في بعض الأحوال، أحصّل دروسه حالة الإلقاء فأكتبها، فمنها، في باب الزكاة، في قول الشيخ خليل: " كمُبْدِلِ مَاشِيَةِ تِجَارَةٍ، وَإِنْ دُونَ نِصَابٍ بِعَيْنٍ، أَوْ نَوْعِهَا، وَلَوْ لِاسْتِهْلَاكٍ"، وقد صعب علي فهمه أولا: التشبيه بالكاف لإفادة البناء، والمعنى أن الشخص الذي يتجر في غنم وشبهها من الماشية، وأبدل ماشية سواء كانت نصابا أو لا، فإما أن يبدلها بعين، أو بنوعها؛ فإن أبدلها بعين، بنى على حول الأصل، أي الثمن الذي اشتريت به، إن أبدلها قبل جريان الزكاة في عينها، لكونها دون نصاب، أو لم يحل عليها الحول. وعلى قول، يزكي عينها إن أبدلها بعد أن زكاها، لأن تزكية عينها، أبطلت حول الأصل. وإن أبدلها بنوعها، كبخت بعراب، وبقر بجاموس؛ بنى على حول المبدلة مطلقا، سواء زكى عينها أو لا، لا على حول الأصل. انظر الدسوقي[الحاشية:352/1]. وقوله: "ولو لاستهلاك": ولو كان هذا الإبدال المذكور حصل لأجل استهلاك الماشية، بأن ضيعها راع أو غيره، أو غصبت.هـ انظر الشرّاح.

وهذا بيان لما كنتُ عليه أيام قراءتي على هؤلاء الأشياخ، بأن أحصل الدرس قبل الدراسة وبعدها، تمرينا وامتحانا لنفسي بنفسي، وشرحا لما كانت عليه الدراسة الفقهية، سواء في قسم أحكام العبادة، أو أحكام المعاملات وغيرها.

وبالجملة؛ فشيخنا الشرادي، كان من عِلْية الشيوخ المعتنين بالدرس، مع الإفادة والتحصيل، وسعة العبارة، دون قلق وضيق في التعبير، كما سبق، بل يلقي الدرس وهو في انشراح وانبساط، بلا اضطرار لحشو، ولا توقف واحتياج للتلقين. رحمه الله، ونفعنا الله به وبأمثاله من أهل العلم الصحيح.

هذا، ولم يزل حال شيخنا، حسبما فارقنا الحضرة العلمية، على هذه الحالة المرضية، الداخلة في قوله، عليه السلام: " خيركم من تعلم القرآن وعلمه"، إلى أن سمعنا ونحن في مسقط رأسنا وعزيز بلدنا، أنه نقل من هذا المنصب الأمين، وخطة تعليم معالم الدين، إلى خطة القضاء؛ فعرضوه للخطة التي يذبح فيها المنحرف فيها بغير سكين. حماه الله من ذلك.

[أهمية القضاء في الإسلام]

ولا شك أن هذه الخطة في أصلها، هي من الخطط السَّنية، والمناصب السامية العالية، لأنها في مقام النيابة عن الإمام الأعظم، لأنه، أي القاضي، قائم مقامه في تنفيذ الأحكام الشرعية، التي هي قطب دائرة هذه الديانة الإسلامية، التي دستورها المعاني القرآنية، وفي ذلك يقول الإمام ابن عاصم، في وصف القاضي:

منفذ بالشرع للأحكام   له نيابة عن الإمـــام

وهذا أصل وضعها في الديانة الإسلامية، إذ كان أولا يتولاها الرسول، صلى الله عليه وسلم، بنفسه، وربما قدم لذلك في خارج المدينة، أماثل الصحابة، كمعاد بن جبل، إذ قدمه قاضيا على اليمن.

ثم صار خلفاؤه الراشدون على سنته وسيرته، حتى دخل الناس في الدين أفواجا، وعظمت أمة الإسلام، وتكاثرت الأشغال الحربية والسياسية والدينية على الإمام. وأول من أناب عليه في القضاء، في حضرته وعاصمة خلافته، أمير المؤمنين، سيدنا عمر بن الخطاب. وقيل غيره، حسبما بينا ذلك في كتابنا" الأبحاث السامية".

ثم لم تزل هذه الخطة محل إجلال وتعظيم، لا يقدم لها إلا أجلة الأعلام، والجهابذة العظام. ومع هذا، كان هؤلاء الأعلام يتجافونها، ويخشون مغبتها، ويمتنعون من التقدم إليها؛ فقد خوطب بولايتها الإمام مالك، أيام الدولة العباسية، فأبى واعتذر، كما فعل ذلك الإمام أبو حنيفة، وأبو ثور، وغيرهم(*). وليس ذلك منهم، رضي الله عنهم، استهجانا لخطة القضاء، ولكن حذرا على أنفسهم وخوفا من أخطاره، والوقوع في بحر يعسر الخروج منه مع السلامة.

وهذا في أول الزمان، زمان قريب من القرن الأول الذي هو خير القرون، وأهل العلم متوافرون، والقضاة محترمون، وأحكامهم نافذة في الأمراء فمن دونهم؛ فما بالك في هذا العصر الذي قل فيه العلم، وأقبر الفقه، وأهين القضاء، وتولاه حتى من لا يعرف ألفًا ولا باء، وصار القاضي عونا من أعوان الحكام والأمراء، ينفذ أوامرهم، ويساعدهم على أهوائهم.

(*) [سبق ذكر بعض الأعلام الذين رفضوا هذه الولاية، في الجزء: 3 ص144]. أ م.

ثم صار بعد ذلك إلى ما هو أقبح منه، حيث صار القضاء بالقوانين الأجنبية، مع شراء الأحكام وبيعها، سرا وعلانية، والفوز على كل حال، لمن أربى في المال.
ولقد كان في العصور الأولى، وأعلام الشريعة مرفوعة، ومعالم العدالة[سائدة]، والناس ينظرون إلى القضاء نظر الاحترام، والخصم إذا وقع بين يدي الوالي، على أي حالة كان هذا الوالي عادلا أو جائرا، وقال: أنا بالله والشرع، إلا وتركه ورفعه إلى القاضي الشرعي، ولا يمكن أن يمنعه من ذلك، ولا أن يحول بينه وبين القاضي الشرعي.

[إنكار ابن المبارك على ابن عُلية ولاية القضاء، وقوله: لا أعلم بعد النبوة أفضل من العلم]

وكان الناس مع هذا، تسقط منزلة العالم الكبير، الذي يُقتدى به في أمور الديانة، عندهم[إذا تولى القضاء]، ويرون أنه وقع في الأخطار، التي تخل بما له عندهم من جليل المقدار؛ فلقد كان الإمام ابن علية، أحد رواة الحديث، بل كان يعدّ من حفاظ هذا الفن. وكان هارون الرشيد ولاه القضاء والمظالم والصدقات، وكان من العلماء الذين يواصلهم عبد الله بن المبارك، وينفق عليهم، ليتركوا الأسباب، ويتفرغوا لرواية الحديث وتعليم الناس العلم، ويتحرى بذلك أقاصي البلدان، ويقول لما عوتب على ترك أهل بلده، وإيثار علماء البلدان القاصية: إني أعرف مكان قوم لهم فضل وصدق، طلبوا الحديث فأحسنوا الطلب للحديث، بحاجة الناس إليهم احتاجوا؛ فإن تركناهم ضاع عليهم، وإن أعناهم، بثّوا العلم لأمة محمد، صلى الله عليه وسلم. ولا أعلم بعد النبوة أفضل من العلم.هـ[تاريخ بغداد:160/10].

[جمع المال من حِلّه، والإنفاق منه على نشر العلم وطرق الخيرات، لا يقدح في الزهد]

ولا يخفى ما كان لابن المبارك من الثروة، بسبب ما كان يتجر فيه من البزّ والثياب، وجلب البضائع من خراسان إلى البلد الحرام، وينفق تلك الأموال على نشر العلم وبثه بين الناس، بعد النفقة على من تلزمه نفقته.
ولا يضع تلك الثروة إلا فيما يقربه إلى الله، حتى قال له إمام العلم والتصوف، الفضيل بن عياض: أنت تأمرنا بالزهد والتقلل والبلغة، ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام، كيف ذا؟! فقال ابن المبارك: يا أبا علي، إنما أفعل ذا لأصون به وجهي، وأكرم به عرضي، وأستعين به على طاعة ربي. ولا أرى لله حقا

إلا سارعت اليه، حتى أقوم به. فقال له الفضيل: يا ابن المبارك، ما أحسن ذا، إن تمَ ذا.هـ بنقل الخطيب البغدادي في "تاريخ بغداد" [160/10].

ولا يخفى ما في هذا الكلام من الفوائد: منها أن الثروة وجمع المال من حله، باتخاذ الأسباب، وإنفاقه في طرق الخيرات؛ لا يقدح في الزهد، لأن ابن المبارك كان ممن يعد في الطبقة الأولى من الزهاد، لأنه، رضي الله عنه، أتته الدنيا وملكها، فجاد بها على من يستحقون من أهل العلم والحديث، الذين هم ورثة الأنبياء، ليستعينوا بها على إحياء السنة وإماتة البدعة. وهذا المقام هو المقام الذي يلي مقام النبوة، كما سبق عنه، لأنه مقام الوراثة.

ولهذا لما سأل الفضيل ابن المبارك، معترضا عليه فيما يعظ به غيره ويرغبهم في الزهد، وهو يرغب في جمع المال؛ بيَّن له أن ثروته هي من قبيل الإعانة على الزهد، إذ يصون بماله وجهه من السؤال، ويؤدي به الحقوق الواجبة في المال، ويعين بها من يستحق إعانته من أهل العلم والعامة، كما سبق ذلك، فقال الفضيل له: ما أحس ذا، إن تمَ ذا. فكان زهده، رضي الله عنه، في الدنيا بعد أن جاءته وملكها، لأنه زهد فيها بعد أن زهدت فيه.

ولهذا نقل القشيري في"الرسالة" عنه أنه قال: الزهد هو الثقة بالله مع حبَ الفقر.هـ[ص61].

وهذا معنى قولهم: الزهد هو زهد القلب، بأن تكون الدنيا في يده، لا في قلبه. وقد نقل من هذا المعنى كثيرا صاحب"لطائف المنن"، وذكره الفقهاء في معنى الفرق بين الدنيا المحمودة والمذمومة.

ومما يدلك على أن ثروته هي في معنى الزهد، وأنها من قبيل الأعمال المحمودة، لأنه يُعين بها أهل العلم والإرشاد على ترك ما يرديهم، ويحوجهم إلى الدخول فيما فيه شبهة، واتقاء ما يحوم حول الحرام، وأنه لهذا كان يجازيهـ[م]؛ يدل لهذا أن الإمام الزاهد، العالم العارف، سيدي الفضيل، هذا الذي أنكر على ابن المبارك تجارته، كان يقبل إعانة هذا الرجل المحسن، كما روى الخطيب في ترجمة ابن علية، أن ابن المبارك كان يتجر في البزّ ويقول: لولا خمسة ما اتجرت، فقيل له: يا أبا محمد. من الخمسة؟ فقال: سفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، والفضيل بن عياض، ومحمد بن السماك، وابن علية.هـ.

قلت: ولكن، كانت صلة مقيدة بعدم الدخول في الولاية، والإدمان على تعليم العلم ورواية الحديث والإرشاد. وذلك أنه لما دخل أحد الخمسة في الولاية، وهو ابن علية، وتولى القضاء لهارون الرشيد، قطع عنه هذه الصلة، فتألم من ذلك ابن علية،[حسبما سبق في الجزء الثالث من هذه الفهرسة].

[التنويه بمقام ابن المبارك
وما كان له من مكانة عالية في قلوب الناس]

قلت: أما مقام عبد الله ابن المبارك في العلم والحديث، والإحسان إلى أهل العلم وأهل التصوف وغيرهم، فهو مشهور. فقد قال[الخطيب] في وصف حاله، وما كان له عند أهل الحديث وغيرهم من المكانة العظمى، والمقام الأسمى، عن ابن مصعب أنه قال: جمع عبد الله بن المبارك الحديث والفقه والعربية وأيام الناس، والشجاعة والتجارة والسخاء، والمحبة عند الفرق.هـ[تاريخ بغداد:155/10].

وقد علمت مما سبق أنه كانت له تجارة واسعة، لها أرباح فائقة، وأنه كان يأخذ لقوته وما يلزمه من الضروريات، والباقي يصل به أهل العلم والصلاح، الذين يقفون حياتهم في نفع العباد، من نشر العلم والحديث، وناهيك أن الفضيل بن عياض كان ممن يواسيه ويقبل صلته، وغيره.

قلت: وقول أمير المؤمنين، هارون الرشيد، لابن علية لما جاء يطلب منه التخلي عن القضاء: لعل هذا المجنون أغرى بك، إلخ، يعني به عبد الله بن المبارك؛ يُشير إلى أنه كان منحرفا عنه، غيرة منه على شهرته، على عادة الملوك، من خوفهم من تقليل مهابتهم، والنقص من سطوتهم، لِما كان لعبد الله من المكانة في قلوب الناس.

فقد روى الخطيب في ترجمته، أنه لما قدم هارون الرشيد، أمير المؤمنين، الرَّقَّة، فانجفل الناس خلف عبد الله بن المبارك، وتقطعت النعال، وارتفعت الغبرة؛ فأشرفت أم ولد لأمير المؤمنين، من برج من قصر الخشب، فلما رأت الناس قالت: ما هذا؟! قالوا: عالم من أهل خراسان قدم الرّقة، يقال له عبد الله بن المبارك، فقالت: هذا والله المُلك، لا مُلك هارون، الذي لا يجمع الناس إلا بشرط وأعوان!.[156/10].

ولكن تبيّن له أن ابن المبارك، هو الرجل الفرد في العلم والصلاح، والكرم والجود، وحب العلم والإنفاق على نشره، والإحسان إلى أهله، مع اتباع السنة والمواظبة على روايتها، حتى لما قيل له: لم تكثر الجلوس في بيتك، ألا تستوحش؟ فقال: كيف أستوحش، وأنا مع النبي، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه.هـ أي إنه ملازم لما يرويه عن النبي، صلى الله عليه وسلم، من الحديث، ولما يأثره عن أصحابه من الآثار. ومعنى هذا أن أنسه في غالب أوقاته في ملازمة بيته لكتابة العلم وروايته.

ولهذا روى الخطيب، عن يحيى بن معين، لما ذكر ابن المبارك، وقال رجل: إنه لم يكن حافظا، فقال يحيى: كان عبد الله بن المبارك، رحمه الله، كيسا متثبتا ثقة، وكان عالما صحيح الحديث، وكانت كتبه التي حدث بها عشرين ألفا، أو واحدا وعشرين ألفا.هـ.[164/10].

* * *

فانظر يا أخي كيف كان إقبال أئمة الأمة وعلمائها على ملازمتهم بيوتهم، وإمضاء أوقاتهم في جمع العلوم وكتبها وحفظها، حتى وصلت إلينا، لا في صرفها في القيل والقال، وما يضر ولا ينفع في الحال والمآل. وهذه هي الحال التي وفقني لها الباري الرحيم، رغبة في أن ألحق في الأخرى بهذه الفئة التي اتقت الله، وحافظت على أوامره، وتحاشت عن نواهيه؛ فألحقها بأوليائه، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. اللهم وفقني لأعمل أعمالهم، وأنتهج مناهجهم، آمين.

وهذه الحالة هي التي أرشدت إليه أمير المؤمنين، هارون الرشيد، فقال فيه ـ أي في ابن المبارك ـ بعد الانحراف، رجوعا إلى الحق والإنصاف، وأنه أمير المؤمنين في الحديث وفقهه بلا خلاف، قال يوم موته: مات سيد العلماء. هـتاريخ بغداد:163/10].

ثم إن ما ذكرناه هنا في شأن عبد الله بن المبارك، إنما هو جملة يسيرة، دعا إليها اهتمامه بأمر العلماء المهتمين بأمر الدين، وإعانتهم بماله، وخدمته في تجارته لإغنائهم عن السعي في تحصيل ما يقتاتون به، من اتخاذ الأسباب في ذلك، من الولايات وغيرها.

أما استيعاب ترجمة هذا الإمام العظيم، فيستدعي امتلاء الدفاتر والأسفار. ومن شاء الاطلاع على بعض ذلك، فعليه بترجمته في "الحلية"، و"تاريخ" الخطيب، وغير ذلك من المؤلفات. وقد كانت وفاة هذا العالم الكبير، في سنة احدى وثمانين ومائة، عن سن ثلاث وستين. رحمه الله، ونفعنا به وبأمثاله من حماة ومتابعة سيرة سيد المرسلين، آمين.

[الرجوع إلى ترجمة الشيخ الشرادي]

ولنرجع إلى ترجمة شيخنا الشرادي، وما ابتلي به من القضاء، فأقول: إن قضاءه فيما يظهر، كما سمعناه، أنه كان لا عن رضى منه، بل ولا كان راغبا فيه أصلا. وحالته هذه هي التي كانت تظهر من أحواله. ثم إنه لم يطل في هذه الخطة حتى أقاله الله منها. ومع هذا، فإن هذه الخطة القضائية، ولا غيرها من الخطط الشرعية؛ من الخلافة وغيرها، ليست مذمومة لذاتها، بل لما يعرض فيها من الانحراف، والإخلال بالقيام بحقها من تحري العدالة فيها والنزاهة. [بل الإمام العادل] هو من السبعة الذي يظلهم الله بظله، يوم لا ظل إلا ظله، كما في الحديث الصحيح عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " سبعة يُظلهم اللهُ في ظلّه، يوم لا ظلَّ إلا ظِله"، وذكر في أوله: "إمامٌ عادلٌ".

وهذا المبحث قد حققنا فيه القول في كتابنا "الأبحاث السامية". ولكن كل ذلك في القاضي الشرعي، الذي هو النيابة عن الإمام الأعظم، والإمام الأعظم، هو خليفة

عن الرسول في إقامة الأحكام الشرعية التي أصلها الكتاب والسنة. أما ما سوى ذلك، فلا نظر إليه هنا أصلا، والله الموفق.

[نسبة الشيخ الشرادي إلى قصبة الشراردة، والكلام على أصل الشراردة]

ثم لنرجع إلى نسبة شيخنا الشرادي، فأقول: إن نسبة هذا الشيخ، رحمه الله، إلى قصبة الشراردة، ولعل هذه القصبة التي هي خارج مدينة فاس، كان أصل تأسيسها لسكنى جيش الشراردة الذين كان لهم شهرة في المغرب. ونشأ من هذه القبيلة رجال لهم صلاح ومكانة في قلوب الناس، واعتقاد في من اشتهر منهم. وأصلهم، كما في "الاستقصاء"، من عرب معقل، من الصحراء، وهم طوائف زرارة والشبانات، وهم الخلص منهم. ويضاف لهم بعض أولاد ادليم وتكنة وذو بلال، وغيرهم.

وكانت منازلهم، في دولة سيدي محمد بن عبد الله، غربي مراكش؛ فنشأ فيهم الشيخ أبو العباس الشرادي، من أهل الصلاح، ومن أصحاب الشيخ سيدي محمد بن ناصر الدرعي، فاعتقدوه، وربما ناله بعض الإحسان من السلطان المذكور. ثم نشأ ابنه السيد أبو محمد، فجرى مجرى أبيه، وبنى الزاوية المنسوبة إليهم، واعتقده قومه أيضا، بل وغيرهم.

ثم ذكر ترجمة الولد، الذي سماه أبا محمد. ولكنه فيما يظهر، وقع تصحيف في الطبع، وإنما اسمه محمد، وهو الذي أشار إلى أن صاحب "نشر المثاني"، جعل له ترجمة. أما ترجمة "نشر المثاني"، فسنأتي بها بعد بالحرف.

ثم ذكر الناصري بقية ترجمة أهل الزاوية الشرادية، وما وقع لأهلها من الخروج على السلطان مولاي سليمان، وهو موضوع ترجمته، فقال:

ثم جاء ابنه، يعني المهدي بن محمد، فسلك ذلك المسلك أيضا، ونشأ في دولة السلطان المولى سليمان، رحمه الله، واتخذ شيئا من كتب العلم، من غير أن يكون له فيه يد تعتبر. ثم تظاهر بمعرفة السيميا والحدثان، فازداد ناموسه، وتمكن من جهلة قومه.[الاستقصا:165/4].

ثم استمر الناصري يذكر ما آل إليه أمره، من الخروج على السلطان، حتى عظم الخطب واشتد الأمر، واشتعلت الحرب بينه وبين السلطان إذ ذاك، المولى سليمان، وآل الأمر إلى ما آل إليه، مما ليس من غرض ترجمتنا.

وإنما مقصدنا بيان أصل نسبة شيخنا الشرادي، وأنه ينتسب إلى قوم من أصل عربي. وأصل استقرارهم أولا، ظاهر مراكش على نحو يوم، وذلك أيام السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وأنه كان منهم أئمة أفاضل، أولهم السيد أبو العباس، أحد تلاميذ الشيخ سيدي أحمد الناصري، ثم ولده سيدي محمد، الذي بنى الزاوية بفاس،

وهو الذي ترجمه صاحب "نشر المثاني"، إذ قال تحت ترجمة: العام العاشر، من العشرة السادسة:

[أبو العباس الشرادي
وابنه سيدي محمد، الذي بنى زاوية فاس]

" فمنهم الولي الصالح، العارف الناصح، ذو البرهان الواضح، والعز الكامل الراسخ، بحر الأنوار، ومعدن الأسرار، وكهف الوفود والزوار، الشائع ذكره في الحواضر والبوادي، سيدي أبو العباس الشرادي. له زاوية على نصف مرحلة من مراكش، عليها مزارة، وله أتباع يتبعون طريقته بتلك النواحي، وكذلك بفاس الإدريسية؛ فإنه ورد عليها ولده السيد الأثير، الفاضل الشهير، ذو القدر الكبير، والعز الخطير، الأجل الأمجد، أبو عبد الله، سيدي محمد، لما قفل من حجه عام سبعة وسبعين، بموحدة فيهما، ومائة وألف؛ لقيه أناس من أهلها، وأخذوا عنه واستأذنوه في اتباعه في الطريقة، فأذن لهم، فبنيت زاوية لذلك بعدوة فاس الأندلس، بدرب الدرج منها، ورتب لهم فيها أوراد الوظيفة الزروقية وغيرها. وأقيمت فيها الصلاة الليلية بإمام راتب، ونصب فيها كرسي لتدريس العلم، يدرس فيه "رسالة" ابن أبي زيد، و"النصيحة الكافية" للشيخ زروق، وقراءة أحزاب القرآن العظيم، صباحا ومساء، إلى الآن، وعمارتها متصلة. أخذ صاحب الترجمة عن سادات، من أشهرهم الإمام سيدي أحمد بن ناصر الدرعي، نفعنا الله به. وبالجملة، فله أتباع وصيت كبير، وذكر قوي شهير". هـ [نشر المثاني:252/2].

* * *

ثم يسأل هنا، هل شيخنا سيدي الفاطمي من نفس هذين الفرعين الزكيين، والفرقدين النيرين، اللذين نوه بهما صاحب "نشر المثاني"، أو من مطلق الشراردة؟

أما أنا فأقول: إن طلعة شيخنا هذا الغراء، وشيمه الشماء، ولطافة أخلاقه في درسه، وتواضعه وحسن لقائه؛ تعرب بحالها عن طيب أرومته، وشرف أصالته، وأنه، والله أعلم، من نسل هذين الفرعين الزكيين، والشيخين الجليلين؛ ولكن العلم بذلك لعلام الغيوب.

ولقد كان يمكنني أن أستطلع شيخنا المذكور، إذ كنا بحضرته، عن هذا الانتساب. ولكن كانت الهمة مصروفة إذ ذاك إلى تحصيل ما قدمنا للحضرة لأجله، وهو تحصيل العلوم الشرعية وما يتعلق بها، وحيث إن مثل هذه المباحث من قبيل الأمور التحسينيات، التي لا يُتوجه لها إلا بعد تحصيل المهمات الواجبات.

ولكن لا يخفى أن ما جلبناه في شأن نسبة شيخنا، له فائدة جليلة، إذ علمنا أن أصله عربي، وأن موطنه الأول، الذي هو موطن الآباء والأجداد، بجوار العاصمة العظمى مراكش. والعلم كله لله.

أما تاريخ موته، فلم أقف عليه، إلا أنه كنت سمعت من بعض الطلبة، أنه تأخر إلى أواسط العشرة الخامسة، من القرن الرابع عشر، ولكن على شك في ذلك. والذي عندي أنه لما فارقت العاصمة العلمية، تركته في حال صحة جيدة، يظهر من حال تلك الصحة أنه لم يجاوز الستين من عمره، وأنه مقبل على إقامة دروسه بجد واجتهاد، واعتناء بتحقيقها، [وإفادة] الطلبة كما يُطلب ويراد، ودروسه حافلة بالطلبة، مقبلة إليها من حاضر وباد. وفي هذه الأثناء، كان بلغنا أنه ابتلي بولاية القضاء بردانة، ثم انفصل عنه، وعاد إلى خطته المعهودة في الدراسة بجامع القرويين، إلى أن أتاه حمامه، وانتهت أيامه، فبكت العيون، التي كانت قرتها في إلقائه، وشقت جيوب الصدور أسفا على فقد من كان مُجِدًا في نشر العلم وإحيائه.

ثم هو أحد الجماعة التي كان بها ختام ازدهار تلك الجامعة بأعلامها الناشرة لأنوار المعارف و[علومها]. والمولى يداركها بإحياء ما وهى من أركانها، ويعيدها إلى حالتها الأولى، كما أنشأها أول مرة، وهو على كل شيء قدير.

* * *

الشروع في ترجمة شيخنا الحافظ الدكالي

وهنا نبدأ في ترجمة شيخنا، المحدث الحافظ، السيد أبو شعيب الدكالي. وحيث إن ترجمة هذا الحافظ، قد كانت سبقت لنا الكتابة فيها، برغبة أكيدة من ولده، العلامة السيد عبد الرحمان، [إذ كاتبنا] ذاكرا أنه بصدد تأليف ترجمة واسعة لوالده الحافظ المذكور. وإتماما للفائدة في هذه الرغبة، نأتي بنصها بكمالها، وجوابنا على تلك الكتابة، فأقول ما لفظه:

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله

إلى صاحب الفضيلة، العلامة المحترم، الأخ السيد محمد المرير، سلام كريم ورحمة الله وبركاته، بوجود مولانا المؤيد بالله. وبعد: فقد ألحّ عليّ كثير من أهل الفضل، أن أكتب ترجمة والدي، المرحوم بكرم الله، الشيخ أبي شعيب الدكالي، حتى تستطيع الأجيال المقبلة أن تعرف رجلا من رجالات المغرب الأفذاذ، الذي أدى واجبه كاملا نحو هذا الوطن، سواء في ميدان الإصلاح، أو بعث السلفية، ونشر تفسير كتاب الله تعالى وسنة المصطفى، عليه السلام.

ونظرا إلى أنكم تشاركونني في البنوة الروحية للفقيد المذكور؛ أرجو من فضيلتكم أن تسهموا في هذا العمل، الذي سيجازيكم الله عليه، فإن كان لدى فضيلتكم بعض ما نقلتموه عنه، أو عرفتموه به، فزودوني به، لأقوم بهذا الواجب، خدمة للعلم، واعترافا بالجميل. والله كفيل بجزائكم. وعلي خالص المحبة والتقدير، والسلام.

الإمضاء: (عبد الرحمان الدكالي، الكاتب العام للشؤون الإسلامية، والمرشد العام للقوات المسلحة الملكية).

هذا نص كتاب الطلب. ونص جوابه:

" وقد أحطت بمعاني رسالتكم علما، ووقع ذلك مني الموقع المؤثر، وأبهجني هذا المقصد المحمود، فقد أحسن هذا الملحّ فيما طلبه، وأصاب وجه الصواب فيما إليه ندب. أعانكم الله على إتمام هذا المقصد الشريف، والمنزع الجميل، حتى تستوفوا جميع مناحي حياته الطيبة، وتستوعبوا آثاره العرفانية، وتؤدوا حقوقه كاملة، وتضاهوا بموضوعكم هذا "أزهار الرياض"، في أخبار القاضي عياض، وتسابقوا كتاب " نفح الطيب"، في ذكر الوزير ابن الخطيب.

أما ما دعوتم إليه أخاكم الروحي في المساهمة في هذا الموضوع، فإنه ليشق عليه، ويصعب تحقيقه لديه؛ لأنه يقتضي سبق اتصال المواصلة الطويلة بالشيخ، ومزيد اطلاع. وكل ذلك لم يتفق لأخيكم. ولكن نظرا لحسن هذا المقصد الجميل، وحبي الجسيم في هذا الإمام العظيم، وإجابة لرغبتكم التي لا يجمل أن ترد؛ فإني أشارك في هذا القصد الجليل، بسهم ضئيل قليل، حسبما يوافيكم طيه، فتفضلوا بقبوله، واجعلوه من قبيل جهد المقل، وقابلوا ما عسى أن يقع فيه من الأخطاء، بالمسامحة وعين الإغضاء.

ثم إني أؤكد رجائي منكم، أنكم إن عثرتم في متخلفه العلمي على كتابة كتبها، فيما بلغنا، على "مختصر" الشيخ خليل، إذ خرج فيها مسائله الفقهية على الأحاديث النبوية؛ أن تعجلوا بنشر ذلك، لما فيه في هذا العصر من الفوائد العديدة: منها التنويه بمقام شيخنا الكبير، والتنبيه على أنه، كما كان إماما في الحديث، كان إماما في الفقه، ومنها التعريف بهذا الكتاب الذي هو مجمع القوانين الإسلامية، الدينية والدنيوية، والآداب الأخلاقية والاجتماعية؛ وناهيك أن الأجانب، الذين شأنهم أخذ الفوائد النافعة من أي جانب، أعطوه جانبا من الاعتبار، إذ ترجمته إلى لغتها الدولتان الفرنسية والإيطالية، واستخرجت منه فوائد أدبية واجتماعية وقضائية. قال المسيحي جرجي زيدان، في كتابه أدب اللغة العربية: وقد استخرج الفرنج من "مختصر" الشيخ خليل، فوائد اجتماعية وأدبية، فضلا عن الأحكام الفقهية. هـ إلى غير ذلك من الفوائد التي تؤخذ من هذا الكتاب الفريد في بابه، إن وجد ونشر.(*)

ومما يعذب لي ذكره هنا، وهو من آثار شيخنا الهمام الخصوصية، الذي أتخذه ذخرا، وأباهي به فخرا، ما كتبه إلي بخط يده الكريمة، وهو يومئذ وزير العدل بالحضرة الشريفة بالرباط، وأنا يومئذ قاضي بمدينة تطوان أيضا،[يوصي] بأحد أصدقائه، الذي كانت له دعوى في الإرث إلخ. ولفظ صدر خطابه:

(الأخ العزيز، الفقيه العلامة القاضي، سيدي محمد المرير، وفقكم الله، وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ورضوانه الأتم وتحياته، الخ. ثم ذكر الموصى به، وقال: أوصيكم خيرا كثيرا في قضيته؛ فإن النسب يثبت بما هو مسطر عنده، كما لا يخفاكم، وكذلك الميراث. جعلكم الله من مفرد الثلاثة، ولا خيب الله فيكم رجاء

(*) أي ما كتبه المترجم في تخريج مسائل "المختصر" على الأحاديث النبوية. أ. هـ

أحبانك، ولا بدّ وعلى الأخوة والسلام. في 2 شعبان الأبرك، عام 1346: أبو شعيب الدكالي، وفقه الله).

وأكبر شيء عندي في هذه الرسالة، هو ما زودني به من دعائه الذي أرجو الله إجابته. ويقوي رجائي أن شيخنا من أكبر أهل الحديث، وأهل الحديث هم أهل الله، وخلفاء رسول الله، عليه السلام، كما ورد في الأخبار؛ فدعاؤه أقرب إلى الإجابة. حقق الله فيه رجائي ورجاءكم. وإن الفضل بيد الله، يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. ثم هو المسؤول أن يحفظكم ويرعاكم، ويبقيكم لآثار مثل هذا الجهبذ الفذ ناشرين، وإلى الحق والصراط المستقيم مرشدين، آمين، والسلام عليكم من أخيكم الروحي الشقيق، تطوان في29 ربيع الأول، عام 1388.

وهذا نص الترجمة

التي وجهت لولده، الراغب فيها، حسبما سبق،

وهي كافية لموضوع كتابنا هذا:

شيخنا الحافظ، سيدي أبو شعيب الدكالي

أوليته ومبدأ حياته، وما تلقاه من العلوم في حله وارتحاله:

أما شرح تفاصيل هذا الموضوع، فإني لم أوت فيه من العلم إلا أقل القليل، لأني لم أتصل بسيادته في الحضرة الفاسية اتصالا خاصا، وإنما كان عاما في الدروس التي كان يلقيها في جامع القرويين. ولم يرتسم في ذهني من ذلك الموضوع إلا نبذة يسيرة، وجملة وجيزة قصيرة، تلقيتها سماعا من طلبة العلم وغيرهم؛ وهي أن الشيخ، طيب الله ثراه، لما تلقى في وطنه ما تلقى من العلوم، دعته همته العالية وفكرته الوقادة، إلى إعمال الرحلة للخارج، ليرتقي في المعارف أعلى المعارج.

فتوجه تلقاء القاهرة، وهي إذ ذاك بالعلوم الإسلامية في جامعتها الأزهر زاهية زاهرة؛ فدخل تلك الجامعة بجد واجتهاد، صارفا بقوة كل عنايته إلى تلقي فنون العلوم، متحريا في ذلك أهل الذكاء والفهوم. فأخذ عن أكابر علمائها، وأفاضل حفاظها ونبلائها، ما كانت تمتلئ به صدورهم من أصول وفروع، ومعقول ومنقول؛ من تفسير وحديث، وما يتعلق بذلك من حال الرواة من تعديل وتجريح، حتى امتلأ وطابه، وكمل نصابه، وطاول بتحصيله أكابر فقهائها ونبلائها، وبارى عمد رواتها وحفاظها، رواية ودراية، حفظا وضبطا، وتحريرا وتحقيقا. فأصبح مبرزا في ميدان هذه الفنون، ومتخصصا في ضبط الأسانيد والمتون.

ثم لما اشتهر ذكره، وطاب عند الخاصة والعامة نشره، انتقل للحجاز ـ والظن أنه كان بطلب واستدعاء ـ فحل بمكة المشرفة، واتصل بشريفها، وهو إذ ذاك بيده الحل والعقد والإبرام في الأمور العامة والخاصة؛ فقربه وأدناه، وأنزله بالمنزلة المكينة وبلغه من كل المقاصد مناه، فأقام عنده في عز واحترام، وعيشة راضية لا يمل فيها

الثواء والمقام. فكانت تلك الأيام لدى شيخنا الإمام، كلها أعيادا ومواسم عند شريف في أشرف مقام.

إلى أن اشتاق لوطنه، ورجع الدر إلى معدنه، فأقام بالمغرب الأقصى، واليُمن يرافقه، والعز يصاحبه ولا يفارقه، حتى حل بأرجائه، فأحيا بحلوله ما مات من العلوم في أنحائه، واتصل بملكه، وهو إذ ذاك السلطان المولى عبد الحفيظ، فعرف قدره، ورفع مقامه، وأجلسه في مجلس حضرته العلمي صدره؛ فاشتهرت بالعاصمة العلمية معارفه، وتسابقت إلى الاقتباس من أنوار علومه نبلاء الطلبة وأماثله.

ثم انتصب بتلك الحضرة للدراسة والتحديث، وأقام سوقا نافقة في علم التفسير والحديث؛ فافتتح بجامع القرويين، دروسا عالية لتفسير القرآن العزيز، بتفسير العلامة، الإمام الخطيب الشربيني، فأجاد وأفاد، وأملى في إملائها من حفظه وإتقانه في هذه العلوم ما أعجب به الحاضرون من العلماء الأفراد، والجهابذة النقاد. وكان يحضر هذا المجلس الحفيل، كل قاض شهير، وعالم جليل، وفقيه كبير، وطالب نبيل، حتى كان الجامع، على كبره، يغص بالحاضرين. وسمع أهل العلم في هذه الدروس ما كانوا إنما يقرأونه في تراجم الحفاظ المتقدمين، من رؤساء دور الحديث من السلف السابقين.

وإذا أردنا أن نجمل القول في وصف شيخنا الحافظ المذكور، وإثبات ما شاهدناه بأبصارنا، وسمعناه بآذاننا، وارتسمت معانيه في أفئدتنا؛ فإني أقول:

هو شيخ الإسلام، وعلم الأعلام، والحافظ الحجة الهمام. معجزة أوانه، ونادرة عصره وزمانه. عديم النظير في الحفظ والإتقان، وحيد في ذكاء القريحة وسرعة التبيان، واسع الإدراك، حسن الإلقاء والإملاء، يزينه رقة التعبير، وحلاوة التحبير، مع براعة رائعة، وفصاحة رائقة، وبلاغة سالمة من كل حشو وغرابة وتعقيد. يلقي التقرير بكلام جامع في المبادئ والمقاطع، تستلذه المسامع، وتستعذبه الخواطر، وترتاح له الأرواح، كأنه النسيم لطفا، وعبير المسك عرفا. فسبحان من يؤتي الحكمة من يشاء، ويفتح أبواب المعارف لمن يريد. لا رادّ لفضله، ولا ما نع لعطائه، ولا تحديد لمواهبه.

هذا ما أمكن لي إثباته في هذا المبحث مما تلقيته في الاتصال العام، مع اعترافي بالقصور وقلة الاطلاع؛ لا سيما وأنتم جهينة أخباره، ومطلع طوالع أنواره، ومعدن نفائس أسراره. وما حملني على المشاركة بهذا السهم الضعيف الضئيل، إلا تلبية لطلبكم الواجب الإجابة، ومحبة في هذا الذي كانت تفتخر به الأيام، وترتاح لذكر شمائله قلوب العلماء الأعلام.

أما اتصالي بفضيلته الخاص، فإنه لم يتفق لي إلا في زيارته لمدينة تطوان، حسبما يأتي:

زيارة شيخنا الإمام لمدينة تطوان

زار الشيخ، رحمه الله، مدينة تطوان أثناء شهر ذي القعدة، عام سبعة وأربعين وثلاثمائة وألف(1347)، بعد جولة في القطر الجزائري؛ فابتهجت هذه المدينة بهذا الزائر العزيز، وأبدت النخبة النبيلة مزيد سرورها وفرحها بمقدمه، وأنزل بمنزل أحد أعيانها. فسارعت الخواص للتسليم عليه وتهنئته بسلامة القدوم. وكان كاتبه ممن بادر للسلام عليه، فكان أول ما فاتحنا به أن قال لنا: صدق رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إذ قال: " سافروا تصحَوا" الخ، فإني خرجت من منزلي، وأنا مختلّ الصحة، واهي القوة، ضعيف الجسم، عديم الانشراح. وقد وصلت إليكم كامل الصحة، حسن الجسم، متوفر أسباب النشاط. ثم شرع يتم مسألة كان يذاكر بها الحاضرين، وهي مسألة إقامة المسافر الذي يقصر الصلاة بالمقيمين. وأظن أنه كان يحكي ذلك على أنه وقع له في الحال، وهو أنه أمّ بجماعة، وهو في حكم المسافر، فسلم من اثنين؛ فربما تشوف الجمع لاتباع الإمام، فأمرهم أن يقوموا. ثم صار يذكر ما في "الموطا" للإمام مالك، من أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كان إذا قدم لمكة صلى بهم ركعتين، ثم يقول: يا أهل مكة، أتموا صلاتكم، فإنا قوم سفر. الخ.

وهذه كانت عادته، رحمه الله، في مجالسه، إذ كانت كلها علوماً ومعارف، من ذكر أحاديث شريفة، ورقائق أخبار لطيفة. ومن عظيم الأسف، أن هذا الشيخ الكبير، لم يُقم بين أظهرنا بتطوان إلا أياما معدودة، إذ ما سلم حتى ودّع. ورغما عن قلة إقامته وقصر مدتها، [كانت] كلها مآدب وحفلات خاصة وعامة. وفي بعضها أسعدني الحظ بلحظات خاصة مع سيادته، كنت أعدها من أحسن ما تمتعت به من عمري؛ إذ اقتطفت من ثمرات معارفه ما رقّ وراق، وسر الخواطر وأقرّ الأحداق.

[مذاكرة في مسألتي القبض والسدل
في صلاة الفريضة]

فمن ذلك أني حضرت في حفلة أقامها له بعض الأفاضل، ولم يستدع لها إلا بعض الخاصة من أهل العلم، وجري فيها بين يدي الشيخ ذكر مسألة السدل في صلاة الفريضة، وأنه هو القول المشهور في مذهب الإمام مالك، ومستنده في ذلك عمل أهل المدينة، إذ لم يكونوا يقبضون؛ فعارض في ذلك شيخنا وقال: إن هذا العمل غير ثابت بالسند الصحيح، وإنما ذكره بعض المتأخرين من شراح "مختصر" الشيخ خليل. وذيل ذلك بقوله: أنا لا أزال أقبض، حتى أقبض. وبقي الأمر بين أخذ ورد، والشيخ، طيب الله ثراه، متمسك بمذهبه في القبض، وكان كاتبه، ذكر للشيخ أن عمل أهل المدينة بالسدل، أثبته غير مالك. ولكن، من منهج الشيخ وطريقته، أنه لا يقبل القول مجردا عن الدليل وبالسند، على عادة أهل الحديث.

وفي الغد، وفيه كان الاحتفال الكبير العام بالشيخ، فأحضرت معي الجزء الثالث من "تاريخ" الحافظ ابن عساكر، وتابعت المذاكرة مع الشيخ، لآخذ عنه ما ترجح عنده؛ فقرأت عليه في المحفل العظيم، ما رواه في ترجمة بكر بن عمرو المعافري

المصري، أنه لم ير أبا أمامة ابن سهل، وهو من الطبقة الأولى من التابعين من أهل المدينة، واضعا إحدى يديه على الأخرى قط في الصلاة، ولا أحدا من أهل المدينة، حتى قدم الشام، فرأى الإمام الأوزاعي وأناسا معه، يضعون أيديهم، إلخ.[287/3].

فلما قرأت هذا الكلام على الشيخ، سرّ به، وقال لي: جيد. وجزم بثبوت عمل أهل المدينة بالسدل بسند صحيح، وأفاض في الثناء، وهو منشرح الصدر، متهلل المحيا.

وهكذا يكون العلماء الراسخون في العلم، المتحلون بحلية الإنصاف، اقتداء بالسلف الصالح من الخلفاء الراشدين، والأئمة الهادين المهتدين.

ومن هذا، إنّي كنت أسمع ممن لا يأخذ العلم عن أهله، ولا يحفظ في نقل المقالات بسند، أو لا يفهم مقاصد تلك المقالات، أو يحملها على ظاهرها ولا يهتدي لتأويلاتها؛ أن الشيخ، قدس سره، كان ممن لا يقدر قدر إمامنا مالك، إمام أهل مدينة الرسول، عليه السلام، وأنه كان ينتقد مسائل في مذهبه، ويستقصره فيها ويستجهله.

فكان ذلك نكتة سوداء في خاطري، إذ لم أكن أتقبل تلك المقالات قبولا حسنا، وأنا أود أن أصل إلى التحقيق في ذلك، لسعة علم شيخنا ومعرفته بتراجم الرجال، وتقدير مقاماتهم العلمية، ولا سيما الأئمة المجتهدين، وبالأخص منهم الإمام مالك، الذي هو إمام الحديث والفقه باتفاق، إلى أن قدر لي في هذه الزيارة المباركة، الاتصال الخصوصي بالشيخ في منازل بعض الأحبة، وطالت مذاكرتي معه، [فـ]أتحفني فيها بفرائد فوائده في موضوعات شتى.

[مذاكرة في شأن تأييد مذهب مالك]

ومن جملة ما جرى في تلك المذاكرة، الكلام على المذاهب الفقهية المقلدة في الأقطار الإسلامية، وجرى ذكر مذهب الإمام مالك، وأمنيتي أن أسمع من الشيخ ما يسر خاطري، ويمحو منه تلك النقطة السوداء. فقلت له أثناء تلك المذاكرة: يا سيدي. يظهر لي أن أعدل المذاهب هو مذهب مالك، لأنه يجمع في الغالب بين أدلة المذاهب المتخالفة المتعارضة، ويأتي في المسألة بالرأي الصائب المزيل الاختلاف غالبا، وأنا متشوف لما يُجيبني به الشيخ. فأجابني، رضي الله عنه، على ذلك ببداهة وعبارة ملؤها التواضع، على علو مقامه، وقال لي ما هذا لفظه: أيا سيدي الفقيه: لا تقل في هذا: أظن، ولكن قل: أجزم بهذا. وصار يزودني بنصوص في الموضوع، كنت خلوا منها، وكأنه يشير إلى القاعدة المذهبية في مراعاة الخلاف، حتى استطرد الكلام على الفقه المالكي عموما، وصار يعرض بذكر بعض القاصرين في هذا المذهب، الذين يتسمون بسمة العلم، وينتسبون إلى الفقه وهم فيه أدعياء، ويرتحلون إلى المشرق ويتصلون بعلمائه، وينشرون في مجالسهم ما يفيد استقصار هذا المذهب، الذي أسس بنيانه على الكتاب والسنة وآثار الصحابة. وأفاض، رحمه

الله، في الإنكار على هؤلاء، والتنديد بهم، وأنهم بعيدون عن العلم الصحيح، والفقه المؤيد بالدليل، بعد السماء من الأرض.

ثم حكى حكاية، أظنها عن بعض شيوخه المشارقة، تأييدا لمذهب مالك، وتنويها بمقام "مختصر" الشيخ خليل وتحقيقه وجمعه للفقه المالكي، وتجهيل من يستقصره، وأن الباعث لهم على ذلك، هو داء الجهل، ومن جهل شيئا عاداه؛ إذ العلم إنما هو بالتعلم، والعالم، مهما اتسع علمه، وجاد فهمه، إلا قلّ اعتراضه، وأن مثل هؤلاء الجهلة الأغبياء، يصعب عليهم الفقه وفهم "مختصر" خليل لعدم دراسته، فيعرضون عنه. وذيل ذلك بعبارة عامية إذ قال: " مَا هُو سيدي خليل إلاّ وَاعِرْ".

وعند تمام هذا الكلام، كدت أطير فرحا، وزدت في الشيخ حبا وتعظيما، واعتقادا بأنه أحرز المقام الأعلى في فنون العلوم؛ فهو إمام الحفاظ المحدثين، وزعيم الفقهاء المحققين، مع سلامة الصدر، وإنزال أئمة السلف مقامهم، ونسبة الفضائل إلى أفاضلهم:

وما عبر الإنسان عن فضل نفسه بمثل اعتقاد الفضل في كل فاضل

* * *

الحفلة الكبرى التي أقيمت للزائر الكريم بتطوان

أقامت النخبة النبيلة بهذه المدينة حفلة كبرى لهذا الحافظ الكبير، والعلامة الشهير، تقديرا لمقامه، وتنويها برفعة شأنه وعلو مكانه. وشارك في هذه الحفلة الفريدة في بابها، كبراء المدينة وأقطابها، من الوزراء والعلماء والفقهاء، وكل من ينتمي للعلم من سائر الطبقات. فكانت حفلة رائقة، وبمكانة هذا الزائر العظيم لائقة، أرخت فيها مدينة تطوان مسرتها، وأظهرت ابتهاجها وبهجتها.

وزاد هذه الحفلة رونقا وجمالا، أن كانت مظهرا من مظاهر المجالس العلمية، والأبحاث التفسيرية والحديثية؛ فقد أبدى لنا هذا العلامة المحتفل به من مكنون درر علومه، ورقائق غرر فهومه، ما أقرّ النواظر، وأبهج الخواطر، فإنه لما استتبت المجالس، واتسق الاجتماع، قام كاتبه، بمساعدة المحتفلين، راغبا من الشيخ أن يمتعنا برقيق حديثه، ويشنف أسماعنا بلطيف تحديثه، واقترح عليه أن يحدثنا بالحديث القدسي الذي في صحيح مسلم، عن أبي ذر الغفاري: "يا عبادي. إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما" الحديث الخ. فقبل الشيخ ذلك الاقتراح، وصار يحدث به في انبساط وانشراح، وأفاض في سرد إسناده، وشرح ألفاظ الحديث لفظة لفظة، وجملة بعد جملة، وإبداء نفائس أفكاره، وروائع أنظاره، بما أبهج به قلوب الحاضرين إيضاحا وبيانا.

[حكاية الشيخ عن مسألة عرضت له في المجلس العلمي السلطاني]

وفي هذا المجلس، استطرد الشيخ، طيب الله ثراه، ذكر وصف المجلس العلمي، المؤلف بحضرة السلطان المولى عبد الحفيظ، من أكابر علماء فاس وغيرهم، وكان الشيخ الهمام في طليعتهم، وشرح ما كان يجري في هذا المجلس من الأبحاث العلمية المختلفة الموضوعات؛ ومن جملة ذلك أنه عرض السؤال فيه عن معنى قول الشاعر:

يذكرني حاميم والرمح شاجر فهلا تلا حاميم قبل التقدم

[و]عن قائله وعن المقول فيه. قال شيخنا: فلم يستحضر أحد من علماء المجلس الجواب، واستحضر شيخنا الجواب، وألقاه في ذلك المجلس السلطاني، واستوعبه استيعابا تاما، وأحسن تفصيله وتحصيله. فابتهج بذلك جلالة السلطان المولى عبد الحفيظ، وأبدى سروره وإعجابه، حتى إنه لام علماء المجلس على عدم تقييد هذا الجواب وكتابته. رحم الله الجميع.

[وداع الشيخ، وتقديم هدية إليه من الطّيب، وتحديثه بما ورد فيه]

ثم لما حان أوان الافتراق، وأزمع الشيخ على الاستعداد للوداع، وكان المحتفلون به أعدوا للشيخ هدية من طيبٍ، تناسب طيب أخلاقه، وطلبوا من كاتبه أن يقدمها للشيخ، فقمت ممتثلا، وقدمت تلك الهدية إلى جنابه، وطلبت من سيادته أن يحدثنا بالأحاديث الواردة عن النبي الطيب الطاهر، صلى الله عليه وسلم، في الطيب وأنواعه. فقبل الهدية بارتياح وابتهاج، مثنيا على المحتفلين بعباراته اللطيفة الرقيقة.

ثم شرع في التحديث بما ورد عن النبي، صلى الله عليه وسلم، وما كان له من المحبة فيه وكثرة استعماله، وأطال بما شنف الآذان من رواياته الصحيحة، وعباراته الأنيقة الفصيحة، فكان بذلك مسك الختام. فبادر الحاضرون لمصافحة الشيخ ووداعه، والكل متأثر من فراقه، مردد لحسن إلقائه ومحاسن أخلاقه.

قدس الله روحه، ونور ضريحه، وأسكنه جنة النعيم مع الذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين، آمين. وكتبه معترفا بالقصور وعدم الاطلاع، رادا العلم إلى مولاه: محمد المُرير. تطوان في20 ربيع الأول عام1386.

وهنا انتهت ترجمة شيخنا الحافظ الدكالي، على حسب ما سأله مني ولده السيد عبد الرحمان، وأدرجت نصها في هذه "الفهرسة"، لاستيعابها لترجمة الشيخ المذكور.

* * *

[تذييل ما حكاه الشيخ الدكالي
عما جرى في المجلس العلمي بحضرة السلطان]

ولكن حيث جُعلت[تلك الترجمة] من جملة "الفهرسة"، ومما سلكناه فيها أن أتتبع ما تستدعيه تراجمها من الأبحاث والتذييلات، وبسط الكلام عليها على حسب الاقتضاء؛ أقول هنا:

إن مما نقلناه عن الشيخ الحافظ المذكور، تلك المسألة التي حكاها لنا عما وقع في مجلس جلالة السلطان، مولاي عبد الحفيظ، في معنى قول الشاعر:

يذكرني حاميم والرمح شاجر فهلا تلا حاميم قبل التقدم

وأنه انفرد بالجواب عما يتعلق بهذا الشعر، وعجز عن الجواب عنه سائر علماء المجلس، وما وقع للسلطان من انبساط بذلك، حتى لام العلماء على عدم تقييدهم جواب الشيخ إلخ.

قلت: وهذا الانفراد بالاطلاع على الجواب، ولوم السلطان العلماء على عدم تقييده؛ فيه ما لا يخفى، من نسبة هؤلاء الأعلام إلى القصور، و[يوهم] بأنهم عاجزون حتى عن مراجعة هذه المسألة التي ربما يعلمها حتى من له أدنى معرفة بعلم كتب الحديث والسير، فضلا عن أمثال هؤلاء العلماء الذين كان فيهم أمثال شيخ الجماعة، سيدي أحمد ابن الخياط، وغيرهم الذين شأنه سرد صحيح البخاري، ومراجعة شروحه، لأن هذا البيت في متن "الصحيح"، في تفسير سورة المؤمن، إذ قال: (سورة المؤمن)، (بسم الله الرحمان الرحيم)، قال مجاهد: مجازها مجاز أوائل السور، ويقال: بل هو اسم لقول شريح بن أبي أوفى العبسي:* يذكرني حاميم والرمح شاجر* إلخ البيت المتقدم.

ثم كتب على الشعر المذكور، الحافظ ابن حجر في "الفتح"، ما يتعلق بهذا البيت من الخلاف في قائله، ولمن قيل، وما معناه، وأطال المقال، الذي [نوه] بمضمنه شيخنا الحافظ، وادعى أنه انفرد بمعناه. وهذا لفظ ابن حجر، بعد أن ذكر مضمن ما أشار إليه البخاري في الترجمة، من معنى فواتح السور،[و]الخلاف في قائله وما جرّ إليه، فقال:

" وشريح بن أبي أوفى، الذي نسب إليه البيت المذكور، وقع في رواية القابسي: شريح بن أبي أوفى،[وهو خطأ. ولفظ أبي عبيدة: وقال بعضهم: بل هو اسم، واحتجوا بقول شريح بن أبي أوفى]العبسي، فذكر البيت. وروى هذه القصة عمر بن شبة، في كتاب "الجمل" له، من طريق داود بن أبي هند، قال: كان على عليِّ بن

محمد بن طلحة بن عبيد الله، يوم الجمل، عمامة سوداء، فقال عليّ: لا تقتلوا صاحب العمامة السوداء، فإنما أخرجه برّه بأبيه. فلقيه شريح بن أبي أوفى، فأهوى له بالرمح، فتلاحما، فقتله. وحكى أيضا عن ابن إسحاق، أن الشعر المذكور للأشتر النخعي، قال: وهو الذي قتل محمد بن طلحة. وذكر أبو مخنف أنه لمدلج بن كعب السعدي، ويقال كعب بن مدلج. وذكر الزبير بن بكار، أن الأكثر على أن الذي قتله عاصم بن مقشعر، قال المرزباني: هو الثبت، وأنشد له البيت المذكور، وأوله:

وأشعث قوّام بآيات ربه … قليل الأذى فيما ترى العينُ مُسلم

هتكت له بالرمح جيب قميصه … فخرّ صريعا لليدين وللفم

على غيرشيء غيرأن ليس تابعًا … عليا، ومن لا يتبع الحق يندم

يذكرني حم [الخ] البيت.

ويقال: إن الشعر لشداد بن معاوية العبسي، ويقال: اسمه حديد، من بني أسد بن خزيمة، حكاه الزبير. وقيل: عبد الله بن معكبر. وذكر الحسن بن المظفر النيسابوري في كتاب " مأدبة الأدباء"، قال: كان شعار أصحاب علي يوم الجمل: (حم). وكان شريح بن أبي أوفى مع علي، فلما طعن شريح محمدا، قال: (حَم)، فأنشد شريح الشعر. قال: وقيل: بل قال محمد لما طعنه شريح:(أتقتلون رجلا أن يقول ربيَ الله). فهذا معنى قوله: يذكرني (حَم)، أي بتلاوة الآية المذكورة، لأنها من (حَم)".هـ[فتح الباري:391/8].

قلت: وما أعجب به شيخنا، مما ادعى أنه انفرد بمعرفته فيما يتعلق بهذا الشعر، وزاده إعجابا ما قاله السلطان مولاي عبد الحفيظ، في التنويه بانفراد الشيخ بذلك، ولومه العلماء على عدم تقييد ذلك، وكان ذلك استقصارا لجميع علماء المجلس؛[هو] ملخص كلام ابن حجر، بل هو عين كلامه. وذلك لا يلزم منه استقصار هؤلاء العلماء الأماثل، وهم نخبة علماء فاس، وعمد جامع القرويين، وفي مقدمتهم كان إذ ذاك شيخ الشيوخ، الذي كان يشهد الجميع له في كل العلوم بالاطلاع والرسوخ، وهو أبو العباس، سيدي أحمد ابن الخياط، وغيره من أمثاله.

والذي يظهر أن الكلام على هذا البيت، الذي ذكره الشيخ البخاري في كتاب" التفسير"، في سورة المؤمن، في الكلام على أسماء السور؛ ليس من اللازم التعرض لقائله، ولا لمن قيل فيه، ولا لمعناه؛ فالجمع من العلماء، إنما كانت وجهتهم مصروفة إلى الموضوع، في الكتاب المقروء، وهو الكلام على أسماء السور المفتتحة بالحروف المقطعة، وما يتعلق بذلك.

وأما قائل الشعر، وما وقع من الخلاف في ذلك، أو معنى ما يفيده ذلك الشعر؛ فليس من موضوع الكتاب. ومع هذا، فقد تعرض لذلك الحافظ ابن حجر في "شرحه". وبمضمنه استظهر الشيخ، وألقاه على المجلس، وأعجب بانفراده بذلك، كما سبق، مع ما في التعرض لشرح البيت وما أضيف إليه،[مما] يجر إلى الكلام على واقعة الجمل، التي فيها التعرض لأصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم،

وفيهم أم المؤمنين سيدتنا عائشة، رضي الله عنها، وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه.

وهذا المبحث عند أئمة السلف، من أهل السنة، يوجبون الإمساك عن الكلام فيه. وقد أدرجه الإمام العلامة الناسك، المتبرك بكلامه، ابن أبي زيد القيرواني، في عقائد التوحيد، فقال:

" وأن لا يذكر أحد من صحابة الرسول الله إلا بأحسن ذكر، والإمساك عما شجر بينهم، وأنهم أحق الناس أن يلتمس لهم أحسن المخارج، ويظن بهم أحسن المذاهب". هـ[الرسالة: 13].

[الكلام على لفظة (حَم)، من فواتح السور]

على أن المفسرين لهذه اللفظة، ممن اطلعنا عليه في فاتحة (سورة المؤمن)؛ على الاستشهاد به ونسبته لقائله(*)، دون التعرض لغير ذلك. فمنهم الإمام أبو حيان في " بحره"، والزمخشري في " كشافه"، والحافظ ابن كثير في " تفسيره".

إلا أن[صاحب]"الكشاف"، لما [تكلم على]هذه الفواتح، قال: فيه أوجه: أحدها، وعليه إطباق الأكثر، أنها أسماء السور، إلخ. وذكر ما في إعرابها، وما نقله في ذلك عن "الكتاب"، يعني كتاب سيبويه، فذكر في الوجه الثاني، أنه يجوز فيه الإعراب والحكاية. ثم استدل للإعراب بهذا الشعر، فقال: قال قاتل محمد بن طلحة السجاد، وهو شريح بن أبي أوفى العبسي:

* يذكرني حاميم والرمح شاجر* الخ،

قال: فأعرب حاميم، ومنعها من الصرف إلخ.

ثم كتب "محشيه" على قوله: محمد بن طلحة، ما لفظه: هو طلحة بن عبيد الله القرشي. يتصل نسبه بالأب السابع من آباء النبي، صلى الله عليه وسلم، أعني مرة بن كعب. لُقِّب بالسجاد. أمره أبوه يوم الجمل أن يتقدم للقتال؛ فنثل درعه بين رجليه، وكلما حمل عليه رجل قال: نشدتك بحم، يريد بما في (حَم عَسِق) من قوله تعالى: (قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عليْهِ أجْراً إلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى). ويظهر من ذلك أنه من القرابة الذين وجبت محبتهم، وكف الأذى عنهم. وقيل: كان شعار حزب الحق في ذلك اليوم: (حَم)، لتلك الآية. وكان محمد يدعي بذلك أنه ليس من حزب المخالفين، فلما قتله العبسي أنشأ مفتخرا: * وأشعث قوّام بآيات ربه* الخ الأبيات السابقة. قال: ويروى أن عليا، رضي الله عنه، لما رآه بين القتلى، استرجع وقال: إن كان لشابا صالحا، ثم قعد كئيبا. ثم صار "محشي" الكشاف يشرح تلك الأبيات، فانظرها.[الكشاف:65/1].

(*) أي الشعر المذكور الذي فيه: يذكرني حَم، إلخ. أ.م

أما أبو حيان، فإنه اقتصر على ذكر البيت الشاهد. لكنه صدر ذلك بحديث قال فيه: وفي الحديث أن أعرابيا سأل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عن (حم)، ما هو، فقال: " أسماء وفاتح سور". وقال شريح بن أبي أوفى العبسي: * يذكرني حاميم* الخ. ثم تكلم أبو حيان عن كلمة حاميم، من جهة العربية، كما تكلم عليها غيره.[البحر المحيط:446/7].

- - -

وعلى الجملة؛ فلوم علماء المجلس على عدم استحضارهم تلك الجملة، التي استحضرها هذا الحافظ، لا يلزم منه قصور ولا تقصير، لأنهم ذهبوا على المنهج السالم من أن يذكر أحد من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بسوء، كما سلف عن "الرسالة". والله الموفق.

على أن هذه المسألة هي: إما من قبيل التاريخ، أو من قبيل علم الأدب، من ذكر الشعر وقائله؛ وشأن شيوخنا، فيما أدركنا، عدم الاعتناء بالتاريخ، وبالشعر والأدب.

[الروايات التاريخية وما شَابها من آفات، وذكر نبذة عن وقعة الجَمل]

ولا يخفى أن مثل هذه المسائل؛ من حرب الجَمل وأمثالها، قد تخالفت فيها الروايات، وفيها العليل والسقيم، ودخلها التحزب؛ فكل يروي ما يعضد حزبه، ويفرج كربه.

والتحقيق في مثل هذا، يعسر الوقوف عليه، كسائر أخبار المؤرخين. ويقول إمام المؤرخين ابن جرير في "تاريخه" ما لفظه:

" كتب إليّ السري، عن شعيب، عن سيف، عن الصَّعْب بن عطية، عن أبيه، قال: وجاء محمد بن طلحة، فأخذ بزمام الجَمل، فقال: يا أمّاه، مُريني بأمركِ. قالت: آمُرك أن تكون كخير بني آدم، إن تُركت. قال: فحمل، فجعل لا يحمل عليه أحد، إلا حمل عليه، ويقول: حَم لا يُنصرونَ. واجتمع عليه نفر، فكلهم ادّعى قتله: المُكَعْبر الأسديّ، والمُكعبر الضبيّ، ومعاوية بن شداد العبسي، وعفان بن الأشقر النَّصْري؛ فأنفذه بعضهم بالرمح، ففي ذلك يقول قاتله منهم: * وأشْعَثَ قوّامٍ*، الخ" هـ[214/5].

قلت: فانظر كيف يقع النقل مختلفا في هذه القضية الصغيرة، فكيف في غيرها من القضايا الكبيرة المهمة؟!

[ما عليه المحققون في مسألة خروج السيدة عائشة يوم الجَمل]

مع أن الذي عليه المحققون من أهل السنة، أن السيدة عائشة، رضي الله عنها، ما خرجت يوم الجمل لقتال، وإنما خرجت لكف النضال ومنع القتال، والتوسط في

المصالحة بين الفريقين، كما قدمنا ذلك في غير هذا المحلّ، عن القاضي أبي بكر ابن العربي وغيره. ويشير إلى ذلك ما رواه ابن جرير في "التاريخ"، عن صورة افتراق السيدة عائشة مع أمير المؤمنين سيدنا علي، إذ قال:

" وكتب إلى السري، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: وجهّز عليّ عائشة بكل شيء ينبغي لها، من مركب أو زاد أو متاع، وأخرج معها كل من نجا ممن خرج معها، إلا من أحب المقام، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات، وقال: تجهّز يا محمد. فبلغها، فلما كان اليوم الذي ترتحل فيه، جاءها حتى وقف لها، وحضر الناس، فخرجت على الناس، وودعوها وودعتهم، وقالت: يا بني، يعتب بعضنا على بعض استبطاءً واستزادةً، فلا يعتدّن أحد منكم على أحد بشيء بلغه من ذلك. إنه والله ما كان بيني وبين عليّ في القديم، إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها. وإنه عندي، على معتبتي، من الأخيار. وقال عليّ: يا أيها الناس، صدقت والله وبرَّتْ. ما كان بيني وبينها إلا ذلك، وإنها لزوجة نبيكم، صلى الله عليه وسلم، في الدنيا والآخرة. وخرجت يوم السبت لغرة رجب، سنة 36، وشيّعها عليّ أميالا، وسرح بنيه معها يوما"(*).هـ كلام ابن جرير.

أبمثل هذه الملاطفة يفترق المتحاربون؟ أم على هذا التودد يتوادع الأعداء المتقاتلون؟ [فهدف السيدة عائشة هو] الإصلاح بين المسلمين، الذين نزغ الشيطان بينهم، إذ يُقرأ على هذا قوله تعالى، في حزن سيدنا يعقوب، إذ قضى الله في تلك القضية ما قضى، وانجلت تلك الكارثة التي عادت بعد سوادها بياضا، واتصل الوالد بالمولود، واعتذر الكل لصاحبه، مما أزال الحزن عن قلبه، فعاد الحال إلى سيرة السادات[من] الآباء والجدود. ولهذا قال سيدنا يوسف، عليه وعلى آله الصلاة والسلام: (هَذَا تَأوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقاً وَقَدْ أحْسَنَ بي إذْ أخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدَ أنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إخْوَتِي)الآية(**)؛ تسليما للقضاء المبرم، والقدر المقدر، من خير وشر.

[الصحابة كلهم عدول، وما جرى بينهم كان عن اجتهاد]

أما أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ يتقدمهم الخلفاء الذين منهم صهره على الزهراء، ومطلع أنوار الأشراف التي أضاءت بغررهم الأرض الغبراء، ثم سائر الأصحاب، رضي الله عنهم، فكلهم عدول. قال الشيخ زروق في شرح "الرسالة": ومذهب أهل السنة أن الصحابة كلهم عدول؛ وكل ما في ذلك من الخلاف[هو] للمعتزلة. قال بعضهم: إن الصحابة عيون، ودواء العين أن لا تمس.[69/1].

(*) [تاريخ الطبري: 225/5].
(**) [يوسف:100].

إلى غير ذلك من المقالات التي وردت فيهم، رضي الله عنهم. وقد قال العلامة ابن ناجي في "شرح الرسالة"، عن بعض العلماء:

" ضابط هذا أنهم عدول وأعيان، اختارهم الله لصحبة النبي، صلى الله عليه وسلم، ولنصرة دينه، وأثنى عليهم في كتابه؛ فكل ما وقع بينهم في ذلك، فليس عن هوى، ولا لتحصيل دنيا، وإنما هو عن اجتهاد رأي.هـ[69/1].

وهذا هو قول الإمام البوصيري:

كلهم في أحكامه ذُو اجتهادٍ وصوابٍ، وكلهُم أكفـــاءُ

[السيدة عائشة وما لها من الفضائل]

ولهذا أحسن الحافظ ابن حجر في "الإصابة"، حيث ذكر ترجمة السيدة الجليلة، السيدة عائشة بنت خليفة رسول الله الأول، أبي بكر الصديق، وذكر ما لها من الفضائل العظيمة، والشيم الجليلة الكريمة، وما لها من المعارف والعلوم، وما كان لها من المنن الجليلة على ملة الإسلام، من الأحكام الدينية، وروايتها عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الأحاديث الجمة التي عدت بها من المحدثين المكثرين، وورد فيها: "خذوا دينكم عن هذه الحميراء"، حتى كان أعظم الأصحاب - كما قاله الحافظ في "الإصابة" - يرجعون إليها فيما أشكل عليهم، أو غاب عنهم علمه من الأحكام والفرائض. وقال عطاء بن أبي رباح: كانت عائشة أفقه الناس، وأعلم الناس، وأحسن الناس رأيا في العامة. وقال هشام بن عروة، عن أبيه: ما رأيت أحدا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة. وقال أبو بردة بن أبي موسى، عن أبيه: ما أشكل علينا أمر فسألنا عنه عائشة، إلا وجدنا عندها فيه علما.(*)

ثم أفاض في ذكر روايتها الشيء الكثير من الحديث، وذكر من روى عنها من كبار الصحابة، وفي مقدمتهم أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب،إلى غير ذلك مما لها من الأوصاف الحسان، والمكانة الكبرى في كل شأن.

وبالجملة، فهي العالمة الصالحة، المحبوبة لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، العمدة التي انتفعت الأمة بعلومها ورواياتها، وأجمعت عليه الأئمة الأعلام من أهل السنة، بحيث لا يختلف في ذلك اثنان.

فليخسأ من ذكرها بسوء، أو نسب إليها ما لا يليق بمقامها العلي الأعلى، وليتلقَ من ربه ما يستحقه من الخزي والدرجة السفلى. نفعنا الله ببركتها، وجعلنا من الحامين لحماها، والمعادين لمن استنقصها من الرافضة، الذين ما رعوها حق رعايتها، ولا عرفوا قدرها ومقامها. فسحقا لهم سحقا، وللآخرة، عند من وقر جانب الرسول وآله وأصحابه، خير وأبقى.

(*) "الإصابة":4/360.

ثم إن من ذكر هذه الكارثة،التي قدر الله وقوعها، [أفاد] أن السيدة عائشة، ما خرجت إليها من تلقاء نفسها، ولا بقصد انتقامها؛ ولكن كان بطلب من أفاضل الأمة، طمعا في إصلاحها بين الفريقين، ورد الجماعة إلى وفاقها.

[ندم السيدة عائشة على خروجها،
والحديث الذي ورد في ذلك، وهو من دلائل النبوة]

ولكن، بعد خروجها، و[أن] زلّ بها القدم، أصابها ما أصابها من الندم، كما أفاده الحديث الذي أخرجه الحافظ ابن كثير في "البداية"، عن الإمام أحمد، عن قيس، قال:

لما أقبلت عائشة ـ يعني في مسيرها إلى وقعة الجمل ـ وبلغت مياه بني عامر ليلا، نبحت الكلاب، فقالت: أي ماء هذا؟ قالوا: ماء الحوأب، فقالت: ما أظنني إلا راجعة؛ فقال بعض من كان معها: بل تقدمين، فيراك المسلمون، فيصلح ذات بينهم، قالت: إن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال لنا ذات يوم "كيف بإحداكُنّ تنبح عليها كلاب الحوأب". ثم قال: رواه أبو نعيم بن حماد في "الملاحم". قال: ثم رواه أحمد، عن غُندر، عن قيس بن أبي حازم، أن عائشة لما أتت على الحوأب، فسمعت نباح الكلاب، فقالت: ما أظنني إلا راجعة، إن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال لنا: "أيتكن ينبح عليها كلاب الحوأب؟". فقال لها الزبير: ترجعين! عسى الله أن يصلح بكِ بين الناس. قال الحافظ ابن كثير: وهذا إسناد على شرط الشيخين، ولم يخرجوه.

ثم ذكر تخريج البزار، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: " ليت شعري، أيتكن صاحبة الجمل الأذنب، تسير حتى تنبحها كلاب الحوأب، يُقتل عن يمينها وعن يسارها خلق كثير". ثم قال: لا نعلمه يروى عن ابن عباس إلا بهذا الإسناد. هـ[البداية والنهاية: 211/6].

ولكن، لما أخرج الحافظ ابن عبد البر في "الاستيعاب" هذا الحديث، عن طريق محمد بن وضاح، عن عاصم بن قدامة، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال، وزاد فيه إثر "خلق كثير": "وتنجو بعد ما كادت". قال: وهذا الحديث من أعلام نبوته، صلى الله عليه وسلم. وعاصم بن قدامه ثقة، وسائر الإسناد أشهر من أن يحتاج لذكره. هـ[بهامش الإصابة:361/4].

[ردّ الإمام ابن العربي
على الرافضة فيما نسبوه للسيدة عائشة]

قلت: ولقد تعرض الإمام أبو بكر ابن العربي في " أحكام القرآن" لهذه القضية، عند قوله تعالى: (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ)، في سورة الأحزاب(*)، وحرر ما قلناه سابقا، من أنها ما خرجت، رضي الله عنها، لتقود الجيوش لمحاربة، ولا دخلت في هذه المعركة المؤلمة للانتقام. ولكن خرجت بمراودة أفاضل الناس، طمعا في سكون الناس عند رؤية طلعتها الكريمة التماس بركتها. وردّ في ذلك على الرافضة، فقال ما لفظه، في المسألة الخامسة من مبحث الآية:

" تعلق الرافضة، لعنهم الله، بهذه الآية، على أم المؤمنين، عائشة، رضي الله عنها، إذ قالوا: إنها خالفت أمر الله وأمر رسوله، صلى الله عليه وسلم، وخرجت تقود الجيوش وتباشر الحروب، وتقتحم مآزق الحرب والضرب، فيما لم يفرض عليها، ولا يجوز لها. ولقد حصر عثمان، فلما رأت ذلك، أمرت برواحلها، فقربت لتخرج إلى مكة، فقال لها مروان بن الحكم: يا أم المؤمنين، أقيمي هاهنا، وردي هؤلاء الرعاع عن عثمان، فإن الإصلاح بين الناس خير من حجك. وقال علماؤنا، رحمة الله عليهم: إن عائشة، رضي الله عنها، كانت نذرت الحج قبل الفتنة، فلم تر التخلف عن نذرها. ولو خرجت عن تلك الثائرة، لكان ذلك صوابا لها. وأما خروجها إلى حرب الجمل، فما خرجت لحرب. ولكن تعلق الناس بها، وشكوا ما صاروا إليه من عظيم الفتنة، وتهارج الناس، ورجوا بركتها في الإصلاح، وطمعوا في الاستحياء منها، إذ وقفت إلى الخلق، وظنت هي ذلك، فخرجت مقتدية بالله في قوله: (لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِن نَجْوَاهُمُ إلاَّ مَن أمَرَ بِصَدَقَةٍ أوْ مَعْرُوفٍ أوْ إصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ)، وبقوله: (وَإنْ طَائِفَتَانِ مِنَ المُؤمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأصْلِحُوا بَيْنَهُمَا). والأمر بالإصلاح، مخاطب به جميع الناس، من ذكر وأنثى، حرّ أو عبد. فلم يرد الله، بسابق قضائه ونافذ حكمه، أن يقع إصلاح. ولكن جرت مطاعنات وجراحات، حتى كاد يفنى الفريقان؛ فعمد بعضهم إلى الجمل فعرقبه؛ فلما سقط الجمل لجنبه، أدرك محمد بن أبي بكر عائشة، فاحتملها إلى البصرة، وخرجت في ثلاثين امرأة قرنهن عليّ بها، حتى أوصلوها إلى المدينة، برّة تقية، مجتهدة مصيبة، ثابتة فيما تأولت، مأجورة فيما تأولت وفعلت، إذ كل مجتهد في الأحكام مصيب. وقد بينا في كتب الأصول، تصويب الصحابة في الحروب، وحمل أفعالهم على أجمل تأويل". هـ كلام الإمام ابن العربي(*).

(*) الآية: 33

(*) [" أحكام القرآن":166/2].

وهو المقصود في هذا التأويل، وعليه محققو الفقهاء وأهل الحديث، المعرضين عن القول والقيل، والناهجين مناهج التحصيل، واتباع قصد السبيل، ورد طعن الرافضة في هذا المقام العظيم الجليل. وكل ما قضاه الله وأنفذه حسن جميل.

[ختام هذا المبحث
الذي جرّ إليه البيت الشعري الذي ذكره الشيخ الدكالي،
والتذكير بمنهجية هذه الفهرسة]

[هذا]، وكل ما أطلنا به، إنما جرّه إلينا البيت الذي حكى شيخنا أنه جرت فيه مذاكرة في مجلس صاحب الجلالة، السلطان مولاي عبد الحفيظ، حسبما أسلفناه؛ ثم متابعة للمنهج الذي سلكناه في هذه "الفهرسة"، من أننا جعلناها كتاب علم، وبسط القول في كل ما جره إلينا الموضوع من الفوائد، خدمة للعلم، وحبا فيه، وطلب الزيادة في الاطلاع، واتباعا لما يدل عليه قوله تعالى: (وَقُلْ رَبِّي زِدْنِي عِلْماً)، ولا سيما في هذا لعصر الذي استولى فيه الجهل والإعراض عن العلوم والمعارف الإسلامية، والاغتباط ـ بما يسمونه علما ـ من الأباطيل الأجنبية.

مع [أن] هذه العلوم التي أعمر بها الوقت، وأقضي فيها العمر في لزوم البيت، هي كما قال الإمام القدوة، المحدث الصادق، والفقيه المجتهد في الرقائق والدقائق، أبو عبد الله، سيدي عبد الله بن المبارك، لما قيل له: مالك تنفرد في بيتك، وتنفر من الناس؟ فقال: إني أهنأ بين رسول الله وأصحابه، أو كلاما هذا معناه. وقال: ولا أعلم بعد النبوة أفضل من العلم، كما سبق نقله بلفظه. جعلنا الله ممن علم فعمل، وقصد بذلك وجه الله العلي الجليل، وثوابه الجزيل، دون قصد شهرة أو رياء أو تعليل، آمين.

[مواصلة ترجمة الشيخ الدكالي،
والكلام على قبيلة دُكّالة، ومن انتسب إليها من الأعيان]

قلت: وبقي علينا من تكميل ترجمة شيخنا الدكّالي، الكلام على نسبته ووفاته، فأقول: هو منسوب إلى دُكّالة، القبيلة الشهيرة بالمغرب، الواسعة الأطراف، التي ينسب إليها جماعة من مشاهير القواد، وجملة من أفاضل الأعيان؛ علماء وأخيار، وعبّاد أولياء، كما سيأتي.

ولشهرة هذه البلدة، ذكرها أهل تقويم البلدان وغيرهم، من مشارقة ومغاربة. فقد ذكرها من المشارقة، ياقوت في "معجم البلدان"، فقال: دَكّالة، بفتح: بلد بالبربر.

وذكرها في "القاموس"، وضبطها بالضم، فقال: دُكّالة كرُمّانة، وقال: إنها بلد بالبربر.

وأجرى ذكرها صاحب "صبح الأعشى"، عند ذكره مدينة آسفي، وجعلها من عمل دُكالة، إذ قال: وهي، أي آسفي، من عمل دكالة، وهي كورة عظيمة من أعمال مراكش.هـ[168/5].

ولكن، قد استوعب مؤرخو المغرب، حال دُكالة وما لها من النسبة العريقة. والبحر الذي استمد منه كل من نقل أخبار حال العرب الذين نزلوا بالمغرب، وقبائلهم وأجدادهم، ومواطن استقرارهم، وما تولد منهم، وتقلبات أحوالهم مع الدول، وبعض من نال الرئاسة في المغرب الأقصى؛ هو كتاب "العبر" للعلامة ابن خلدون، فعليك بالمجلد السادس منه. وقد لخّص بعض ذلك صاحب "تاريخ آسفي"، إذ قال في حال العرب في المغرب الأقصى، في دولة السلطان يعقوب المنصور:

" لما أوقع بعرب إفريقية الشمالية، نقل جمهورهم إلى دواخل إفريقيا الجنوبية (المغرب الأقصى)؛ فأنزل عرب جُشَم، وما أضيف إليهم، بتامسنا ودكالة: البسيط الأفيح، ما بين سلا ومراكش، وآسفي وما إليه؛ وأنزل رياحا ببلاد الهبط، فيما بين القصر وأزغار إلى البحر البسيط الأفيح. ولم ينقل بني سليم بن منصور، لأنهم لم يقاتلوه، وذلك سنة584. ويسمي الناس هذين البسيطين، الأول: بالحوز، والثاني بـ: الغرب". هـ[ص31].

هذا نقل صاحب "تاريخ آسفي وما إليه قديما وحديثا".

[التنويه بأديب المغرب، ابن المواز، النائب عن الصدر بناحية الحوز، حسب نظام الدولة إذ ذاك]

قلت: وقد أدركنا من نظام الدولة المغربية، في استقلالها، أن تجعل لكل بسيط من هذين البسيطين: الحوز، والغرب؛ كاتبا عاما بصفة نائب عن الصدر. وكانت، فيما أدركنا، المرتبة الأولى لكاتب الحوز. وكان أيام كوننا بفاس، الكاتب الأديب، الفقيه الأريب، الناثر الشاعر، ابن المواز. وكان هو، فيما أدركنا، شاعر القصر، وهو الذي ينشئ القصائد الطنانة عند المناسبات المهمة، كالمولد النبوي. وكنتُ اطلعت على بعضها.

وكان هذا الفقيه الفذ، من علية الأدباء النبلاء، يشارك في الفقه. وله، فيما بلغني، مؤلف في مسألة الجلسة، وله مديح في السلطان فائق، نظم فيه كل قطعة من أحد البحور العروضية. وهي لطيفة جدا، قد طبعت بالمطبعة الحجرية بفاس.

قلت: وكان، رحمه الله، من أعيان الأدباء، والفقهاء النبلاء. ينبغي أن يفتخر به المغرب، وممن يعتني الأدباء بترجمته، رحمه الله.

[مواصلة الكلام على عرب دُكّالة]

ثم ذكر صاحب "تاريخ آسفي"، مواطن هؤلاء العرب على التفصيل، فقال:
" عرب دكالة: قال الإمام أبو زيد، عبد الرحمان الفاسي، في كتاب "الأقنوم، في مبادئ العلوم":

فصلٌ: وفي دكالة بنو هلالْ   أولاد عمران، وعبدة يقالْ
أولاد بو عزيز الشرقيــة   أولاد سبطة، كذا الغربية

الخ.

ثم قال صاحب "التاريخ" المذكور:
"عرب دكالة، ينقسمون إلى قسمين: دكالة البيضاء، وهي الشمالية التي تحفظ هذا الإسم (دكالة) عند الإطلاق الخاص. ودكالة الحمراء، وهي الجنوبية المحيطة بآسفي، التي تحفظ اسم (عبدة) في الإطلاق الخاص. وفي التاريخ العام المغربي، يتناول الإطلاق القبيلتين".هـ[ص31].

وبالجملة: إن دُكّالة من القبائل الشهيرة بالمغرب، وهي من قبائل الحوز. ثم الآن صار العرف، أن دكالة من أحواز الجديدة، وعبدة من أحواز آسفي.

والله يقلب الليل والنهار، ويصرف الأقدار مدى الأيام والأعصار، في هذه الأقطار، وسكان هذه الأمصار، من حال إقبال وإدبار، وإثراء وإقتار. وهو الفاعل في ملكه ما يشاء ويختار، وفي ذلك آيات لأولي البصائر والاعتبار.

[ذكر بعض من انتسب لقبيلة دكالة من مشاهير، وترجمة شيخ المشايخ أبي يعزي]

وقد انتسب لهذه القبيلة الشهيرة أعيان كبار، من أعلام ذوي اشتهار، وعباد صلحاء أخيار، وأدباء لهم قصائد وأشعار، وكتاب وقواد قادوا جيوشا كانت في ميدان المحاربة ذات إقدام دون انكسار.

فمن أشهر الصلحاء الذين انتسبوا لهذه القبيلة ، شيخ المشايخ، أبو يعزى، الولي الصالح الذي أجمع على ولايته، كما قاله الإمام ابن غازي في "روضه". وجعل مدفنه مما تفتخر به مكناسة، إذ قال: ولو لم يكن من مفاخر مكناسة، إلا اشتمال عملها على مدفن ولي الله تعالى، المُجمع عليه، شيخ المشايخ أبي يعزى؛ لكان كافيا .هـ.

وذكره صاحب "القرطاس" في حوادث سنة572، فقال:

" وفي شوال منها، توفي قطب دهره، وأعجوبة عصره، أبو يعْزَى، يلنور بن ميمون بن عبد الله الهزميري. وقيل: هو من بني صَبيح من هسكورة. مات وقد نيف على المائة وثلاثين سنة. أقام منها عشرين سنة سائحا في الجبال المشرفة على تينميل. ثم ارتحل إلى السواحل، فأقام بها منقطعا ثماني عشرة سنة، لا يتعيش إلا من نبات الأرض. وكان أسود كبدي اللون، طويلا رقيقا، يلبس تليسا وبرنسا مرقعا، وشاشية عزف على رأسه". هـ[الأنيس المطرب القرطاس:192].

هذا، وما ذهبنا [إليه] أنه دكالي النسبة، هو الذي نقل عن الشيخ زروق. ولكن رده صاحب كتاب "التشوف"، بأنه ليس من نفس قبيلة دكالة، إلا أنه كان كثير المكث بها، فنسب إليها. والله أعلم. وقد علمت أن المحقق، مؤلف "القرطاس"، ذهب إلى أنه هزميري. وقيل إنه من بني صبيح من هسكورة، كما سبق عنه. والذي يظهر أنه كان مقيما آخر حياته بدكالة، ويؤخذ ذلك من قول صاحب "القرطاس" أنه لما انتقل من سياحته في الجبال المشرفة على تنميل، ارتحل إلى السواحل. ومن السواحل دكالة، والله أعلم.

قلت: وقد أجرى ذكره في "المرآة"، فقال في أسانيد شيوخ الطريقة:

"أخذ الشيخ أبو مدين بن الحسن القطْنِيانيّ الأندلسي، دفين عبّاد تلمسان، رضي الله عنه، عن جماعة من الأكابر، منهم الشيخ أبو يعزى يلنور بن عبد الله الهزميري. وقيل من بني صبيح من هسكورة، وقيل من أعمال هيلانة، نزيل تاغيا من إيرجان، وبها قبره. ووفاته في أول شوال، عام اثنين وسبعين وخمسمائة. قاله التادلي". هـ[ص198].

قلت: ونقل مقال التادلي في شأن هذا الشيخ، أقرب إلى القبول، وأصحّ وأولى. والعلم لله، وهو نعم المولى.

ومن هؤلاء السادات المنسوبين لدكالة، الشيخ ينور، عبد الله بن وكريس الدكالي المشترائي، وهو أحد شيوخ أبي شعيب؛ ففي "المرآة":

"أخذ الشيخ أبو شعيب، أيوب بن سعيد الصنهاجي الزموري، وكان يلقب بالسارية، لطول قيامه في صلاته، عن الشيخ أبي ينور، عبد الله بن وكريس الدكالي المشترائي، عن الشيخ أبي محمد، عبد الجليل بن ويحلان الدكالي، نزيل غمات، عن الشيخ أبي الفضل". إلخ.

ثم قال في شأن ويحلان السالف: قال الشيخ التادلي في كتاب "التشوف":

" أبو محمد، عبد الجليل بن ويحلان؛ دكالي الأصل، ونزل غمات، وبها مات شهيدا سنة إحدى وأربعين وخمسمائة. كبير الشأن، من أهل العلم والعمل. رحل إلى المشرق، فلقي به شيخا من الصوفية، فأخذ عنه هذا الشأن شيخا عن شيخ، بالسند المتصل، إلى أبي ذر الغفاري، صاحب النبي، صلى الله عليه وسلم". [المرآة: 199].

قلت: وممن يُعد من أهل الولاية والتمكن في الطريق، من قدمنا ذكره، وهو قرين أبي محمد عبد الجليل، السابق الذكر، وأنه من أشياخ الشيخ أبي يعزى الدكالي، وهو

أبو شعيب أيوب. وقد أجرى ذكره في "المرآة" عن صاحب "التشوف": أن الشيخ أبا شعيب، هو الذي صلى على حجة الإسلام الغزالي بطوس. وقد توفي حجة الإسلام، عام خمسة وخمسمائة. وقد كان أوصى أن لا يصلوا عليه، حتى يأتي رجل يصلي عليه. والحكاية معروفة؛ فقد كان الشيخ أبو شعيب، في ذلك التاريخ، من أهل الخصوصية التامة، والتمكن من الوصول في الزمن القريب إلى المكان البعيد، وذلك قبل وفاة الشيخ أبي محمد، عبد الجليل، بنحو ست وثلاثين سنة، مع المشاركة في الوطن أو قربه. وفي "التشوف": أبو شعيب، أيوب بن سعيد الصنهاجي، من بلاد أزمور، ومن أشياخ أبي يعزى. وكان في أول أمره معلما للقرآن، بقرية إسكاوُن من بلد دكالة. ومات بأزمور يوم الثلاثاء، العاشر من ربيع الثاني، سنة إحدى وستين وخمسمائة. رضي الله عنهم ونفعنا ببركاتهم، آمين.هـ[مرآة المحاسن: 200].

ومن هؤلاء الأخيار، الذي تجلت لأهل عصره [فيه] لوائح الأسرار، من ذكره صاحب "تاريخ آسفي"، عن صاحب "التشوف"،[أبو إسحاق، إبراهيم بن موسى بن عبد الحق الدكالي]، إذ قال فيه :

هو الولي العارف، الشيخ القدوة، المجاب الدعوة، أحد أكابر عبّاد المغرب وأفاضل أوليائه، وأفراد نسّاكه؛ عرف بإجابة الدعوة؛ فقصد لإخماد الظلم وإطفائه. ثم ذكر هذا المؤرخ واقعة تشهد لإجابة دعوته في عامل ظالم اشتكاه الناس[إليه، فذكر لهم ما يدعون به] من التوسل لدفع ذلك الظالم، فاستجاب الله دعاءهم فيه.

ثم ذكر هذا المؤلف، [في[تذييل هذه الاستجابة؛ أنما هي راجعة لشدة اليقين بهذه الأذكار. ميلاً منه لعدم إطلاق العنان في مسألة الكرامات، ولا سيما للعامة. وسيأتي لهذا البحث مزيد إيضاح وبيان، وهو في معنى ما في "الفتوحات"، في الباب:136، في معرفة الصدق وأسراره، إذ قال:

"الصدق شدة وصلابة في الدين، والغيرة لله من أحواله. ولصاحبه المتحقق به الفعل بالهمة، وهو قوة الإيمان. قيل لأبي يزيد: ما اسم الله الأعظم الذي به تنفعل الأشياء؟ فقال: أروني الأصغر، حتى أريكم الأعظم؛ ما هو إلا الصدق أصدق، وخذ أي اسم شئت. أسماء الله كلها عظيمة". انظر تمام كلامه في المجلد الثاني، صفحة222.

وكنا كتبنا هذه الجملة، على سؤال أبي الحسن الشاذلي، لشيخه المولى عبد السلام بن مشيش، عن اسم الله الأعظم، فأجاب ولده بقوله: الشأن أن تكون هو أنت اسم الله العظيم الأعظم.

وهذه المسألة مذكورة في "لطائف المنن"، وذكرتها في "شرح المشيشية". والعلم لله الذي يعلم ما بين أيدينا وما خلفنا، وأنه لا يحيط بعلمه أحد من البشر، إلا بما شاء سبحانه.

ثم ذكر صاحب "تاريخ آسفي" وفاة هذا الرجل الصالح، فقال: توفي حوالى سنة خمسة عشر وستمائة.هـ [جواهرالكمال:1/ 118].(*)

ومن هؤلاء السادات الدكاليين، كما في "تاريخ آسفي":

الشيخ الفقيه العلامة، الصدر الهمام، جامع أشتات الفضائل على التمام، المزيل عن وجوه خفايا العلوم والمعارف النقاب واللثام، صاحب القلم العالي، والقدم التي رسخت أناملها على هام المعالي،[أبو إسحاق، إبراهيم بن موسى الدكالي المشترائي]. قال:

نشأ بالجبل الأخضر من دكالة، وبها تلقى العلم حتى شبّ واكتهل. ثم وقع له مع بعض ولاة بلده ما أوجب رحلته إلى الحرمين الشريفين، أوائل المائة التاسعة، آخر دولة بني مرين.

إلى أن أفاد المؤرخ المذكور أنه لما بلغ فاسًا، والأمير إذ ذاك، السلطان عثمان بن أحمد المريني، وندبه إلى الإقامة بها، فأجابه، وجلس بها لبث العلم، فانتفع به الناس. وكان لهذا العالم أربعة أولاد؛ كلهم فقهاء، بقي منهم واحد، وهو الفقيه السيد محمد بن إبراهيم. وتناسل من ذريته عدد عديد من أهل العلم، عرفوا بأولاد ابن إبراهيم الدكاليين؛ بقي العلم فيهم من القرن التاسع، قال المؤرخ، إلى الآن. وقد شبههم الشيخ زروق ببيت المرازقة بتلمسان. وتوجد فرقة أخرى بفاس، تعرف بأولاد ابن إبراهيم. لكنهم ليس لهم ما لبيت صاحب الترجمة. هـ ببعض اختصار.[جواهر الكمال: 119].

قلت: من هذه العائلة الشهيرة بفاس، فيما ذكره صاحب "الصفوة"، من أهل القرن الحادي عشر، كما قال: الفقيه القدوة النزيه، أبو عبد الله، محمد بن عبد الوهاب بن إبراهيم الدكالي. كان، رحمه الله، عالما متفننا، ذا أبهة وهيئة حسنة، له ولوع بالتصوف وحكايات الصالحين، وله ممارسة كثيرة لـ"حكم" ابن عطاء الله، والإمام البخاري. قال في "بذل المناصحة": وكان في خمول الفقراء، يدرس لهم "الحكم العطائية" و"الرسالة". قال: ثم ولي الفتوى والقضاء. ثم ذكر أنه أخذ بفاس عن جماعة، منهم يحيى السراج والحميدي. وأخذ عنه ابن سودة والشيخ ميارة. قال: توفي شيخنا، يعني صاحب الترجمة، عام ستة وثلاثين وألف. وأولاد ابن إبراهيم من بيوتات فاس. هـ من "الصفوة"[ص142].

وممن ينسب لدكالة من علماء فاس، ما ذكره في "نشر المثاني"، من أهل القرن الثاني عشر، إذ قال: ومنهم شيخنا الفقيه المفتي النوازلي، سيدي محمد بن عبد الصادق الدكالي الفرجي. ترددت إليه الفتوى بفاس نحو ثلاثين سنة، ودرس بمسجد القرويين منها؛"مختصر" خليل، وله عليه شرح، ولعله لم يكمله. توفي في ثاني شعبان، عام خمسة وسبعين، بموحّدة، ومائة وألف.هـ [نشر المثاني، (النسخة المطبوعة على الحجر) :273/2].

(*) وهو القسم الثاني من "تاريخ آسفي وما إليه"، للكانوني. أ م.

ومن ينسب لدكالة: الشيخ العالم، الذي كان يعاصر الإمام ابن عرفة التونسي الشهير، وذكره الإمام البرزلي في " نوازله"، ونقل كلامه فيه الإمام المنجور الفاسي في "شرح منهج الزقاق"، إذ قال، ناقلا عن البرزلي، ما لفظه:

"حكى البرزلي[عن] الدكالي بقوله: ورد علينا في عشر التسعين وسبعمائة، رجل يقال له الدكالي، وكان شيخا صالحا، مظهرًا للزهد في الدنيا، وللأكل من كدّ يمينه العُلقة من القوت(*). واعتقده الناس لصلاحه، وكان مذهبه يغلب عليه مذهب المحدثين؛ فأنكر أشياء، منها لبس العمامة الخ. ثم قال في الرجراجي: ورد علينا رجل اسمه عمر، وأصله من المغرب، وحج ورجع إلى تونس، واستقر بها الآن. وهو ينسب إلى الزهد في الدنيا والتخلي عنها، لكنه يتغذى من أيدي الناس بالقليل، على ما سمعت عنه. ويذكر أن معه بعض طلب، ولا أدري مذهبه؛ محدث أو مالكي أو ظاهري؟ واستقر[في] تونس. وأنكر أشياء، إلى آخره".

" وحين ورد الشيخ ابن عرفة مصر، ووجد الدكالي على الطريقة المذكورة عنه، من التشدّد في الدين، وتركه الجماعات والجُمَع، لأخذ المرتب على ذلك؛ ذكر فيه أبياتا، وهي:

يا أهل مصر ومن في الحكم شارككم ... تنبهوا لسؤال معضل نزلا(*)
لزوم فسقكُم أو فسق من [وردت] ... أقواله أنه بالحق ما عدلا
في تركه الجمْع والجمْعات خلفكمُ ... وشرط إيجاب حكم الكل قد حصلا
إن كان حالكم التقوى، فغيركمُ ... قد باء بالفسق حقا عنه ما عدلا
وإن يكن عكسه فالأمر منعكس ... فاحكم بحق وكن بالهدى معتدلا

فأجابه الإمام المحقق، سراج الدين، أبو حفص البُلقيني، وذكر أنه على البديهة:

ما كان من شيم الأخيار أن يَسِمُوا ... بالفسق شيخا على الخيرات قد جُبلا
لا، لا؛ ولكن إذا ما أبصروا خللا ... كسوه من حسن تأويلاتهم حُللا
أليس قد قال في"المنهاج" صاحبُه ... يسوغ ذلك لمن قد يختشي زللا
وقال فيه أبو بكْر إذا ثبتت ... شهادة المرء، فليترك وما عملا
وقد رويت عن ابن القاسم العتقي ... فيما اختصرت كلاما أوضح السبلا
ما إن ترد شهادة لتاركها ... إن كان بالعلم والتقوى قد احتفلا
كذاك الفقيه أبو عمران سوّغه ... لمن تخوف خوفا، واقتنى عملا
نعم؛ وقد كان في الأعلين منزلة ... من جانب الجمع والجمعات واعتزلا
كمالك غير مبدٍ فيه معذرة ... إلى الممات، ولم يُثلم، وما عدلا

[هـ. شرح المنهج:219]

(*) العُلقة: القليل من الشيء.
(*) كذا عند المؤلف. وفي "شرح" المنجور: يا أهل مصر ومن في الدين شارككم. الخ

قلت: أما ما أنكره هذا الشيخ من أعمال أهل تونس ومصر؛ فحكمه معروف في كتب الفقه، وكذا ما أنكره الرجراجي، وذكر ذلك كله المنجور في "شرح المنهج"، فراجعه.

* * *

أما ما ينسب للقبيلة من الدكاليين، فقد سبق[ذكر] جماعة من المشاهير، وأجرى جملة من ذلك ابن زيدان في "تاريخ مكناس"؛ منهم الباشا الدكالي، الذي له وقائع في تقاتل القبائل من الودايا وغيرهم، وكان العبيد رفضت طاعته، وعزله. وكان هذا الباشا معاصرًا للباشا أحمد الريفي، قائد تطوان. كما أجرى ذكر سالم الدكالي.

[خصوبة أرض دكالة
تعمّ الغلل وما أخرجته من أهل الصلاح والعلم]

وعلى الإجمال؛ فإن هذه القبيلة الواسعة الأطراف، المشهورة بأرضها الخصيبة؛ ليس خصبها مخصوصا بغللها على تنوعها في الاختلاف. بل هي كذلك خصيبة فيما أخرجته من سكانها، من أهل الصّلاح الفضلاء، والأعلام النبلاء، كما سمعتَ البعض من ذلك.

أما خصب أرضها، فكان مضربا للأمثال. أستحضر من ذلك أني قبل هذا التاريخ، إذ كنت في عنفوان شبابي، وأنا أتجول في أنحاء جناني خارج تطوان، في الناحية التي تسمى(الطوَابل السفلى)، إذ دخل عليّ في الجنان الشيخ الوقور، الفقيه السيد محمد بوعسل، والد صديقنا سيدي محمد المرحوم، فقال لي: هذه أرض دكالة، يعني أرض بستاني، يعني في خصب أرضها وكثرة غللها؛ وقال لي، وهو يشير إلى الأرض: إن الأرض إنما تخرج غللها وثمارها - رغم جودتها - إنما ذلك بصيانتها، والعمل فيها بما يصلحها. وتلا لي قوله تعالى: (فمَنْ يَعْملْ مِثْقالَ ذرَّةٍ خَيرًا يَرَه، ومَن يَعملْ مثقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه).

وكان لهذا الفقيه الوقور بستان، وهو هجّيراه ومحلّ اشتغاله، وتخلّيه عن مصاحبة الناس، وتركه حضور المآتم والأفراح، لا يبالي بمن غدا أوراح، إلا في الندرة، لتعين ذلك عليه من صاحب أو قريب. فكان، رحمه الله، شأنه، أنه مهما أصبح، إلا وركب دابَّة له، واتخذ معه ما يقتات به في يومه، والعمل في بستانه، من معالجة غرسه، وسروره بذلك، إذ هو عنده أحب حبيبه، وأحسن أنيسه.

[ولوع أهل تطوان بالخروج إلى بساتينهم
والعناية بها]

قلت: وكذلك كان شأن أهل تطوان، من غني وفقير، وكبير وصغير؛ إلا أنهم لم يكونوا كلهم، ولا جلهم، في عزلة عن الناس، كالفقيه بوعسل. بل كان غالبهم يحضرون الصلوات في المساجد، وولائم الأعراس، وحضور الجنائز، مع الاعتدال. وما أحسنها من خطة، وما أقربها إلى التقوى،[لما فيها من] التخلي عن القيل والقال، واكتساب الآثام الكبار والأوزار الثقال.

قلت: وكذا كان شأن أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في المدينة المنورة، في اشتغالهم بغروسهم وثمارهم. وكان، صلى الله عليه وسلم، في بعض الأحوال، يدخل إليهم في بساتينهم،[وهم] يعالجون نخيلهم، فيجلس معهم ويذاكرهم، ويأكل معهم ثمارهم، ويشرب ما عذب من مياههم، كما هو معروف من سيرته، عليه السلام؛ فبهِ اقتد أيّها المفتون باللهو واللغو، وتنمية الأوزار والآثام.

[عائلة الدكاليين بطنجة واتصال المؤلف بهم]

أما النسبة إلى هذه القبيلة الدكالية، فهي كثيرة، تأسس بالمنتسبين إليها عائلات كثيرة شهيرة في عواصم المغرب وغيرها، كفاس والرباط وطنجة وغيرها، كما قدمنا بعض ذلك.

وعائلة الدكاليين بطنجة مشهورة، لها أفراد مشهورون، ولهم رباع وأملاك هناك، داخل المدينة وخارجها. ولقد كنتُ أمرّ عليها أيام ولايتي القضاء بالقصر الكبير، فأتصل ببعض أفرادها. وقد استدعاني أحد كبراء هذه العائلة لبستان لهم خارج المدينة، في المحل المعروف بالسواني، الذي كان إذ ذاك محل الحدائق الغناء، والبساتين الخصيبة الخضراء؛ فخرجت أنا ومعي جماعة من أصدقائنا الطنجيين، فكانت عشية غراء في حسن أنسها، وابتهاج تلك الجماعة من أعيان أصدقائنا في تلك المدينة المبهجة بحسن مناظرها، ورقة هوائها. ثم لم يبق لدينا من لذات أمانيها، إلا تمنيها، مع التلهف على تلك الجماعة التي انتثر عقدها، وكدّر بعد الوجود فقدها. وهكذا الدنيا أضغاث أحلام، ووجود وهو في الحقيقة إعدام. ولهذا يقولون أهل الحقيقة،[كذا]، السالكون مثلى الطريقة:

فالعارفون فنوْا ولمّا يشهدوا ... شيئا سوى المتكبر المتعالي
ورأوا سواه على الحقيقة هالكا ... في الحال والماضي والاستقبال

وهذا مقتضى الآية الكريمة: (كُلّ شَيءٍ هَالِكٌ إلاّ وَجْهَهُ. لهُ الْحُكْمُ وإليهِ تُرجَعُون). اللهم وفقنا لمثل هذه الطريقة، وعرفنا بالسير على مقتضى هذه الحقيقة، آمين.

[الأديب محمد الدكالي السلاوي]

قلت: ومن هؤلاء الدكاليين أهل الرباط. والشائع في مدينة طنجة، أن الدكاليين الطنجيين، أصلهم من الرباط.

ومن أهل سلا، في هذه النسبة في العصر الحاضر، أحد نبلائها، وأجل أدبائها، كما أجرى ذكره صاحب "تاريخ مكناس"، في ذكر العلماء والأدباء الذين قرظوا كتابه "الدرر الفاخرة"، [حيث قال]: وكتب العلامة المؤرخ، الكاتب الأبرع، السيد محمد بن علي الدكالي السلاوي، ما نصه:

(الحمد لله الذي فتح أقفال الكنوز العرفانية، فبدا من نتائج الأفكار والعقول ما كان محجّبا عن الأنظار، وأنار العقول بأنوار المعرفة الروحانية، فانقشع الغيم عن البصائر والأبصار. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد، النور الأعظم، والسر الإلهي المطلسم، الذي أرشد أمته إلى المحجة البيضاء والطريق الأقوم، وعلى آله الأبرار، وصحابته الأخيار) الخ.

فجرى على هذا النسق، الذي هو نسق كتَّاب أعلام، من أدباء الأمة العربية المتمسكين بمناهج كتاب الفصاحة والبلاغة في دواوين دول الإسلام، مع إشعار عبارته اللطيفة بالإعراض عما ولدته هؤلاء [الناشئة]، التي خرجت به عن مناهج الفصاحة والبلاغة، مع مزجها[بما لا يُلائم] كلام العرب الفصيح، وتركيبه، في أسجاعه وجمله، التركيب التابع لقواعد وقوانين علم البلاغة الصحيح. وساقوا تلك العبارات العربية، ممزوجة بما أذهب عنها طلاوتها، التي نزل بها القرآن المعجز، فحول العرب العرباء؛ وهي اللغة المحبوبة عند كل مسلم سليم العقيدة، متبع للطريق الذي شرفه الله بها، وهو اتباع لغة القرآن الرشيدة، لقوله، عليه السلام: " أحبوا العرب لثلاث: لأني عربي، والقرآن عربي، ولسان أهل الجنة عربي".

[ترك أهل العصر افتتاح الرسائل وغيرها بالبسملة والصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم]

ومن هذا الضلال، وجهلهم المركب، وتقليدهم الفاسد، يتركون في أوائل رسائلهم، الثناء على الله بالبسملة أو الحمد لله. ومن أراد منهم أن يعالج[الكتابة، وغيرها]، يترك الصلاة على النبي، صلى الله عليه وسلم. تاركا لعمل السلف الصالح، ولم يمتثل قوله تعالى: (إنَّ اللهَ وملائكته يُصلونَ على النبئ. يا أيّها الذين آمنُوا صَلّوا عليه وسَلمُوا تَسْليمًا). والصلاة عليه، عليه السلام، مطلوبة في كل حال، ولا سيما في حال التوسل إلى الله.

وقد جعل أئمتنا، في القديم والحديث، افتتاح الرسائل والمصنفات بالبسملة والحمدلة، والصلاة عليه، صلى الله عليه وسلم، واستمر عليه الحال. ولا يخالف في

ذلك إلا من في قلبه اعتلال، وفي دينه اختلال، وفي محبة هذا النبي العظيم الشأن، انحراف ونقصان، كما لا يخفى.

ولكن القوم أشربوا في قلوبهم حب الأجانب، وتقليدهم في جل أحوالهم وعوائدهم، وأعرضوا عن قواعد دينهم وآداب شريعتهم في كل جانب. وهي فئة ضالة لا تنقاد لمنشد ينشدها(*)، ولا تعي إرشاد من يرشدها؛ فهي فئة ضالة عن الحق، فكيف يرشدها. والله الواقي.

[ختام ترجمة الأديب محمد الدكالي]

وجملـة القول؛ إن هذا العالم السلاوي الدكالي، هو كما قال صاحب الكتاب المقرظ: علامة مؤرخ، كاتب بارع. وأنا أزيد: إن كلامه يسفر بأنه ينتسب إلى الطريق الصوفية، وأنه ممن يؤمن بطريقة القوم، التي أسست على مباني الدين، واتبعت مناهج الأئمة المرشدين، وأنه لا يبالي بإنكار هؤلاء المنكرين، الذين هم عن هذا المنهاج منحرفُ[و]ن. اللهم وفقنا لاتباع من قال الله فيهم: (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون، لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة)، آمين.

[الفقيه السيد قاسم الدكالي، وعلاقته بالوزير المنبهي، وذكر نبذة تاريخية عن رحلة هذا الوزير إلى الحجاز وما شابَها]

قلت: وممن استوطنها، أي طنجة، في هذه المدة الأخيرة، الفقيه الكاتب، السيد قاسم الدكالي. وكان أول استيطانه بها، لما وردها مع رئيس الجيش المغربي (العلاف)، الذي كان في المغرب بمنزلة وزير الحرب، السيد المهدي المنبهي، إذ كان معه كاتبا، وكان استصحبه في قصده حج بيت الله الحرام، الذي كان[محتميا] به في فراره من الحكومة، خوف الإيقاع به، لما ثبت لديها عليه من الخيانة الكبرى، التي حاولت الحكومة القبض عليه[بسببها]، لولا احتماؤه بدولة انجلترا.

أما رحلة هذا الوزير الحجازية؛ فالظاهر أنه كان لا زال[عندها] تحت طاعة الحكومة. ولكن تلك التقربات إلى موظفي الحكومة الحجازية، ورؤساء الركب المصري للحج، وما أهداه إليهم، لم يصرح فيها باسم الحكومة. وإنما ظاهرها، أو صريحها، أن ذلك من نفس شخصه، ومن ماله الخاص به. وذلك أن الحاج المهدي المنبهي، رحمه الله، اتصل[برئيس] ركب الحج المصري بنواحي ينبع النخل، فتعرف

(*) المقصود: لا تنقاد لناشد ينشدها.

به، وعرفه رؤساؤه، ونوهوا بذكره، وأشادوا بمقامه، وأفرطوا في الثناء عليه، وذكر ما أفاض به من الهدايا والمال عليهم، وعلى رؤساء الحرم المكي. ولا بد أن نأتي بما ذكره صاحب "مرآة الحرمين" باختصار، فأقول، قال في ترجمة: (السفر من ينبع إلى المدينة)، ما لفظه:

" وقد رافق المحمل في سفره، البطل الهمام، السيد المهدي المنبهي بن العربي(*)، وزير حربية مراكش، الذي عرفنا له في سفرنا كبير المروءة، وعظيم الهمة، وجميل الإحسان".

ثم ذكر ما بذله من الصدقات على العربان وغيرهم، من فقراء مكة وذوي الحاجة منهم؛ بل كلف المحدث الحافظ الشيخ[أبا] شعيب، أن يشتري عقارًا بمكة يقفه على الفقراء من الحرمين. وقال:

" وقد أهدى الوزير هدايا قيمة من الجواهر النفيسة، لكل من الشريف عون الرفيق باشا، ووالي الحجاز، أحمد راتب باشا. وكذلك أهدى لي ولضابط المحمل، ساعات فضية، وعلب دخان. وأهدى أهل بيته لأهل بيتي ساعات ذهبية يدوية. وكثيرا ما تناولنا الطعام والشراب سوية؛ وكانت أدوات الشاي من المعدن الأبيض، والأكواب من البلور المذهب". قال:

" وقد صاحبنا الوزير ثلاثة شهور، لم نر منه فيها إلا خُلقا طيبا، وعملا صالحا، ونفسا كريمة"، إلخ.[95/2].

وقد أثبت صاحب "المرآة"، صورة الفقيه المنبهي مفردة ومع أصحابه، كالسيد قاسم الدكالي وولده الصغير، إذ ذاك، وهو السيد عبد الرحمان، الذي لا زال بقيد الحياة.

قلت: ومن هذه العبارات، يتضح لك من شفوفها، أن المال الذي كان يبذله المنبهي في الصدقات والهدايا، لم يكن باسم الحكومة العزيزية إذ ذاك، بل كان باسمه. كما يشعر ببدء الانحراف عنها.

وانظر هل كان السفر للحجاز قبل اتصاله بالإنجليز أو بعده؟ فإني إلى الآن لم أتحقق بذلك. ويبدو لي أن سبب اتصاله بالحماية الإنجليزية، كان من جهة صحبته لِمَكْلِين الإنجليزي، الذي كان منظما للجيش المغربي، لأنهما كانا في خطة متحدة.

كما أن في نقل هذه الجملة التاريخية المتعلقة بسفر المنبهي للحج، ذكرٌ لشيخنا الحافظ أبو شعيب الدكالي، وفي ذلك مناسبة لترجمته في هذه "الفهرسة". وكان هذا، على ما في "المرآة"، سنة1322، وهي السنوات التي كانت مبدأ انهيار الدولة العزيزية. فسبحان الحي القيوم، الذي ملكه لا يبيد. وذلك أن تمام دولة مولاي عبد العزيز، وعزله، وقضية الثورة عليه، وبيعة أخيه مولاي عبد الحفيظ، وما نشأ في

(*) كذا عند صاحب "المرآة"، والصواب: المهدي بن العربي المنبهي.

ذلك، معروف. والذي جرّ إلينا ذكر هذه النبذة، هو ذكر السيد قاسم الدكالي، كاتب المنبهي، في جملة الدكاليين.
وفي هذا الموضوع، تعليقات مهمة؛ لكن يستدعي الكلام عليها استطرادات وذيولا طويلة، نحن في غنى عنها في هذا الكتاب.

الرجوع إلى تتميم ترجمة شيخنا الدكالي، [والعدوان الفرنسي على فاس]

والآن نرجع إلى تتميم ترجمة شيخنا الدكالي، صاحب هذه الترجمة، فأقول: إن شيخنا المذكور، لم يزل في مرتبته العليا لدى جلالة السلطان المولى عبد الحفيظ، والقيام بخطة الدراسة، لابسًا حلة الوقار والاحترام، إلى أن اختل النظام، باحتلال جيش فرنسا لحضرة فاس في جيش عرمرم، مدجج بسلاح عصري، خفيف وثقيل. ورمت بقنابلها المدينة البريئة من كل ذنب تستحق به هذا التعدي الذميم، والظلم الذي يشهد به كل ذوي العقول السليمة، من العدوان والخروج عما يقولونه اليوم، من مراعاة حقوق الإنسان.
وتبدل الحال بتخلي المولى عبد الحفيظ عن الملك، وتجرده سالما بنفسه مستقيلا من ذلك الهلك، وأبرم مع فرنسا عقودا، وعوض في ذلك بمال يتقاضاه؛ على أن يقيم في مدينة طنجة، كما هو معروف، وجعل بدله أخوه المولى يوسف. فانتقل شيخنا المذكور لمقر الحكومة، وتداول فيها وظائف شرعية، كرئاسة مجلس الاستئناف الشرعي، ووزارة العدل. ثم أخر عن وزارة العدل، وأصبح حرا يتقوت من ضياع له. وفي هذه الأثناء، تجول في الأقطار، وسافر إلى القطر الجزائري، ومنه زار مدينة تطوان، وفيها اتصلت به اتصالا خاصا، واستفدت منه فوائد جمة، كما سبق في ترجمته الماضية التي وجهت إلى ولده، بطلب منه. وكان وصوله إلينا بتطوان، سنة[1347]. وكانت ولادة الشيخ سنة 1295، وأتاه حمامه، وختمت أيامه سنة1356. صبّ الله على مقره الأخير شآبيب الرحمات، وأسكنه روضات الجنات. وكان، فيما بلغنا، أن سبب وفاته، كان إثر حادثة حدثت بإحدى ضياعه المهمة، التي كانت تغل غللا مهمة، فلما وصله خبر تلك الملمة المؤلمة، تأثر منها أثرا كبيرا، حتى تسبب منه إصابته بداء النقطة. والله الواقي، ولا إله إلا هو، هو الحي الباقي.

* *

[ترجمة الوزير الصدر
الشيخ المختار بن عبد الله السوسي،
من شيوخ المؤلف بتطوان]

وبإثر تمام ترجمة شيخنا الوزير الدكالي، نعقب ذلك بترجمة شيخنا، رئيس الوزارة أيام دولة مولاي عبد العزيز، رحمه الله، وهو السيد المختار ابن الباشا عبد الله بن أحمد السوسي أصلا، المكناسي نشأة وقرارا.

وهذا الشيخ، رحمه الله، يُعد من شيوخنا التطوانيين، وإن كان يُعد من علماء مكناس، لأنها بلده، وبها موته ومدفنه؛ وإنما طرأ على تطوان بعد الكارثة التي أصابته، بعد رئاسة الوزارة. ومنها كان من جملة التنكيل به: نفيه من بلده، مجردا من جميع ماله وممتلكاته، مبعدا عن وطنه وأهله وآله.

وأنزل بتطوان، بمنزل حقير، منزلة الجاني الأسير، وذلك في دار حقيرة تقابل مسجد الساقية الفوقية، كانت تدعى بدار البقالي، وكانت، فيما كنتُ أعهد، محلا لخياطة لباس الجيش. فنزل بها غير مكترث بهذه الملمات، ولا بإظهار قلق وتضجر، أو ألم من لسع عقارب هذه المصيبات اللاذعات؛ مظهرًا ابتهاجه، محافظا على هيئته العلمية، وهمته العالية.

<u>فكان من ذلك</u>، أن تابع منهاجه العلمي في الاشتغال بالعلم ودراسته، والتلذذ بإقباله على التمتع بلذته وحلاوته؛ ففتح مع الطلبة بمسجد الساقية الفوقية من تطوان، درس كتاب "الخلاصة"، غير مظهر لذل العزل أو بؤس الخصاصة. فكان من جملة الحاضرين في هذه الدروس، كاتبه، كان الله له وليا ونصيرا. وكنت في ابتداء الدراسة، قاصرا في مداركي عن درك مقامه العلمي حق الإدراك.

ولكن الذي اقتطفته، على قصور البال، وفقد التفريق بين حال دون حال، أنه رجل عالم، ثابت في يقينه، لا تضعضعه نوائب الدهر، ولا تحركه زوابع التغيرات؛ إذ كان صدرا في الوزارة، وبيده مقاليد الإمارة، فأصبح تعبث به أيدي السفلة الطغام، وتسوقه السوقة مساق الحفاة العراة. ولكن الرجل كان يسوقه علمه إلى التسليم للقضاء والقدر، والرضى بما احلولى أو أمر.

هذا ما شاهدناه في هذا العالم العظيم بأعيننا، وتحققناه على صغر السن، والبعد عن بسط حالة هذا العلامة الصابر، على ما يعرض من النوائب ويُغير.

ولقد ترجم هذا الرجل العظيم، بلديه العلامة ابن زيدان، في "تاريخ مكناس"، فقال في بيان حاله، ومبدأ أمره وما أصابه في مآله:

" عالم علامة، فاضل نحرير مشارك، بشوش كريم الأخلاق والسجايا، حسن السمت والبزة، كثير الصمت، سياسي ماهر، كاتب مجيد، راوية للشعر وأمثال

العرب، ممتع المجالسة والمذاكرة، مدرس نفاع، يتلقى بحث الطلبة في درسه بكل إنصاف". [306/4].

قلت: ومن هذا يتأكد لديك [ما سبق] مما اقتطفته في تلك الدروس القليلة، مع قلة الإدراك وضعف الاستطلاع، كما لا يخفى من حال الطالب في حال الابتداء.

ثم أخذ المؤرخ - ابن زيدان - يذكر ما تقلب فيه هذا الشيخ من الوظائف العالية في الحكومة، إلى أن ارتقى منصب رئاسة الوزارة والصدارة العظمى، بعد موت ابن عمه الصدر الأعظم، السيد أحمد بن موسى، المعروف بـ: " ابًا أحمد"، أيام دولة المولى عبد العزيز.

ثم ذكر نكبته في عزله عنها، ومعاملته تلك المعاملة القاسية التي يستحيي الشيطان من ذكرها، فضلا عن عملها؛ فإنه أنزل من علو إلى سفل، ومن رفعة إلى ضعة، مع التنكيل به والمكر، ومعاملته في ذلك معاملة أخس السوقة، لا معاملة مطلق الناس، فضلا عن مثل هذا العالم الهمام، الذي كان في العلم والمعارف، والمروءة والمناصب العليا، التي كان يستحق[من أجلها] المقابلة بما يناسب مقامه، ولو فرضنا أنه أساء إساءة يستحق عليها العقوبة.

ما كان شائعا في تطوان في سبب عزل الحاج المختار من الوزارة، وتشديد العقوبة عليه

مع أن الشائع كان بتطوان، لما أتي به إليها سجينا، أن سبب هذه المعاملة، إنما كان ناشئا عن نصيحة نصح بها صاحب الجلالة، المولى عبد العزيز، إذ كان هو صدر دولته، ومعتمد حكومته، وهو الذي يغاديه ويماسيه؛ وذلك أنه كان شاهد أن بعض من يتصل به من بطانته، الذين لا يهمهم أمر دولته، وإنما يخادعون لاكتساب الأموال، واكتناز الثروة، وأنهم كانوا يشترون تلك (الحراقات)(*) التي إذا أطلقت في الهواء، انفصل عنها قطع ملونة تعجب من أنوارها الناظر إليها، وكان ذلك، أول ظهورها، من العجائب. وكانت تساوي الواحدة منها ألف بسيطة إسبانية إذ ذاك!

فأسرّ هذا الوزير الناصح للسلطان، أن هذه الحراقات التي يطلق منها في الليلة عدد كبير، يخرج عليها من بيت المال كمية عظيمة، ولنا مصالح هي أولى من هذه الملاهي في صرفها. ولما بلغ ذلك لهذه البطانة، ساءهم ذلك، وصاروا يختلقون المساوئ لهذا الوزير الناصح، حتى بلغوا مرادهم. والله أعلم بصحة هذه الرواية.

(*) أي الشهب الاصطناعية.

[التنكيل بهذا الوزير، كان من توابع الانتقام من الصدر، ابا أحمد، الذي أطاح بالوزارة الجامعية]

والذي يظهر، بحسب العادة، أن الوزير السيد المختار هذا، كان من عائلة الصدر الأعظم السيد ابّا أحمد، ولا يخفى أنه كان تمكن من السلطان المولى عبد العزيز، حتى صار بيده النقض والإبرام، والتصرف في الرعية كيف يشاء، طلق العنان، لا يبالي في ذلك أكان من الإحسان أو من سيئات الإجرام.

ولا بدّ أن يكون ظلم هذا، وأخذ مال هذا، وقدم هذا، وعزل هذا. ومن أشهر القضايا التي اقتحمها في الدولة العزيزية، مسألة الإيقاع بالوزارة الجامعية؛ إذ لم يقتصر على إسقاطها، وعزل رئيسها السيد المعطي، بل أباح أموالهم وممتلكاتهم، وأمر بسجنهم، وغرّب السيد المعطي، الوزير الأعظم، بسجنه بسجن مدينة تطوان، فبقي به إلى أن توفي سنة[1315هـ]. قلت: ومدفنه بها، بزاوية سيدي أحنصال، كما كان معروفا عند أهل تطوان. وإني كنت أعرف قبره، وذلك في الساحة الوسطى من الزاوية المذكورة.

قلت: فيظهر أن التنكيل بشيخنا الحاج المختار، كان من توابع الانتقام من ابن عمه ابّا أحمد، والله أعلم؛ إذ كان من خاصته، وممن له به ثقة وأمانة على سره، بدليل أنه لما مات الكاتب الشهير،[مولاي الطاهر البلغيثي][*]،الذي كان في عهد هذا الوزير بمنزلة كاتب السر، أو قل الكاتب العام للدولة في هذه الأعصار الحاضرة،[عينه مكانه]، لما له فيه من الثقة والاعتماد.

ولا بُد أن يكون له مشاركة في تلك النكبات، التي صدرت عن أمر مخدومه، ابن عمه المذكور؛ فاغتنم المنكوبون، أو آلهم، الفرصة في ابن عمه هذا، ودبّرُوا له التدبير، ومكرُوا به مكرهم، حتى عزلوه عن وظيفة الوزارة أقبح عزل، وصرفوه عنها مهموما مدحورا، ذائقا مرارة العزل، مع شدة الإهانة والتنكيل.

[داء الحسد الذي يكثر بين المشاركين في الخطة والمهنة]

ثم إن أصل كل هذا ناشئ عن داء الحسد، والحسد ناشئ عن الحقد، والحقد من نتائج الغضب. وفي الحديث في النهي عن الحسد وأسبابه وثمراته، قال، صلى الله

(*) "إتحاف أعلام الناس"، لابن زيدان:4/306، م.

عليه وسلم : "لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابرُوا، وكونوا عباد الله إخوانا".
وهذا الحديث، لو امتثله الناس[لمَا وقعوا] في داء الحسد الوبيل، الذي لا يخلو منه بلد ولا قبيل، وهو من الأدواء المفسدة للأخلاق، المثيرة للتقاتل والتضارب في سائر الأمم في القديم والحديث، حتى قالوا إنه أول داء وذنب أذنب به الخلق، وذكروا من ذلك معصية إبليس في مخالفة أمر الله له بالسجود لسيدنا آدم، وقضية ابني آدم إذ قربا قربانا، فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، إلخ.
وهذا الداء يكثر بين المشاركين في الخطة، من الصناعات والولايات وغيرهما، حتى حكم فقهاؤنا بعدم قبول شهادة العالم على مثله، كما سبق.
فكم أبيحت، بسبب هذا الداء العضال، دماء بريئة، وأعراض نقية زكية،[لعلماء] ورؤساء وملوك، لهم في الأمم القديمة والحديثة آثار في الإصلاح سامية، وأعمال وآراء في الإرشاد إلى التعاضد والتناصر شافية.
ولكن، أين من له في ذلك آذان صاغية، وأفكار معترفة لهم بالحق منقادة طائعة. بل رفضوها رفض الدّنس عن الثوب الأبيض الطاهر، واستنقصوها نقص مقالة الأبله القاصر. ولله الأمر من قبل ومن بعد، (وإذَا أرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ، ومَا لَهُمْ مِن دُونِهِ مِن وَالٍ).[الرعد:11].

[إتمام ترجمة الوزير العلامة الحاج المختار، وما آل إليه أمره]

أما شيخنا العلامة الوزير، فإنه تلقى تلك النكبات، ونظر إلى ما لا زم تلك الإهانات؛ نظر من يعلم أن الكل مما سبق به القدر، وأن الخلق، لو اجتمعوا كلهم على أن يضروه بذلك، لم يكن لهم بذلك عين ولا أثر، لولا قدرة الباري، وهو الرحيم البر. ولهذا كان هجيراه في هذه الأعمال المؤذية، تلاوة قوله تعالى: (قُل اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ)الآية.(*)
ومن ذا يقول مؤرخ مكناس، في شأن هذا الرجل، وصبره وتجلده، ورد أمره إلى المولى، وأنه تعالى إليه المنتهى، (وأنَّهُ هُوَ أضْحَكَ وأبْكَى)،[النجم:43]، (وأعْطَى قَلِيلا وأكْدَى)،[النجم:34]، (وأنَّهُ أهْلَكَ عَادًا الأولَى، وثَمُودًا فَمَا أبْقَى)،[النجم:51/50]، وأن الدنيا إنما هي دار ممر، لا دار مقر، و(كلّ مَنْ عليها فانٍ، ويَبْقَى وجْهُ ربِّكَ ذُو الجَلال والاكرَام)،[الرحمان:27/26]، وتمسَّكَ بالرجوع إلى الله في كل تقلب أحواله من رفع وخفض، وعز وذل؛ لما ذكر هذا المؤرخ، تلك الأعمال القاسية، التي عومل بها هذا الوزير الكبير، من التعنيف الخارج عن حد التعزير، لمثل هذا العالم الشهير، وإشهار

(*) [آل عمران:26].

إهانته، وسلبه أمواله وممتلكاته دون نظام، ولطف واحترام، وهو في ذلك كله يقرأ قوله تعالى: (قل اللهمَّ مَالكَ المُلكِ) الخ؛ قال:[فصبر وشكر].

ثم صار[هذا] المؤرخ يذكر ما قاساه[المترجم]من الشدائد، بعد ما أطلِق سراحه، من البرابرة، إذ قال:

" وفي أول تسعر نيران الفتنة البربرية في الدولة الحفيظية، وذلك في ربيع الأول، عام ثمانية وعشرين وثلاثمائة وألف، سلبه البرابر بمقربة من فاس أمتعته وأثاثه، ولم يتركوا له ولا لعياله وصغار أطفاله زائدا على ما يستر العورة المغلظة، حيث إنه كان قادما من فاس لمحل استيطانه بمكناس، بعد أن باع كل ما كان له بفاس من العقار الخ. فرجع لفاس على حالة تخجل المروءة والإنسانية، وأقام بها مدة. ثم رجع لمكناس وأقام بها إلى أن وافته منيته، وكفَّ بصره في آخر عمره، رحمه الله، فصبرَ وشكر".[إتحاف إعلام الناس:307/4].

ثم ذكر صاحب "التاريخ"، جملة من أشياخ هذا الشيخ الهمام، الصابر الشاكر. كما ذكر جملة من أفاضل تلامذته، منهم[هو، أي]هذا المؤرخ الجليل، الشريف النقيب، سيدي عبد الرحمان ابن زيدان، إذ قال في ذلك: " وجامع هذا الكتاب، وأجازني، رحمه الله، إجازة عامة. هـ. ثم ذكر وفاته فقال: " توفي بمكناس أواسط شعبان، عام خمسة وثلاثين وثلاثمائة وألف(1335)، ودفن بالزاوية الكنتية من حومة صدراتة".

فرحمه الله رحمة واسعة، وجعل آلام هذا التنكيل الذي وقع به، وتحمله محتسبا صابرا، رادا أمره إلى الله المتصرف في خلقه كيف شاء، ولا راد لما قدره وقضاه؛ كفارة لما عسى أن يكون اقترفه من الأوزار، في تلك الولايات الكثيرة التي لا تخلو من أكدار.

ومن التنكيل بهذا الوزير، يظهر لك ما يفعله الحسد من التقاطع والتدابر، والأفعال التي تكدر صفو هذه الحياة، وتذهب بالحسنات وتنسخها بالسيئات، ولا سيما بين الرؤساء من أهل الحل والعقد، وذوي المراتب، وإذاية بعضهم لبعض والانتقام، مما يتجاوز الحد.

وهذه الشنشنة لم تزل في البشر منذ أن برأه وخلقه الله. لا إله إلا هو رب العالمين، وهو أحكم الحاكمين.

[ما قاله الوزير ابن الخطيب في التأمل في هذا الكون، وأحوال الإنسان فيه]

ويعجبني في هذا الموضوع، ما قاله سلطان الأدباء النبلاء، ومقدم الشعراء البلغاء، وحامل لواء نوابغهم عند فتح معرض النقد، للموازنة في متخلفات المبرزين في هذه السوق الأدبية،[الذي] له المقام الأول، والصدر الفائق الذي على كلامه البليغ الرائق المعوّل؛ وهو لسان الدين، ولسان اللغة العربية الفصحى، نظما ونثرًا،

وإنشادًا وإنشاءً، وعمدة في الوزارات لدى الدول الكبرى؛ أبو عبد الله ابن الخطيب السلماني، المبرّز في هذا الميدان، بلا معارض ولا مداني، إذ قال في أوائل "رقم الحلل":

الحمد لله الذي لا ينكره	من سرحت في الكائنات فكره
ذي الفضل والقدرة والجلال	مخترع الخلق بلا مثال
الملك الحق بلا نهاية	ومن له في كل شيء آية
من رفع السماء من غير عمد	دون معين أو ظهير أو ولد
وبث في الأرض على الماء زبد	نادت به قدرته اجمد فجمد
وبث فيها والدا وما ولد	يجري من العمر لحد وأمد
فمن شقي ضل سعيا وسعيد	ومن قريب من رضاه وبعيد
وآمر يسطُو على مأمور	ومهتد يعجب من مغرور
في تعب لا ينقضي وجهد	وأرق متصل وسهد
أغري عمرو منهم بزيد	في حيل لا تنتهي وكيد
ولذة حسية وهمية	وحالة حلمية نومية
حتى إذ ما استيقظوا لم يجدوا	شينا من الحلم الذي قد عهدوا
وانتبهوا كأنهم ما رقدوا	وحلّت الأيام ما قد عقدوا
والوعد الحق والإله الحاكم	والله لا يفلتُ منه الظالم

[الخ]

وما قاله هذا الوزير العظيم، والرئيس المطلع العليم، الذي جرت عليه الأقدار، وتقلب بين لذات المسرات ولدغات الأكدار؛ لم يزل في اتصال واستمرار، والحكم في ذلك لله الواحد القهار.

وهنا يتم القول في ترجمة شيخنا السيد الحاج المختار. كان الله له وليا ونصيرا، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله سالما من الأوزار، أو عمه فضل الله العزيز الغفار.

ترجمة شيخنا القاضي، سيدي محمد بن الطالب الفاسي

ثم نتبع هذه الترجمة، بترجمة شيخنا، القاضي العلامة، سيدي محمد بن الطالب الفاسي. وذلك أني حضرت دروسه بمدينة طنجة، وهو إذ ذاك بها قاض، وأنا موظف إذ ذاك بها.

وفي الحقيقة، هو من شيوخنا الفاسيين، وهو عالم نبيل، مشارك في الفنون، مثابر على الدرس، لين الأخلاق، حسن الملاقاة. حضرت عليه بعض دروس "شفاء" القاضي عياض، بمسجدها الأعظم.

ومن لطائف أخلاقه، أني كنت طلبت الارتسام هنالك في سماط العدول، لتلقي الشهادة، إذ كنت إذ ذاك رشحت للوظيف؛ لكن لم أكن شرعت في مباشرة أعمال الوظيفة؛ فآثرت الاشتغال بخطة العدالة للانتفاع [بأمرين]: أحدهما الاستعانة بما

أستفيده من الأجرة على ضرورياتي، وثانيا: تمريني على كتابة الوثائق وما يتعلق بذلك. وعند ملاقاتي بهذا العلامة القاضي، وكان الواسطة في ذلك شيخنا العلامة الرهوني، إذ كان هو أيضا موظفا بالنيابة؛ فلما قدمني شيخنا له، رحب بي وتلقاني بقبول حسن، وأبدى فرحه بي. ومن جملة ما قال لي: إني أحب أهل تطوان، وأنا بك مسرور، أو كلاما هذا معناه. وأظهر أنه يحتاج إلى مثلي، وأيّد ذلك بأن أسند تسجيل رسوم مبيعات الأملاك إليّ، وكلفني بذلك. وهو وظيف لا بأس به، وفيه نفع كثير في ذلك العصر.

[إقبال الأجانب على اقتناء الأملاك بطنجة في عصر وجود المؤلف بها أثناء العقد الأول من القرن العشرين]

إذ كان عصر إقبال الأجانب على شراء الأملاك في المدينة المذكورة وخارجها، واستعداد الأجانب لتملك أراضي المغرب، ولا سيما الفرنسيين، لأنهم تحققوا أن دولتهم ستستولي على المغرب وبسط حمايتها عليه. والناس إذ ذاك، فرحون مبتهجون، ولا يبالون بما وراء ذلك. وكان أمر الله قدرا مقدورا.

وكان بلغني، إذ ذاك، أن أحد المصريين، الذين سبق لهم مثل هذا في أراضي مصر، يقول لمن له اتصال به من الناس: يفرحون بهذا البيع الثمين، واقتناء هذه الأموال؛ وهم يبيعون في الحقيقة بلادهم ودولتهم!.

ولكن الناس أكثرهم لا يعقلون، وهم بما يقبضون من تلك الدراهم الزائفة، في معناها، لاهون، إلى أن كان ما كان. وإنا لله وإنا إليه راجعون، وكان ما قدره الله، لا بدّ أن يكون.

[مواصلة ترجمة الشيخ القاضي محمد بن الطالب الفاسي]

ثم إني بعد أن قبلت ما أسند إلي شيخنا القاضي، من القيام بدفتر التسجيل، وكان قصده نفعي بذلك، استمررت في العمل في هذا الشأن مدة. ثم إنه تمّ توظيفي في النيابة السامية، واشتغلت بمهام هذا الوظيف، الذي كان يشغل اليوم كله. فتخليت عن هذا التسجيل، وكان القاضي أباح لي أن أستنيب في ذلك، ويبقى أمره تحت نظري. فلم أر ذلك موافقا، لشدة التعب وتحمل المسؤولية.

وذكرت هذه الجملة، اعترافا بحق هذا القاضي الحسن الأخلاق، الذي قابلني بمزيد الابتهاج والاعتناء، من غير معرفة سابقة، ولا إعمال وسائل غير لائقة، ولا تعلق ولا تملق؛ ولكن لا غرو في ذلك، لأنه من أصل طيب، وأرومة أصيلة، وذرية طيبة؛

فإنه من ذرية الولي الصالح، والقائم بتحقيق العلمين الظاهر والباطن، وهو شيخ الشيوخ، الذي بنى طريقه على أحكم أساس، فكان شيخ الإسلام بمدينة فاس، وغيرها من عواصم المغرب بلا اشتباه ولا التباس، العارف بالله، الذي كان يلين بالاتصال به كل قلب قاسي، سيدي عبد القادر الفاسي، رضي الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة له، ولآله ولنا معهم، سكنه ومأواه، آمين.

وقد وقع لي أن سمعت منه حديثا، وهو أني وجدته عشية جالسا بالطريق المتخذة من الخشب إذ ذاك، داخل مرسى طنجة، لأجل تسهيل الركوب والنزول من الفلك، وحذاء مكتب القيم هناك، الذي يتقاضى بعض أداءات على المرور بذلك المسلك.

وكان شأنه ذلك في العشية، ترويحا للنفس، واستئناسا برفع وحشة الانفراد؛ فجلست معه، فصار، رحمه الله، يحدثني بأمور الدنيا، ومن جملة ذلك أن قال لي: صدق مولانا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إذ قال: " ما ازداد الإنسان درهما، إلا وازداد هما"، أو كما قال. وكان العلامة القاضي قد اتسع عليه الحال، وبنى دارا، أو اشتراها، خارج طنجة، أظن بالمحل المسمى سوق البقر.

[الكلام على معنى هذه (الحديث) في ذم الدنيا، الذي لم يقف عليه المؤلف]

قلت: ومنذ سمعت منه الحديث، وأنا جادّ في الوقوف على مخرّجه، والبحث عنه في مظانه، وإلى الآن لم أقف على ذلك، وإن كان الحديث معناه صحيحا، إذ ورد معناه في القرآن كثيرا، وفي الحديث أيضا؛ فمن القرآن قوله تعالى:(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ)،الآية[التغابن:15]، وفي قوله تعالى: (يَأَيّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَتُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ)، الآية[المنافقون:9]، وغير ذلك من الآيات الكريمة.

أما الأحاديث والآثار، فهي كثيرة جدا، في ذمّ الدنيا والتحذير من فتنتها،[وأن]التكاثر فيها يجرّ إلى الغفلة والبعد عن الله، وعن القيام بحقوقه، والإقبال على عبادته. والاستمرار في حبها، وعمارة الأوقات في جمعها وادخارها، مآله الخسارة، مع الأتعاب المتواصلة، والأكدار المتواترة. وأكبر آية تحذر من ذلك، قوله تعالى: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ)،[الشورى:20]، مع أنها، وإن أقبلت، فهي في الحين أدبرت، وإن أضحكت، فعن قريب أبكت. ويقول الحريري في هذا:

يا خاطب الدنيا الدنيئة، إنها   شركُ الرَّدى، وقرارة الأكدار
دار متى ما أضحكت في يومها   أبكت غدا، سحقًا لها من دار

ويعجبني في موضوع الحديث، قول القائل:

ومن يحمد الدنيا لشيء يسرّه   فسوف، لعمري، عن قليل يلومها

إذا أدبرت، كانت على المرء حسرة   وإن أقبلت، كانت كثيــرا همومــها

ويقول صاحب النونية:

زيادةُ المرء من دنياه نقصــان   وربحه غيرَ محض الخير خسران

وكل من وجد حظا لا ثبات لــه   فإنما هو في التحقيــــق فقــدانُ

وقد قدمنا هذا المعنى في هذا الكتاب كثيرا، في موضوعات كثيرة.

فإن الدنيا ليست مذمومة لذاتها، وإنما ذمها لما يعرض من الافتتان بها، واللهو بلذاتها، كما قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلاَدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ)الآية.[المنافقون:9].

وهذه الآية، أثبتت للإنسان أمواله وأولاده، ونسبت ذلك إليه؛ ولكن نهته عن جعله شغله الشاغل له عن الله وذكره، والقيام بواجباته وحقوقه. ولا تدل على ذم المال لنفسه، وإنما تدل على العوارض التي تنشأ عنه من الفتنة به، والعوارض التي تؤدي إلى الشقاء، كما قدمنا غير ما مرة، لأن اكتساب المال، لأجل النفقة على نفسه وأولاده، وما يلزمه من الحقوق التي لا بد منها، وأن الاتساع بالمال والثروة فيه، ليس من قبيل المنهي عنه مطلقا؛ بل إذا كان جمعه تكاثرا وتفاخرا، وجعله كنزا لا تؤدى زكاته، ولا يجعله وسيلة إلى القربات، بل يستعين به على إقامة لذاته، وصرفه فيما هو من محرمات دين الإسلام ومنكراته؛ وإلا فالمال الحلال، هو مما يقام به الدين، ويستعان به في مصالح المسلمين، وهو الذي جعله الله تعالى قيما للناس، ونهانا أن نبذره ونضيعه في غير طائل، حتى قال لنا، نهيا عن تمكين السفهاء منه، وهم الذين يضعونه في غير موضعه: (وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُم الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَما)الآية[النساء:5]. وقال تعالى في بيان الطريقة الاقتصادية التي يمشي عليها الرشيد في ماله، خطابا لرسول الله، صلى الله عليه وسلم: (وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً)،[الإسراء:29]، وقال: (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يُقْتِرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاما)،[الفرقان:67].

والحاصل أن المال لا بدّ منه في أسباب المعيشة في هذه الدار، ولكن بدون إفراط في صرفه، ولا إقتار، مع ترك الحرص، وصرف اكتسابه آناء الليل وأطراف النهار. ولا تضاه قارون فيما قدر الله له من المال، وجعله كنزا في خزائن يعجز على حمل مفاتحها الجماعة القوية، وأعجب بتلك الكنوز العظيمة وخرج بها. فلما رأى قومه ذلك العُجب والفخر والفرح بها، وعظوه وقالوا له: لا تفرح، لأن الله لا يحب الفرحين، ثقة بذلك المال وعجبا به، وإظهارا للتكبر، لأن هذا من الأمور التي مآلها الذهاب والفناء، وأرشدوه إلى أن يطلب بهذا المال الآخرة، وأن يحسن بهذا المال، الذي أتاه الله، إلى المحتاجين إليه من الفقراء والمساكين، ليجد ثوابه في الدار الآخرة، كما أحسن الله إليه بإتيانه هذا المال. ولكن، لما لم يبال بذلك، خسف الله به وبداره الأرض، فلم يجد وليا ولا نصيرا ينصره ويرفعه من هذه الأرض التي وقع خسفه بها.

وعليه، فلو كان ينفع مال، أو يدفع به بلاء، لكان[لـ] قارون العظيم دافعا لـه عما نزل به؛ ولكن لا ينفع مال ولا بنون في هذا الموقف، إلا من أتى الله بقلب سليم من الكفر. ولهذا قال له لما قال: (إِنَّمَا أُوتِيتُهُ) هذا المال (عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)، أو استحقاق له، أو سعي بطرق علمية فاكتسبته، فقال لـه: (أَوَ لَمْ يَعْلَم أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً)الآية[القصص:78].

فالحذر الحذر، من الاغترار بهذه الدنيا، لأنها لا تدوم على حال، ودوام نعيمها، واتصال السرور بها والحياة فيها، من قضايا المحال. وما البقاء والدوام إلا للكبير المتعال. وقد أفاض القول الإمام الغزالي في "إحيائه"، في منافع المال واحتياج البشر إليه، كما أسلفنا مرارا، فذكر ترجمة في بيان المال والجمع بينه وبين الذم، ثم ذكر ترجمة(تفصيل آفات المال وفوائده).

والخلاصة، كما قدمنا، أن المال ليس مذموما لذاته، وإنما لما يعرض لـه من آفات، وأن السعي في جمعه من طرقه، ليس ممنوعا، ولا ينافي الزهد، إذا أنفقه في الطريق الشرعية؛ من أداء الحقوق به، ووصل القرابة وأهل المسكنة، كما قال تعالى: (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ، فَكّ رَقَبَةٍ، أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ، يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ، أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ)،[البلد:16/12].

وقد تقدم لنا ما وقع لعالمين عظيمين، لهما المقام الكبير في العلمين الظاهر والباطن، المحدث الثقة السالك، وعمدة أهل الله الورع الناسك، عبد الله بن المبارك، والفضيل بن عياض، ولوم الثاني للأول إذ سأله عن اشتغاله بالتجارة واتساعه في ذلك، وهو يأمر بالزهد؟! فأجابه بقوله: إني أؤدي بها الحقوق، وأصل بها المستحقين لذلك. فقال له الفضيل: هذا حسن إن صح. كما تقدم تفصيل ذلك، وكان الفضيل ممن يأخذ صدقته؛ على أن الغزالي قد ذكر - أظنه في باب الزهد - أن [المتزهد] إن كان له مال جمعه، واشترى به عقارًا له غلة يعيش بها، أي ولم يتشوف إلى الزيادة، فهو حسن، ولا يقدح ذلك في زهده.

[الإمام الغزالي، واتخاذه الأسباب للكسب]

قلت: وقد فعل الغزالي هو نفسه ذلك، فقد ذكر ياقوت الحموي في "معجم البلدان"، في ترجمة الإمام الغزالي، عند ذكر مدينة طوس، إذ قال:

وقد خرج من طوس من أئمة أهل العلم والفقه ما لا يحصى؛ وحسبك بأبي حامد، محمد بن محمد بن محمد الغزّالي الطوسي. وأما الغزالي أبو حامد، فهو الإمام المشهور، صاحب التصانيف التي ملأت الأرض طولا وعرضا. قرأ على أبي المعالي الجويني، ودرّس بالنظامية بعد أبي إسحاق. ونال من الدنيا أربهُ، ثم انقطع إلى العبادة؛ فحجَّ إلى بيت الله الحرام، وقصد الشام، وأقام بالبيت المقدّس مدة. قال: ثم رجع إلى طوس، وانقطع إلى العبادة؛ فألزمه فخر الملك بن نظام الملك، بالتدريس

بمدرسته في نيسابور، فامتنع وقال: أريد العبادة، فقال له: لا يحل لك أن تمنع المسلمين الفائدة منك؛ فدرّس. ثم ترك التدريس، ولزم منزله بطوس حتى مات بالطابران منها، سنة 505، ودفن بظاهر الطابران، وكان مولده سنة 450هـ.[71/6].

فانظر إلى هذا الإمام، قدوة الفقهاء الأعلام، وشيخ الصوفية، كيف اتخذ الأسباب في أخذ مرتبه من أحباس الدراسة، حتى استوفى قدرًا اتخذه لحياته، أو اشترى به عقارًا يدر عليه من دخله ما يفي بضرورياته، ثم انقطع إلى العبادة، وتجرد من فتنة هذه الدنيا الغرّارة، إلى أن لقي ربه، وترجى بعبادته رحمته وقربه.

والله يوفقنا لاقتفاء آثار وأعمال أمثال هذا العالم الذي أجهد نفسه في بث العلوم النافعة، بالتدريس في حياته، وأتبعها بالتصنيف والتأليف بعد مماته.

وانظر واعتبر كيف كان الله يبارك في أعمار هؤلاء الجهابذة المجدين في نفع العباد، ونشر علومهم فتكتب آثارهم وتبقى إلى يوم التناد، مع قصر أعمارهم، وطول أعمالهم. وهذا كله من معجزات رسول هذه الأمة الجمة، وسطوع نوره الذي لا تطفئه آراء الفئة المضلة، صلى الله عليه وسلم.

[تتميم ترجمة القاضي، سيدي محمد ابن الطالب الفاسي، والتنويه بمُترجمه، العلامة سيدي عبد الحفيظ الفاسي]

ولنرجع إلى تتميم ترجمة شيخنا ابن الطالب الفاسي، فأقول:

قد ترجم لهذا العالم الفاضل، ابن عمه، أحد أصحابنا وأحبائنا، الذين كانوا أنسًا لنا في وحشتنا ووحدتنا، وكنّا معهم في أيام قراءتنا في الحضرة الفاسية، كآل المهلب، في المبرّة بنا، والسعي في مسرّتنا، حتى كدنا أن ننسى آلنا وبلدتنا؛ وهو العالم النبيل، سيدي عبد الحفيظ ابن العلامة سيدي الطاهر الفاسي، فقال في حاله:

" كان، رحمه الله، من أسنى نجوم آل الفاسي، وأسمى هضاب مجدهم الرواسي، علامة مشاركا متفننا، عارفا بالأحكام، مبرزا في التوثيق، ريان من علم الأدب، موفر الأدوات، عارفا بصناعة التدريس، مشهورا بحسن الإلقاء".[ص75].

ثم أفاض في ذكر شيمه الجميلة، وأوصافه الجليلة، ثم ذكر ولايته القضاء بثغر الصويرة، ثم بمراكش. و حسنت سيرته في ولايته فيها. ثم نقل إلى قضاء طنجة؛ وفيها جلستُ مجالس دروسه، وأخذت عنه جملة منها، وأذن لي في تلقي الشهادة في سماط عدولها، وخصّني بتسجيل رسوم المبيعات بها في دفتر التسجيل، كما قدمنا.

وهذا الشيخ من الشيوخ الذين ذكرتهم في هذه "الفهرسة" تبركا بهم وتشريفا، بالنسبة إلى الأخذ عنهم، كما سبق في سابقه الوزير العلامة السيد المختار بن أحمد،

عملا بما ذكره الأئمة من قولهم: الحرّ من راعى وداد لحظة، وانتمى لمن تلقى منه ولو لفظة، أو كما قالوا.

قلت: ثم أفاض السيد عبد الحفيظ في "رياضه"، كما قدمنا، في ذكر محاسن هذا الشيخ، ثم ذكر أشياخه الذين أخذ عنهم،[و]من أشهرهم: شيخ الشيوخ، وجبل المعارف والعلوم، والعمل بها، في الثبات والرسوخ، سيدي محمد بن المدني جنون، والشيخ التهامي الوزاني، والقاضي الشهير، المعتني بسير البشير النذير ، سيدي الهادي الصقلي، وهو من أشياخ شيخنا ابن الأبار، وشيخنا سيدي أبي العباس ابن الخياط، وغيرهم.

وبقي بطنجة إلى أن أعفي من خطة القضاء بها سنة1332، فرجع لبلده فاس، فأقبل على التدريس والإفادة، كما هو شأن أهل العلم، إلى أن توفي، كما قال سيدي عبد الحفيظ، سنة1345، ودفن بالزاوية الفاسية بها، رحمه الله تعالى، وأسكنه مع آبائه وأجداده في الفردوس الأعلى.

وهذا الشيخ ومن مثله، كما قدمنا، ممن أوردناهم في هذه "الفهرسة" تبركا بهم، واعتناء بتلك الدروس، لأن الجلوس في دروسهم كان قليلا، وفيه اقتداء بالسلف من هذه الأمة، من الصحابة والتابعين، الذين كانوا يرحلون ويجهدون أنفسهم في قطع الفيافي والقفار، وشدّة المشقة، ليأخذوا عنهم الحديث الواحد ونحوه، كما أشرنا إلى ذلك في مبحث الرحلة في طلب العلم، من هذه "الفهرسة".

[الشيخ سيدي التهامي كنون]

ومن هؤلاء، الشيخ الكبير، المستحق في ذكر هذه الجماعة بالتقديم والتقدير، أبو عبد الله سيدي التهامي كنون.

كان هذا الشيخ من المدرسين المشهورين في جامع القرويين، وإقبال الطلبة على مجلسه الحافل، ولا سيما أهل البادية والطلبة المبتدئين، من الذين تكون وجهتهم مطلق الاستفادة، وغبطتهم بالاقتصار على المتون، دون التعرض للأبحاث الطويلة. وشأن هذا الشيخ، الاقتصار على فهم المتن فقط. وهذا شأن الشيوخ السابقين، لأنهم كانوا يرون أن على المدرس أن يقتصر في درسه على فهم المتن وتفهيمه للطلبة، دون الإفاضة في الأبحاث والإيرادات، كما قدمنا ذلك.

ولهذا السبب، كان مجلسه أكبر مجلس في الجامع المذكور. وكان هذا من أسباب اغتباط طلبة البادية وعوام الناس بحضور مجالسه؛ مع أن حدّ الإقراء، عند أهل التحقيق الذين مقصدهم إرشاد الطلبة وإفادتهم بما يوصلهم إلى مقاصدهم،[هو أن] يلقى إليهم ما يوصلهم بالتدريج إلى ما هو أعلى. وقد قدمنا من ذلك، في هذه "الفهرسة"، كثيرًا من هذا في نصوص الأئمة الأعلام. وهذا بيان لسبب إقبال

مبتدئي الطلبة على درس الشيخ كنون المذكور؛ وإلا فالتدريج في التعليم، مفصل في "الإحياء" وغيرها، وقد قدمنا جملة من ذلك، فراجعه.

أما الدروس التي كنت أحضر فيها لهذا الشيخ المبارك، فهي دروس الحديث، في الأشهر الثلاثة، التي هي أشهر العطلة.

وكانت تلك الدروس يلقيها في زاوية سيدي قاسم ابن رحمون، بحومة النجارين، من الحضرة الفاسية، ويحضرها الطلبة، وأعيان المدينة، راكبين الدواب الفخيمة، بالسرُوج المزخرفة، واللجُم[الجميلة]؛ لما كان لهم في هذا الشيخ من التعظيم ومزيد الاحترام. وهو حريّ بذلك، لأنه كان، مع العلم، له تمام الاستقامة، والانتساب لأهل الله من الصوفية الكرام. وكان مع ذلك، يزيدهم في ذلك الإقبال، ما كان يأتي به في درسه من الأحاديث التي تليق بالعامة من الترغيب والترهيب؛ إلا أن ذلك كان داعيا لأهل الحديث للانتقاد عليه.

[انتقاد الشيخ الدكالي، على الشيخ كنون، إيراد الأحاديث الضعيفة في درسه]

وكان أشدهم عليه في ذلك؛ المحدث، شيخنا الدكالي، على عادة أهل الحديث في عدم المسامحة بالقاء الأحاديث الضعيفة، ولا سيما الواهية، في مجالس التعليم. ولكن العذر للشيخ كنون، أن الأحاديث الضعيفة التي لم تصل إلى درجة الوضع، لا بأس بإلقائها والتحديث بها في فضائل الأعمال. وكان الشيخ، رحمه الله، شأنه ذلك، والله تعالى أعلم.

أما درسه الذي كان يلقيه في زاوية سيدي قاسم ابن رحمون، حسبما سبق،[كذا]، وكان يقوم بهذه الدروس بالزاوية المذكورة أخوه وشيخه، العلامة سيدي محمد، الشهير، ففي "سلوة" شيخنا الكتاني، أنه كان له درس بضريح سيدي قاسم ابن رحمون، يقرأ فيه البخاري صباحا في مدة الأشهر الثلاثة، وغيره بين العشاءين دائما. فيظهر أن ذلك كان بيد أخيه، ثم انتقل إليه.

* * *

[كلام صاحب " نشر المثاني"، عن سيدي قاسم ابن رحمون، وزاويته]

أما سيدي قاسم بن رحمون، الذي تنسب إليه هذه الزاوية، فقد ترجم له العلامة القادري، في "نشر المثاني"، فقال:

" ومنهم - أي من هذا العام، الذين ذكر ترجمتهم - الكثير الأتباع، الموصوف عندهم بالولاية والانتفاع، أبو محمد، قاسم ابن رحمون الزرهوني ثم الفاسي، وكان ينسب للشرف. ولا نسبة بينه وبين أولاد ابن رحمون الشرفاء العلميين، وقرابته

الموجودون اليوم يعترفون بذلك. كان لصاحب الترجمة أتباع يحدثون عنه بكرامات وخوارق، ويصرح لنفسه بالتصرف والمقامات والأحوال. حدّث بذلك عنه غير واحد".

ثم ذكر صاحب "النشر" أنه انتسب في الطريقة لمولاي التهامي، دفين وزان، وكان يدمن زيارته هو وأتباعه كل عام. قال: وتوفي في سابع ذي الحجة، عام تسعة وأربعين ومائة وألف، ودفن بدرب الأمناء من حومة النجارين، عدوة فاس القرويين، بدار جعلت زاوية، ولها باب آخر بزقاق الحجر، اشتراها بعض أصحابه، وتأنقوا فيها بالبناء والنقوش والمصابيح، فصار ضريحا كأعظم الضرائح بالمغرب، ووسع، فصار مدفنا تباع به أمكنة المقابر بأعلى سوم، لما جبل عليه الإنسان من الاغترار بالخيالات الواهية، (ولَوْ صَدَقُوا اللهَ لكَانَ خَيْراً لهُم). هـ كلام "نشر المثاني"[159/2].

* * *

[مواصلة الكلام على الشيخ التهامي كنون، وما وصفه به صاحب " رياض الجنة"]

وقد ترجم للشيخ كنون هذا، الذي كلامنا عليه، صاحب "رياض الجنة"، فقال فيه: العالم العلامة، المحدث الفقيه، الصوفي المشارك، من أهل فاس. ثم قال في حاله: "كان المترجم، رحمه الله، من أشهر علماء عصره، عالما حافظا، مشاركا في كثير من الفنون العلمية، دءوبا على تدريس الحديث والفقه وغيرهما، صيفا وشتاء، ليلا ونهارا. وكان، رحمه الله، من أحسن من أدركنا هديا، ملازما لداره، متوسطا في أموره، متباعدا عن المخزن والسياسة؛ فما أفتى ولا حكم، ولا تطلب الوظائف. لا يغتاب أحدا، ولا يُغتاب في مجلسه. أوقاته عامرة، سواء في داره أو في دار غيره. لا يخلو مجلسه من مذاكرة علمية، أو سرد كتاب في الحديث أو الوعظ أو مناقب الصالحين".[ص167].

ثم ذكر ما كان له من المكانة عند الناس والتعظيم، حتى إنه إذا كان يوم خطبته يوم الجمعة، في جامع قصبة أبي الجنود، الذي كانت الخطبة فيه دوريا بين أعلام فاس؛ ينحشر الناس إلى سماع خطبته، لما كانوا يجدون فيها من المواعظ والنصائح.

ثم ذكر صاحب "رياض الجنة" مؤلفاته، ثم ذكر أخذه طريق التصوف عن العارف أبي عبد الله الدباغ، ولازمه. ولكن شيخه، أخاه أبا عبد الله، كان لا يرضى ذلك؛ فكان ينهاه عن خلطته. وبلغ من شدة ذلك أن جاء يوما بنفسه إليه، وهو في جمع من هؤلاء الصوفية، فأخرجه من وسطهم. وذلك لما كان عليه، من طعنه في هؤلاء المتصوفة، والإنكار على طريقتهم الخارجة في نظره، عن التصوف الحقيقي.

[بيان ما ينكره الشيخ محمد كنون على بعض المتصوفة]

وهنا أقول: إن هذا العلامة الشهير، وإن اشتهر أنه كان ينكر على أصحاب هذه الطرق، واتخاذهم هذه الزوايا للاجتماع فيها، والعمارة كل جمعة ونحوها، وعقدهم الحلق للتواجد بالذكر، ثم الرقص، وربما مزج ذلك بإنشاد الأغاني التي شأنها أن تنشد في مجالس اللهو والمجون، وقد يضاف إلى ذلك استعمال آلات الأوتار. ثم ربما كان شروعهم قرب أوقات الصلاة، من المغرب أو العشاء، أو هما معا؛ فيؤذن المؤذن، ولا يبالون به، ويستمرون على رقصهم وأغانيهم. فإذا قيل لهم: هذا وقت الصلاة؟ أجابوا القائل بأن هذه عبادة! يعني تماثل الصلاة، أو ربما أفهموه أنها أهم من الصلاة.

فإن إنكار هذا الشيخ على مثل هؤلاء، هو إنكار في محله، وقد أنكره غيره ممن قبله من أئمة أهل الفتوى وغيرهم، حتى نقل عن بعضهم أن هذه القولة من هذا القائل، الذي يشبه الأمر المحرم، أو على الأقل المكروه، يُعد ردّة، كما شرحنا المقال في هذا الموضوع في أول "شرحنا للمشيشية" مفصلا، فانظره.

أما نسبة إنكار طريق أهل الحقيقة، من أهل التصوف الحقيقي، الذي هو روح الشريعة، لأنهم قالوا: إن الحقيقة لا تفارق الشريعة، وإنما الشريعة هو معرفة جِل الشريعة، والحقيقة دِقها. ومن أنكر ذلك، فإنه كافر، كما صرح بذلك سلطان العلماء، ابن عبد السلام، في "قواعده"؛ فلا يمكن نسبة هذا إلى هذا الإمام الجليل، العالم العامل، الذي كان من العلماء الذين يأمرون بالخيرات، ويأمرون باتباع المأمورات، وينهون عن اتباع المنكرات المحدثات، ويبالغ في التنفير من الوقوع في المتشابهات.

وبالجملة؛ فكان هذا الشيخ من الراسخين في العلم، واتباع نصوص الشريعة الغراء، ويبالغ في إنكار ما خالفها؛ يقول الحق ولا يبالي، ويجاهر بذلك المخالف، سواء عنده أكان من النازل أو العالي. وكانت له أسماء شريفة وأذكار، يستعملها بالليل والنهار، كما قاله شيخنا العارف، سيدي محمد بن جعفر الكتاني في ترجمته.

وهذه الحالة التي كان عليها هذا العلامة الهمام ـ أي الشيخ محمد كنون ـ هي حالة أهل الله من العلماء العارفين، وهي سيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين، والأئمة الهادين المهتدين.

وانظر إلى تراجم الأئمة الأربعة، أهل المذاهب، كمالك والشافعي، وابن حنبل وأبي حنيفة، تر هذه هي طريقتهم، وهي طريقة التصوف الحقيقي، كما ذكر ذلك إمام الصوفية، الإمام الغزالي في أوائل "الإحياء". أما سوى هذا، فهو من قبيل الخرافات.

وانظر أيضا إلى رجال التصوف المؤسسين لهذه الطريقة، التي هي طريقة الزهد في الدنيا وزهرتها، والرغبة في الآخرة ونعيمها، لا أنهم يتخذون الوسائل والحيل؛ من إظهار الصلاح، وادعاء الكرامات والمكاشفات، لأخذ الأموال دون تمييز بين حرام وحلال. فتبا لأناس يقبلون هذا المحال، ويقدسون أصحاب هذه الأحوال. وقد قدمنا في هذا الموضوع شرح هذا الاحتيال، وأطلنا فيه تفصيل المقال، وخصوصا في "شرح المشيشية"،الذي استحسنه كل ذي بال. والعلم كله للكبير المتعال.

[إتمام ترجمة شيخ المؤلف سيدي التهامي كنون]

ولنرجع إلى إتمام ترجمة شيخنا المتبرك به، سيدي التهامي؛ فأقول: قال في "رياض الجنة": مات، رحمه الله، في رجب الفرد الحرام، عام1331، ودفن بمطرح الجلة، خارج فاس. هـ.

قلت: فتكون وفاته بعد أن غادرت مدينة فاس، راجعا إلى مسقط رأسي بتطوان، بنحو ثلاثة أعوام. تغمده الله برحمته، وأسكنه فسيح جنته، ورحمنا معه.

* * *

[ترجمة مولاي عبد السلام العلوي، من شيوخ المؤلف، والكلام على دروسه]

وممّن أخذت عنه، وجلست في مجلس درسه، مولاي عبد السلام العلوي، وكان من مشاهير المدرسين بالقرويين؛ يشار إليه فيها بمعرفته بالعلوم الأدبية. وكان، لما وصلت فاسًا، فيما يظهر، غائبا عنها. وكان في ظني أنه كان يتولى خطة القضاء في الخارج(*). ولهذا لم أحضر إلا مجالس قليلة من درسه؛ فحضرت بعض دروس من درس "التلخيص"، شرح مختصر السعد، وبعض دروس "التوضيح".

ولقصر مدة جلوسي في دروسه، فاتني أن أستوعب حاله، وما يتحلى به من الفضائل؛ إلا أن الذي كان عندي، أنه كان من مشاهير المدرسين بالقرويين، وأنه كان له المنزلة العالية في علوم البلاغة، وهي علم المعاني والبيان والبديع، التي لخصها العلامة القزويني في كتابه"التلخيص". وأشهر من تصدى لشرح هذا الكتاب، أكبر محققي هذا الفن، وهو سعد الدين التفتازاني، في شرحين: "مطول" و"مختصر"؛ وهما الكتابان الوحيدان اللذان أدركنا عليهما دراسة هذه العلوم بجامع القرويين من فاس.

(*) يعني خارج فاس.

وكان لدى أهل النبل والذكاء في ذلك العصر، أن بالنبوغ في شرحه "المطول"، يمتحن تقدم الطالب في الفهم، وأنه إذا كان يقدر على فهم هذا الكتاب، يُحكم له بالتبريز في هذا الميدان، ويكون له الأسبقية فيما سواه من هذا الفن.

[درس الشيخ في البلاغة، والكلام على مبحث الإيجاز]

ولقد ألفيته ـ حين حضرت تلك الدروس ـ في افتتاحه "المختصر" من هذا المتن، وأظن في تفسير البلاغة في أول الكتاب، أو في الكلام على البلاغة، إذ قال في أول"التلخيص": والبلاغة في الكلام، مطابقته لمقتضى الحال، مع فصاحته. ثم ذكر تلك الأحوال؛ من تنكير وإطلاق، وتقديم وذكر، وفصل ووصل وإيجاز وغيره، وكل حال، ببيان الحال الأخرى، كما هو مقرر في الفن.

ثم انطلق الشيخ يبين ذلك. وتكلم على الإيجاز وما قالوا فيه، ولكن العبارة التي بقيت في ذهني ولم أسمعها من غيره، أنه قال: الإيجاز: إشباع المعنى، وإلجام اللفظ. وهي العبارة التي رسمت في بالي من ذلك الدرس. وهي حقيقة بثبوتها في الأذهان، ورسوخها في أفكار من له إلمام بما قاله أهل الفن، من تفسير البلاغة والإيجاز في الكلام؛ فإن إمام هذا الفن، وهو صاحب "المفتاح"، أطال في تفسير الإيجاز، وجاء في ذلك بجمل كثيرة، إذ قال: فالإيجاز هو أداء المقصود من الكلام، بأقل من عبارات متعارف الأوساط، إلخ.

ثم بعد أن نقل صاحب "التلخيص" عبارته بتمامها، بينها بقوله: ثم قال: والأقرب أن يقال: المقبول من طرق التعبير عن المراد، تأدية أصله بلفظ مساو له، أو ناقص عنه وافٍ، أو زائد عليه لفائدة.[ص197].

ثم صار يفسر هذا الحد، ويبين ذلك بالأمثلة مما يطول نسقه. وذكر من ذلك التمثيل للإيجاز بقوله تعالى: (ولكُمْ فِي القِصَاص حَيَاةٌ)؛ فإن لفظها يسير، ومعناها كثير، ولا حذف في ذلك. وهو يفصل كثيرًا ما كان مأثورًا: "القتل، أنفى للقتل"، كما ذلك مبين في محله.

وأما عبارة شيخنا، فهي عندنا جامعة في حد الإيجاز. ومما يعجب فيها، أنها تعريف للإيجاز، وهي أيضا مما يصح التمثيل بها للإيجاز.

قلت: ومسألة الإيجاز والإطناب والمساواة، من الأبواب المهمة عند أهل المعاني، في باب البلاغة، وهي طويلة الفصول، متفرعة الأصول، كثيرة التقسيم، بل هي من أهم ما يعتني بالنظر فيها من له همة عالية في فهم إعجاز القرآن، واعتقاده بأن هذا القرآن الكريم، هو كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

[الإيجاز والإطناب، في كلام ابن الأثير
صاحب كتاب"المثل السائر"، والثناء عليه]

وقد أحسن، في الكلام على "مبحث الإيجاز"، وأتى في تفسيره وتفسير أقسامه، بأمثلة من القرآن الكريم، والحديث الجامع لجوامع الكلِم، وبليغ الأشعار من بلغاء الشعراء؛ من الحديث والقديم: ضياء الدين ابن الأثير، صاحب كتاب "المثل السائر"، فإنه كشف عن هذا الفن الحجاب، وأبدع في ذلك كل الإبداع، وفتح فيه، لمن يريد معرفة إعجاز القرآن الأبواب. وكان كتابه هذا في ذلك، من التحف التي ابتهج بها كل نبيل من أولي الألباب.

ولقد أطربني ما رأيت في ذلك من تلك الآيات البينات، والأحاديث الرائقات، ذات الألفاظ الفصيحة، والمعاني الجامعات، مع ما أضاف إلى ذلك من أشعار لبلغاء الشعراء، المحْدثين والقدماء.

فطوبى له على هذه الخدمة السامية، التي يرجى له حسن مثاب في جنة عالية. ومن عباراته الفائقة، التي ينوه فيها بهذه المباحث الإيجازية، إذ يقول في صدر كلامه:

"النوع الخامس عشر في الإيجاز، وهو حذف زيادات الألفاظ. وهذا نوع من الكلام شريف، لا يتعلق به إلا فرسان البلاغة؛ من سبق إلى غايتها وما صلّى، وضرب في أعلى درجاتها بالقدح المعلى، وذلك لعلو مكانه، وتعذر إمكانه. والنظر فيه إنما هو إلى المعاني، لا إلى الألفاظ. ولست أعني بذلك أن تهمل الألفاظ، بحيث تعرى من أوصافها الحسنة. بل أعني أن مدار النظر في هذا النوع، إنما يختص بالمعاني؛ فرب لفظ قليل، يدل على معنى كثير، ورب لفظ كثير، يدل على معنى قليل".[ص191].

ثم أفاض في البيان، وجاء في ذلك بما يزري بـ"قلائد العقيان"؛ ولهذا، كنت أود لو أنّ لي قوة باقية، وصحة لائقة متوالية؛ لاستخرجت هذا النوع من هذا المؤلَف الفريد، وجعلته مستقلا في هذا الفن، مع زيادة التحرير، والتقاط نفيس الدرر من ذلك البحر المديد. والله يوفقني لفهم هذا القرآن العظيم المجيد، آمين.

[مواصلة ترجمة الشيخ العلوي]

أما هذا الشيخ العلوي، فإن أهم ما التقطته من درره، هي تلك العبارة في تعريف الإيجاز، وهي التي استدعت إطالة القول في هذا المجاز. أما حال الشيخ، واستيعاب أوصافه الحسان، فلم يكن لي بها إلمام، ولا حُسن تبيان، لقصر مدة الاتصال، في تلك

الدروس[و] سرعة الانفصال. والذي عندي في حاله، ما وقفت عليه في" الدرر" للعلامة الفضيلي، إذ يقول:

" ومنهم، أي من هذا الفرع العلوي الشريف، الفقيه العلامة، المدرس المفتي، السيد عبد السلام، ابن الفقيه العدل، السيد عمر بن هاشم. سكن أبوه وجده زاوية زرهون، ثم انتقل هو لفاس لطلب العلم، فاستوطنها، وله بها الآن شهرة وحظوة. وهو أحد أعيان عدولها المبرزين، وفقهائها المدرسين، والجهابذة النقاد الملحوظين بعين التبجيل والتعظيم، المرشحين لكل أمر عظيم، ومنصب جسيم. حفظ الله بهجته ومهجته. وله عقب، حفظه الله"هـ كلام "الدرر البهية".[238/1].

وما قاله هذا المؤرخ، شاهدنا بعضه، وسمعنا عن الناس جملته. وكان في بالي أنه لما وصلنا للحضرة الفاسية، كان هذا الشيخ يتولى وظيف القضاء في بعض المراسي، وأظن كان في طنجة، والله أعلم.

وهذه الجملة التي أثبتها في حاله، كافية في الانتساب العلمي إليه، والله الكافي.

* * *

[ترجمة العلامة، سيدي عبد السلام الهواري]

ومن هؤلاء الشيوخ الأعلام، الذين لم يتفق الاتصال بالأخذ عنهم، وحضور دروسهم الكثيرة: العلامة الشهير، القاضي العدل المتبحر في أحكام الفقه، والراسي في نوازلها رسو[الجبل]الكبير، سيدي عبد السلام الهواري، فقد حضرت عليه بعض دروس في الفقه، إذ وجدته يقرأ "مختصر" الشيخ خليل، في البيوع. ولم يتفق لي متابعة تلك الدروس، لعارض الوقت، مع أن المنية عاجلته، وأنا في أول قدومي للحضرة، كما سيأتي في تاريخه.

<u>وبالجملة</u>؛ فهذا الشيخ الذي أشرنا إلى أنه ممن حضرنا في دروسه القيمة، كانت له شهرة بالحضرة الفاسية، في التحقيق والتحرير في دروسه الفقهية، عظيمة. ولهذا كان مجلسه في "المختصر"، زاهيا بطلبة الفقه النبلاء. ويشهد لتحقيقه وتحريره في المسائل الفقهية، "حاشيته" الفريدة، على شرح التاودي " للزقاقية".

ولهذا كتبتُ على ظهر صفحتها الأولى ما لفظه: "حاشية" العالم العلامة، المحقق المشارك الفهامة، سيدي عبد السلام بن سيدي محمد الهواري، أطال الله بقاءه، وخلد في ذروة العلوم ارتقاءه، على "شرح" خاتمة المحققين، إلخ.

[المشرب الروحي للشيخ الهواري]

ثم إن هذا الشيخ، ليس تحقيقه وتقدمه في خصوص الفقه [فقط]، بل له المشاركة التامة في فنون أخرى، كما يؤخذ ذلك من تلك "الحاشية". ومما أخذناه منها؛ أنه كان ممن له اغتباط وحب لأهل الله من الصوفية؛ فمن ذلك أنه صدّر هذه "الحاشية" التي كتبها على "شرح" العلامة ابن سودة، بمقدمة يحض فيها طالب العلم وقارئه ومقرئه وسامعه، بأن يكون ذلك كله بنية خالصة، وأن شأنه يكون في ذلك كله[هو] التقرب إلى الله؛ إذ قال عن صاحب "المدخل"، عن شيخه العارف ابن أبي جمرة: وددت أنه لو كان من الفقهاء من ليس له شغل إلا أن يعلم الناس مقاصدهم في أعمالهم، ويقعد للتدريس في أعمال النيات ليس إلاّ، أو كلاما هذا معناه، فإنه ما أتى على كثير من الناس، إلا من تضييع النيات. هـ.

ثم صار صاحب "المدخل"، يفصل في النيات في الأعمال كلها، وأنه إنما يكون بإخلاص النيات في الطاعات. واستشهد لذلك بقوله تعالى: (وَمَا أمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ). قال: فالإخلاص أصل عنه تتفرع العبادات بأنواعها، ولا يكون إلا بالقلب؛ فالجوارح الظاهرة تبع للباطنة. وقد نص الحديث على هذا المعنى، وبينه أتم بيان. قال، صلى الله عليه وسلم: " ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت، صلح الجسد كله، وإذا فسدت، فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب". وقال، صلى الله عليه وسلم: "إنما الأعمال بالنيات"، إلخ الحديث المشهور.[ص2].

وقصدنا من هذا، هو بيان مشرب هذا العالم الفقيه، المدرس القاضي، وأنه مشرب روحي صوفي. وله انتماء إلى أهل الله، الذين شأنهم أن يكون عملهم لله، واستعانتهم بالله، وتوكلهم عليه، وفكرتهم مصروفة إليه.

فهو يأمر بهذا طلبة العلم أن يكون تعلمهم لله، لا لأجل طلب شهرة أو وجاهة، ولا أن يكون علمهم وسيلة لاكتساب الأموال، والتمتع بزهرة الدنيا وزينتها، والتكاثر في الدنيا، واقتناء لذاتها وشهواتها. وهذا هو مضمن الحديث الشريف: "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه".

وعليه، فشيخنا الهواري، رحمه الله، يقول لطلبة العلم: أحسنوا نيتكم ومقاصدكم في طلب العلم الديني، المستمد من القرآن الكريم، والنور الذي هو مادة هذا الدين القويم، والصراط المستقيم، وما بينه الرسول بأمر من مرسله الله العزيز الحكيم؛ إذ العلوم الدينية بأجمعها، والأحكام الإسلامية كلها، من أصلها وفرعها، كلها راجعة إلى هذين الأصلين العظيمين. فكل ما خرج عنهما، فليس بعلم يُعتبر، بل هو مضلة ومشغلة، كما يعلمه كل من تأمل وتدبّر، وفي ذلك يقول القائل:

كل العلوم سوى القرآن مشغلة   إلا الحديث وإلا الفقه في الدين

وبالغ بعض الصوفية فقال:

كل العلوم سوى القرآن زندقة . . إلخ

وبالجملة، فإن القرآن هو كله الإسلام، وجامع كل الأ صول فيه والفروع، لمن ألقى السمع إليه وهو من ذوي النبل والأحلام. وفيما قدمناه في أقسام العلوم، والواجب فيها والمستحب، والمطلوب والمرفوض؛ فيه مقتع. فراجع ذلك أوائل المجلد الأول من هذه "الفهرسة".

ومرادنا هنا، أن نعرف بقدر هذا الشيخ الذي حضرنا دروسه، من أنه من الفقهاء الأعلام، وذوي التحقيق فيها، مع الميل إلى أهل الله من الصوفية، أهل الصدق مع الله، والإخلاص له في سائر توجهاتهم.

وعليه، فهذا الشيخ، ينصح طلبة العلم بأن يكون القصد لتعلمهم وجه الله، وأن يكون السعي فيه والتعب، وسهر الليالي للمطالعة، بقصد التقرب إلى الله تعالى، لا إلى اكتساب العلم لأجل المفخرة به، أو إدراك منصب، من قضاء ونحوه، أو رئاسة دنيوية، ليعظمه الناس ويقبلون يده، ويحلونه بالحلى المفيدة للتعظيم والإجلال؛ من العلامة، والهمام، ونحوه، لأن هذا كله تعلم لغير الله، دون قصد جزيل ثوابه، وتبليغ أوامره ونواهيه، وإذاعة ما أتى به رسوله الكريم من أحكام وحْيه، وما أنزل عليه من ربه. وفي الحديث الذي أخرجه ابن عبد البر في كتابه، "جامع بيان العلم":

" لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا لتماروا به السفهاء، ولا لتحتازوا به المجالس؛ فمن فعل ذلك فالنار النار". قال الحافظ ابن عبد البر إثره: وهذا الوعيد، لمن لم يرد بعلمه شيئا من الخير.هـ[187/1].

وهذا هو ما قاله أبو حامد الغزالي، في وظائف التعلم، في الوظيفة الأولى، إذ قال: الوظيفة الأولى: إن تقديم طهارة النفس، من رذالة الأخلاق، ومذموم الأوصاف، إذ العلم عبادة القلب، وصلاة السر، وقربة الباطن إلى الله تعالى. وكما لا تصح الصلاة، التي هي وظيفة الجوارح الظاهرة، إلا بتطهير الظاهرة من الأحداث والأخباث، فكذلك لا تصح طهارة الباطن، وعمارة القلب بالعلم، إلا بطهارته من خبائث الأخلاق؛ إلى آخر ما أتى به أبو حامد من النقول وبسطها، مما لا تكاد تجده في موضع آخر.

وكل هذا بسط لما أشار إليه الشيخ الهواري، مما يجب على طالب العلم النافع، الذي هو نور إلهي يضعه المولى حيث شاء، كما روي عن مالك، ورواه أبو حامد، عن عبد الله بن مسعود، إذ قال: ليس العلم بكثرة الرواية؛ إنما العلم نور يقذف في القلب.

وزيادة على هذا، فإن لهذا الشيخ، في ترجمة الشيخ الذي كتب على شرحه، وهو الشيخ سيدي الهادي بن سودة، من نقله عن الشيخ الرهوني، محشي الزرقاني، [و]أحد تلامذة الشيخ التاودي المذكور؛ في إدمانه زيارة الولي القطب، سيدي عبد السلام بن مشيش، الشهير ذكره في الآفاق، ووقوع التسليم لولايته، وظهور الانتفاع بزيارة قبره، والتبرك بالدعاء عنده.

فكان الجم الغفير من أعلام فاس وشيوخها، يقصدون زيارته كل عام، قديما وحديثا، وكان منهم الشيخ التاودي. ولهذا ذكر ذلك تلميذه الشيخ الرهوني، ووصفها أتم وصف، فقال: وحبب إليه زيارة قبر هذا الشيخ، فكان أزيد من عشرين سنة لا يترك زيارته مرة في السنة، إلا ما قلّ. ولقد صحبته في زيارته مرات، ورأيت له في بعضها مكاشفات، وشاهدت من قيامه الليل العجب العجاب".[13/1].

ثم صار، رحمه الله، في وصف تلك التوجهات والتعبدات الشاقة، مع كبر سنه.

[مسألة التبرك بزيارة الصالحين]

قلت: وذلك مما يدل على اعتماده ما هو الحق ـ عند التسليم ـ من الانتفاع بزيارة الصالحين من أهل الله، سواء في المحيا أو الممات، خلافا لهذه الطائفة الضالة التي لا تعتمد إلا على المادة، ولا تعتقد للآثار الروحية سرا، تقليدا في الاعتقاد للشيخ ابن تيمية، جهلا منهم، وجمود أفئدتهم، واتباع أهوائهم الحائدة عن صوب الصواب، وسُوء ظنهم، وانطماس أفكارهم، حتى بالغوا في ذم زيارة قبر الرسول، الذي فيه منتهى السؤل، وقلدوا ابن تيمية، مخالفة لأهل الحق والطرق السنية.

وقد فصلنا القول في هذا الموضوع، جوازا ومنعا، وذكر ما ينبغي أن يقال في ذلك، تأويلا وجمعا. فعليك بمراجعة ذلك في "العقود الإبريزية".(*)

وإنما أشرت في هذه الجملة إلى بيان أن الأئمة الأجلة، وعمد هذه الملة، من المتأخرين والمتقدمين، على تحسين الظن بأهل الله، والتماس بركاتهم، والنظر إلى ما كان عليه السلف الصالح من تعظيم ما عظمه الله، من أهل الصلاح والتقوى، ووصف الله لهم بالولاية، وأنه تفضل عليهم بأن لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

وقد بينا هذا المعنى في غير هذا الكتاب، وأشرت إلى بعض ذلك في هذه "الفهرسة"، التي أرجو من الله أن يمنّ بإتمامها. إنه سميع دعاء من دعاه، ومعين من استعان به في سره ونجواه.

(*) مخطوطة للمؤلف، في شرح "الصلاة المشيشية".

والمراد هنا، إنما هو بيان أن أشياخنا، من شيوخ فاس، كلهم كانوا من حراس الشريعة السليمة، وأخلاقها الطاهرة، كما كانوا أنصارا لله مع أوليائه المتجردين عن المحسوسات، وامتلاء قلوبهم بالمعاني والأسرار الإلهية، التي أودعها الله قلوب المتقين، الذين هجيراهم: (قل الله، ثمَّ ذرْهُم في خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ).

[الرجوع إلى ترجمة الشيخ الهواري، والكلام على مسألة الأخذ بالوجادة عنه، لتعذر الرواية]

ثم إن هذا الشيخ الهواري، وإن كنا لم نحظ بمتابعة دروسه؛ فإني أرى أني أخذت كثيرا من نفائس المسائل الفقهية، ودرر الأحكام القضائية، من "حاشيته" على شرح الإمام ابن سودة على الزقاقية، أخذا [بـ]إجازة الوجادة، التي هي عند أهل الحديث من قبيل الرواية؛ ففي كتاب "علوم الحديث" لابن الصلاح، بعد أن نقل عن المعافى بن زكريا، تفسير معنى الوجادة لغة، أن المولدين فرعوا قولهم: وجادة، فيما أخذ من العلم من صحيفة، من غير سماع ولا إجازة ولا مناولة. ثم ذكر صورة الوجادة، ومذهب المحدثين وغيرهم في العمل بها، من قبول ورد. ثم ذكر عن الشافعي وجماعة من أصحابه، جواز العمل بها. ثم قال ابن الصلاح، بعد ذكر الأقوال، وترجيح الرواية، وعدم العمل بالوجادة:

" ثم إنه زال ذلك الخلاف، وأجمع المسلمون على تسويغ ذلك وإباحته. قال: ولولا تدوينه في الكتب، لدرس في الأعصر الآخرة".[ص:71/69].

وعلى ذلك العمل استمر، بعد أن انقطعت الرواية لتعذرها، لطول الأعصر وامتداد الزمان. لكن نُبه على القول بالعمل بالوجادة، أي الكتابة، على التثبت في الضبط والنقل. وفي هذا يقول حجة الإسلام في "الإحياء"، مما يفيد أن شأن الرواية ورجالها، قد كفينا بذلك، بما تركوه لنا من المؤلفات في المتون والرجال، والمقبول من ذلك والمردود. وحسبنا تصحيح نسخ تلك المؤلفات، ومراجعتها من التحريف والتصحيف، إذ قال مشيرا لبعض ذلك:

" وأما الحديث، فالاقتصار فيه تحصيل ما في الصحيحين، بتصحيح نسخه على رجل خبير بعلم متن الحديث. وأما حفظ أسامي الرجال، فقد كفيت فيه، بما تحمله عنك من قبلنا. ولك أن تعول على كتبهم، وليس يلزمك حفظ متون الصحيحين، ولكن تحصله تحصيلا تقدر منه على طلب المحتاج إليه عند الحاجة".هـ(*) [30/1].

قلت: وهو شأننا الآن، وشأن من قبلنا من شيوخنا وشيوخهم، إلى القرن الثامن الذي كان فيه العلامة ابن خلدون، إذ قال في "المقدمة"، في الكلام على علم الحديث: ولقد انقطع لهذا العهد تخريج شيء من الأحاديث، واستدراكها على

(*) إلخ ما تقدم في الجزء الرابع؛ في مبحث مراحل الحديث النبوي.

المتقدمين. قال: وإنما تنصرف العناية لهذا العهد، إلى تصحيح الأمهات. إلى آخر ما ذكره في الاستدلال لما قال.
ثم اختلف المحدثون بعد هذا، هل يمكن للمتأخر في هذه القرون أن يحكم بحديث لم يحكم المتقدمون بتصحيحه أو تحسينه، [و] أن يجتهد في ذلك، ويحكم بما تبين له؟ فأباح[ذلك] جماعة من المحققين المتأخرين من أهل هذا الفن، كما سبق أن بسطنا القول فيه وفي غيره من هذه المباحث التي تتعلق بتخريج الأحاديث في القرون المتأخرة، ونقلنا من كلام المحققين ما فيه المقتع والكفاية، لمن له الغبطة بها الفن والعناية (**). وإنما أتينا بهذه الجملة الصغرى، بعد تلك الجملة السابقة الكبرى، لما دعا إليه توجيه المأخذ اللطيف، وإن كان هو في نفسه لهذا الموضوع يُعد من الضعيف، وهو كون شيخنا الهواري، الذي أثبتناه في "الفهرسة"، ممن جلست في دروسه مجالس معدودة، لعدم إمكان اتصال الحضور فيها؛ إذ أردت تكثيرها باعتبار الأخذ بالوجادة، بعد رواية وأخذ.

[تدريس المؤلف للامية الزقاق وروايته لحاشية شيخه الهواري بالوجادة]

لأني لما خرجت من مدينة القصر الكبير، التي كنت أتولى خطة القضاء بها، ورجعت لمسقط رأسي بتطوان، إذ سأمْتُ تعدّي قائدها الرميقي، في ظلمه الحد المحدود، وإطلاق عنانه في ظلم الأهالي الذين تحت حكمه، دون مبالاة، حتى إنه يمنعهم من التحاكم لدى محكمة الشريعة، بأنواع المكر من السجن، وتغريمهم المال الكثير. وكل هذا، رغم أن السلطة العسكرية الحاكمة إذ ذاك، تردّه بتهديدها، وتقريعه وزجره عن التعرض للمحاكم الشرعية؛ ولكن ذلك لا يرده عن أعماله السيئة.
فاضطرني الحال، أن أخرج من هذه القرية الظالم قائدها، دون استئذان، رغم مراودة الحكام بعدم الإسراع إلى الخروج، وأنهم سيردون هذا الظالم عن غيه، ويرغمونه على الرجوع،[و]إلى الانكفاف عن حاله السيئ، ولزومه ما يقتضيه وظيفه المنوط به.
فكان خروجي،[وجلوسي] بتطوان، من خيره أن جمعا من نبلاء الطلبة، طلبوا مني إقراء "لامية" العلامة الزقاق. فساعدتهم على ذلك، وفتحتها معهم في المسجد العتيق، وهو جامع القصبة من تطوان، فسروا بذلك، وامتثلوا،[وبادروا] إلى الدرس وأفكارهم متشوفة للاستفادة. فكان ذلك مما يزيدني إقبالا ونشاطا في المراجعة للمتون والحواشي. وشرعت في القراءة من قول الشيخ الزقاق:

(**) انظر ذلك في الجزء الرابع.

* ثناء على المولى أقدم أولا* إلى قوله: في الختام

فكانت هذه "الحاشية" الفريدة، المرشدة في بابها مفيدة؛ من مروياتي عنه بالوجادة، مضافة إلى تلك الدروس التي حضرتها في مجلسه الحفيل، في جامع القرويين.

عليه وعلى أمثاله من أعلام الدين، الرحمة من رب الأرباب، ما اتصلت أنوار هذه الشريعة الغراء إلى يوم الحساب.

وكانت وفاة هذا الفقيه الجليل، حسبما وجدته بظهر نسخة من "حاشية" هذا الشيخ، بخطي، ولفظه: توفي هذا المحشي، تغمده الله برحمته، في صلاة يوم الجمعة[ ] جمادى الثانية، عام 1327، رحمه الله تعالى، وأفاض عليه سحائب الإنعام. انتهى ما تيسر كتبه من ترجمة الشيخ الهواري.

* * *

[ترجمة الشيخ مولاي عبد الله الفضيلي]

وممن كان من جملة هؤلاء الشيوخ، الذين لم يقدر لي الاتصال بدروسهم، العلامة الفضيلي. وهو العلامة النبيل، والمتقدم في الدراسة في الجامع القرويين، على صغر سنه، بالنسبة إلى كبار شيوخ ذلك الجامع، وقوة شبابه، [فأجاد] في ذلك، على إعانة من الله وقدر، وسارع به إلى نيل المعالي وابتدر، وحاذى أشياخه بالمناكب، وطلع في أفق هذا الجامع كالنجم الثاقب؛ فانثالث إلى مجلسه الطلبة النبلاء، وسارع إلى اقتناء معارفه خواص الأذكياء؛ فكان أحد رفقائنا التطوانيين، يغتبط بدروسه وإلقائه، ويشوفني إلى حضور دروسه وسماع إملائه. فساعدته إذ ذاك، وكان الشيخ افتتح مع الطلبة "شرح" العلامة بناني على "سلم" الأخضري، في المنطق. وصرت أحضر تلك الدروس، فمكثت فيها نحو نصف شهر، وهو يلقي دروسه في (الحمدُ للهِ) التي هي من فواتح النظم. فحينئذ [أخذت] عصا التسيار، وفارقت هذا المجلس، الذي يقتضي للحصول على تحصيل مرادي طويل الأعصار، ولا يناسب المحل المُرتحِل، وإنه بغرضه مُخل.

قلت: ولا يخفى أن الشيوخ الكبار، من المتقدمين والمتأخرين، كانوا ينهون المدرس والطالب عن الاستكثار من تتبع أبحاث الحواشي، والخروج عن الشرح، الذي هو موضوع المتن الذي يقرأونه، لأن ذلك يشتت فكرة الطالب، ويحول بينه وبين تحصيل درسه. وقد تقدم لنا الكلام في هذا الموضوع، وما قاله الشيوخ المقتدى بهم في ذلك.

كما حضرت على الشيخ الفضيلي، جملة من "جمع الجوامع"، للتاج السبكي. وكان اتفق لي أن حضرت درسه عند قول التاج: المنطوق والمفهوم. وكان أمر الطلبة بلاستعداد لدرس ذلك، بمراجعة "شرح" العلامة الهلالي لخطبة " مختصر" الشيخ خليل، في قوله أولها: واعتبروا المفاهيم، مفهوم الشرط فقط. وكل هذا منه،

رحمه الله، رغبة في بسط الدرس، وتوسيع دائرة الكلام فيه. وهو وإن كان نافعا من جهة اتساع الاطلاع،[فإنه] من جهة، يصرف الطالب عن تحصيل رؤوس مسائل الفن. والعلم كله لله.

هذا، وقد تركت هذا الشيخ، لما فارقت الحضرة الفاسية، مقبلا على تدريسه، نشيطا في نشر العلم وتبليغه، عاريا من فتنة الوظيف وتدنيسه؛ إلى أن سمعت أنه ولي قضاء المراسي، آ سفي أو الجديدة. ثم أقيل من ذلك، ورجع لمسقط رأسه، ومقام أنسه، والرجوع إلى ما كان عليه من الإفادة، وافتتاح السعادة.

[امتداد يد الحماية الأجنبية إلى التعليم الديني، وتهديم أركانه باسم الإصلاح]

وقد كان، لما نشرت الحماية الأجنبية جناحها على المغرب، ومدت يدها الغاصبة إلى اختلاس نفوذه، باسم الإصلاح لأمره المضطرب؛ كان مما مدت إليه يدها التعليم، الذي هو روح الملة الإسلامية، ومنارها المشرق في معاهدها وجوامعها، وقواعد دينها، بعلماء شريعتها، [الذين كانوا بها] كالأهلة.

فبادرت إلى إطفاء هذا النور الساطع، بتهديم أركان جامع القرويين، بتغيير نظامه؛ بادعاء أنه منهج غير نافع، وبدلت وغيرت باسم التنظيم، وأكاذيب الإصلاح المستقيم، وسعت في إقامة مجلس تحسيني للقرويين، إذ كان مسجدها هو المعهد الجامع العالي، الذي تؤمه طلبة المغرب من سائر نواحيه وأنحائه. فألفت مجلسا يسمى (المجلس التحسيني للتعليم)، وانتخب لرآسة هذا المجلس[أحد] أكابر علماء الحضرة، إذ ذاك، وشيخ علومها ومعارفها، شيخنا العلامة ابن الخياط، إذ هو إذ ذاك إمام المغرب وعمدته، وعنه تخرج أعلامه، فساعد على ذلك التقديم، مساعدة يقتضيها الحال، والله أعلم بالمآل، فمكث في الرئاسة إلى أن أتاه حمامه.

فقدم إلى خطته من هو إلى مقامه أدنى، وإليه وجوه الطلبة تعنى، العلامة سيدي أحمد بن الجيلالي. ثم أخر الشيخ ابن الجيلالي - أو تأخر - فعين بدله الشيخ الفضيلي، هذا الذي نتكلم عليه الآن، وفي ذلك يقول تلميذه، المنوه بذكره، العلامة ابن زيدان، في كتابه "الدرر الفاخرة"، بعد التنويه بهذا المجلس، والتمهيد لتأخر ابن الجيلالي، ما لفظه:

" رجوع وانعطاف: لما رأى مولانا، سدّدهُ الله، ما ألمّ برئيس المجلس العلمي، أبي العباس، سيدي أحمد ابن الجيلالي، من الألم المزمن، الذي حال بينه وبين القيام بأشغاله المنوطة به، وكاد النظام أن يختل، وأوشكت العُرى أن تنحل؛ أسند رئاسة المجلس العلمي إلى شيخنا، ابن عمنا، أبي محمد، عبد الله الفضيلي. أنجح الله، بوجود مولانا الإمام، المساعي على يده، حتى يتمتع الفكر العام بالاستمداد من مدده. هـ[ص165].

* * *

[ترجمة الشيخ سيدي مَحمد ابن النميش،
وهو من شيوخ فاس الذين لا زم المؤلف حضور دروسهم]

وهنا نستدرك بعض شيوخنا الفاسيين الذين لا زمت دروسهم، منذ أن حللت بالحضرة، وهو الشيخ الفقيه العلامة، حامل لواء التحقيق في علم الفرائض، المرجوع إليه في قسمة مواريثها، واتقان التوثيق، المواظب على درس "تحفة الحكام"، التي قال فيها مؤلفها:

سميته بتحفة الحكّام   في نُكت العقود والأحكام

وهو أبو عبد الله، محمد بن النميش. وبهذا كانت له في عصره الشهرة التامة بين الناس، عندما يريدون قسمة تركة، أو كتابة مفاصلة. فلقد كنا، لما يفرغ من درسه في "التحفة"، نجد كثيرا من الناس ينتظرونه للكلام معه في قسمة تركاتهم، أو كتابة مفاصلتهم. قلت: ولهذا كان هجيراه درس "التحفة" وأشباهها.

أما درس "التحفة"، الذي كنت أحضره له، فقد كان درسا مفيدا جدا، إذ كان رحمه الله، يجتهد في تحرير مسائلها، ويحرر الفقه الذي به العمل، مع نشاطه في ذلك، وبذله الوسع في التحرير، من التتميمات والتنبيهات. ولقد ختم قراءة "التحفة" مرة، ونحن نقرأ معه تلك الدروس، ثم فتح قراءتها مرة أخرى. كما كنت أحضر مجلسا له في دراسة "لامية" الزقاق. وهو كذلك مناسب لفنه المختص فيه، أو كالمتخصص فيه.

وبالجملة، فإن هذا الشيخ كان ممن لا زمت مجالس دراسته، وانتفعت فيها كثيرا، ولم أكن أفارق مجالسه المفيدة حتى غادرت الحضرة.

وكان هو الأحق بإثباته في الرعيل الأول. ولكن وقعت الغفلة، وداء النسيان، هو من لازم الإنسان. وكانت ترجمته هذه، تستدعي ذيولا، ولكن لم يسمح الوقت الآن بها، ويؤجل ذلك لفرصة أخرى، إن شاء الله، واتسع الوقت. وقد توفي شيخنا هذا في شهر ربيع الأنور، من عام تسعة وثلاثين وثلاثمائة وألف، وأنا يومئذ في وظيف القضاء بالقصر الكبير. صبّ الله على مضجعه وابل الرحمات، وألحقه بالعلماء العاملين الذين هم ورثة الأنبياء، آمين.

* * *

هذا وهنا أشياخ أخر، حضرنا دروسهم، وتبركنا بمجالسهم. ولكن، كان ذلك الحضور قليلا. فمنهم: العلامة المجتهد في متابعة دروسه بالقرويين، سيدي إدريس المراكشي، وكنت حضرت بعضها، وهو يقرئ "مختصر" خليل. وكذلك حضرت بعض دروسه بجامع الرصيف، في "مختصر" السعد.

كما حضرت دروس العلامة سيدي محمد مزور، في "المختصر". وكذلك سيدي محمد العلمي، في درسه الألفية، في أيام العطلة.

والله تعالى يرحم الجميع، وينفعنا ببركاتهم، لأنهم أئمتنا في الدين، وحفاظ شريعة سيد المرسلين، وبذكرهم تتنزل الرحمات،آمين.

[ختام هذه "الفهرسة"، ووصفها، وتذييلها بأبحاث وفوائد]

وهنا أقول: تمّ، بحمد الله والثناء عليه، الذي لا أحصيه، وإنما أقول: اللهم لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، كما قاله سيد الحامدين، سيدنا محمد، صلى الله عليه وسلم؛ كتابي في ذكر أشياخي الذين أخذت عنهم في تطوان وفاس، وسميته "النعيم المقيم، في ذكرى مدارس العلم ومجالس التعليم".

والمقصود منه، كما تقدم، ذكر الأشياخ الذين أخذت عنهم. ولكن ذيلت تلك التراجم بفوائد واستطرادات رائقة، جرّ إليها السياق، تنشرح لها الخواطر، وتقر بها العيون والآماق؛ فصارت بذلك فهرسة علمية تفسيرية حديثية فقهية، صوفية كلامية، أدبية تاريخية، ذات أبحاث عصرية، وحوادث وقتية، زيادة على موضوعاتها الأصلية.

ومعنى العلمية التفسيرية،[الكلام] على بعض المسائل التي يقتضيها الحال، كقوله تعالى: (وهُوَ القَادِرُ علَى أنْ يبْعثَ علَيكُمْ عذابًا مِنْ فوْقِكُمْ أوْ مِنْ تَحْتِ أرْجُلِكمْ)؛ من أن القرآن الكريم، يمكن أن يكون إشارة إلى هذه الصواعق التي أحدثت في الخراب للحروب، من إرسالها على الناس من فوق رؤوسهم ومن تحت أرجلهم، فتخسف بهم الأرض، وتقلبها من تحت أرجلهم. وقوله عليه السلام: " إنها لم تقع"، أي وستقع. وقد وقع ذلك في هذه العصور. ومن قوله تعالى: (حتّى إذا أخذت الأرضُ زُخْرَفها وازَّيّنَتْ وظنَّ أهلها أنّهُم قادرُونَ عليْها أتاهَا أمْرُنا ليْلاً أو نهارًا فجعلناها حَصِيدًا كأنْ لم تغنَ بالأمْس).

وهذا الأمر قد ظهرت الآن أسبابه، وتيسرت آلاته، وصار العالم مهددا بالفناء والخراب، وجَعْل هذه الصياصي وهذه القصور المشيدة، التي يسمونها نواطح السحاب، وما فيها، حصيدا كأن لم تكن. وإذا أراد الله أمرًا هيأ أسبابه، وقدم له، للتطاول والتجبر والضلال، أربابه، كما قال تعالى: (وإذا أرَدْنا أن نُهْلِكَ قرْيةً أمَرْنا مُتْرَفِيهَا ففسَقُوا فِيهَا فحَقَّ عَلَيْهَا القَوْلُ فدَمَّرْناهَا تدْمِيرًا).[الإسراء:16].

وهكذا في الحديث؛ لما جرى ذكر رواية الحديث، أتيت في ذلك بنسق رواياته، وجعلت له مراحل إلى عصرنا هذا؛ فجعلت المرحلة الأولى، التي هي كانت في عصر رسول الله، صلى الله عليه وسلم. ثم الثانية في عصر أصحابه، ثم الثالثة. وهكذا، كما ترى ذلك مفصلا في ترجمة شيخنا العلامة المحدث، سيدي محمد بن جعفر الكتاني.

وهكذا جرينا في سائر الفنون. وبالجملة؛ فـ"فهرستنا" هذه، هي كتاب علم واسع الموضوع، ومتنوع الفنون، حتى في الأمور الجديدة؛ كهذا السعي في الطلوع للقمر، وما وصل إليه أربابه، ونظر الناس في ذلك، قديما وحديثا، ونحو ذلك مما سطرناه في ترجمة شيخنا البقالي، في المجلد الثاني من هذا الكتاب. ووجه المناسبة في ذكر ذلك هنالك، أن شيخنا المذكور، كان له بعض إلمام بعلم مبادئ الهيئة، على الطريقة القديمة.

وبالجملة؛ فهذا الكتاب جاء، بتوفيق الله وعنايته، جامعا لمهمات الحوادث، ومفيدا للطالب المستفيد، الراغب في المحاضرات، والعالم اللبيب الذي يهمه الاطلاع على ما يستأنس به من أمر المناظرات، والمعارف والعلوم، وغرائب الحوادث؛ حتى إنه، لما اطلع على مجلده الأول، بعض نبلاء الأعلام، من مدينتنا التطوانية، وغيرها من أهل فاس، استحسنه غاية الاستحسان، وأنزله أعلى ما يستحقه؛ من جمعه خبايا المسائل والنكت، التي كانت مقصورة في خيام الكتمان. ووصفه البعض منهم بأنه دائرة معارف هذا الزمان.

وهذا النسق الذي جريت عليه في هذه "الفهرسة"، لست فيه من السابقين، ولا أنا فيه من المبتدعين، بل هو من الطرق التي سنها كثير من مشاهير الأعلام، وتلقاها من جاء بعدهم بمزيد الاستحسان، وأقبلوا على مطالعتها أي إقبال، لأن فيها زيادة نشاط الفكرة وتوقدها، وإبعادها عن دواعي الملل الموجب للانحلال، كما قال القائل:

لا يصلح النفس إذا كانت مدبرة   إلا التنقل من حال إلى حال

وأنشد في هذا، ما أنشده الحريري في "المقامات"، لما اعترف للبديع بحسن هذا الصنيع، وافتتاحه هذا الباب من كتاب البلاغة، وتعليم ابتداع فنون البديع، ونوه بذكره، وأمعن في شكره، إذ قال: هذا مع اعترافي بأن البديع، رحمه الله، سبّاقُ غايات، وصاحبُ آيات، وأن المتصدّي بعده لإنشاء مَقامة، ولو أوتي بلاغة قُدامة، لا يغترف إلا من فُضالته، ولا يسري ذلك المسرَى إلا بدلالته، ولله در القائل:

فلو قبل مبكاها بكيتُ صبابةً   بسُعدى، شفيت النفس قبل التندّم
ولكن بكت قبلي فهيّج لي البُكا   بُكاها، فقلتُ الفضلُ للمتقدم

قلت: والبيتان لعدي بن الرقاع، وقبلهما:

ومما شجاني أنني كنت نائما   أعلل من فرط الكرى بالتنسم
إلى أن دعت ورقاء في غصن أيكة   تردد مبكاها بحسن الترنم

والأبيات في الحمامة.

[المفاضلة بين "مقامات" الحريري، و"مقامات" البديع]

قلت: وما قاله العلامة الحريري في التنويه بالبديع و"مقاماته"، هو في غاية الإنصاف، [إذ]هو اعتراف وتواضع منه؛ وإلا، فالذي تبين لي، وأنا لست من فرسان هذا الميدان، بعد أن طالعت "مقامات" الحريري مرات عديدة، إذ كانت هي كتابي المحبوب، ومؤنسي الذي لا يفارقني أيام ابتدائي في التعلم، وكنت أضعه، عند استوائي في فراش النوم، على صدري حتى يغشاني النوم في غالب أحوالي. وكانت عندي نسخة من طبع مصر، وهي بالمطبعة القديمة بالخط المصري. وكنت لا أفهم كثيرا ألفاظها اللغوية، لقرب عهدي في ابتداء الدراسة. ولكن لا أفتأ كل ليلة في قراءة قصة منها.

ثم بعد أن مارست الدراسة، وحصلت على شيء لا بأس به من علمي النحو واللغة، واصلتُ المطالعة لهذه المقامات، عند الفراغ من القراءة الأصلية، حتى حداني الولوع بها، أن شرعت في وضع شرح عليها. ولكن لم يتيسر لي الاستمرار على ذلك. ولكن لم أنقطع عن مطالعتها، وحفظ بعض سجعاتها، ونتف من أشعارها، لأنه كانت تروقني بلاغتها، وعذوبة سجعاتها، وإجادتها في ابتداء تلك القصة التي ينشئها، حتى يناسب مطلعها بختامها.

ولقد انتفعت بها كثيرا، وصرت، بالممارسة في نثرها ونظمها، أنشئ بعض الرسائل، وأنظم بعض الأشعار؛ على ما كنت عليه من حداثة السن. وصدقت المقالة الشائعة بين الأدباء، أن من حفظ " مقامات" الحريري؛ قال الشعر، أحبّ أم كره.

أما "مقامات" البديع، فلم تكن إذ ذاك بين أيدينا، إذ لم تكن إذ ذاك نشرت. وبعد أن حصلت على نسخة منها، أدمنت مراجعتها، فالفيتها من جهة السدادة والانطباع، ودلالتها على سعة عارضة صاحبها في اللغة وتوابعها، وسرعة التعبير، دون تقصير ولا ظهور أي تكلف؛ لا يجارى في ذلك الميدان.

لكن، تمتاز"مقامات" الحريري بتنسيق الحكايات، وتحسين العبارات، والتكلف في اتباع تزيين الألفاظ، وترتيبها بفنون البديع، ودقائق الكنايات والاستعارات؛ فصارت بهذا"المقامات" الحريرية، ديوانا ممتازا يقصده الكاتب الأريب، لإنشاء رسائله، والشاعر المفلق للاستعانة بمعانيه في ابتداع قصائده.

ثم أقول: إن كلا[منهما] من رؤساء اللغة والأدب، والتدريب على البلاغة، التي هي من أسباب الاطلاع على بلاغة الكتاب العزيز وإعجازه. فجزاهما الله خيرًا على مقاصدهما الحسنة،[فلا تراني إلاّ] مقدرا لقدر هاذين الرجلين، حامدًا لمقاصدهم، غير قادح في مسعاهم، و[لن أكون] متبعا لبعض الجهلة.

مع ما صرح به الحريريّ أول هذه "المقامات"، بأن قصده بها التعليم، وخدمةَ اللغة التي نزل بها القرآن العظيم، إعجازا وردا على أولئك المعارضين، الذين كانوا يفتخرون بفصاحتهم، ويرون أنهم لا يبارون فيها، وهم قوم لدّ؛ فجاءهم خاتم الأنبياء والرسل، بكلام وقفوا عند سماعه[حيارى]، وعجزوا عن أن يقيسوه بأسجاعهم، أو يلحقوه بأشعارهم. وصرح المنصفون منهم، بأنه كلام ليس بشعر ولا نثر، وأنه كلام لا يقوله بشر. وجاءهم بالأشياء والآيات التي فيها مزدجر، وحكمة بالغة، لا يقوون على معارضتها، بعد تحديهم، بأقصر سورة منه، بل بحديث وجملة قصيرة؛ فسكت من سكت، وردّ من ردّ بردٍّ، هو في الحقيقة هذيان وهذر. فلله الحجة البالغة في هذا المقام العظيم، الذي لا يجحده إلا كل معتد أثيم.

هذا ما كان نظري في المفاضلة بين "المقامتين". ثم وجدت العلامة الشريشي، قد أشار لشيء من هذا في شرحه للمقامات، إذ قال:

"أقرّ الحريري هاهنا للبديع بالفضل، وجعله سباقا للغايات. وما أحسن هذا الأدب منه، مع علمه بفضل "مقاماته" على "مقامات" البديع. ومن أدل دليل على ذلك، أنه منذ ظهرت "مقامات"الحريري، لم تستعمل"مقامات" البديع، ثم إنه طبق استعمالها آفاق الأرض". [16/1].

قلت: لم تزل شهرة هذه "المقامات الحريرية" مستمرة إلى عصرنا، ولم يزل العلماء المشاهير منهم يروونها بالأسانيد، كأنهم يروون الآثار والأحاديث. وتدرس في المعاهد كما تدرس سائر الفنون. وكان الشيخ الدكالي، أحد أشياخنا الذين ترجمناهم في هذه "الفهرسة"، فتح دراستها بالقرويين بفاس، ولكن لم يتفق لي [اتصال] حضور دروسه فيها.

وبالجملة؛ فهذا الكتاب الأدبي الممتاز، أخذ شهرة كبيرة منذ ظهر في الوجود. فرحم الله تعالى مؤلفه، وإنما الأعمال بالنيات.

* * *

[سـؤال عارض، في مسألة النيابة في الحج الواجب]

وهنا سألني سائل عن استنابة المريض في الحج الواجب، أي الفرض، قلت: قال الشيخ خليل: (ومُنع استنابة صحيح في فرض)، إلخ. هذا كلام الشيخ خليل، وهو في الجملة واضح في نفسه. ولكن لزيادة الإيضاح، لا بد من نقل كلام شراحه، وبيان ما هو المعول عليه عندهم.

ففي الحطاب، إثر هذا النص:

يعني أن استنابة الصحيح القادر في الفرض ممنوعة، ولا خلاف في ذلك. والظاهر أنها لا تصح، وتفسخ إذا عثر عليها. قال في "الطراز": أرباب المذاهب، متفقون على أن الصحيح القادر على الحج، ليس له أن يستنيب في فرضه. واختلف

في تطوعه؛ فالمذهب أنه يكره، ولو وقع، صحت الإجارة.هـ. قال الحطاب إثره: ونقله (المص)، وابن فرحون والتلمساني، والقرافي والتادلي، وغيرهم. ثم ذيل الحطاب هذا الكلام، بأبحاث هي غير خارجة عما قاله الشيخ خليل.

ولهذا اقتصر المواق في شرح كلامه، على ما نقله عن القرافي من نص سند، الذي أسلفناه عن الحطاب، فعليه المعول، وبه تصح الفتوى في المذهب. ولفظ المواق، إثر قول (المص): " ومُنع استنابة صحيح في فرض؛ وإلا كره": القرافي: قال سند: اتفق أرباب المذاهب أن الصحيح لا تجوز استنابته في فرض الحج، والمذهب كراهتها في التطوع. فإن وقعت، صحت الإجارة.هـ.[مواهب الجليل:ج3 ص2].

وبنحو ما قلنا، في "شرح" الزرقاني، مع زيادة.

ولكن حاصل ما عليه المحققون من الفقهاء، أن المعتمد في المذهب، أن النيابة في الحج عن الحي لا تجوز مطلقا.

ففي "حاشية" الشيخ بناني على الزرقاني، بعد أن نقل ما تقدم عن الحطاب عن سند، ما لفظه: وأطلق غير سند، منع النيابة في الحج، قاله الشيخ مصطفى. ونحوه قول (ضيح): فائدة: من العبادات ما لا يقبل النيابة بإجماع، كالإيمان بالله تعالى. ومنها ما يقبلها إجماعا، كالدعاء والصدقة، وردّ الديون والودائع؛ واختلف في الصوم والحج. والمذهب أنهما لا يقبلان النيابة. قال الشيخ بناني: وأما المريض، فاعتمد فيه المصنف، ما حكاه في "التوضيح" عن الجلاب، من أنه يكره استئجاره من يحج عنه. فإن فعل مضى.هـ. وفسر به ما شهره ابن الحاجب، من عدم الجواز في العاجز، واعترضه ابن فرحون قائلا: ينبغي حمل الكراهة على المنع. ويدل على ذلك، أن ابن عبد السلام حمل عدم الجواز، على عدم الصحة، وشهره. والحاصل أن المصنف اعتمد في كراهة النيابة عن الصحيح: قول سند. وعن المريض: كلام الجلاب. والمعتمد منع النيابة عن الحي مطلقا. هذا ما يفيده (طفى)، يعني الشيخ مصطفى، محشي التتائي. قال بناني: والله أعلم.[244/2].

هذا ما انفصل عليه الشيخ بناني. وفسر الزرقاني قول(المص): "وإلا كره". قال: " وإلا" بأن كانت منه في نفل، أو من عاجز غير مرجوّ، أوفي عمرة، مطلقا، أي سواء كان المستنيب صحيحا أو عاجزا، اعتمر أم لا؛ " كره"، ولو على الفورية، لأنه استنابة في غير فرض. والإجارة فيه صحيحة، ولا يدخل تحت "إلا" ما إذا كان غير صحيح في فرض، إذ العاجز لا فريضة عليه. قاله الحطاب وغيره.هـ(*) كلام الزرقاني، وهو واضح في المسألة.

هذا ما تحصل في ذلك. قلنا: وهو أن الحي لا يجوز له الاستنابة في حج الفريضة، وأن الحج، إذا وقع على هذا الوجه الممنوع، لا يصح، كما سبق هذا. وفي كتب علم الخلاف أشياء أخر، واستدلالات من أهل الخلاف العالي. ففي "البداية":

(*) شرح الزرقاني لمختصر خليل:244/2.

" وأما وجوبه، أي الحج، باستطاعة النيابة، مع العجز عن المباشرة، فعند مالك وأبي حنيفة، أنه لا تلزم النيابة إذا استطيعت مع العجز عن المباشرة. وعند الشافعي أنها تلزم. فيلزم على مذهبه، الذي عنده مال، يقدر أن يحج به عنه غيره، إذا لم يقدر هو ببدنه، أن يحج عنه غيره بماله. وإن وجد من يحج عنه بماله وبدنه، من أخ أو قريب، سقط ذلك عنه. وهي المسألة التي يعرفونها بالمعضوب، وهو الذي لا يثبت على الراحلة. وكذلك عنده الذي يأتيه الموت ولم يحج، يلزم ورثته عنده، أن يخرجوا من ماله بما يُحَج به عنه". [قال]:

" وسبب الخلاف في هذا، معارضة القياس للأثر. وذلك أن القياس يقتضي أن العبادات لا ينوب فيها أحد عن أحد؛ فإنه لا يصلي أحد عن أحد باتفاق، ولا يزكي أحد عن أحد. وأما الأثر المعارض لهذا، فحديث ابن عباس المشهور؛ خرجه الشيخان" إلخ[258/1].

وسيأتي الكلام عليه عند ابن العربي في "الأحكام"، والباجي في "المنتقى"، وهناك يرى ترجيح ما ذهب إليه مالك.

أما كلام ابن العربي في "الأحكام"، فإنه قال عند قوله تعالى: (ولِلهِ على النَّاسِ حَجّ البيْتِ مَنْ اسْتَطاعَ إليهِ سَبيلاً)، في المسألة الثامنة:

إذا وُجدت الاستطاعة، توجه فرض الحج بلا خلاف، إلا أن تعرض له آفة. والآفات أنواع: منها الغريم، يمنعه من الخروج حتى يؤدي الدين. ولا خلاف فيه. ومن كان له أبوان، أو من كان لها من النساء زوج؛ فاختلف العلماء فيهم، واختلف قول مالك كاختلافهم. والصحيح في الزوج أنه يمنعها، لا سيما إذا قلنا إن الحج لا يلزم على الفور. وإن قلنا إنه على الفور، حق الزوج مقدم. وأما الأبوان، فإن كانا منعاه، لأجل الشوق والوحشة، فلا يلتفت إليه. وإن كان خوف الضيعة، وعدم الغرض في التلطف، فلا سبيل له إلى الحج. وذلك مبين في مسائل الفقه. ثم قال ابن العربي، في المسألة التاسعة، بعد هذا:

إذا كان مريضا، أو معضوبا، لم يتوجه عليه المسير إلى الحج بإجماع من الأمة؛ فإن الحج فرضه الله على المستطيع إجماعا. والمريض والمعضوب، لا استطاعة لهما؛ فإن رووا أن الصحيح قد تضمن عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أن امرأة قالت لرسول الله: إن فريضة الله على عباده في الحج. أدركت أبي شيخا كبيرا، لا يستطيع أن يثبت على الراحلة، أفأحج عنه؟ قال: " نعم. حجي عنه"، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: " أرأيت لو كان على أبيك دين، أكنت قاضيته؟" قالت: نعم. قال: " فدين الله أحق أن يُقضى". وقد قال بهذا الحديث جماعة من المتقدمين، واختاره الشافعي من المتأخرين، وأبى ذلك الحنفية والمالكية، وهم فيه أعدل قضية؛ فإن مقصود الحديث الحث على بر الوالدين، والنظر في مصالحهم، دينا ودنيا، وجلب المنفعة إليهما جبلة وشرعا؛ فإنه رأى من المرأة انفعالا بينا، وطواعية ظاهرة، ورغبة صادقة في برّ أبيها، وتأسفت أن تفوته بركة الحج، ويكون عن ثواب هذه

العبادة بمعزل، وطاعت بأن تحج عنه، فأذن لها النبي، صلى الله عليه وسلم، فيه. وكان في هذا الحديث جواز حج الغير عن الغير، لأنها عبادة بدنية مالية. والبدن، وإن كان لا يحتمل النيابة، فإن المال يحتملها؛ فروعي في هذه العبادة جهة المال، وجازت فيه النيابة. وقد صرح النبي، صلى الله عليه وسلم، بجواز النيابة في غير هذا الموضع. [أحكام القرآن:120/1].

ثم زاد بيانا في هذا الحديث، وصرح بأن هذه النيابة وإن صحت، لا تكون في حج الفرض، وإنما تكون في التطوع؛ فقال: والدليل على أن الحج في هذا الحديث ليس بفرض، ما صرحت به المرأة في قولها: إن فريضة الله على عباده في الحج. أدركت أبي شيخا كبيرا، لا يستطيع أن يثبت على الراحلة. وهذا تصريح بنفي الوجوب ومنع الفريضة. انظر تمامه.

وبالجملة؛ فهذه الجملة التي بينها القاضي أبو بكر، هي جواب عن ما استدل به القائل بجواز الاستنابة في فرض الحج، واستدل به بحديث الخثعمية.

وهناك أجوبة أخر. ففي "مُنتقى" الإمام الباجي، بعد أن وضح ما استند إليه مالك، من عدم استنابة الحي مطلقا في فرض الحج. قال ما لفظه:

والذي لا يستطيع أن يثبت على الراحلة، لا يخلو أن يكون ذلك لأمر عارض، أو لأمر ثابت. فإن كان لأمر عارض، يرجو برءه وزواله، كالأمراض المعتادة، فإن هذا ينتظر البرء، ويؤدي الحج. فأما إن كان لأمر ثابت عنه، كالهرم والزمانة، فهو الذي سُمّي المعضوب، ولا يلزمه عندنا الحج، وإن وجد المال، وأمكنه أن يحمل من يحجّ عنه. وقال أبو حنيفة والشافعي: هو مستطيع، يلزمه أن يخرج غيره يؤدي عنه الحج. فإن كان معسرا، فإن أبا حنيفة يقول: لا يلزمه الحج. وقال الشافعي: إن وجد من يبذل له الطاعة، من ولد أو أخ، أو عبد أعتقه، فإنه يلزمه الحج ببذل هذه الطاعة. قال: والدليل على ما نقوله، قوله تعالى: (وللهِ على النّاس حجّ البيتِ من استطاعَ إليهِ سبيلا)؛ فالآية وردت مقيدة لمن يستطيع السبيل إلى البيت، فمن لم يستطع السبيل إليه، لم تتناوله الآية. والاستطاعة صفة موجودة بالمستطيع، كالعلم والحياة. وإذا لم توجد به استطاعة، فليس بمستطيع، فلم يجب عليه حج. ودليلنا من جهة القياس، أن هذا مكلف لم يجب عليه أن يحج غيره عن نفسه بأصل الشرع. أصل ذلك الصحيح. أما هم، فاحتج من نص قولهم بقول الخثعمية، بالحديث المروي، "إن فريضة الله على عباده في الحج. أدركت أبي شيخا كبيرا"؛ أخبرت أن الحج افترض على أبيها في حال كبره وعجزه عن أن يثبت على الراحلة. وأقرها النبي، صلى الله عليه وسلم، على ذلك.

ثم جاء في "المنتقى"، برواية ابن عباس، أثناء الرد على المتمسك بحديث الخثعمية، إذ قال: والجواب أنا لا نسلم أن القضاء لا يكون إلا في الواجب، فيحتمل أن يقضى عنه ما وجب مثله على غيره، فيلحقه ذلك بحالة من قد وجب عليه الفرض فأداه، لأن حالته أكمل من حالة من لم يجب عليه ولم يؤده. ولذلك روى ابن عباس

أن رجلا قال: يا نبيّ الله، إن أبي مات ولم يحج، أفأحج عنه؟ قال: " أرأيت لو كان على أبيك دين، أكنت قاضيه؟"، قال: نعم. قال: " فدين الله أحق أن يُقضى". ولا خلاف أنه من لم يكن معه ما يقضي به دينه، أنه لا يجب ذلك عليه، ولا يجب على ابنه أن يؤديه عنه، إلا أن الابن إذ أراد إلحاق أبيه بحال من أدى دينه، كان ذلك أفضل.[المنتقى: 269/2].

قلت: وأما ما قاله في "المنتقى"، فهو مضمن ما قاله القاضي في "الأحكام"، من حمل حديث الخثعمية على حج التطوع لا الفرض، وهو ظاهر.

ومن الأجوبة على هذا الحديث، الذي هو حجة على من يجيز النيابة في فرض الحج؛ أجاب أبو عمر بن عبد البر، بأن هذا الحديث المفيد لجواز الاستنابة في الفرض، هو خاص بهذه الخثعمية. قال الأبّيّ عن القاضي عياض، وقال أبو عمر: حديث الخثعمية خاص بها، كما خصّ عنده حديث سالم، مولى أبي حذيفة، برضاع الكبير. وقال غيره: هو حديث فيه اضطراب، لا تقوم به الحجة: مرة جاء : " أن فريضة الله . . . أدركت أبي"، كما في هذا الطريق، ومرة جاء: "أن امرأة ماتت وعليها نذر"، وجاء مرة: أن السائل له رجل. وقيل يحتمل أنها ظنت أن ذلك يجب عليها.

وهذا الكلام من نقل الأبي، سياقه أنه من كلام عياض. وكله احتجاج لمذهب مالك، وردّ على المخالف. وللإمام المازري، حسبما في الأبي: المخالف يرى أن من عجز عن الحج، فعليه أن يستنيب من يحج عنه، ويحتج بالحديث، يعني حديث الخثعمية، ونحن لا نراه، لقوله تعالى: (من استطاعَ إليه سبيلا)، لأن الظاهر في الاستطاعة أنها البدنية،[فـ] لو كانت المال، لقال إحجاج البيت.[إكمال إكمال المعلم:431/3].

ثم أفاض المازري في الاستدلال للمذهب، ورد ما استدل به المخالف، وهو في معنى ما قدمنا.

وكل ذلك يدل دلالة واضحة، وحجج صحيحة لائحة، على صحة مذهب مالك، لأنه استند إلى نص الكتاب العزيز، وأن ما يعارضه من الحديث فيه احتمالات، بل قالوا فيه اضطراب لا يصح الاحتجاج به، كما سبق.

وإني أتلمح أن هذا المذهب الذي ذهب إليه الإمام مالك، وعضده الأئمة الكبار، وأصحاب الترجيح والاختبار، كالإمام المجتهد المازري، والقاضي أبي بكر ابن العربي، والعمدة الشهير، القاضي عياض، حسبما سبق عنه بنقل الأبي؛[هو ظاهر القرآن]. وصرح الإمام القرطبي، الفقيه المفسر المالكي، حسبما نقل عنه صاحب "نيل الأوطار"، ببيان ترجيح ما ذهب إليه الإمام مالك وأصحابه، بترجيح بأنه، كما قدمنا، ظاهر القرآن، قائلا: رأى مالك أن ظاهر حديث الخثعمية مخالف للقرآن؛ فيرجح ظاهر القرآن.هـ[10/5].

قلت: ويزيد مذهب مالك قوة، بما صحّ عن سعيد بن منصور وغيره، بإسناد صحيح، " أنه لا يحج أحد عن أحد".هـ. ولا يخفى حال هذا الصحابي الجليل، الذي

كان متشددا في اتباع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في أحواله وأفعاله، حتى في الأمور العادية، كما هو مشهور عنه: كان يدع أكل البطيخ، لكونه لم يثبت عنده كيف أكل رسول الله له.

فمن شأنه هذا، كيف يكون صحيحا عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه أجاز نيابة الصحيح عنه في حجة الفريضة، ويتأدّى عنه بهذه النيابة الفرض؟! هذا من البعيد. فيكون مرجع مالك، رضي الله عنه، ظاهر القرآن، بأنه لم يكن من عمل الناس، وفي مقدمتهم[هذا]الصحابي الجليل، المحافظ على اتباع الرسول في كل ما يفعل أو يقول. والعلم كله لله، الذي لا تحده الحدود، ولا تحيط به العقول.

وهنا انتهى جواب هذا السؤال، في النيابة في الفريضة في الحج، التي عرضت أثناء ذيل "الفهرسة".

* * *

[مسألة زكاة الفطر، والخلاف الذي وقع فيما تجزئ به، لقلة الحبوب أيام الحرب الأهلية الإسبانية]

وهنا أضيف مسألة فقهية أيضا، كانت وقعت عام 1359هـ بمدينة تطوان، ووقع فيها نزاع بين فقهاء الوقت؛ من فقهاء أصليين حقيقيين، ومن متفقهة شأنهم التضليل، والتعلق بكل قول مخالف لما عليه الجماعة من أهل التحصيل. وكثر في ذلك القول والقيل، حتى خرج الناس بذلك عن سواء السبيل.

وهي مسألة إخراج الفطرة المعهودة، في ليلة عيد الفطر الجليل؛ إذ كانت إذ ذاك الحرب الإسبانية متقدة، والحبوب من القمح والشعير والذرة وغيرها، قليلة أو مفقودة، والقمح كان هو قوت أهل تطوان، أو الغالب في قوتهم. وتضاربت الآراء والفتاوي، وتحير الجاهل وتوقف في أي الطريق من هذه الطرق يأوي.

وصار بعض من لا يرى لأهل الاجتهاد، من الأئمة الأربعة، مكانة، ولا لما استندوا إليه في اجتهادهم،[المؤيد] بالكتاب والسنة، ثقة ولا أمانة،[يشنعون على أهل المذهب]، ويردون مقالة مالك، كما يردون مقالة غيره من الأئمة الأربعة وغيرهم، فيما لم يساعد أهواءهم كذلك. فيجعلون الفطرة تخرج بالمال، دون اضطرار، ولا بوجه من وجوه الترجيح المعروف في علم الأصول والأخبار، وأذاعوه بين أصحابهم من العامة الأغمار، ولم يرجعوا لأصل السنة، وإنما رجعوا إلى أهوائهم الفاسدة، وجرأتهم على حماة الشريعة، الذين لا تزال قوتهم بحول الله سائدة.

أما ما كنا كتبناه في مسألة الفطرة، في ذلك العصر، فهذا لفظه:

(الحمد لله. حيث إن غالب قوت أهل تطوان، وما جاورها اليوم، إنما هو الخبز من الدقيق المختلط من الحبوب، أو الدقيق المخلوط أيضا كذلك؛ بل الدقيق لا يوجد إلا

عند الخصوص. فالذي يقتضيه المذهب المالكي، في إخراج زكاة الفطر، أن ينظر إلى الأصناف التسعة التي تقرر في المذهب الإخراج منها، وهي: القمح، الشعير، السلت، الذرة، الدخن، الزبيب، الأقط، التمر، الأرز؛ فإن وجد واحد منها، الشعير أوالذرة، فإن الفطرة تخرج من هذه الوجوه، ولا تخرج من الخبز ولا من الدقيق، لأن مالكا لا يقول بإجزائهما.)(*)

وهنا أرجئ تمام الكلام على هذه المسألة، بعد تقديم الكلام على مسألة مهمة عرضت في هذا العصر.

[مسألة ظهور شخص نصراني بإسبانيا، يداوي المسلمين بالعزائم والرقى]

وهي أن رجلا إسبانيا في إسبانيا، صار يعالج المسلمين بالعزائم والرقى، وافتتن به الناس، وصاروا يقصدونه من تطوان، ويزعمون أنهم يجدون البرء من رقاه. وكثرت الآراء في ذلك؛ فمنهم، وهو الغالب، من يجعل هذا نحو كرامة، وبعضهم يرد هذا، ويقول: هو شعوذة، أو سحر، أو غير ذلك، وبعضهم يقف سائلا، وخصوصا النساء اللواتي قصدنه بكثرة.

ووقع سؤال كاتبه عن ذلك، ووقعت المذاكرة في ذلك مع بعض من يهمه الأمر؛ فكنت أجبت بأن هذا لا يقبل مطلقا، ولا ينبغي إطلاق العنان فيه للعامة، لما يؤدي إليه من فتنتهم في دينهم واعتقادهم أن النصارى على حق. وربما أداهم ذلك إلى سوء الظن بدين الإسلام. وأشرت لهم إلى أن العزائم، وهي نحو الرقى، أصلها، على ما يروى، في عهد سليمان، عليه الصلاة والسلام، الذي أعطاه الله الملك العام، والتصرف المطلق في الجن والإنس؛ فقد قال العلامة القرافي في " فروقه"، في الفرق الثاني والأربعين والمائتين(242)، بين قاعدة ما هو سحر يُكفر به، وبين قاعدة ما ليس كذلك، وصار يذكر حقائق الأشياء وخواصها، فقال في الحقيقة التاسعة:

الرقى، وهي ألفاظ خاصة يحدث عنها الشفاء من الأسقام والأدواء والأسباب المهلكة. ولا يقال لفظ الرقى على ما يُحدث ضررا، بل ذلك يقال له السحر. وهذه الألفاظ، منها ما هو مشروع كالفاتحة والمعوذتين، ومنها ما هو غير مشروع، كرقى الجاهلية والهند وغيرهم، وربما كان كفرا؛ ولهذا نهى مالك وغيره عن الرقى بالعجمية، لاحتمال أن يكون فيه محرم.[الفروق:156/4].

(*) المؤلف(الوالد)، رحمه الله، في الفترة الأخيرة من حياته، حيث تغير نمط العيش، وأصبح غالب قوت البلد هو الدقيق الموجــــود بأنواعه في الأسواق، أو الخبز الجاهز، وانتشرت عادة إخراج هذه الزكاة بالمال؛ وافق على إخراج الدقيق بدل القمح. وقد تقدم بعض ما يتعلق بمسألة الاستعاضة عن القوت بالقيمة، في الجزء الثالث من هذه "الفهرسة". أم.

ثم قال: الحقيقة العاشرة: العزائم، وهي كلمات يزعم أهل هذا العلم، أن سليمان، عليه السلام، لما أعطاه الله تعالى الملك، وجد الجان يعبثون ببني آدم، ويسخرون بهم في الأسواق، ويخطفونهم من الطرقات؛ فسأل الله تعالى أن يولي على كل قبيل من الجن ملكا يضبطهم من الفساد، فولى الله تعالى الملائكة على قبائل الجن، فمنعوهم من الفساد ومخالطة الناس، وألزمهم سليمان، عليه السلام، سكنى القفار والخراب من الأرض، دون العامر، ليسلم الناس من شرهم؛ فإذا عتا بعضهم وأفسد، ذكر المعزم كلمات تعظمها تلك الملائكة. ويزعمون أن لكل نوع من الملائكة، أسماء أمِرت بتعظيمها، ومتى أقسم عليها بها، أطاعت وأجابت، وفعلت ما طلب منها. فالمعزم يقسم بتلك الأسماء على ذلك الملك، فيحضر له القبيل من الجان الذي طلبه، أو الشخص منهم، فيحكم فيه بما يريد. ويزعمون أن هذا الباب إنما دخله الخلل، من جهة عدم ضبط تلك الأسماء، فإنها أعجمية، لا يدرى وزن صيغها، وإن كل حرف منها يُشك فيه، هل هو بالضم أو الفتح أو الكسر. وربما أسقط النساخ بعض حروفه من غير علم، فيختل العمل؛ فإن المقسم به لفظ آخر، لا يعظمه ذلك الملك، فلا يجيب، فلا يحصل مقصود المعزم. هذه حقيقة العزائم. هـ[الفروق:157/4].

فكتب على هذه الحقيقة، المُحشّي المحقق، ابن الشاط: ما ذكره، يعني القرافي، في الحقيقة العاشرة ممكن. ولم يذكر حكم العزائم في الشرع، وينبغي أن يكون حكمها حكم الرقى، إذا تحققت، وتحقق أن لا محذور في تلك الألفاظ. هـ.

ومفاد كلامه أن لا تحقق عنده، ولا اعتماد صحتها في هذه الحقيقة؛ إذ الموجود في كتب الحديث وغيرها، إنما هي الرقى الواردة عن النبي، صلى الله عليه وسلم، واتّصل العمل بها. وهي المذكورة في "الموطإ"، وصحيح البخاري، وغيرهما من كتب الحديث والسير وغيرها، وخصوصا الإمام البخاري في الصحيح، فإنه أطال في مباحثها وأحكامها؛ ففيه: الرقى بالقرآن. الرقى بفاتحة الكتاب. الشروط في الرقية. رقية العين. العين حق. رقية الحية والعقرب. رقية النبي، صلى الله عليه وسلم. النفث في الرقية. مسح الراقي الوجع. المرأة ترقي الرجل. باب من لم يرق.

وقد استوعب الحافظ ابن حجر في "فتحه" الكلام على هذه المباحث، فأفاد وأجاد، وبلغ المستفيد المراد. فجزى الله أمثال هذا الإمام، وبلغه وأثابه، على سعيه المحمود المرام. ولم يشر هذا الحافظ ، الذي شأنه استيعاب الأبحاث، إلى مسألة هذا التقسيم الذي ذكره القرافي. وإنما تعرض لما تعرض له الجميع، من الكلام على الرقى وحكمها وأقسامها، فقال في شرح أول باب الرقى بالقرآن، وفسر الرقية وتعريفها، ثم معناها، فقال في الرقية: وجمعها رقى، وهو بمعنى التعويذ. ثم قال:

وقد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط: أن تكون بكلام الله تعالى، أو بأسمائه وصفاته، وباللسان العربي، وبما يعرف معناه من غيره، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها، بل بذات الله تعالى. واختلفوا في كونها شرطا، والراجح أنه لا بد من اعتبار الشروط المذكورة؛ ففي صحيح مسلم، من حديث عوف

بن مالك، قال: كنا نرقي في الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله، كيف نرقي في ذلك؟ فقال: "اعرضوا عليّ رقاكم، لا بأس بالرقى، ما لم يكن فيه شرك".[فتح الباري:152/10].(*)
ثم استمر يذكر ما ورد في الرقى، جوازًا ومنعاً، وما يناسب ذلك. ثم[ذكر] حديث ابن مسعود مرفوعا، أن الرقى والتمائم والتولة شرك، وشرح ما في هذا الحديث، وأشار لبعض من ترك الاسترقاء، توكلا على الله، الذي سيأتي للمصنف الحديث عن ذلك، وأشار إلى أن الخلاف في الرقى مشهور، بالجواز والمنع. ثم قال:
ولا خلاف في مشروعية الفزع إلى الله تعالى، والالتجاء إليه في كل ما وقع وما يتوقع. ثم نقل عن القرطبي، أن الرقى ثلاثة أقسام:
أحدها: ما كان يرقى به في الجاهلية، مما لا يعقل معناه؛ فيجب اجتنابه، لئلا يكون فيه شرك، أو يؤدي إلى الشرك.
الثاني: ما كان بكلام الله أو بأسمائه؛ فيجوز، فإن كان مأثورا فيستحب.
الثالث: ما كان بأسماء غير الله، من ملك أو صالح أو معظم من المخلوقات، كالعرش. قال: فهذا ليس من الواجب اجتنابه، ولا من المشروع الذي يتضمن الالتجاء إلى الله، والتبرك بأسمائه؛ فيكون تركه أولى، إلا أن يتضمن تعظيم المرقى به، فينبغي أن يجتنب، كالحلف بغير الله تعالى. قال الحافظ: وقال الربيع: سألت الشافعي عن الرقية، فقال: لا بأس أن يرقي بكتاب الله، وما يعرف من ذكر الله. قلت: أيرقي أهل الكتاب المسلمين؟ قال: نعم، إذا رقوا بما يعرف من كتاب الله، وبذكر الله.هـ وفي "الموطإ" أن أبا بكر قال لليهودية التي كانت ترقي عائشة: ارقيها بكتاب الله هـ.
ثم قال عن المازري المالكي: اختلف في استرقاء أهل الكتاب، فأجازها قوم، وكرهها مالك، لئلا أن يكون مما بدّلوه. وأجاب من أجاز، بأن مثل هذا يبعد أن يقولوه، وهو كالطب، سواء كان غير الحاذق، لا يحسن أن يقول، والحاذق يأنف أن يبدل ، حرصا على استمرار وصفه بالحذق لترويج صناعته. والحق أنه يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال.هـ [فتح الباري:153/10].
قلت: والحديث الذي أشار إليه في "الموطإ"، هو قولها في باب (التعوذ والرقية من المرض)، ما لفظه: وحدثني عن مالك، عن يحيى بن سعيد، عن عَمْرَةَ بنت عبد الرحمان، أن أبا بكر الصديق، دخل على عائشة وهي تشتكي، ويهودية ترْقيها، فقال أبو بكر: ارقيها بكتاب الله هـ.[3-121].
قال العلامة الزرقاني في شرح هذا الحديث، إثر قوله (بكتاب الله): القرآن، أن يُرجى إسلامها، أو التوراة، إن كانت معرّبة بالعربي، أو أمن تغييرهم لها؛ فتجوز الرقية به، وبأسماء الله وصفاته، وباللسان العربي، وبما يعرف معناه من غيره، بشرط اعتقاد أن الرقية لا تؤثر بنفسها، بل بتقدير الله. قال عياض: اختلف قول مالك

(*) تقدم هذا النص في مبحث إخراج الجان من المصروع، في الجزء 2 من "الفهرسة".

في رقية اليهودي والنصراني للمسلم. وبالجواز قال الشافعي. قال الربيع: سألت الشافعي عن الرقية، فقال: لا بأس أن ترقي بكتاب الله، وبما يعرف من ذكر الله. قلت: أيرقي أهل الكتاب المسلمين؟ قال: نعم، إذا رقوا من كتاب الله. وروى ابن وهب عن مالك، كراهة الرقية بالحديدة والملح وعقد الخيط، والذي يكتب خاتم سليمان، وقال: لم يكن ذلك من أمر الناس القديم.هـ[شرح الموطأ:166/4].

وفي "المنتقى"، في شرح هذا الحديث: قول أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، لليهودية: إرقيها بكتاب الله، عز وجل، ظاهره أنه أراد التوراة، لأن اليهودية في الغالب لا تقرأ القرآن، ويحتمل، والله أعلم، أن يريد بذكر الله، عز اسمه، أو رقية موافقة لما في كتاب الله تعالى. ويعلم صحة ذلك، بأن تظهر رقيتها. فإن كانت موافقة لكتاب الله، عز وجل، أمرها بها. وما لم يكن على هذا الوجه؛ ففي "المستخرجة" عن مالك: لا أحب رُقى أهل الكتاب، وكرهه. وذلك والله أعلم، إذا لم تكن رقيتهم موافقة لما في كتاب الله، وإنما كانت من جنس السحر، وما فيه كفر مناف للشرع.هـ[261/7].

وبالجملة؛ فقد تكلم على استرقاء أهل الكتاب، من اليهود والنصارى، للمسلمين؛ فكرهه مالك، وأجازه الشافعي. والكل تتفق كلمتهم على أن يكون بكلام الله، أو صفاته، من القرآن والتوراة والإنجيل؛ إذا تحقق أن ما رقي به من التوراة والإنجيل اللذين لم يبدلا. أما إذا تحقق أن ذلك خارج عنهما، أو مما حرف منهما، أو أضيف إليهما على وجه التلبيس؛ فلا.

وعلى ذلك جرى سيدنا أبو بكر الصديق، في قوله لليهودية التي كانت ترقي السيدة عائشة، رضي الله عنهما: إرقيها بكتاب الله، أي القرآن، إذ ظاهره أنه أمر اليهودية أن تجهر بالرقية، لكي يسمعها هل هي من كتاب الله، أو ما في معناه، فيقرها. أو ليست كذلك، فيصرفها عن ذلك. وهذا من معنى قوله، عليه الصلاة والسلام، في حديث مسلم، عن عوف بن مالك، لما سألوه عن رقاهم في الجاهلية، قال: " اعرضوا عليّ رقاكم"، أي ليراها هل هي موافقة للشريعة، أو مخالفة، كما تقدم.

قلت: وقد أشار الزرقاني، كما سبق، إلى تأويل ظاهر هذا الحديث، بأن هذه اليهودية كانت مالت إلى الإسلام، وحاولت إذ ذاك أن تدخل فيه.

وبالجملة؛ فكل ما سبق عمن قال بالجواز، مقيد بقيده، وهو أن يكون بالقرآن، أو بذكر من الأذكار الواردة في التوراة الصحيحة، أو الإنجيل كذلك. لأن ذلك إنما هو اعتماد على الإسم الذي هو من أسماء الله ومن صفاته. وهو لا يوجب إعراضا عن الديانة الإسلامية، لأنه في معنى ما ينقل من التوراة أو الإنجيل، من المواعظ الحسنة، والحكم الأدبية والخلقية، والأخبار عن الأنبياء وأحوالهم، وفي "التفسير" كثير من ذلك، وكذلك في كتب الوعظ والقصص والتصوف. وعند أهل "التفسير"، أن هذه الأخبار المأخوذة عن أهل الكتاب، على ثلاثة أقسام:

أحدهـــا: ما علمنا صحته، مما بأيدينا؛ فهذا صحيح، والنقل عنهم في ذلك، إنما هو للتعضيد.
والثاني: ما علمنا كذبه مما في أيدينا؛ فهذا ملغى.
والثالث: ما هو مسكوت عنه؛ فهذا لا نؤمن به ولا نكذبه، ويجوز حكايته، لما تقدم. وغالب ذلك وارد في "التفسير"، مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني. راجع أوائل "تفسير" ابن كثير.
أما قسم الوعظ والأخبار عن الأنبياء التاريخية، أو المقالات الحكمية، أو الإرشادات الأخلاقية، مما لا دخل له في الأحكام؛ ففي "الإحياء" وغيرها من كتب التصوف، كثير عن التوراة والإنجيل. وبالله التوفيق.

[لا ثقة في الأمور السياسية، فضلا عن الدينية، بمن يكيد للإسلام، ولا يقر بكتابه]

أما في عصرنا هذا، وهو القرن الرابع عشر الهجري، بل وفيما قبله بقرون؛ فينبغي أن لا يعتبر استرقاؤهم، ولا يستدعون لذلك، لأن هذه الطوائف اليهودية، والفرق النصرانية، سواء في ذلك أحبارهم ورهبانهم، يعادون الإسلام معاداة كبيرة، ويكيدون للإسلام المكائد الظاهرة والباطنة، ولا يقرون بالدين الإسلامي ولا بكتابه. ومن استظهر في هذه العصور بخلاف ذلك، فإنما هو منه وسيلة من وسائل المكر والخداع، ولا سيما طوائف اليهود الذين يدينون بدين الغش والكيد لكل مسلم، وهو مقتضى قوله تعالى: (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا).
ومن حاله هذه مع الإسلام وكتابه في الأمور الدنيوية؛ كيف به في الأمور الدينية المحضة، التي يشترط فيها أن يكون من صالحي المسلمين. واليهود لا ثقة بهم في صدر الإسلام، مع أنهم كانوا تحت سيطرته وحكمه، وفي قبضة سطوته وشمول ذمته. وانظر إلى قوله، صلى الله عليه وسلم، في صدر الإسلام، لما قدم المدينة، لزيد بن ثابت: " تعلم كتاب يهود، فإني والله ما آمنُ اليهودَ على كتابي". قال: فتعلمته في أقل من نصف شهر.هـ.[طبقات ابن سعد:358/2].
فهذا دليل على أن اليهود لا ثقة بهم في الأمور السياسية أو نحوها، فضلا عن الأمور الدينية، ولا سيما في قضية الرقى، التي روحها الصدق والإخلاص، والاعتماد على الله، والتبرك بكتابه وأسمائه الحسنى؛ وأين لليهود بذلك؟!
و هذا يظهر من قول الإمام مالك، الذي روى هذا الحديث، وعنه أخذ، ومنه استنبط من قال بالجواز، مع أنه قال: لا أحب أن أجيز ترقية اليهودي للمسلم. وأول، رضي الله عنه، قضية سيدنا أبي بكر في قوله لتلك اليهودية: اِرقيها بكتاب الله، أنه في صورة إنكاره عليها في كونها كانت ترقيها بغير أسماء الله، أن تلك اليهودية كانت تريد الدخول في الإسلام. كما صدّر بهذا التأويل "الشارح" الزرقاني، حسبما

تقدم عنه. ورضي الله تعالى عن الإمام مالك؛ ما أعلمه بأقوال الصحابة وأحاديث الرسول، عليه الصلاة والسلام.
أما في تاريخنا هذا، فلا ينبغي أن يقول قائل [بذلك]، وهو من أهل العلم بالدين، وأحوال الكفار اليوم وكيدهم للإسلام، على ما هي عليه.
أما تخريج رقاهم وعزائمهم على أن ذلك من قبيل التطبيب، فلا يصح ذلك. لأن الطب أمر عملي حسي. وأمر الرقى ونحوها، أمر اعتقادي، مرجعه عندنا إلى صدق النية، والتعلق برب البرية. والله تعالى أعلم.
ولو مدّ الله في العمر، وتيسرت الأسباب، ومنّ بالتوفيق رب الأرباب، لجعلت لمسألة الرقى والعزائم، وما يسمى بالنشرة، وكتب الحروز والتمائم؛ جزءا خاصا. والله، جل وعلا، منه الاستمداد، وإذا أراد أمرا فما له من معارض ولا راد.

[تكميل هذا المبحث بالرجوع إلى مسالة تحريف التوراة والإنجيل، والنقل عنهما]

قلت: ومن تكميل هذا المبحث: أنا قدمنا من جملة تفسير الأثر، الذي رواه في "الموطإ"، من أمر سيدنا أبي بكر بأن ترقى تلك اليهودية، السيدة عائشة بكتاب الله، وأن الظاهر أن المعني بكتاب الله القرآن. وقيل التوراة والإنجيل، ولكن ذلك مقيد بما إذا ثبت أنهما المنزلان من عند الله، لا ما بدل منهما وغيّر.
هذا، والتغيير فيها، نطق به القرآن الكريم، وعليه الكافة من أهل العلم. وما شذ من ذلك إلا المؤرخ ابن خلدون، وتقدم لنا الكلام على رد كلامه. ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: " لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، (وقولُوا آمنّا باللهِ وَمَا أنزلَ إلينْا وأنْزلَ إليْكُم) الآية.
ومنه أن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: كيف تسألون أهل الكتاب على شيء، وكتابكم الذي أنزل على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أحدث تقرأونه محضا لم يشب، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا هو من عند الله، ليشتروا به ثمنا قليلا. ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟!. لا والله، ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذي أنزل عليكم.! هـ[صحيح البخاري:4/221].

[شرح الحافظ ابن حزم ما تقدم
في مبحث تحريف التوراة والإنجـــيل]

قلت: وقد تقدم الكلام لنا في هذا الموضوع،[في الجزء السادس]، وردّ ما زعمه ابن خلدون في ذلك. وإنما نزيد هذا المقال، بما شرحه في هذا الحافظ الناقد، المطلع على توراتهم، وكذا على الإنجيل، وباطلهم في ذلك وبيان أكاذيبهم، بمناضلتهم ومحاجة أخبارهم في ذلك. وفي أول ذلك يقول:

" وأما التوراة فما وافقنا قط عليها، لأننا نحن نقر بتوراة حق أنزلها الله تعالى على موسى، عليه السلام وأصحابه، لأنه تعالى أخبرنا بذلك في كتابه الناطق على لسان رسوله، صلى الله عليه وسلم، الصادق. ونقطع بأنها ليست هذه التي بأيديهم بنصها، بل حرف كثير منهم وبدل. وهم يقرون بهذه التي بأيديهم، ولا يعرفون التي نؤمن نحن بها. وكذلك لا نصدق بشريعتهم التي هم عليها الآن، بل نقطع بأنها محرفة مبدلة مكذوبة. وهم لا يؤمنون بموسى الذي بشر بمحمد، صلى الله عليه وسلم، وبرسالته وبأصحابه. فاعلموا أننا لم نوافقهم قط على التصديق بشيء من دينهم، ولا مما هم عليه، ولا مما بأيديهم من الكتاب، ولا بالنبي الذي يذكرونه؛ لما قد أوضحناه من فساد نقلهم، ووضوح الكذب فيه، وعموم الدواخل فيه".[الفِصَل:152/1].

ثم صار يتتبع النقل عنهم في كتبهم، ويذكر النصوص التي نسبوها للأنبياء، وما فيها من التناقض والفساد التي لا يحكيها[إلا] ذوو العقول الناقصة، أو اختل مزاجهم بمسكر أو مخدر، فصاروا في عداد الحيوانات الوحشية التي لا تفرق بين الماء الحلو والمالح الأجاج.

ثم قال ابن حزم، بعد أن شرح بعض فضائحهم وهذيانهم المضحك المبكي:

"هذه سوأة الأبد، ومضيعة الدهر، وقاصمة الظهر، وإثبات إله آخر على الله تعالى، دهنه بالزيت إكراما له، ومجازاة على محبته الصلاح، وإثبات إشراك لله تعالى. وهذا دين النصارى بلا مؤنة، ولكن إثبات إله دون الله، وقد ظهر هذا عند اليهود علانية، على ما نذكر بعد إن شاء الله تعالى. وبعده بيسير يخاطب الله تعالى: (وقفت زوجتك عن يمينك، وعقاصها من ذهب. أيتها الإبنة، اسمعي وميلي بأذنيك، وأبصري وآنسي عشيرتك وبيت أبيك، فيهواك الملك، وهو الرب، فاستجدي له طوعا). قال أبو محمد، رضي الله عنه: ما شاء الله كان. أنكرنا الأولاد، فأتونا بالزوجة والأختان! تبارك الله، فما نرى لهم على النصارى فضلا أصلا. ونعوذ بالله من الخذلان". هـ [الفِصَل:153/1].

ثم استمر في نقله عن "مزمورهم" تلك الكفريات، التي هي أشبه بالجنون، ولا يقولها في جانب الربّ إلا مسلوب العقل فاقد الشعور، ولا يدري ما الرب وما

المربـوب، ولا المتـصف بـالإدراك، ولا المجـرد مـن إدراك الحيـوان المطلـق ولا المغلوب. قال الحافظ إثر هذا الكلام، بعد أن نقل عنهم ما يماثله:

"هذا كالذي قبلـه في الجنـون والكفر، ربّ فوق ربّ، وربّ يقعد عن يمين ربّ، وربّ يحكم على ربّ! ونعوذ بالله من الخذلان". [154/1].

ولم يزل، رحمه الله، يذكر من طوامّهم وإفكهم وافترائهم في كتبهم، على أنبيائهم عمومـا وخـصوصا، وتحـرى فـي ذلـك النقل مـن التـوراة والإنجيـل؛ مـن التـصريحات الكفرية والإلحادية، ونسبة هؤلاء العباد المطهرين المخلصين من سائر المعاصـي، صـغيرها وكبيرهـا، كمـا هـو اعتقـاد الملـة المحمديـة الغراء، كمـا قـال صـاحب "جمـع الجوامع": الأنبياء معصومون، لا تصدر عنهم معصية، ولو سهوا.[هـ].

ثم هو، رحمه الله، ينقل عنهم بواسطة، مـا افتروه فـي كتـبهم المبدلـة المحرفـة، وبلا واسطة؛ بل بكلامـهم مشافهة، ويذكر عن بعضهم أنهم كانوا يحضرون مجالسه، فيحاورهم في تلـك الأباطيل، ويبذلون وسعهم فـي إدحـاض الحق الـذي يلقيـه إليهم. وفي الأخير، يعجز بعضهم عن الرد، ويقف ملقيا سلاح جداله، كمـا ذكـر ذلـك، رحمـه الله.

وقد ذكر أنه كان يعرض لـه المجادلـة والمحـاورة مـع بعض علمـائهم، قبـل وقوفـه على نصوص التوراة، أي وبعد وقوفه على ذلك، صار يحـاربهم بسلاحهم، ومـع هـذا قال:

"فالقوم لا مؤنـة عليهم من الكذب حتى الآن، إذا طمعوا بالتخلص من مجلسهم، لا يكون ذلك إلا بالكذب. وهذا خلق خسيس، وعار لا يرضى به مصحّح. ونعوذ بالله من مثل هذا. " هـ[158/1].

ثم صار يجلب ما فيه معارضة، كما قرره وأثبتـه بالنـصوص المنـسوبة إلـى كتـبهم التي لا ينكرونـها، وأطال، رحمه الله، في ذلك، بلا افتراء ولا مين، حتـى أطلـع صـباح الحق لذي عين.

[رد الحافظ ابن حزم على من اعترض على القول بالتحريف]

[ثم] ذيل ذلك بالرد على من ينكر التبديل، إذ قال: وقد اعترض بعضهم، فيمـا كـان يُدّعى عليهم من تبديل التوراة وكتبهم المضافة إلى الأنبياء، قبل أن يبين لـهم أعيـان ما فيها من الكذب البحت؛ فقال: قد كـان فـي مـدة دولـتهم أنبيـاء، وبعد دولـتهم. ومـن المحال أن يقر أولئك الأنبياء على تبديلها.هـ. فقـال أبـو محمـد: فجـواب هـذا القـول أن يقال: إن كان يهوديا، كذبت. ما في شيء من كتبكم أنـه رجـع إلـى البيت مـع زريـائيـل بـن صيلئال بـن صـدقيا الملـك بنبـي أصـلا، ولا كـان معـه فـي البيـت نبـي بـإقرارهم أصلا.[الفِصَل:156/1].

واستمر ابن حزم، رحمه الله، يرد عليهم بنصوص من التاريخ وغيرها، مما لا يسعهم ردّه، لأنه الرجل المطلع على كتبهم، الحافظ لها، حتى كل دعاويهم ودعوى من استحال التبديل والتغيير. ثم قال: فبطل التوراة والإنجيل برفع المسيح، عليه السلام، بطلانا كليا. قال: وهذا الجواب، إنما كان يحتاج إليه قبل أن يظهر من كذب توراتهم وكتبهم ما قد أظهرنا. وأما بعدما أوضحنا من عظيم كذب هذه الكتب، بما لا حيلة فيه؛ فاعتراض ساقط. لأن يقين الباطل لا يصححه شيء أصلا، كما أن يقين الحق لا يفسده شيء أبدا.

ثم صرح بما يفيد أن هذا المعارض في القول في التبديل في التوراة والإنجيل، صدر عن بعض أهل الإسلام، وأظنه يقصد بذلك ما في صحيح البخاري، في ضمن كلام ابن عباس، والحق أنه مدرج من كلام الإمام البخاري، كما سنأتي بنص ذلك؛ إذ قال: فاعلموا أن ما عورض به الحق المتيقن ليبطل به، أو عورض به دون الكذب المتيقن، ليصحح به، فإنما هو شغب وتمويه، وإبهام وتخييل، وتحيل فاسد بلا شك.[157/1].

ثم قال: فإن قيل: فإنكم تقرون بالتوراة والإنجيل، وتستشهدون على اليهود والنصارى بما فيها من ذكر صفات نبيكم، وقد استشهد نبيكم عليهم بنصها في قصة الراجم للزاني المحصن، وروي أن عبد الله بن سلام، ضرب يد عبد الله بن صوريا، إذ وضعها على آية الرجم، وروي أن النبي، صلى الله عليه وسلم، أخذ التوراة وقال: " آمنت بما فيك". وفي كتابكم: (يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حتَّى تُقِيمُوا التَوْرَاةَ والإنجِيلَ ومَا أنزلَ إليْكُم مِنْ رَبِّكُم)، وفيه أيضا: (قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إنْ كُنتُم صَادِقِينَ)، وفيه أيضا: (إِنَّا أنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فيهَا هُدىً ونُورٌ يَحْكُمُ بهَا النَّبِيئُونَ الذِينَ أسْلَمُوا لِلذِينَ هادُوا والرَّبَّانِيُّونَ والأحبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وكَانُوا عليْهِ شهَدَاء)، وفيه: (ولْيَحْكُم أهْلُ الإنْجيلِ بمَا أنزلَ اللهُ فِيهِ، ومَن لمْ يَحْكُم بمَا أنزلَ اللهُ فأولَئِكَ هُمُ الفاسِقُونَ)، وفيه: (ولو أنهمُ أقامُوا التوراةَ والإنجيلَ ومَا أنْزِلَ إليهِمْ مِنْ رَبِّهِم لأكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ ومِن تَحْتِ أرْجُلِهِم)، وفيه: (يَا أيّهَا الَّذِينَ أوتُوا الكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزّلنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعكُم). قال ابن حزم:

قلنا، وبالله التوفيق: كلّ هذا حق، حاشا قوله، عليه السلام: "آمنت بما فيك"؛ فإنه باطل لم يصحّ قط. وكله موافق لقولنا في التوراة والإنجيل بتبديلهما، وليس شيء منه حجة لمن ادعى أنهما بأيدي اليهود والنصارى كما أنزلا، على ما نبين الآن، إن شاء الله.

ثم استمر ابن حزم، رحمه الله، يجيب عما احتج به المحتجّ المُسلم، الذي يقول بعدم التبديل، عن تلك الآيات التي أوردها شاهدة له، آية فآية، وبين أنها لا تعارض ما قلنا. قال:

ونقول إن كفار بني إسرائيل، بدلوا التوراة والزبور، فزادوا ونقصوا، وأبقى الله تعالى بعضها حجة عليهم، كما شاء، (لا يُسْألُ عَمَّا يَفْعَلُ، وَهُم يُسْألونَ)، (لاَ مُعَقِّبَ

لِحُكْمِهِ). وبدل كفار النصارى الإنجيل كذلك، فزادوا ونقصوا، وأبقى الله تعالى بعضها حجة عليهم، كما شاء، (لا يُسأل عمَّا يفعلُ، وهُم يُسْألونَ)، فدرس ما بدلوا من الكتب المذكورة، ورفعه الله تعالى، كما درست الصحف وكتب سائر الأنبياء جملة. فهذا الذي قلنا. وقد أوضحنا البرهان على صحة ما أوردنا من التبديل والكذب في التوراة والزبور. ونورد، إن شاء الله تعالى، في الإنجيل. وبالله تعالى نتأيد.[الفصل:157/1]. فراجعه، إن شئت، في أوائل كتاب ابن حزم، في "الفِصَل".

[تزَايد العداء الحسي والمعنوي لملة الإسلام]

وكان القصد أولا أن نأتي بملخص هذا الموضوع من أوله إلى آخره، الذي حرره هذا الحافظ المطلع على عورات هذين العدوين، اللذين زادت عداوتهما لملة الإسلام، زيادة كبيرة مستمرة على مر الليالي والأيام.

والمرمى الذي يرمون إليه، ويوجهون إليه سلاحهم، الحسيّ والمعنويّ، هو محق هذا الدين القويم، ومحو اسمه من الدنيا. ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره، ولو اغتاظ من اغتاظ، وبذل مجهوده في ذلك، واتخذ[وسائله] وحيله، وظن أنه قادر على الإحاطة بهذا الكون، اعتمادا على تلك الطائرات، ونيران تلك الصواريخ المحرقة، وأن ما بيده من الآلات الأرضية، ستعارض ما يأتي به أمر الواحد القهار، في ليل أو نهار، فيجعل حصونها الشامخة، وقصورها الشاهقة الراسخة، حصيدا كأن لم تغن بالأمس؛ إذ كم أهلك الفاعل المختار، ممن سبق ممن طغى وتجبر، وظن أنه أدرك ما لم يدركه غيره من القوة والشدة، وقال: من هو في هذا العالم أشد منا قوة! فأهلكتهم القوة الإلهية في لمحة ناظر، وخطرة خاطر، فلم يغن عنهم في تلك القرون التي علمها عند ربي في كتاب، كما قال سيدنا موسى لذلك المسرف المرتاب.

وهكذا الدنيا أحلام، وكل ما فيها من كبير وصغير إلى انقضاء وتمام، وفناء واضمحلال، وما البقاء إلا للكبير المتعال.

[قيام دولة إسرائيل، واحتلال بيت المقدس،
بمساعدة دولة أمريكا]

لكن هذه النبذة، إنما هي تسلية لمن تكدر خاطره من هذه الحادثة الكبرى، التي لم ير المسلمون مثلها منذ ظهر صلاح الدين، وهي حادثة اليهود الذين أسسُوا دولة بمساعدة دولة أميركا، أو بإقامتها من أصلها. وصارت لها قوة تهدد بها الشرق الأوسط، واحتلت فعلا أهم طرف منه، وهو بيت المقدس وما جاوره، وصارت تهدد الحجاز كله؛ وهو حادث مؤلم يجرح قلب كل مؤمن مسلم. واستظهر اليهود بقوة

حربية من الآلات الجديدة، واشتدت المعارك الآن بينهم وبين الدول الإسلامية، من الشام كسوريا، ومصر، مع من شاركهم في هذه الحرب من الدول الأخرى، إما بإعانة مالية، أو بإرسال بعض القوة العسكرية، ومنهم الجزائر والمغرب الأقصى وتونس. وبالمال: الدولة السعودية، وتلك الطوائف العربية التي تسكن الشط العربي. ولكن القوة التي تعتمد عليها اليهودية، هي أقوى.

وفي هذه الفترة، صارت المعارك موقوفة، ومهادنة مؤقتة، زعم فيها[الذين] يزعمون أن أرباب النفوذ سيحلون هذه الحادثة بما يُرضي الجميع، وعندي أنه كذبٌ محض.

والله يقي هذه الأمة مكر كل ماكر، ويصلح حالها، ويوفقها لاتباع ما أرشدها إليه مولاها، من الاتحاد والتوافق على الأخوة الإسلامية، وعدم التخالف والتنازع، وأن تستيقظ من نوم غفلاتها، وأن تقوم بجد واجتهاد في إعداد واتخاذ القوة الجديدة ما استطاعت لدفع هذا العدو الكافر.

* * *

[الرجوع إلى كلام ابن حزم، وحضور أحبار اليهود والنصارى مجالس العلماء بالأندلس]

ولنرجع لإتمام كلام ابن حزم في شأن إبطال ما بيد اليهود والنصارى من الكتب المبدلة المحرفة.

قلت: وبعد أن أطال في هذا الموضوع، بالنقل من كتبهم المكذوبة المتناقضة، وحاججهم في ذلك بالمشافهة والاتصال بهم؛ لأنه، كما سبق، كان أحبار النصارى واليهود يحضرون مجالس علماء الأندلس، مثل ابن حزم وغيره: إما للاستفادة، وإما للمجادلة والاحتجاج لما بيدهم، لأن الأندلس إذ ذاك، كانت محط رجال أهل العلم من كل فج، ومن سائر الملل؛ لأن عاصمتها قرطبة، كانت أخذت المرتبة العليا من الحضارة، وجمع علماؤها كل العلوم الدينية والدنيوية، والمعارف العقلية والنقلية والصناعية، من العلوم الفلكية والفلسفية، حتى لم يزل الأوربيون لعصرنا هذا يعترفون بأن حضارتهم وعلومهم بأجمعها، مستقاة من بحور علمائها.

وهم إلى الآن يعترفون بذلك؛ إما سياسة، لاكتساب وداد أهل الإسلام، أو الإقرار بالحق، لأنه من شيم ذوي الهمم العالية.

[الحضارة الإسلامية بالأندلس، وما نالته عاصمة قرطبة من تقدم علمي وحضاري]

ففي كتاب " الإسلام والحضارة العربية"، جمل كثيرة من التنويه بشأن الإسلام وما كان عليه من الحضارة والتقدم في المعارف والعلوم، واستفادة الأمم النصرانية وغيرها[من ذلك]، في الدولة العباسية وفي بلاد الشرق، والأندلس وسائر الأقطار التي فتحها أهل الإسلام.

وقد نوهوا كثيرا بما نالته الأندلس من التقدم، وما استفادته جيرانها من أهل أوربا، وخصوصا من التقدم عليها، بعاصمة القطر الأندلسي، وهي قرطبة الغراء، حالة تمكن الدولة المروانية من تلك البلاد العزيزة؛ إذ كانت هي عاصمة ملكهم، وسراج قطرهم الوهاج، ومقصد كل مستفيد طالب للمعارف، أو للصنائع الغريبة، وما يستخرجه أعلامها من غريب الاستنباط والاستخراج. ففي "المُعجب"، قال:

" وبلغت قرطبة هذه، من القوة وكثرة العمارة، وازدحام الناس، مبلغا لم تبلغه بلدة. حكي عن ابن فياض في "تاريخه"، في أخبار قرطبة، أنه كان بالربض الشرقي من قرطبة: مائة وسبعون امرأة، كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي. هذا ما في ناحية من نواحيها، فكيف بجميع جهاتها؟ وقيل إنه كان فيها ثلاثة آلاف مُقلّس؛ وكان لا يتقلّس(*) عندهم في ذلك الزمان، إلا من صلح للفتيا. [قال]:

وسمعت ببلاد الأندلس، من غير واحد من مشايخها، أن الماشي كان يستضيء بسُرُج قرطبة، ثلاثة فراسخ، لا ينقطع عنه الضوء".[ص:248].

ثم ذكر الجامع الأعظم الذي لا يزال قائما إلى تاريخنا هذا. وبلوغ ضوء هذه المدينة هذه المسافة الطويلة، من أعجب العجب، إذ لم يكن في تلك العصور ضوء كهربائي، ولا سرج للضوء مخالفة للعوائد، ولم يكن الضوء إلا في مصابيح مددها الزيت والفتيلة، أو قوائم الشمع من شهد العسل، أو إيقاد نيران الأعواد. وهذا لا يعطي، بحسب العادة، هذا الضوء الذي يمتد هذه المسافة البعيدة؛ فيظهر أنه كانت لهم سرج زجاجية كبيرة مخترعة في هذا العصر، الذي كان عصر اختراع فنون من الحضارة، التي يشهد بها أهل العصر الحاضر.

وانظر إلى ما قاله مؤرخ الأندلس ابن سعيد، حسبما نقله عنه في "نفح الطيب"،[من] أن الخلفاء من بني مروان، إذ تمهد لهم الملك بالقطر الأندلسي، واتسعت مملكتهم بها، وبنوا بها الأشم من القصور، والمشيدات من المباني، التي لا زالت تباهي بآثار محاسنها هذه العصور. قال ابن سعيد(*):

(*) [تقلّس: لبس القلنسوة] هـ من (المنجد).

(*) [سياق هذا النقل عن ابن بشكوال].

ثم ابتدع الخلفاء من بني مروان ـ منذ فتح الله عليهم الأندلس بما فيها ـ في قصرها، أي قصر قرطبة، البدائع الحسان، وأثروا فيها الآثار العجيبة، والرياض الأنيقة، وأجروا فيه المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة، على المسافات البعيدة، وتمونوا المؤن الجسيمة، حتى أوصلوها إلى القصر الكريم، وأجروها في كل ساحة من ساحاته، وناحية من نواحيه، في قنوات الرصاص تؤديها منها إلى المصانع صور مختلفة الأشكال، من الذهب الإبريز، والفضة الخالصة والنحاس المموّه، إلى البحيرات الهائلة، والبرك البديعة، والصهاريج الغريبة في أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة. قال: وفي هذا القصر القصاب العالية السمو، المنيفة العلو، التي لم ير الراءون مثلها في مشارق الأرض ومغاربها.هـ[نفح الطيب:216/1].

أما مسجدها الشهير، وبدر المساجد المنير، فقد عمّ البسيطة خبره، وملأت الآفاق شهرته، والتقط الجوالون من الأجانب وغيرهم، بالآلات المصورة صورته.

إلى غير ذلك من الآثار التي خلفها هذه القطر الذي كان في عنفوان الدولة العباسية، لأنا إذا نظرنا إلى تاريخ بغداد أيام ازدهار تلك الدولة العظيمة، ونظرنا ما كانت عليه من التقدم في العمران، وامتلائها بالعلماء من كل فن من المعارف والعلوم، صنوان وغير صنوان؛ ألفيناها كانت تفوق في التقدم في الحضارة وتزاحم السكان، والمعارف تدرّس في كل مكان؛ أكبر عاصمة في العالم، إذ قال رئيس المؤرخين وعمدتهم، ابن خلدون، في مؤلفه "العبر": إن بغداد كانت حافلة بالعمران مما لم تنته إليه مدينة منذ بدء الخليقة، إلى أن اضطربت آخر الدولة العباسية.هـ

قلت: وهذا شيء اتفق عليه العرب والعجم، وقال به السابقون واللاحقون.

[إنصاف بعض كبار علماء أوربا، واعترافهم بعظمة التشريع الإسلامي المحمدي]

ولقد أنصف كبراء من أوربا، وعلماء ونبلاء منها،[في هذا الشأن. ومن ذلك] ما نقله صاحب كتاب "الإسلام والحضارة العربية"، عن إدمُوند يورك، في وصف القانون الإسلامي العادل، بأن: "القانون المحمدي، قانون ضابط للجميع، من الملك إلى أقل رعاياه. وهو قانون نُسج بأحكم نظام حقوقي، وأعظم قضاء علمي، وأعظم تشريع منوّر، لم يسبق قط للعالم إيجاد مثله".هـ[ص71].

فليسمع هذا الكلام من أوربي يدين بالنصرانية، وهو من أهل هذا العصر؛ مَن أعرض عن هذا القانون الإسلامي، الذي هو قانون سماوي، نصا أو استنباطا. ولا يكفيه الإعراض عنه، بل يذيله بالقدح ويصفه بالقصور، وأنه قانون لا يليق بهذا العصر، إذ كان إنزاله في عصر الجمل والحمار، والأعراب الجهلة الأغمار، حسبما سمعنا بآذاننا من أشخاص لهم مكانة ونفوذ في الأمم الإسلامية.

[مذاكرة في قوانين المحاكم الشرعية مع بعثة من كلية الحقوق الإسبانيـــة]

أما ما قاله هذا الأوربي ، وأنصف في ذلك غاية، معتمدا في ذلك على اطلاعه ومعرفته بالواقع، فقد أسمعني معناه، إن لم نقل لفظه، رجل إسباني كبير، وأستاذ عند قومه عظيم جليل، مطلع على القوانين الأوربية. وذلك أنه في هذه السنوات الأخيرة ـ والناحية الشمالية من المغرب الأقصى تحت نفوذ إسبانيا ـ وكان في العادة عندهم عند تمام السنة الدراسية، أن الحكومة تأذن بجولة واستراحة في الأقطار على نفقتها، تنشيطا للمتخرجين.

وكانت، في إحدى هذه السنوات، أذنت بجولتهم في نواحي الشمال، من المغرب؛ فوصلت إلى تطوان طائفة من كلية الحقوق الإسبانية، في (أوبْييدُو)، وهي من أشهر كليات الحقوق عندهم. وهذه الطائفة تشتمل على نحو الثلاثين من المتخرجين، ومعهم رئيس الكلية ومديرها. وهذا الرئيس كان عندهم من مشاهير العارفين بالقوانين الأجنبية، الماهر فيها.

وكان المفوض العام من قبل إسبانيا في هذه المنطقة الشمالية، إذا جاء وفد من المتخرجين من الكليات، أو السواح الأجانب الذين يهمهم معرفة الإجراءات الإسلامية الشرعية وغيرها، يُرسله إلى من يهمهم. وكثيرا ما كان يرسله إلينا.

فوجه إليّ هذا الوفد ـ وأنا إذ ذاك رئيس المجلس الأعلى للاستئناف الشرعي ـ ووجه معهم ترجمانا، يطلب مني التوسع معهم في تلقي أسئلتهم وإجابتهم عنها، واحدا بعد واحد. فوصل الوفد إلى المحكمة، ودخل الكل لمكتبي، ورئيسهم يتقدمهم، فسلموا عليّ واحدا بعد واحد، بخضوع وأدب واحترام تام؛ وأذنتهم بالجلوس، وأجلست الرئيس عن يساري، إذ وجد الوفد عندي عن يميني وزير الأحباس، إذ ذاك، وهو الفقيه الأديب اللبيب، سيدي محمد بن موسى، رحمه الله، وكان لما رأى الوفد داخلا إليّ، قام ليخرج، فألزمته بالجلوس، إذ لا سر هنا يجب أن يُستر، فكل ما جرى سيسمعه.

ولما جلس الكل، شرع كل واحد منهم يلقي سؤالا في مجاري الأحكام، وأنا أفصل لكل واحد منهم ما سأل عنه، حتى يتضح له الأمر كالصبح لذي عينين.

فلما أتم الكل أسئلتهم، واستوعبوا أجوبتها استيعابا تاما، وعلى وجوههم أثر السرور والنشاط مما فهموه، ورئيسهم كذلك؛[قلت لهذا الرئيس]: وأنا أسألك ما تقول في إجراءات هذه الشريعة وأحكامها؟ فقام، مما يعتبر ابتهاجا وإعجابا، قائلا بصوت مرتفع أمام الجميع: إن هذه الشريعة ليس لها مثيل في العالم. يقول هذا وأثر الصدق والإنصاف ظاهر على وجهه.

أما الوزير ابن موسى، رحمه الله، فأعجب من صدور هذا الإنصاف من هذا الإسباني، المسيحي الكاطوليكي، غاية الإعجاب، وكاد يطير فرحا، ولم يسعه من فرط السرور، إلا أن يقوم ليقبل رأسي ويجازيني أحسن الجزاء، ويطلق لسانه بالثناء. ولكن أجبته بقولي: لم أقل شيئا من عندي، وإنما بينت له ما هي حقيقة الشرع الإسلامي، ولا أستحق على ذلك مدحا ولا ثناء. ولكن هو أجابني بقوله: ومن يُبلغ مثل هذا، لمثل هذا الإسباني المتعصب. أو كلاما هذا معناه. والله يوفقني وجميع أهل الإسلام للرجوع إلى ما يحبه الله ويرضاه.

قلت: والبحث في هذا الموضوع يطول الرد عليه، ولا سيما فيما يتعلق من جهلة المنتمين إلى أهل الإسلام، ومحاولة تضليل الشباب، وصرفهم عن عقيدة الإسلام، وإلحاقهم بأهل الإلحاد. ولكن حماية الله لهذا الدين، وعنايته ووعده الصادق، وكتابه العزيز الذي يظهره إلى انتهاء الدنيا ناطق[كذا]. وفي الآية الكريمة التي سبق تقريرها، وما قال فيها العلماء وأهل الله؛ رد على من أضله الله وأرداه، وعن طريق الحق صرفه وأعماه. فهذا القرآن الكريم يقول: (هوَ الذِي أرسَلَ رسُولهُ بالهُدَى ودين الحقِّ ليُظهِرَهُ على الدّينِ كُلِّهِ ولوْ كرهَ المُشركُونَ). وهذه الفئة الضالة، كما قدمنا، لم يكفها إنكاره، بل جعلته من الأمور المنافية للحضارة والرقيّ، وأنه لا يشتغل به إلا أبله شقي!

[مواصلة ذكر تنويه العلماء الأجانب بالقرآن الكريم وما فيه من المعاني والآيات]

في حين أن نبلاء الأجانب من الأوربيين وغيرهم، بل من الأغمار سكان البراري والقفار، من عباد الحيوان والأحجار، قامت فيهم نهضة، وصاروا يعتبرون بآيات القرآن، وصار كثير من زعماء الفرنسيين والإنجليز والألمان، ينوهون بجمال القرآن وحسن آياته، وأنه كتاب جامع للمصالح، يجب تلاوته وتأمل معانيه. ففي كتاب "الإسلام والحضارة العربية"، ما لفظه:

قال جان جاك روسو، في القرن الثامن عشر:

" من الناس من يتعلم قليلا من العربية، ثم يقرأ القرآن ويضحك منه. ولو أنه سمع محمدا يمليه على الناس، بتلك اللغة الفصحى الرقيقة، وذلك الصوت المقنع المطرب، المؤثر في شغاف القلوب، ورآه يؤيد أحكامه بقوة البيان؛ لخرّ ساجدا على الأرض، وناداه: أيها النبي رسول الله، خذ بأيدينا إلى مواقف الشرف والفخار، أو مواقع التهلكة والأخطار، فنحن من أجلك نود الموت أو الانتصار".هـ[ص69].

ونقل عن كارلايل، في القرن التاسع عشر، أنه قال: إن فرط إعجاب المسلمين بالقرآن، وقولهم بإعجازه، أكبر دليل على تباين الأذواق في الأمم المختلفة. والترجمة تذهب بأكثر جمال الصنعة وحسن الصياغة".

وجاهر كلود فارير، في القرن العشرين، بأن: "آيات القرآن جميلة، وتحسن تلاوتها. فيها نفحة طاهرة عجيبة، لأنها تأمر بالشجاعة والصدق والأمانة، وتدعو إلى حماية الضعيف، وإلى عبادة إله واحد". هـ[ص69].
وكلام مثل هؤلاء المُنصفين من الأوربيين كثير جدا، وقد نقل بعض نصوصهم ـ كما سبق ـ صاحب كتاب "الإسلام والحضارة العربية"، وهو كتاب مفيد، ينبغي لهذه الناشئة الجديدة الملحدة قراءته؛ وكأنّ هذا الكتاب أعدّ للرّد عليها.

[الإقبال على الدخول في الإسلام، رغم ما عليه الآن حال أهله]

ومما يسر؛ ما وقع [أخيرا] في جزر أندونيسيا من إسلام خمسة عشر ألف إنسان، وهذا إن صحّ، فهو إنما[هو] بتوفيق من الله، لا من خوف سطوة، ولا لرغبة في حسن سيرة غالب أهل الإسلام. ولكن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر.
أما في الهند، فإن هناك حركة وإقبالا من جهة التعليم الإسلامي واللغة العربية.
ومن أحسن هذا من الدعوة إلى هذا الدين الحنيفي القويم، ما ترجمت له جريدة "العلم" المغربية، بقولها:
(أميرة إنجليزية تعتنق الإسلام، وتقول إن الإسلام هو دين المستقبل). ثم ذكرت الجريدة عنها، الحامل لها على الإسلام، فقالت:
أبرزت الصحف البريطانية مؤخرا نبأ إسلام أميرة إنجليزية، هي ولية عهد سرواك(*). وقد ذكرت الأميرة الإنجليزية في حديث عن الأسباب الحقيقة التي دفعتها إلى اعتناق الدين الإسلامي، فقالت: لما وردتُ بلاد سرواك، لأول مرة، منذ سنوات، أتاحت لي هذه الزيارة فرصة لمدارسة حياة الطوائف المقيمة في هذه البلاد التي يبلغ عدد المسلمين فيها ثمانين ألف مسلم، من مجموع ستمائة ألف نسمة: البوذيُون، والبراهمة، والوثنيون، والمسيحيون. وقد جذبتني كثيرًا للرعايا المسلمين، أخلاقهم السامية، التي أدركت منها فضائل وكمال الإسلام. وبعد دراسات عميقة لتعاليم الديانة، دهشت لما في الإسلام من طهر وحكمة ويسر، وشعرت بأن قلبي وروحي معموران بهذه الهداية السماوية، التي[هي] في غاية الملاءمة لعقول البشر. وإني لآنس في نفسي الثقة بأن البلاد الإسلامية سيكون لها في المستقبل شأن جليل في التاريخ. ولهذا السبب، أصدرت مجلة في باريس باسم "المحة الأخبار الإسلامية". وقد قال بناردشو ـ وأنا متفقة معه كامل الاتفاق ـ : إن الإسلام هو دين المستقبل.هـ. هذا ما نقلته جريدة "العلم"، المغربية، في15 ذي القعدة، عام1393.

(*) سرواك: أكبر ولاية في ماليزيا، كانت مستعمرة ابريطانية، إلى سنة1963 . أ م.

وهذه الجملة المنقولة في هذا الموضوع، هي مما يستأنس به، إن كانت صحيحة وعن صدق نية؛ وإلا فحالة الأمم الإسلامية اليوم في حالة سيئة جدًا، من جهات متعددة:

أولا : لما بينها من التفرق والاختلاف، والتباين في المقاصد والأهداف.

وثانيا: إهمالها طرق الاستعداد، من العُدة والأعداد، وفق ما يقتضيه العصر من الآلات الجديدة المخترعة، كما اخترعه جيرانها وأعداؤها.

ثالثا : استحلاؤها الاستراحة وإطالة هذا الرقود.

رابعا، وهي الطامة الكبرى: هو اتفاق الأمم النصرانية، في أوربا وغيرها، على القضاء على هذه الأمم الإسلامية القضاء المبرم، والمحق الذي لا يبقى لهم معه إلا العدم.

وعليه، فكل من يتكلم منهم [بكلام] يخالف هذا المقصد، فهو من قبيل المكر والخديعة، والإغراء للمسلمين بلزومهم هذه الحالة المنافية لما أمرهم به القرآن، وسنّ لهم الرسول من الفعل في هذا الميدان، واتبعه في ذلك السلف الصالح، من الجدّ والغلظة في مواجهة الأعداء بالمثل، وهو ظاهر قوله تعالى: (وأعِدّوا لهُم مَّا استَطعْتُم مِن قوّة).

وفقنا الله لاتباع القرآن، وما أفصح به أو أفاده معناه، وبيّن ذلك رسوله بالعمل، والسلف الصالح الذين اتبعوا طريقه، ولازموا فريقه. آمين.

وهذا المبحث طويل، يستدعي التطويل والتفصيل، والتوفيق بيده، جل وعلا، فإنه نعم المولى، ونعم الوكيل.

[خلاصة أصل هذا الموضوع وما تفرع عنه وهو رقية الأجنبي للمسلم]

هذا، والذي مدّ بنا في هذا الشريط الذي طال مداه، وكاد أن لا تتصل أخراه بأولاه؛ ذلك السؤال الوارد علينا في مسألة الإسباني، الذي ظهر بإسبانيا، يداوي المرضى بعزائمه، فيجدون الشفاء من ذلك، وأن بعض النساء يقصدنه من تطوان، فيداويهن، على ما زعمن، وهل ذلك يصح أم لا؟ فأجبت السائل بأن هذا افتراء وبهتان، وهو من عمل الشيطان. فيجب على كل مسلم ومسلمة، أن لا يلتفت إلى ذلك بحال، وليعده من كذب مخادع فتان؛ ولا سيما وقد ذكر من حضر هذا عند تعزيمه، أنه يستحضر مع من يعزمه، الصليب تبركا به.

وذكرت في ذلك أثر"الموطإ" في مسألة اليهودية التي وجدها تعزم السيدة عائشة، وما قال لها، وما جاء في تفسيره، وأنه ليس على ظاهره، بدليل أن الإمام مالك، كان لا يرى تعزيم اليهودي للمسلم. وذكرنا ما في ذلك.

ثم انجرّ الكلام بنا إلى كتب اليهود والنصارى وغيرها، مما هي بأيديهم الآن، وأنها مبدلة مغيرة، لا يعتمد عليها، والنصوص الواردة في ذلك من القرآن والآثار. وقرنا في ذلك ما أفاض به الحافظ ابن حزم، من الردّ على من يقول بصحتها، آتيا بالنصوص التي لا تقبل الإبطال، ولا تعدّ من الشذوذ والخروج من ابن حزم عن الجماعة في بعض الأحوال.

ثم إني كنت أثبت كلام ابن حزم، وأنا على خيفة من أن أكون متبعا له في شذوذه الذي يخالف به الجمهور.

ولكن وجدت أني كنت راجعت المسألة من أصلها، ووجدت خاتمة الحفاظ، الحاذق النبيل المتيقظ، الذي لا يحتاج إلى إيقاظ،[ابن حجر]، ذكر المسألة في "فتح الباري"، بما لا يوجد له فيه مباري، ووجدته قد اعتمد في ذلك كلام ابن حزم؛ فارتفع عني الشك، وحصل الجزم. ووجدت أني كنت راجعت القضية ووعيتها، وكتبت بخطي توقيفات على نسخة "الفتح". ولكن النسيان من طبيعة الإنسان، فسبحان من لا تأخذه سنة ولا نوم، ولا يشغله شأن عن شأن.

* * *

[تتميم الكلام على مسألة تبديل التوراة والإنجيل]

ولنرجع إلى إتمام الكلام على مسألة تبديل اليهود والنصارى التوراة والإنجيل. وقد كنت نقلت ما قاله في ذلك الحافظ ابن حزم، في إثبات التغيير والتبديل فيهما، بما لا مزيد عليه، وكنتُ توهمت أن هذا الكلام منه غلوّ، وأنه مما يمكن أن يكون انفرد به عن الجمهور، على عادته. ولكن الواقع خلافه، والقضية -كما تقدم- كنت راجعتها منذ زمن طويل، وراجعت فيها[ما] في صحيح البخاري، ونظرت إلى منشإ المخالفة، كما سبق.

وعليه فأقول، آتيا بنص البخاري: ومضمن ما قاله في ذلك الحافظ ابن حجر في "فتح الباري"، وأعطى المسألة حقها، جلّها ودقها.

ففي صحيح البخاري، في (كتاب التوحيد)، في المجلد الأخير، فيه باب قول الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾، وقال ابن عباس: يكتب الخير والشرّ. يحرفون: يزيلون، وليس أحد يزيل لفظ كتاب من كتب الله، عز وجل، ولكنهم يحرفونه: يتأولونه على غير تأويله. هـ[251/4].

قال الحافظ في "الفتح": أولا: لم أر هذا موصولا من كلام ابن عباس من وجه ثابت. ثم قال، بعد كلام: قال شيخنا ابن الملقن: في شرح هذا الذي قاله، أحد القولين في تفسير هذه الآية، وهو مختاره، أي البخاري. وقد صرح كثير من أصحابنا بأن اليهود والنصاري بدلوا التوراة والإنجيل. وفرعوا على ذلك جواز امتهان أوراقها، وهو يخالف ما قاله البخاري هنا.هـ؛ وهو كالصريح في أن قوله: وليس أحد الخ،

من كلام البخاري ذيل به تفسير ابن عباس، وهو يحتمل أن بقية كلام ابن عباس، في تفسير الآية.[فتح الباري:402/13].

قلت: ولكن ما قدمه في ترجمة (لا تسألوا أهل الكتاب، الخ) ينافي، مع احتمال أن ذلك من كمال تفسير ابن عباس، وهي الرواية الصحيحة عن ابن عباس، كما قاله ابن حزم، ولفظه - أي البخاري - فيها:

"حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم، أخبرنا ابن شهاب، عبيد الله بن عبد الله، أن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أحدث، تقرأونه محضا لم يشب؛ وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا هو من عند الله، ليشتروا به ثمنا قليلا. ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم؟! لا والله. ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذي أنزل عليكم.هـ[صحيح البخاري:221/4].

وهذا واضح بين، يزيل كل احتمال، ولا يقال في ذلك ما يقال.

ثم أطال الحافظ ابن حجر في تكميل من سبق عنه، في مسألة التبديل والتغيير من أهل الكتاب في الكتابين، فقال عن بعض الشراح المتأخرين: اختلف في هذه المسألة على أقوال:

أحدها: أنها بدلت كلها، وهو مقتضى القول بجواز الامتهان، وهو إفراط. وينبغي حمل إطلاق من أطلقه على الأكثر، وإلا فهي مكابرة. والآيات والأخبار كثيرة، في أنه بقي منها أشياء كثيرة لم تبدل؛ من ذلك قوله تعالى: (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل) الآية. ثم ذكر غيرها من الآيات.

الثاني: أنه وقع، ولكن في معظمها، وأدلته كثيرة.

ثالثها: أنه وقع في اليسير منها، ومعظمها باق على حاله، ونصره ابن تيمية .

رابعها: أنه وقع التبديل والتغيير في المعاني، لا في الألفاظ، وهو المذكور هنا. قال الحافظ: وقد سئل ابن تيمية عن هذه المسألة مجردا، فأجاب بأن العلماء على قولين. وانتصر للقول بأن التبديل وقع في المعنى، أي وهو القول الذي اعتمده البخاري، كما سبق.

ولكن الحافظ، لما ذكر الأوجه التي احتج بها ابن تيمية للقول الذي انتصر له، رد تلك الأوجه، ثم قال:

وتحريفهم المعاني لا ينكر، بل هو موجود عندهم بكثرة. وإنما النزاع هل حرفت الألفاظ أولا؟ وقد وجد في الكتابين ما لا يجوز أن يكون بهذه الألفاظ من عند الله، عز وجل، أصلا. قال: وقد سرد أبو محمد ابن حزم، في كتابه "الفصل، في الملل والنحل"، أشياء كثيرة من هذا الجنس.[هـ باختصار].[فتح الباري (:402/13].

ثم نقل عنه الحافظ ابن حجر تلك الأمور التي يتحاشى مقام التوراة، المنزلة الحقيقية من عند الله، من [ذكر] الفواحش وأنواع الزنى والأمور المنكرة المشينة، التي يستحي مطلق العامة، فضلا عن الخاصة، من ذكرها. وقد ذكرنا بعضها فيما سبق عنه.

[عود إلى ردّ ابن حزم على من ينكر التحريف]

ثم تعرض أبو محمد، حسبما ذكر ذلك الحافظ عنه، للرد على المسلمين الذين ينكرون هذا التحريف الذي أثبته أبو محمد بالدليل الواضح. قال الحافظ، عن أبي محمد: وبلغنا عن قوم من المسلمين ينكرون أن التوراة والإنجيل، اللتين بأيدي اليهود والنصارى، محرفتان. والحامل لهم على ذلك، قلة مبالاتهم بنصوص القرآن والسنة، وقد اشتملا على أنهم يحرفون الكلام عن مواضعه، ويقولون على الله الكذب، وهم يعلمون، ويقولون هو من عند الله. وما هو من عند الله، ويلبسون الحق بالباطل، ويكتمون الحق وهم يعلمون. ويقال لهؤلاء المنكرين: قد قال الله في صفة الصحابة: (ذلك مثلُهُم في التوراةِ ومَثلُهُم في الإنجيل كزرْع أخرجَ شطأه) إلخ السورة. وليس بأيدي اليهود والنصارى شيء من هذا. ويقال لمن ادعى أن نقلهم نقل متواتر: قد اتفقوا على أن لا ذكر لمحمد، صلى الله عليه وسلم، ولا لأصحابه؛ وإلا فلا يجوز تصديق بعض، وتكذيب بعض، مع مجيئها مجيئا واحدا.هـ كلام أبي محمد. ثم قال الحافظ: وفيه فوائد.هـ[فتح الباري:403/13].

وقد جئت بهذه النبذة من كلامه الطويل، الذي نقلنا منه كثيرا سابقا ، إزالة لما كان يجول بالخاطر،[من]أن ابن حزم انفرد بهذا القول بالتبديل مطلقا، وإن كان شاذا عند غيره، مع ما تبين من أن الحق معه بالبرهان والدليل، من النقل من كتبهم التي التحريف والتبديل فيها واضحان، كما سبق، لانحا[ن] كالشمس في الظهيرة. وإن من قال إن التبديل لم يكن في الألفاظ، إنما وقع في المعاني، كالإمام البخاري، حسبما فهمه من كلام ابن عباس؛ فقد نقل الحافظ ابن حجر عن الشيخ البدر الزركشي،[جوابا عن ذلك]، إذ قال:

"اغتر بعض المتأخرين بهذا، يعني بما قاله البخاري، فقال إن في تحريف التوراة خلافا، هل هو في اللفظ والمعنى، أو في المعنى فقط. ومال إلى الثاني، ورأى مطالعتها؛ وهو قول باطل. ولا خلاف أنهم حرفوا وبدلوا. والاشتغال بنظرها وكتابتها، لا يجوز بالإجماع، وقد غضب، صلى الله عليه وسلم، حين رأى مع عمر صحيفة فيها شيء من التوراة، وقال: " لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي". ولولا أنه معصية ما غضب منه".هـ[فتح الباري: 403/13][*].

---

[*] [تقدم هذا النقل عند الكلام على هذا المسألة في الجزء105/6 من هذه الفهرسة].

قال الحافظ: قلت: إن ثبت الإجماع، فلا كلام فيه. وقد قيده بالاشتغال بكتابتها ونظرها. ثم عقب ببحث في الجواز.

ثم تعرض للحديث الذي استدل به البدر الزركشي، وذكر من خرجه، وتعدد طرقه، وبعض اختلاف في اللفظ. ثم انفصل على أن تلك الطرق كلها غير سالمة أسانيدها، وأنه أخرجه أحمد والبزار والطبراني، وأبو يعلى الموصلي. ثم قال: وهذه جميع طرق هذا الحديث، وهي وإن لم يكن فيها ما يحتج به، لكن مجموعها يقتضي أن لها أصلا.

[التفصيل فيمن يجوز له النظر في التوراة والإنجيل، يشمل كذلك كتب أهل الضلال وغلاة الصوفية]

ثم قال الحافظ: والأولى في هذه المسألة، التفريق بين من لم يتمكن، ويعد في الراسخين في الإيمان؛ فلا يجوز له النظر في شيء من ذلك، بخلاف الراسخ؛ فيجوز له، ولا سيما عند الاحتياج إلى الرد على المخالف. ويدل على ذلك نقل الأئمة، قديما وحديثا، من التوراة، وإلزامهم لليهود بالتصديق بمحمد، صلى الله عليه وسلم، بما يستخرجونه من كتابهم. لولا اعتقادهم جواز النظر فيه، لما فعلوه وتواردُوا عليه. هـ[الفتح:404/13].

قلت: وما قاله، لا تردد فيه. وهذا التفصيل ليس خاصا بالتوراة والإنجيل المبدلين المحرفين، بل هو عام في كل كتاب من كتب الفلاسفة، أو أهل الملل الضالة، من الخوارج والمعتزلة والشيعة، بل وفي الكتب التي ألفها أهل السنة، أو أهل التصوف؛ من الإيرادات المخرجة عن العقيدة، أو الغلوّ في الدعاوى المضلة، وأمثال ذلك.

فقد تتبع العلماء من أقوال أهل الضلال والكفر، من الفلاسفة وغيرهم، في مؤلفاتهم وقرأوا احتجاجهم، وقاموا بردها وإبطالها. و"تفسير" إمام المتكلمين، الفخر الرازي، يعرفك بذلك. وكان لزاما أن[لا] يطالعها ويستفيد منها، إلا العالم النبيل، والمطلع الحفيل. وأما القاصر، فلا حظ له في ذلك، لا الكثير ولا القليل.

[توفر ابن حزم على الوسائل العلمية، والمقام العالي في الدولة، ساعده على التحقق من وقوع التبديل والتحريف]

وهنا، لو لم يطلع الحافظ ابن حزم على هذه التوراة المبدلة، والإنجيل المحرف، وغيرهما من كتبهم التي وقف على أباطيلها وترهاتها، لما بالغ في استيعاب

أقوالهم، والإحاطة بإسفافهم، وتمكن من نقضها وإضحادها، حتى إن الظن عندي أنه كان يتقن لغاتهم، أو على الأقل، كان لـه الاطلاع التام على كتبهم، ومعرفة أبوابها وفصولها.

وذلك لأن ابن حزم، كان هو وأبوه، من وزراء الدولة الأخيرة من بني أمية، إذ كانا وزيرين للمنصور بن أبي عامر، وابنه المظفر.

والمنصور، وإن لم يكن من بني أمية نسبا، لكن ورثها بثقله وجدارته، وقيامه فيها أحسن قيام، بجده واجتهاده في إحياء مآثر الدولة والجهاد، وفتح البلاد المتصل، كما هو معلوم.

وللدولة الأموية في العلوم والمعارف بالأندلس، آثار وآيات بينة، لا تخفى على من طالع تاريخ الأندلس؛ فقد ذكر صاحب "نفح الطيب"، عن بعض المؤرخين، أن الحكَم بن المستنصر، جمع من الكتب ما لا يعدّ ولا يوصف كثرة ونفاسة، حتى قيل: إنها كانت أربعمائة ألف مجلد، وأنهم لما نقلوها، أقاموا ستة أشهر في نقلها. قلت: وهذا شيء مشهور.

وكانت دولة الحكَم المستنصر في القرن الرابع الهجري، إذ توفي بقصر قرطبة سنة ست وستين وثلاثمائة.

ولا شك أن الحافظ ابن حزم، استمد كثيرا من هذه الخزانة العظيمة، ونال منها الحظ الأوفر، ولا سيما وقد كان هو وأبوه في الدولة العامرية الملحقة بالأموية الأصلية، لأن ابن أبي عامر، لم يكن من العائلة المالكة، وإنما كان أولا قاضيا للحكَم، ثم رفعه إلى خطة الوزارة.

ولما توفي الحكَم سنة 366، كما قدمنا، وولي بعده ولده هشام، وهو صغير السن، إذ كان له تسع سنين. وكان الحكَم فوض إليه - أي إلى ابن أبي عامر - أمور الدولة. وكان الأمر أفضى إلى هذا الصبي؛ فسمَتْ همة ابن أبي عامر إلى التغلب على هشام الصغير السن، وقام في دفع كل طامع في الخلافة، ومتشوف إلى ارتقاء تلك المنابر، وقطع من كل منازع ومنافر كلّ دابر؛ فصفا له الجو من كل مستحق للخلافة وثائر. فاستبد بالخلافة، واتسق له الأمر، ودان له بالخلافة الكل، من زيد وعمرو.

وفي الحقيقة، قام بها أتم قيام، ومهد الأمور ورتبها على أحسن نظام، وأقام للجهاد رسمه، وساعده الجَدّ حتى أصبح النصر لا يفارق وسمه.

فكان من وزرائه ابن حزم ووالده؛ ولكن ابن حزم، آثر ولاية العلم، على رئاسة الأمة.

وكل هذا، توطئة ومقدمة، للتعريف بأن أبا محمد، كان له الحظ الأكبر في اقتناء العلوم والمعارف، واقتناء ثمراتها، والتبريز في ميادينها، حتى ملك منها التليد والطارف، لأنه، كما علمت، إن خزانة الحكَم في الأندلس كانت تباري خزانة المأمون في بغداد. وهو، وإن لم يكن له التمكن التام منها أيام الحكَم؛ فلا بدّ أن يكون [استمد

من] هذه الخزانة الكبرى، والمكتبة العظمى، التي جمعت نفائس المؤلفات من كل العلوم. ويعرفك أن ابن حزم نال منها الحظ الأوفر، أو طالع واستفاد على الأقل من القسم الأكبر، ويدل على ذلك، "رسالته" التي كتبها في تعداد المؤلفات النفسية، التي خلفها علماء الأندلس، ولم تكن إلا عند النادر من أهل الرئاسة، أو من خواص العلماء. ويدل دلالة قطعية أن له في خزانته منها مراجع واسعة من كتب الحديث وأحكام الصحابة وآثارهم، ومنها كان يستمد في مؤلفاته الكبيرة، كـ"المُحلَّى"، وغيرها. وهناك ذكر بعض الكتب العظيمة، المنوه بها، في "التفسير" والحديث والسير والتاريخ، وغير ذلك من كل العلوم.

[الكلام على رسالته التي أجرى فيها ذكر أعلام الأندلس، ومؤلفاتهم النفيسة]

ومن العجب أنه في هذه "الرسالة" النفيسة، التي أقبل العلماء على نشرها، قديما وحديثا، حتى وقعت بيد الحافظ ابن حجر، من المتأخرين، فكتب عليها بعض ملاحظاته، [لما] أجرى فيها ذكر أعلام الأندلس، ومؤلفاتهم النفيسة الرائعة، الكثيرة العدد؛ ذكر أنه لم يذكر فيها إلا المؤلفات التي احتوت على شروط التأليف السبعة، وترك ما سواها.

وأعجب من هذا أنه ذكر جملة كثيرة[من]كتب الفقه المالكي الشهيرة، وأثنى عليها الثناء الجميل، كما سيأتي، فقال، بعد أن قدم مقدمة للرد على هذا الناقد على علماء الأندلس، حيث لم يؤلفوا آثار بلادهم، ذاكرا لما اشتهر من مؤلفاتهم التي لها السبق في ميدان التأليف، فقال:

فمنها كتاب "الهداية"، لعيسى بن دينار، وهي أرفع كتب جمعت في معناها، على مذهب مالك وابن القاسم، وأجمعها للمعاني الفقهية، إلخ. قال:

ومن الكتب المالكية التي ألفت بالأندلس، كتاب أبي إسحاق، إبراهيم بن مزين، في تفسير "الموطإ"، والكتب المستقصية لمعاني "الموطإ"، وتوصيل مقطوعاته، من تأليف ابن مزين أيضا، وكتاب في رجال "الموطإ"، وما لمالك عن كل واحد منهم من الآثار في "موطئه". وفي تفسير القرآن: كتاب أبي عبد الرحمان، بقي بن مخلد؛ فهو الكتاب الذي أقطع قطعا، لا أستثني فيه، أنه لم يؤلف في الإسلام تفسير مثله؛ ولا " تفسير" محمد بن جرير الطبري، ولا غيره. ومنها، في الحديث، "مصنفه" الكبير الذي رتبه على أسماء الصحابة، رضي الله عنهم، فروى فيه عن ألف وثلاثمائة صاحب ونيف، ثم رتب حديث كل صاحب على أسماء الفقه وأبواب الأحكام؛ فهو مصنف ومسند، وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله، مع ثقته وضبطه وإتقانه، واحتفاله في الحديث، وجودة شيوخه؛ فإنه روى عن مائتي رجل، و84 رجلا، ليس فيهم عشرة ضعفاء، وسائرهم أعلام مشاهير. ومنها "مصنفه" في

فضل الصحابة والتابعين ومن دونهم، أربى فيه على مصنف أبي بكر ابن أبي شيبة، ومصنف عبد الرزاق بن همام، ومصنف سعيد بن منصور، وغيرها، واقتطم علما عظيما، لم يقع في شيء من هذه، فصارت تآليف هذا الإمام الفاضل، قواعد الإسلام؛ لا نظير لها. وكان متخيراً، لا يقلد أحدا. وكان ذا خاصة من أحمد بن حنبل، رضي الله تعالى عنه، .هـ[بنقل نفح الطيب:130/2].

قلت: وفي مؤلفات بقي بن مخلد هذا، التي سردها هذا الإمام، وذكر ما فيها من العلوم التي هي عماد الإسلام وأركانه، من التفسير والحديث والآثار التي جمعت ما في المسانيد والمصنفات وكتب التراجم، من الصحابة والتابعين وغيرهم، مع التحقيق في الأسانيد، وتحري الصحيح، وطرح الضعيف؛ مما صحّ أن يقال بأنها دائرة المعارف والعلوم الإسلامية، في هذا العصر، لو وجدت؛ ولكنها من الكنوز المدفونة، والدرر المكنونة.

وفيما يظهر من كلام الحافظ ابن حزم، أنه كان هو البحر الزاخر الذي منه استقى، واستخرج منه الذخائر التي أودعها في تلك الكتب التي ألفها، "كالمُحلى"، و"الإيصال"، وغير ذلك.

وأثر الأخذ من مؤلفات بقيّ، رحمه الله، من الأمر الظاهر، والله أعلم. وذلك لأن ابن حزم، لم يكن في ذكر هذه المؤلفات، التي تعد من مفاخر القطر الأندلسي، يعدها عدا، ويجريها سردا. ولكنه كان يتتبعها تتبع مختبر، وقراءة مستفيد، كما أفاده أخيرا بقوله: وأنا ذكرت التآليف المستحقة للذكر، وهي التي تدخل تحت الأقسام السبعة التي لا يؤلف عاقل عالم إلا في أحدها. ثم سرد تلك الأقسام، وهي معلومة. وهذا بعد أن سطر من المؤلفات المهمة في مختلف العلوم. قال:

وأما التآليف المقصرة عن مراتب غيرها، فلم نلتفت إلى ذكرها. وهي عندنا من تآليف أهل بلدنا، أكثر من أن نحيط بعلمها. ثم قال، بعد أن ذكر ما ألف في العلوم الشرعية، وأتى بمؤلفات كثيرة في علم التاريخ والطب والفلسفة، وأثنى عليها، قال:

وأما العدد والهندسة، فلم يقسم لنا في هذا العلم نفاذ، ولا تحققنا به. فلسنا نثق بأنفسنا في تمييز المحسن من المقصر من المؤلفين فيه من أهل بلدنا.هـ[نفح الطيب:134/2].

[مواصلة الكلام على ابن حزم
وما وصفه به عصريّه، صاحب كتاب جذوة المقتبس]

قلت: وبهذا تعلم أن الحافظ ابن حزم كانت له في هذه العلوم المسطرة في تلك الكتب، المؤلفات في سائر فنون العلوم الشرعية، وفيها ما استوعب الأسفار التي يفوق عددها المائة؛ وناهيك بمؤلفات بقي بن مخلد.

وعليه؛ فاحكم أيها الناظر فيما كتبه من هذه "الرسالة"، أن أبا محمد هو الرجل علما واطلاعا وتحريا للصحيح فيها، وقضاء الزمان الطويل في مراجعتها والإحاطة بتحريرها وتحقيقها.

[وخاصة]إذا سمعت عصريه، وصديقة الحميدي، مؤلف كتاب "جذوة المقتبس، في ذكر ولاة الأندلس"، وصفه بقوله:

"إنه كان حافظا، عالما بعلوم الحديث وفقهه، مستنبطا للأحكام من الكتاب والسنة، متفننا في علوم جمة، عاملا بعلمه، زاهدا في الدنيا بعد الرياسة التي كانت له ولأبيه من قبله، من الوزارة وتدبير الممالك، متواضعا ذا فضائل جمّة، وتواليف كثيرة في كل ما تحقق به من العلوم، وجمعٍ من الكتب في علم الحديث والمصنفات والمسندات شيئا كثيرا. وسمع سماعا جمًّا؛ وأول سماعه من أبي عمر، أحمد بن محمد بن الجسُور، قبل الأربعمائة وألف. وألف في فقه الحديث كتابا كبيرا سماه كتاب: (الإيصال، إلى فهم كتاب الخصال، الجامعة لجمل شرائع الإسلام)"إلخ.[الجذوة:290].

ثم أخذ يذكر جملة كثيرة من مؤلفاته. قال صاحب "الجذوة"، بعد ذلك: وما رأينا مثله فيما اجتمع له، مع الذكاء وسرعة الحفظ، وكرم النفس والتديّن. ثم ذكر أنه مات بعد الخمسين وأربعمائة. قال:

وكان له في الآداب والشعر نفس واسع، وباع طويل. وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه. وشعره كثير، وقد جمعناه على حروف المعجم، ومنه:

هل الدهر إلا ما عرفنا وأدركنا   فجائعه تبقى، ولذاته تفنَى
إذا أمكنت فيه مسرّة ساعة   تولت كمرّ الطرف، واستخلفت حزنا
إلى تبعات في المعاد وموقف   نودّ لديه أننا لم نكن كنّا

إلى أن أتمها في ست أبيات. ثم قال يفخر على قاضي الجماعة بقرطبة:

أنا الشمس في جو العلوم منيرة   ولكن عيبي أن مطلِعي غربُ
ولو أنني من جانب الشرق طالعٌ   لجدّ على ما ضاع من ذكريَ النهبُ
ولي نحو أكناف العراق صبابة   ولا غرو أن يستوحش الكلِفُ الصبّ
فإن يُنزل الرحمان رحليَ بينهم   فحينئذ يبدُو التأسفُ والكربُ
فكم قائلٍ أغفلتُه، وهو حاضرٌ   وأطلبُ ما عنه تجيءُ به الكُتبُ
هنالك يُدرى أن للعبد قصّة   وأن كساد العلم آفته القُربُ

ثم صار يسرد أبياتا أخرى لنفسه.

قلت: وفي عد مؤلفاته، ذكر كتابا خاصا في موضوعنا، وهو كتاب اسمه: "إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل، وبيان تناقض ما بأيديهم من ذلك مما يحتمل التأويل". قال: وهذا مما سَبق إليه.هـ[الجذوة:291].

وبالجملة؛ فقد أطبق كل من أهل العلم الذين ترجموه، واطلعوا على العلوم التي يتحلى بها هذا الرجل؛ على أنه الوحيد في بابه، المنفرد في حفظه، وسبقه في كل ما ألف من العلم لأربابه. ولكن لا تخلو الحسناء عن ذم، ولا يسلم من نقص من إذا قيل إنه تم. والكمال إنما هو لله الواحد الأحد الأعلم الأعظم.

وأعظم نقص اعتراه، وأكبر داء أعلّه وأنزله من شامخ عزّه، وشهرة علمه؛ ما أظهره من مخالفة الجمهور، وتعاظمه وظهور طغيان المال والجاه[عليه]، وعلمه المشهور[به]. فصار يخطئ أئمة من قادة الأمة الأربعة، وبالأخص مذهب مالك بن أنس، فكان ذلك مما ألب عليه العلماء. وبالغوا في الطعن فيه، وأبدوا للعموم زلاته، حتى غيروا عليه قلوب الأمراء، وآل أمره إلى النفي والإقصاء، من بلده إلى البيداء؛ فمات طريدا عن الوطن والأهل. وإن كان ذلك الطعن لا يخلو عن شائبة الحسد، الذي هو أقبح داء يسري في أهل العلم في فساد كل جسد. وقانا الله شرّه، وحفظنا من سريان سمه، وكفانا ضرّه.

* * *

[ما وقع لابن حزم
في مسألة تأثير القدرة في المحال]

ومن أعظم الأدواء التي أصيب منها هذا العالم المبرز، هو مخالفته إجماع الأمة في مسائل، ونقصانه في علم العقائد، فسقط فيه على أم رأسه، وكان في ذلك يومه أقبح من أمسه؛ كمسألة جواز اتخاذ الولد -في جانب الرب، المنزه عن صفات المحدثات، إذ هو الله أحد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد. وجاء بأمر عظيم، تكاد السماوات يتفطرنَ منه، وتنشق الأرض وتخر الجبال؛ فقال في كتاب "الفِصَل"، بعد تقرير أن القدرة تؤثر في المحال، ما لفظه:

"وكذلك من سأل: هل الله تعالى، قادر على أن يتخذ ولدا، فالجواب: إنه تعالى قادر على ذلك. وقد نصّ، عز وجل، على ذلك في القرآن. قال الله تعالى: (لو أرادَ اللهُ أنْ يَتَّخِذَ ولدًا لاصْطفَى مِمَّا يَخلقُ مَا يَشاءُ)، وكذلك قال تعالى: (لو أرَدْنا أنْ نتَّخِذَ لهْوًا لاتَّخَذْنَاهُ مِن لدُنَّا إنْ كُنَّا فاعِلِينَ). قال أبو محمد: ومن لم يطلق أن الله، عز وجل، يقدر على ذلك، وحسن قوله بأن قال: لا يوصف الله بالقدرة على ذلك، فقد قطع بأن الله، عز وجل، لا يقدر، إذ لا واسطة فيمن يوصف بالقدرة على شيء؛ ما ثمَ وصف في شيء آخر بأنه لا يقدر عليه، فقد خرج من أنه لا يقدر عليه. وإذا وجب أن لا يقدر، فقد ثبت أنه عاجز ضرورة عما لا يقدر عليه ولا بدّ، ومن وصف الله تعالى بالعجز؛ فقد كفر".[الفصل: 138/2].

ثم صار يصف أن قدرة الله تعالى، تؤثر في المحال.
قلت: وقد كنت كتبتُ بهامش نسخة "الملل" هذه، إثر هذه المقالة: قد ردّ الناس هذه المقالة السيئة على ابن حزم، وشنعوا عليه فيها، إذ القدرة لا تتعلق بالمحال. انظر"صغرى" السنوسي.هـ.
كما وجدت بهامش هذه النسخة، التي طبعت بمصر،[عام1347هـ]، باسم عبد الرحمان خليفة، إثر هذه المقالة، ما لفظه:
" قوله قادر على ذلك، إلخ، كيف هذا، مع أنه من المحال المطلق، الذي يوجب على الله تغييرا، لأن وجود ولد له، يؤدي إلى الحدوث. وهو قد قرر أن ما أوجب ذلك، لا يستحق جوابا، لأنه سؤال يفسد بعضه بعضا. وما استدل به من الآيات، لا يقتضي ذلك، لأنها شرطيات. ومن المقرر أن الشرطية لا تقتضي الوقوع ولا الإمكان. فتأمل ذلك جدا في هذا المقام؛ فإنه خالف فيه جماهيرالأمة".هـ[الفِصَل:138/2].
وهو كلام صحيح من هذا القائل.
ومبدأ كلامه ـ أي ابن حزم ـ في هذا أنه قال:
" وهذا مثل من سأل أيقدر الله تعالى على نفسه، أو على أن يجهل، أو على أن يعجز، أو على أن يحدث مثله، أو على إحداث ما لا أول له؟ فهذه سؤالات تفسد بعضها بعضا، تشبه كلام الممرورين والمجانين، وكلام من لا يفهم . وهذا النوع، لم يزل الله يعلمه محالا ممتنعا باطلا، قبل حدوث العقل، وبعد حدوثه، أبدا".هـ[الفِصَل: 138/2].
وبالجملة؛ فهذا القول صدر من أبي محمد، رحمه الله، من غير تأمل لما يئول إليه، ولا استحضر القواعد المقررة في علم التوحيد؛ فيعد منه هفوة من الهفوات. ولعلّ السبب في ذلك، عدم نبوغه في علم الكلام، وهو علم العقائد، على ما أجمع عليه أهل السنة، من الأشاعرة والماتريدية، كما اعترف هو بذلك عند عده المؤلفات التي ذكرها في "رسالته"، التي افتخر [فيها] بعلوم أهل الأندلس، وما لهم فيها من المؤلفات النفيسة في الحديث والفقه، وغير ذلك من الفنون، فقال:
" وأما علم الكلام، فإن بلادنا، وإن كانت لم تتجاذب فيها الخصوم، ولا اختلفت فيها النحل، فقلّ لذلك تصرفهم في هذا الباب؛ فهي على كل حال، غير عرية عنه".هـ[نفح الطيب: 134/2].
فتأمّل هذا؛ فإنه لم يخض في هذا الفن. قلت: ولهذا القصور، وقع له من القدح في إمام هذا الفن، وهو الإمام المجمع على تحقيقه في علم العقائد، وهو إمام أئمة الأشاعرة من أهل السنة(*)، كما هو إجماع أهل المغرب، ومن يُعتد بقوله من غيرهم.
قلت: وهذا الذي أسفر لي من كلامه، في مسألة تعلق القدرة بالمحال، وخرج منها إلى تجويز اتخاذ الباري الولد، جل جلاله وتعالى عما يقوله المجازفون، كابن حزم وأمثاله.

(*) لم يذكر المؤلف اسمه.

ثم وقفتُ على كلام التاج ابن السبكي، في ترجمة الشهرستاني، صاحب كتاب "الملل"؛ فإنه قال في ترجمة الشهرستاني، أبي الفتح، المعروف بالشهرستاني، صاحب كتاب "الملل والنحل"، ما لفظه:

"وهو عندي خير كتاب صنف في هذا الباب. ومصنف ابن حزم، وإن كان أبسط منه، إلا أنه مُبدّد ليس له نظام. ثم فيه من الحط على أئمة السنة، ونسبة الأشاعرة إلى ما هم بريئون منه، ما يكثر تعداده. ثم إن ابن حزم نفسه، لا يدري علم الكلام حق الدراية على طريق أهله". هـ[الطبقات:78/4].

قلت: ففرحت لما ألفيت نص هذا الإمام، إمام أهل الأصول، والمذهب الذي كل نبيه به يصول، لأني كتبت ما كتبت، وأنا على خيفة بأن أكون انفردت بنسبة ابن حزم إلى القصور في هذا الفن، وهو الإمام المتفق على تبحره في المعارف والعلوم، وأن له اليد الطولى في المنثور منها والمنظوم. ولكن، لكل جواد كبوة، ولكل مجد عثرة، ولكل مبرز وقفة؛ والإنسان مصدر الخطإ والنسيان.

وحيث إن الحافظ ابن حزم، أطلق العنان في الوقوف بنفسه في هذا الميدان، كان ذلك سبب كبوته، وإسراع العامة والخاصة من أهل الأندلس، إلى تتبع خطئه، وسعيهم مع الملوك في نكبته. وإلى هذه النكبة التي جناها بنفسه على نفسه، من خروجه عن الأدب الذي تقتضيه أخلاق العلماء، وتدعو إليه سكينة آداب الشريعة السمحاء، والتخلق بتلك السنن التي أمر الله نبيه بها في الكتاب العزيز، إذ قال: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ).[كذا].

ولكنه خالف هذه الطريقة، وسل سيف نضاله على كل من خالفه من أعلام المجتهدين، والأئمة العلماء، في كل منهج وطريقة. فتصدى الكل حينئذ لنضاله، وعطلوا ما أعلاه، من تلك الحلى التي زين بها "مُحلاّه"، ونقضوا ما نظمه من خصاله.

وفي هذا يقول العلامة ابن خلكان، بعد أن نقل ما قيل في ترجمته، من التحلية بأجمل الحلى، ووصفه بأوصافه الجميلة العالية، حتى صار فيها ابن جلا. وسطر أسماء مؤلفاته التي بلغ فيها إلى المقعد الأعلى، وأصبح في ميدانه السابق المجلّى، قال ما لفظه:

" وكانت بينه وبين أبي الوليد، سليمان الباجي، مناظرات وما جريات، يطول شرحها. وكان كثير الوقوع في العلماء المتقدمين، لا يكاد يسلم أحد من لسانه. فنفرت عنه القلوب، واستُهدف لفقهاء وقته؛ فتمالأوا على بغضه، وردّوا قوله، وأجمعوا على تضليله، وشنعوا عليه، وحذروا سلاطينهم من فتنته، ونهوا عوامهم عن الدنوّ إليه والأخذ عنه؛ فأقصته الملوك، وشردته عن بلاده، حتى انتهى إلى بادية لبلة". هـ، أي فتوفي بتلك البادية، كما سبق.[340/1].

وهذه عاقبة الإعجاب، وإظهار الانفراد بالرأي، والفظاظة في المحاجة، والكبرياء في المناظرة. ومن العجب أنه العالم الكبير، المطلع على ما أرشد إليه الكتاب العزيز،

وتحلى به سيد المرسلين، من اللطف واللين، ولم يقرأ قوله تعالى: (فبمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لانْفَضّوا مِن حَوْلِكَ). والتوفيق والهداية، غير البراعة في العلوم في البداية والنهاية. اللهم وفقنا لما تحب وترضى.

* * *

[الرجوع للكلام على قضية تبديل التوراة والإنجيل]

ومع[هذا]، فإن شأن ابن حزم في علمه وحفظه واطلاعه، ومعرفته بالملل والنحل، الاطلاع على الأخفى من ضلالهم، حتى مجادلتهم بما أوقفهم بذلك عن مقابلته، ونزولهم عن معارضته. وناهيك ما أفاضه من الحجج على تبديل اليهود والنصارى التوراة والإنجيل، كما رأيته، فيما سبق، مشروحا مبسوطا. وزياده على هذا، فإنه أفرد المسألة بالتأليف، الذي شهد أهل عصره بأنه السابق في التأليف في هذا الموضوع، كما تقدم عن صاحب كتاب "الجذوة".

وبذلك تعلم أن القول بتبديل هذين الكتابين، اللذين هما اليوم بأيدي اليهود والنصارى، هما مبدلان، وليسا هما الكتابين المنزلين على الرسولين، عليهما الصلاة والسلام، كما علمت فيما سبق من الآيات والآثار الشاهدة لذلك.

وقد أكّد ذلك أبو محمد ابن حزم، بما شاهده في هذين الكتابين اللذين بأيديهم، وتتبع ما فيهما، ما هو مستحيل في حق الرسولين. ثم قال في خاتمة هذا المقال، المؤيد بصحيح الاستدلال، وبيان المقالات، قال:

"وبالله ما بخسهم ربّهم حظهم، وما حظهم إلا الخزي في الدنيا، والخلود في النار في الآخرة؛ وهو تعالى موفيهم نصيبهم غير منقوص. واحمدوا الله على عظيم منّته علينا بالإسلام، الملة الزهراء التي صححتها العقول، وبالكتاب المنزل من عنده تعالى بالنور المبين، والحقائق الباهرة. نسأل الله تثبيتنا على ما منحنا من ذلك، بمنه، إلى أن نلقاه مؤمنين غير مغضوب علينا ولا ضالين. قال أبو محمد، رضي الله عنه: هنا انتهى ما أخرجناه من توراة اليهود وكتبهم من الكذب الظاهر، والمناقضات اللائحة التي لا يشك معها في أنها كتب مبدلة محرفة مكذوبة، وشريعة موضوعة مستعملة من أكابرهم، ولم يبق بأيديهم[من] هذا شيء أصلا، ولا بقي في فساد دينهم شيء شبهه بوجه من الوجوه". ثم قال:

"وإياكم أن يجوز عليكم تمويه من يعارضكم بخرافة أو كذبة؛ فإننا لا نصدق في ديننا أصلا إلا ما جاء في القرآن، أو ما صح بإسناد الثقاة، ثقة عن ثقة، حتى يبلغ إلى الرسول، صلى الله عليه وسلم، فقط. وما عدا هذا، فنحن نشهد أنه باطل".

ثم صار يتكلم على الإنجيل، فقال:

"وأما الإنجيل وكتب النصارى، فنحن، إن شاء الله، موردون من الكذب المنصوص في أناجيلهم، ومن التناقض الذي فيها، أمرا لا يشك كل من رآه في أنهم لا عقول لهم، وأنهم مخذولون جملة. وأما فساد دينهم، فلا إشكال فيه على من له

مسكة عقل. ولسنا نحتاج إلى تكلف برهان في أن الأناجيل، وسائر كتب النصارى، ليست من عند الله، عز وجل، ولا من عند المسيح، عليه السلام؛ كما احتجنا إلى ذلك في التوراة والكتب المنسوبة إلى الأنبياء، عليهم السلام، التي عند اليهود، لأن جمهور اليهود، يزعمون أن التوراة التي بأيديهم منزلة من عند الله عز وجل، على موسى، عليه السلام؛ فاحتجنا إلى إقامة البرهان على بطلان دعواهم في ذلك. وأما النصارى، فقد كفونا هذه المئونة كلها لأنهم لا يدعون أن الأناجيل منزلة من عند الله على المسيح، ولا أن المسيح أتاهم بها، بل كلهم، أولهم عن آخرهم: أريوسيهم وملكيهم، ونسطوريهم ويعقوبيهم، وما رونيهم وبلقانيهم، لا يختلفون في أنها أربع تواريخ، ألفها أربعة رجال معروفون في أزمان مختلفة، فأولها تاريخ ألفه متى الأواني، تلميذ المسيح، بعد تسع سنين من رفعه، عليه السلام، وكتبه بالعبرانية في بلد يهوذا بالشام". [الفصل:2/2].

ثم صار أبو محمد يذكر باقي الأناجيل، التي هي تواريخ منسوبة لمن جمعها. وهذا شيء في الجملة مسلم عند المتقدمين منهم والمتأخرين. وقد ذكر جملته من أهل العصر، وجدي في "دائرته"، عن "الدائرة" الفرنسية.

وزاد في ذلك إنجيلا، فيه ذكر النبي، صلى الله عليه وسلم، وما أخبر به من رفع المسيح، وهو إنجيل بارنابا، وقد كان النصارى أنكروه وأخفوه.

ولما ظهرت نسخته في قريب من هذا العصر، فرح المعتنون بهذا الشأن من رؤساء وزعماء المسلمين من أهل مصر، كالشيخ عبده، وتلميذه الشيخ رضا وغيرهم، وأذاعوه، ونوّهُوا بذكره، وصحة ما يتلو عليهم القرآن، المنزل من عند الله حقا بلا تردد.

[مجمل ما في الأناجيل الأربعة من القصص، وصدق وصف ابن حزم لها]

قلت: وقد كتب على كلام ابن حزم هذا مُصححه، السيد عبد الرحمان خليفة - الطبعة التي نشرت بمصر سنة 1347- ما لفظه:

" المطلع على الأناجيل الأربعة، لمَتّى ومرقس، ولوقا ويوحنا، المترجمة حديثا عن اليونانية؛ يرى أنها تواريخ من تآليفهم، أخبروا فيها عما وقع للمسيح، عليه السلام، في أيام حياته، كميلاده والمعمودية، وتجربة إبليس له وتغلبه عليه، وخروجه من ناصرة الجليل، وتطوافه للتعليم والتبشير في المجالس والمجامع، وخروج تلاميذه وأتباعه وراءه، وامتيازه في تعاليمه بسلطان الخوارق القاهرة؛ كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، والمحموم والمفلوج، ومن به من الشياطين والأرواح النجسة، بإخراجها منه، وشفائه كل مرض، وكل ضعف في الشعب، وإشباعه بالطعام اليسير، العدد الكثير، وإرساله تلاميذه الإثني عشر إلى

مدن بني إسرائيل وبيوتهم خفية، ووصيته لهم بالهرب من المدينة إلى أخرى، إذا طردهم أهلها منها، ومجادلة اليهود له في السبت والطلاق، وزواج الأخ زوجة أخيه بعد وفاته وغير ذلك، وتشاورهم، هم ورؤساؤهم، عليه لكي يقتلوه، وتعرضه للشيوخ والكهنة والكتبة من بني إسرائيل، وقبضهم عليه بواسطة يهوذا الإسخريوطي، من تلاميذه، بعد أن رشوه، ليدلّ الشرطة عليه، فأعطاهم علامة إذا هو قبله أمسكوه، ثم قتله وصلبه، وقيامه بعد ثلاثة أيام من قبره".

"هذا مجمل ما في أناجيلهم الأربعة من القصص، واللفظ في بعضها يزيد عن بعض، والمعنى والسياق لا يختلف كثيرا. وهي كما ترى، قصص مؤلفة لبيان سيرة المسيح، عليه السلام، والحواريين وما عانوه في سبيل الدعاية لما جاء به المسيح. والناظر إلى فاتحة إنجيل لوقا، وخاتمة إنجيل يوحنا، يعلم صدق ما أخبر به الإمام أبو محمد، رضي الله عنه، هنا من أنها تواريخ مؤلفة".

ثم صار يستدل، هذا المصحح، على ذلك بنصوص أخرى من فواتح هذه الأناجيل.

[إغفال أئمة الإسلام لهذا الموضوع، الذي حرره ابن حزم]

وأنا أقول: جزى الله الحافظ ابن حزم على تحريره هذا الموضوع، الذي أغفله المتقدمون والمتأخرون من أئمة الإسلام؛ وذلك:

إما إعراضا عن هذا الموضوع، لعدم اعتبارهم له، لأنهم يرون أن ما في كتابنا العزيز كاف في الموضوع، وهو الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ فلا حاجة إلى النظر إلى ما سواه، كما صرح به ترجمان القرآن في الحديث الصحيح عنه، فيما سبق.

وإما لعدم اطلاعهم على إنجيلهم المبدل وتوراتهم المحرفة.

ثم لم يكن لهم، في العصور الماضية ولا الحاضرة، هذا الاطلاع وهذه المهارة التي كانت لأبي محمد، في هذه الأديان، للدواعي التي كان يقتضيها عصره، وتستدعيها المجاورة، ودواعي المعارضة والمجادلة، كما هو صريح كلامه في بعض مجادلته بعض قضاة النصارى وما يماثلهم، مما يفيد أنه كان له الاطلاع التام، والمعرفة الفائقة بكتب اليهود والنصارى، من التوراة والإنجيل وغير ذلك، مما كاد أن يفوقهم في ذلك إما بدراسته كتبهم المترجمة إلى العربية، أو بمعرفته بلغتهم كما تقدم؛ وذلك لا يبعد في ذلك العصر بقطر الأندلس الزاهي الزاهر، إذ كانت الخلافة الأموية، أولها وآخرها، وهو عصر الدولة العامرية التي كان الحافظ أبو محمد هو وأبوه من وزرائها، حتى كان حَكَمهم، كما سبق، ينافس دولة الخليفة العباسي،

المأمون بن الرشيد، في جلب الكتب من كل الآفاق، وترجمة ما ترجم مما جلبه من رومة وغيرها.

* * *

[مبالغة بعض أهل العصر في ذكر تقدم دولة العرب بالأندلس]

وقد بالغ بعض من أرّخ في شأن القطر الأندلسي، وذكر ما كان له من التقدم العلمي، حتى قال:

ترجم العرب بالأندلس كتب اليونان واللاتين، فكان لهم في ذلك حظ لا يقل كثيرا عن حظ خلفاء العباسيين في الشرق. ونجح العرب هنالك من وراء الغاية في دراسة الرياضيات والفلك والطبيعيات، والكيمياء والطب، وكانت لهم المخابر والمصانع. ولم يقل نجاحهم في الصناعة والتجارة عن دولة راقية من دول اليوم؛ فكانوا يبعثون بحاصلات المعادن، ومعامل السلاح، والحرير والجوخ، والجلد والسكر والورق إلى إفريقية وسائر المشرق، على أيدي تجار من اليهود والبربر.

وأهم ما لإسبانيا اليوم من أعمال الري، هُو من صنع العرب؛ فإنهم أدخلوا إلى سهول الأندلس الخصيبة، زراعات منوّعة، فأصبحت الأندلس جنة كبرى بفضل ثقافتهم العالية. وتناولت هممهم عامة فروع العلوم والصناعة والفنون. وكانت مشاريعهم العمومية على مثال مشاريع الرومان، بعظمتها وفضل غنائها.

وقد أنشأوا الطرق والجسور، والفنادق للسواح، والمستشفيات والجوامع والرباطات في كل صقع وناد. وكان الأمويون في الغرب، كالعباسيين في الشرق، يجددون عهد بركاليس، على ما قال رينالدي.

وكان الحكَم الثاني، أكثر ملوك الأندلس اشتغالا بالعلم ونشره وعناية به؛ فقد أسس في قرطبة وحدها 27 مدرسة، كان يتعلم فيها أبناء الفقراء.[الإسلام والحضارة العربية :247].

ثم انطلق في هذا الموضوع، إلى أن صار ينوه بابن الخطيب، الذي كان في العصور الأخيرة، والأندلس في حال تأخر، وأنه أقام من أعمال العمران، ما يحسده عليه أعظم طواغيت الزمان. ثم ذكر ما نوّه به بعض المتنورين من البرتغاليين، وذكر ما خلفه العرب في الأندلس من الآثار الهندسية التي لا زالت تفتخر بها الشعوب المتمدنة لعهدنا، وتعجب منها، إلخ.

قلت: وهناك أمور لها أصل في التواريخ الإسلامية، وأمور، إما وقع[فيها] خطأ في النقل، أو مبالغ فيها.

فمن ذلك، ما نقله في شأن إنشاء المدارس ونحوها، فلم يذكره أحد من مؤرخي الأندلس. بل الذي عند جهينة أخبارها، وصاحب دائرة معارف آثارها، واقتفاء فنون العلوم وأنواعها، واعتناء أهلها باقتناء بديعها وبدائعها،[المؤرخ ابن سعيد]؛ صرح

بعكس ما قاله هذا المؤرخ، من إنشاء المدارس في قرطبة للتعليم؛ إذ قال أثناء ذكر الوظائف والخطط في هذا القطر:

وأما حال أهل الأندلس في فنون العلوم، فتحقيق الإنصاف في شأنهم في هذا الباب، أنهم أحرص الناس على التميّز، فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد نفسه أن يتميز بصنعة. ثم قال: والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة، يشار إليه، ويحال عليه، وينبه قدره وذكره عند الناس. ثم قال:

" ومع هذا، فليس لأهل الأندلس مدارس تعينهم على طلب العلم، بل يقرأون جميع العلوم في المساجد بأجرة، فهم يقرأون لأن يعلموا، لا لأن يأخذوا جاريا إلخ.[نفح الطيب:102/1].

فهذا النصّ، من أهله المطلعين على أحوال القطر، وما فيه من وظائف، حسبما سبق. فالمؤرخ الذي نسب للحَكم أنه أنشأ مدارس لتعليم أبناء الفقراء، لم يذكر ذلك أحد من المؤرخين، المتقدمين والمتأخرين. وإنما ذكر مؤرخها الوحيد، المطلع على كل أحوالها، القديمة والحديثة، العلامة ابن سعيد، إذ خصها بباب فريد، وخص كل مبحث فيها بتقسيم بديع، كل مبحث جعل له أبوابا. وجعل طالعة بحثه وتقسيمه، مقر الخلافة، وحضرة قرطبة، والزهراء الزاهرة. ثم أفاض القول في كل واحدة من هذه الثلاثة، التي كانت سرير ملكهم، ومقام إدارة سلطتهم. ثم قسم القطر إلى كور، أي دائرة أو إقليم، وبسط القول في ذلك على كل كورة وإقليم، بسطا يستدعي استقلال ذلك بجزء كبير.

أما ما ذكرناه في الرد على المؤرخ الذي نسب للحكم [أنه] أنشأ بقرطبة 27مدرسة، وأن الأندلس لم تكن فيها مدارس ـ على نسق مدارس الشرق، التي لها رواتب عالية، يعيّن لرئاستها أكبر الأعلام ـ وأن العلوم كانت تدرس في المساجد؛ فيمكن أن يصحح كلام هذا المؤرخ [بأن] سنده في ذلك، سماعه من بعض المستعربين، أو من مؤلفاتهم، حيث إن من شاهد منهم المساجد الكثيرة بقرطبة، يهرع إليها الطلبة لتلقي الدروس عن أشياخ هناك، ورأوا ذلك في مساجد متعددة؛ فعدوها مدارس، لأن العادة في الغالب عند الأجانب، أو قل بالشرق، أن الدروس شأنها أن تقام بالمدارس الخاصة.

وما قاله هذا المؤرخ في شأن الدراسة بالأندلس، فهو الشأن الجاري في المغرب، وأن المدارس، وإن أحدثت بفاس، إنما هي لمقام الغرباء فقط. أما الدراسة، فهي في المساجد، وخصت بفاس بالقرويين، وبتونس بجامع الزيتونة.

ثم لنرجع إلى ما قلنا من مبالغة ذلك المؤرخ فيما كان لأهل الأندلس من الحضارة التي تضاهي حضارة العصر في بدائع الصنائع، والعلوم الرياضيات والفلك والطب ونحوه، مما كانوا يضاهون به أرقى دول العصر؛ فهو، من حيث الدقة، مبالغ فيه.

ولكن من اطلع على أحوالهم، ومجاري صناعتهم، وتفوق علمائهم في الفنون غير الشرعية؛ ألفاهم أخذوا في ذلك بالحظ الأوفر، كإجراء الماء من البعيد، في نظام

رائق وإبداع ربما يتعجب منه أهل العصر، كبناء القنطرة على النهر الأعظم بعاصمة قرطبة. قال في "النفح"، عن المؤرخ الرازي:

قرطبة هي أم المدائن. قال: ونهرها أعظم أنهار الأندلس، وبها القنطرة التي هي إحدى غرائب الأرض، في الصنعة والإحكام. والجامع الذي ليس في بلاد الأندلس والإسلام أكبر منه. ثم قال صاحب "النفح":

وقال بعضهم: هي أعظم مدينة بالأندلس، وليس بجميع المغرب لها عندي شبيه، في كثرة أهل، وسعة محلّ، وفسحة أسواق، ونظافة محالّ، وعمارة مساجد، وكثرة حمامات وفنادق.[214/1].

أما الجامع الذي تقدم ذكره، ولم يزل إلى عصرنا هذا تنتشر أخباره، ويباهي الآثار العتيدة الفخيمة فخره، ويتعجب من عظمته ودقة محاسنه، وتنظيم سواريه وأقواسه، علماء الفن ورؤساء الهندسة في عصرنا هذا،[سواء] من شاهده منهم بالعيان، أو من رأى صورته ورسمه؛ فإنه قد أسسه ـ كما في "النفح"، عن بعض المؤرخين ـ عبد الرحمان الداخل، فإنه لما تمهد ملكه، شرع في تعظيم قرطبة، فجدد مغانيها، وشيد مبانيها، وحصنها بالسور، وابتنى قصر الإمارة، والمسجد الجامع، ووسع فناءه.[255/1].

ثم صار الخلفاء بعده يزيدون في هذا المسجد ويبدعون فيه، ويشيدون بدائع سواريه وعمده، ويزينون محرابه وجدرانه وأبوابه، حتى زاد المنصور ابن أبي عامر تلك الزيادة الفائقة، والإبداعات الرائقة، التي تفوق كل زيادة، كما شرحه مشاهير المؤرخين، ونوهوا بهذه الزيادة،[وما] زينها به من قناديل الزيت ومصابيحه، وسواري الشموع الكثيرة لإضاءته، وخصوصا في ليلة القدر ونحوها، مما يطول ذكره، ويعظم شأنه وقدره.

وليست هذه الأوراق محل تفصيل تلك الآثار، التي أخنت عليها حوادث الثورات، وبددتها يد المنازعات والمحاربات، كما فعلت بمدينتها.

ولكن هذا الجامع، استثنته عواصف هذه الزعازع، وأبقته مثالا لاعتبار المغتبطين بمآثر السابقين من أهل ملتنا بإنشاء هذه البدائع.

وليعتبر المعتبر(بِعَادٍ، إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ، الَّتِي لَمْ يُخلَقْ مِثْلُها فِي البلادِ، وثَمُودَ الذِينَ جَابُوا الصَّخرَ بالوادِي)(*)؛ فصار الكل تحت التراب، كأن لم يكن في هذه البسيطة يباهي ويفتخر. وهكذا كل من في البسيطة، مهما ارتفع، إلا وسقط وانقطع، كما قال عليه السلام: "حق على الله أنه ما رفع شيئا منَ هذه الدنيا إلا وضعه".

ومن شاء الاتساع في هذا الموضوع، فليراجع كتب التاريخ، للاطلاع على ما كان لأهل هذا القطر الأندلسي المفقود، من المآثر والمحاسن، والمباني الجميلة، والمشاريع العجيبة الجليلة، التي صارت محل إعجاب في عصرنا هذا، وهو عصر

(*) سورة الفجر: 6-7-8-9.

المخترعات والعجائب، [التي ظهرت بفضل] القدرة الإلهية، التي يسرت للأولين والآخرين، أنواع تلك الغرائب؛ إذ هو سبحانه الخالق للعباد وأعمالهم، والمُلهم لهم فيما ظهر على يدهم، الجليل منه والحقير. لا إله إلا هو، لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

ولنرجع إلى موضوع ما قلنا من مبالغة بعض المؤرخين من أهل العصر، في مبدعات أهل الأندلس، وذكر ما يشهد، على وجه الجملة، على مقاله، وقد تقدم شيء من ذلك.

ولتتميم ذلك أقول: إن هذا الموضوع كتب فيه أهل الإسلام، من محققي المؤرخين، جملة رانقة، هي للصدق والواقع مطابقة، وكتب فيها بعض المستعربين من أهل أوربا، وبعض المشارقة الجاهلين بالأندلس وأهلها وتاريخهم؛ فمنهم من يأخذ مما كتبه هؤلاء الأجانب، كدُوزِي وأمثاله، ممن ادعى أنه مطلع على التاريخ؛ فتارة أظهروا أنهم جنحوا إلى الحق، وتارة حرفوا وأدخلوا في"تاريخهم" ما فيه حط من قدر الإسلام وأهله في الأندلس.

ومن ذلك، "رحلة" عندي، تنسب في ذهني أنها للبتنوني، من أهل مصر، وهو من المتأخرين، وفيها حق وباطل، أو صواب وجهل. وسياقه أنه ينقل عن دُوزي الفرنسي، وأمثاله. وأنا أذكر لك أولا، تتميما لما سبق، عن مؤرخينا الذين شأنهم ذكر التاريخ بالسند. ولنقدم بعض كلام إمام المؤرخين وعمدتهم. ففي "العبر" لابن خلدون، إمام العلوم الاجتماعية، آخر ترجمة الناصر، أي[والد] الحكم الأخير، ما لفظه:

ولما استفحل ملك الناصر، صرف نظره إلى تشييد المباني والقصور. قال: وكان جده الأمير محمد، وأبوه عبد الرحمان الأوسط، وجده الحكم؛ قد احتفلوا في ذلك، وبنوا قصورهم على أكمل الإتقان والضخامة. وكان منها المجلس الزاهر، والبهو الكامل، والقصر المنيف؛ فبنى هو إلى جانب الزاهرة قصره العظيم، وسماه دار الروضة، وجلب الماء إلى قصورهم من الجبل، واستدعى عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر، فوفدوا عليه، حتى من بغداد والقسطنطينية. ثم أخذ في بناء المنتزهات، فاتخذ ميناء الناعورة خارج القصور، وساق لها الماء من أعلى الجبل، على بعد المسافة. ثم اختط مدينة الزهراء، واتخذها منزله وكرسيا لملكه؛ فأنشأ فيها من المباني والقصور والبساتين، ما علا على مبانيهم الأولى، واتخذ فيها مجالات للوحوش، فسيحة الفناء، متباعدة السياج، ومسارح الطيور، مظللة بالشباك. واتخذ فيها دارا لصناعة آلات من آلات السلاح للحرب، والحلي للزينة، وغير ذلك من المهن. وأمر بعمل الظلة على صحن الجامع بقرطبة، وقاية للناس من حر الشمس. هـ[العبر:144/4].

ثم ذكر ابن خلدون ابن الناصر، وهو الحكم الأخير، أو الثاني، كما يقوله أهل العصر، وولاية ابنه الصغير بعده، حيث اختطف ابن أبي عامر هذا الملك المرواني.

قال: ثم توفي الناصر سنة خمسين وثلاثمائة، أعظم ما كان سلطانه، وأعزّ ما كان الإسلام ملكه.

ثم ذكر ما كان له من القضاة، من العلماء المشاهير، منهم أربعة، من بينهم: منذر بن سعيد البلوطي، الذي انفرد بصلابته في الدين، والقول بالحق، من غير مبالاة بسطوة سلطان، ولا جلالة أمير.

[بعض مآثر الحَكَم الثاني بالأندلس]

فذكر له ابن خلدون مآثر ، قدمنا بعضها في هذا الكتاب، فقال: " وكان محبا للعلوم، مكرما لأهلها، جماعا للكتب في أنواعها ما لم يجمعه أحد من الملوك قبله،(إلخ ما سبق ذكره عن ابن حزم). وقد وفد عليه أبو علي القالي، صاحب كتاب "الأمالي"، من بغداد، فأكرم مثواه، وحسنت منزلته عنده، وأورث أهل الأندلس علمه. واختص بالحكم المستنصر، واستفاد علمه. وكان يبعث في الكتب إلى الأقطار، رجالا من التجار، ويسرّب إليهم الأموال لشرائها، حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه. وبعث في كتاب "الأغاني" إلى مصنفه أبي الفرج الإصبهاني، وكان نسبه في بني أمية، وأرسل إليه فيه ألف دينار من الذهب العين. وكذلك فعل مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي، في "شرحه لمختصر" ابن عبد الحكم، وأمثال ذلك. وجمع بداره الحذاق في صناعة النسخ، والمهرة في الضبط، والإجادة في التجليد؛ فأوعى من ذلك كله. واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب، لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده، إلا ما يذكر عن الناصر العباسي ابن المستضيء. ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة، إلى أن بيع أكثرها في حصار البربر، وأمر بإخراجها وبيعها الحاجب واضح، من موالي المنصور بن أبي عامر، ونهب ما بقي منها عند دخول البربر قرطبة.هـ كلام ابن خلدون[بنقل نفح الطيب:180/1].

[داء الجهل وضرره على الأمة]

وهكذا يفعل الجاهل بالمعارف والعلوم، كما ذلك شأنه في كل مأثرة تحمد آثارها، وتعود على الأمة بما يصلح به حال الخصوص والعموم. فالجهل هو الداء العضال في هذه الأمة، إذ ليس له دواء، والجاهلون للعلم ولأهله أعداء.

قلت: أما ابن أبي عامر، فإنه لما تمكنت له الخلافة، عمد إلى هذه الكتب، فاختار منها كتب الفلسفة فأحرقها، وأبقى ما سواها، تقربا إلى العامة، كما قدمنا من أنهم كانوا ينكرون الفلسفة على من يشتغل بها، ويَسِمونه بالزندقة. وربما إن ظاهروا على قتله، رجموه بالحجارة. وكثيرا ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب الفلسفة، كما فعل ابن أبي عامر، كما سبقت الإشارة إليه. والله غالب على أمره.

ربما يتعين على كاتبه توقيف القلم هنا، وتتميم المسألة التي ساقتنا إلى هذه الاستطرادات، التي لا يمكن حصرها.

* * *

وبالجملة، فإن ما تقدم عن ابن حزم مؤيدا بالكتاب والسنة، ووقوفه بنفسه على النصوص الواضحة التي لا يجوز أن تكون من كلام الله، من أقوال لا يجوز قبولها بحال؛ مع ما تقدم من كلام ترجمان القرآن، سيدنا عبد الله بن عباس، وما[وقع] من تغير وجه النبي، صلى الله عليه وسلم، وغضبه عند ما رأى سيدنا عمر بيده أوراق من التوراة يقرأها، حسبما تقدم مفصلا.

وعليه، فنقول: إن الحافظ ابن حزم، قد تصدى للمسألة، وحرر فيها المقام، ولا يبقى معه في ذلك رد ولا كلام. بل شهد له في هذا الميدان الحفاظ من أهل عصره، بحيث لا يماري فيه اثنان، كعصريه الحافظ الحميدي الأندلسي الشهير. وقد استحسن الحافظ ابن حجر، من المتأخرين، كلامه في هذا الموضوع. والله أعلم.

* * *

[الكلام على سعة علم ابن حزم، ومناقشة مقالته في العقائد، التي أثارت عليه الانتقاد]

ثم نرجع إلى تتميم المقام، بأن إطالة ذيل هذه المباحث في شأن تبديل وتغيير التوراة والإنجيل، هو لكشف الغطاء عما عسى أن يكون خفي عن أهل هذا العصر، من سعة علم ابن حزم، وشدة اطلاعه على كل الفنون ومعرفته، بما سابق به أهل الديانات، سواء في ذلك المتقدمون والمتأخرون، وجمعه للمؤلفات النفيسة في كل علم من العلوم، والاطلاع على ما فيها، وتحرير الصحيح منها وقبوله، أو رد ما ترده الفهوم، حتى أصبح فريد عصره في الحفظ والتحصيل. وشهد له بذلك نقاد الرجال في التجريح والتعديل، كالحافظ الذهبي؛ فإنه لا يذكر أحدا ووجد له أدنى زلة، إلا وأظهرها وأشاد بها؛ لكنه قال في ابن حزم ما لفظه، حسبما في "النفح":

وهو العلامة أبو محمد، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح الأموي، مولاهم، الفارسي الأصل، الأندلسي القرطبي الظاهري، صاحب المصنفات. وأول سماعه سنة 399. وكان إليه المنتهى في الذكاء وحدّة الذهن، وسعة العلم بالكتاب والسنة، والمذاهب والملل والنحل، والعربية والآداب والمنطق والشعر، مع الصدق والديانة والحشمة، والسؤدد والرياسة والثروة، وكثرة الكتب. قال الغزالي، رحمه الله تعالى: وجدت في أسماء الله تعالى، كتابا لأبي محمد ابن حزم، يدلّ على عظم حفظه، وسيلان ذهنه.هـ.

ونقل في "النفح" أيضا عن صاعد، أنه قال في "تاريخه": كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة، مع توسعه في علم اللسان والبلاغة، والشعر والسير والأخبار.هـ[نفح الطيب:357/1].

وتقدم ما قاله فيه عصريه، الحافظ المتقن الشهير، صاحب كتاب "جذوة المقتبس"، في ولاة الأندلس ورواتها وفقهائها، وهو الرجل الصادق الصدوق، المعطي لكل عالم وراو ما يستحق من الحقوق.

ومع هذا،[فإن ابن حزم] أضاع علوّ مقامه، بمجازفته في بعض إطلاق كلامه، فجره إلى الطعن في اعتقاده. كما أن إعجابه بنفسه، واستبداده في اجتهاده، قاده إلى تضليل أئمة الإسلام وقادة الأمة والدين وأفراده؛ فكان ذلك سبب الغارة عليه من العامة والخاصة والملوك، وطرده من بلاده، حسبما سبق ذلك. ولهذا قال صاحب "نفح الطيب"، كما تقدم:

"وعلى الجملة، فهو نسيج وحده، لولا ما وصف به من سوء الاعتقاد، والوقوع في السلف، الذي أثار عليه الانتقاد. سامحه الله". هـ[359/1].

أما سوء الاعتقاد؛ فيظهر منه إلى أنه إشارة إلى ما قال من أن الله قادر على إيجاد الولد. بل قالوا إنه قد خالف الإجماع في نحو خمسين مقالة، منها في العقائد الدينية، ومنها في الأحكام الشرعية، ومنها في الأحاديث النبوية. قاله الدسوقي في "حاشية الصغرى".

أما ما قلنا إنه ربما تكون الإشارة إليه،[أي إلى سوء اعتقاده]؛ وذلك أنه لما تكلم على المحال، وأراد أن يخالف إجماع أهل السنة، بأن القدرة لا تؤثر في المحال، جاء بكلام مضطرب يناقض بعضه بعضا، فقال بعد كلام:

" وهذا مثل من سأل: أيقدر الله تعالى على نفسه، أو على أن يجهل، أو على أن يعجز، أو على أن يحدث مثله، أو على إحداث ما لا أول له؟ فهذه سؤالات تفسد بعضها بعضا، تشبه كلام الممرورين والمجانين، وكلام من لا يفهم. وهذا النوع لم يزل الله تعالى يعلمه محالا ممتنعا باطلا، قبل حدوث العقل وبعد حدوثه أبدا". ثم قال بعد هذا:

" وكذلك من سأل هل الله تعالى قادر على أن يتخذ ولدا؟ فالجواب: إنه تعالى قادر على ذلك".[الفصل:138/2].

ثم صار يحتج لذلك، مع أنه قدم أمثلة من هذا المحال، وقال إن من سأل عنها لا يستحق جوابا، لأنه من المحال الممتنع الباطل؛ ثم ناقضه هنا. أما قوله بعد هذا: إن القائل بأن الله لا يقدر على اتخاذ الولد، فقد قطع بأن الله عز وجل لا يقدر، إذ لا واسطة فيمن يوصف بالقدرة على شيء ما، ثم وصف في شيء آخر بأنه لا يقدر. ثم استنتج من ذلك أنه قائل بأن الله تعالى عاجز. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

ولهذا تصدى نبلاء الأعلام المتحققين بمعاني الصفات العالية في علم الكلام، كصاحب "شرح العقائد النسفية"، و"المواقف"، وغيرهما من المؤلفات المعتمدة عند أهل الإسلام؛ كمثل الشيخ السنوسي. وأجابوا عن هذا الكلام الباطل، الذي هو من حلي التحقيق الذي عليه جمهور أهل السنة عاطل، لأنه تقدم لنا أن القدرة لا تعلق لها بالواجب والمستحيل. قال الشيخ السنوسي:

" بل لو تعلقتا بهما لزم حينئذ القصور، لأنه يلزم على هذا التقدير الفاسد، أن يجوز تعلقهما بإعدام أنفسهما، بل وبإعدام الذات العلية، وبإثبات الألوهية لمن لا يقبلها من الحوادث، وسلبها عمن تجب له، وهو مولانا جل وعز. وأي نقص وفساد أعظم من هذا؟!. وبالجملة، فذلك التقدير الفاسد، يؤدي إلى تخليط عظيم لا يبقى معه شيء من الإيمان، ولا شيء من العقليات أصلا. ولخفاء هذا المعنى على بعض الأغبياء من المبتدعة، صرح بنقيض ذلك، فنقل عن ابن حزم أنه قال في " الملل والنحل": إنه تعالى قادر أن يتخذ ولدا، إذ لو لم يقدر عليه، لكان عاجزا. فانظر اختلال عقل هذا المبتدع، كيف غفل عما يلزمه على هذه المقالة الشنيعة من اللوازم التي لا تدخل تحت وهم". انظر تمامه.(*)

ثم صار ابن حزم يستدل على ما قاله بآيات قرآنية. وهي في الحقيقة تشهد لضد ما مال لقوله، فقال: وقد نص، عز وجل، على ذلك في القرآن، قال الله تعالى: (لَو أرَادَ اللهُ أنْ يتَّخِذَ ولَدًا لاصْطفى مِمَّا يَخلُقُ مَا يَشاءُ)، وكذلك قال: (لو أرَدْنَا أنْ نَتَّخِذَ لَهْواً لاَتَّخَذْنَاهُ مِنْ لدُنَّا إنْ كُنّا فَاعِلِينَ) هـ.

قلت: وما له لم يستدل بقوله تعالى: (لقدْ جِئتُمْ شَيْئًا إدًّا، يَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقّ الأرْضُ وَتَخِرّ الجِبَالُ هَدًّا، أنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَانِ وَلَداً، وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَانِ أنْ يَتَّخِذَ وَلَداً، إنْ كُلّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ إلاَّ ءَاتِي الرَحْمَانِ عَبْدًا).[مريم: 93/89].

[تفسير قوله تعالى:
(لو أردْنا أنْ نتَّخِذ لهْوًا) الخ]

قلنا فالآيتان اللتان استدل بهما على مغزاه، هي منافية له، لا شاهدة له، كما هو اتفاق المفسرين في تفسير الآية؛ ففي "مدارك التنزيل"، للإمام الجليل، أحد أئمة أهل الكلام،[الإمام النسفي]، الذي وصفوا[تفسيره] بأنه التفسير الموشح بأقاويل أهل السنة والجماعة، الخالي من أباطيل أهل البدع والضلالة، المتوفى سنة 710، قائلا في تفسير قوله تعالى:(لو أرَدْنا أنْ نتَّخذَ لَهْوًا) ، دخولا على تفسير الآية، ما لفظه:

" ثم نزه ذاته عن سمات الحدث، بقوله: (لو أردنا أن نتّخذ لهواً)، أي ولدا أو امرأة، كأنه رد على من قال: عيسى ابنه، ومريم صاحبته، (لاتخذناه من لدنا)، من الولدان أو الحور، (إن كنا فاعلين)، أي إن كنا ممن يفعل ذلك، ولسنا ممن يفعله لاستحالته في حقنا. وقيل: هو نفي، كقوله: (وإن أدْري)، أي ما كنّا فاعلين، (بل نقذف)، بل إضراب عن اتخاذ اللهو وتنزيه منه لذاته كأنه قال: سبحاننا أن نتخذ اللهو، بل من سنتنا أن نقذف، أي نرمي ونسلط (بالْحَقّ)، بالقرآن،(على البَاطِلِ)، الشيطان، أو بالإسلام على الشرك، أو بالجد على اللعب،(فَيَدْمَغُهُ)، فيكسره، ويدحض

(*) شرح "أم البراهين"، للإمام السنوسي،(بهامش حاشية الدسوقي): ص102.

الحق الباطل".هـ. ثم زاد في التقريع والرد لما ادعوه، كقوله: (وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ) الله، من الولد ونحوه. [256/3 - بهامش: تفسير" لباب التأويل"].
وقد اتفقت كلمة المفسرين على ما قاله النسفي.

[انفراد ابن حزم برأيه وخروجه عن قواعد العقائد الصحيحة]

وما وقع من ابن حزم من الاحتجاج بهذه الآية على ما أراد، كما قدمنا، انفرد فيه برأيه الخارج عن قواعد العقائد الصحيحة، المبنية على كمال تنزيه الباري عن سمات المحدثات؛ وناهيك تقريعه[في] هذه الآية، التي في سورة مريم، وهي قوله تعالى، على سبيل الإنكار والتقريع لمن نحا هذا المنحى، إذ قال : (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَانُ وَلَدًا، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا،) الخ الآيات السابقة.
فهذه الآيات الكريمة، العظيمة في التهديد، وإجابة غضب الربّ الشديد، واستدعاء الانتقام من قائلها، لأنها وصف للخالق المنزه عن صفات مخلوقاته، من والد وولد، وكل ما لا يلق به دون شك ولا ترديد؛ حتى إن هذه المقالة العظيمة، لمخالفتها لصفات كماله، تؤثر في الجمادات العظيمة من السماوات والأرض والجبال، حتى تكاد السماوات تنفطر من سماعها، وتنشق الأرض من سوء عبارتها، وتخر الجبال وتسقط هدًا وتهيّبا من سماعها ما لا يلق بجلالة ربها؛ فما بالك بالمؤمن الموقن بعظمة ربه، المعتقد لاستحالة هذا الوصف في حقه، جل وعلا، وعلوه عما لا يليق بكماله؟! فلينظر المثبت لهذا الوصف، أو القائل بجوازه، أين وضع نفسه، وما يلزم للمسلم، إذا أجازه.
ثم إني أودّ، لو وجدت، لأبي محمد ابن حزم، مخرجا، وإن كان قوله في هذه المسألة مضطربا ينقض أوله آخره، كما قدمنا.
أما أولاهما،[فقد] قدمنا، أن الشيخ أبا محمد، لم يكن عارفا بفن التوحيد، على طريقة أهل السنة، وما أسسوه في ذلك من القواعد المبنية على غاية التنزيه. وكان من شأنه، رحمه الله، الاقتضاب، واغتباطه بالاستقلال لما بدا له وفهمه، وما استقاه من علمه. وهو أمر ساق به إلى الخطإ، بل إلى تبديعه والتشنيع عليه، كما سبق. وأزيد هنا ما ذكره تاج الدين ابن السبكي عن ابن حزم، في ترجمة الشهرستانيّ، صاحب "الملل والنحل"، [وسبق أيضا نقله بنصه فيما تقدم].
قلت: وقد صرح ابن حزم نفسه، أنه لم يكن لأهل الأندلس اعتناء بعلم الكلام، إلا أنه كان هناك بعض المعتزلة. وذكر أنه ألف في ذلك مؤلفا على طريقة أهل الحديث، لا على طريقة المناطقة والفلسفة الكلامية، كما أطبق عليه أهل الكلام المتأخرون، ورأوا فيه فائدة، وهيأه على قواعد المنطق. ولهذا كان ينكره المتقدمون من أهل العلم.

وهناك شيء آخر [يتعلق] بابن حزم، وهو، كما قدمنا، اكتفاؤه بفهمه، واعتداده برأيه؛ وهو داء عضال، يئول بالعالم إلى إلحاقه بجملة الجهال. فالعالم الكامل يكون شأنه استجهال نفسه وقصورها، ويكون لما عند غيره، من أهل العلم، سامعا، لأن: (فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيم).

وانظر إلى قضية سيدنا سليمان، مع ولده سيدنا داوود، في قضية رعاية الغنم للحرث، وتداعي[القوم] في ذلك، فخفيت على سيدنا داوود - وهو الأب - وفهمها ولده سليمان، كما قال تعالى: (وداوودَ وسليمانَ إذ يحكُمَان في الحَرْثِ إذ نفشَتْ فيهِ غَنمُ القوم، وَكُنَّا لحُكمِهِمْ شاهِدين، فِفهَّمْنَاهَا سُلَيْمان).

* * *

[إتمام الكلام في تفسير آية: (وقالوا اتَّخَذَ الرَّحْمَانُ وَلدًا)، بشرح الحافظ ابن كثير]

ثم نُوقف الكلام في هذا الموضوع - إلى أن نرجع لإتمامه بكلام الإمام الشاطبي، في شأن غلط الحافظ ابن حزم، في استقلاله برأيه وإعجابه بنفسه - بإتمام الكلام على آية: (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَانُ ولدًا)، وذكْر تفسير الحافظ الجليل، عماد الدين ابن كثير، لنفاسته وحسن تنزيله على هذه الآية المؤثرة في قلوب الموحدين، المنزهين للعظمة الربانية عن سمات المحدثات، لأن كلام هذا المفسر له حلاوة، وعليه نور تتأثر منه أفئدة المؤمنين المخلصين، إذ قال إثر قوله تعالى: (وقالوا اتخذ الرَّحْمَانُ ولدًا) الآيات، ما لفظه:

" لما قرر تعالى في هذه السورة الشريفة، عبودية عيسى، عليه السلام، وذكر خلقه من مريم بلا أب، شرَع في مقام الإنكار على من زعم أن له ولدا، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوا كبيرا، فقال: (وقالوا اتَّخذ الرَّحْمَانُ ولدًا، لقدْ جِئتُمْ) أي في قولكم هذا (شَيْئًا إدًا)، قال ابن عباس ومجاهد، وقتادة ومالك: أي عظيما". ثم قال: (تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتفطَّرْنَ مِنْهُ وَتنْشَقّ الأرضُ وَتخِرّ الجِبَالُ هَدًّا أنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَان وَلدًا)، أي يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم، إعظاما للرب وإجلالا، لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا شريك له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا صاحبة له، ولا كفؤ له، بل هو الأحد الصمد.

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

ثم ذكر الحافظ ابن كثير ما رواه ابن جرير، عن ابن عباس، في تفسير الآية، أنه قال: إن الشرك فزعت منه السماوات والأرض والجبال، وجميع الخلائق، إلا الثقلين، وكادت أن تزول منه، لعظمة الله. وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك، كذلك نرجو أن يغفر به ذنوب الموحدين. وقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: " لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله. فمن قالها عند موته وجبت له الجنة"، فقالوا: يا رسول الله، فمن قالها في صحته؟ قال: " تلك أوجب وأوجب". ثم قال: " والذي

نفسي بيده، لو جيء بالسماوات والأرضين، وما فيهن وما بينهن وما تحتهن، فوضعن في كفة الميزان، ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله في الكفة الأخرى؛ لرجحت بهن". هكذا رواه ابن جرير ، ويشهد له حديث البطاقة، والله أعلم.هـ كلام ابن كثير.[138/3].

وهو شرح تنشرح له الصدور، وتبتهج به الأفكار، وتعنو به الوجوه للواحد القهار. سبحان الله الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يماثله أحد.

***

[الرجوع إلى مناقشة ابن حزم في استبداده برأيه وطعنه في رأي غيره]

ثم نرجع إلى إتمام موضوعنا، الذي هو التنبيه على غلط الحافظ ابن حزم، في استبداده برأيه، والطعن في رأي غيره.

أما إذا كان نزاعه في مسألة اجتهادية، وكنا سلمنا أنه من أهل الاجتهاد، فحسبه أن يبين الدلائل على ذلك، وله أن يعمل جهده في تصحيح رأيه فيها؛ لكن دون تضليل مقابله، فضلا أن يصرح في شأنه بما هو كالسب، وأن يراعي في ذلك أدب المناظرة، لأن ما رآه هو، رأي كرأي غيره، حسبما أدى إليه اجتهاد كل واحد منهم. وكل مجتهد مصيب، إذا جرى على قواعد الاجتهاد؛ إذ من قال: إن كل مجتهد مصيب، لم يقل إنه متعين في واحد، كما تقرر في علم الأصول.

أما إذا كان مقلدًا ـ كما هو الثابت في جانب ابن حزم، لأن ابن حزم كان أولا مقلدا لمذهب الشافعي، ثم انتقل لمذهب داوُد الظاهري ـ؛[فيتعيّن]عليه أن يتبع إمامه الذي قلده. نعم؛ له أن يسعى في ترجيح مذهبه الذي قلده، بما وقف عليه من الأدلة، كما هو شأن المقلدين للمذاهب من الأئمة؛ فانظر إلى ما نقله الإمام القاضي عياض في أول "مداركه"، من بذله جهده في ترجيح مذهب مالك، الذي كان يقلده، لكن من دون تخطئة غيره من المذاهب.

ولقد حاول التاج السبْكِي أن يستدل على تعيين مذهب الشافعي في الإصابة، لمجرد كونه عثر على أن الذي أخبر[به] النبي، صلى الله عليه وسلم، أن الله يبعث في رأس كل قرن مجددا يجدد لهم أمر دينهم؛ فيه ما يدل على أن الحق في جانب الشافعي.

فردت عليه هذه المقالة، ومن جملة من تصدى لردها من المتأخرين، من علماء المغرب المحققين، سيدي أحمد بن مبارك، من أهل القرن الثاني عشر، إذ قال التاج، في الجزء الأول من "طبقاته"، عند ذكر شيوخ المذهب الشافعية في الأقطار، قال في صحيفة174، ما لفظه، بعد أن ساق أهل اليمن، وأن الغالب عليهم الشافعية، قال: وفي قوله، صلى الله عليه وسلم: "الإيمان يمان، والحكمة يمانية" إلخ قال: فيه دليل واضح على أن الحق في هذا المذهب المطلبي. ثم زاد في الاستدلال.

فكتب على ذلك ابن مبارك المذكور ما لفظه: الذين قالوا إن المصيب واحد، اتفقوا على أنه غير معيّن في مجتهد من المجتهدين. والسبكي، رضي الله عنه، أراد أن يخالف ذلك الإجماع في تعيين الحق في مذهب الشافعي. وكفاك دليلا على بطلانه، مخالفته للإجماع. وإنما غاية ما ذكره غيره من الشافعية، السعي في الترجيح. وذكر كلام إمام الحرمين وغيره من علماء المالكية، أن غاية المنتصر لمذهبه، أن يسعى في الترجيح.

[مسألة اختلاف الأمة في الأمور الاجتهادية، ونقل المؤلف عن تقييده "القول الفصْل"]

قلت: ولو ذهبنا إلى ما قاله السبكي، لتعيّن على الناس كلهم، أن يعتقدوا الحق في مذهب مالك، ولا سيما على اتفاق من يعتدّ بقوله من أهل الحديث، حتى الشافعي؛ أن مالكا هو إمام المحدثين، وهو النجم الثاقب، وهو إمام الحجاز، على الحقيقة لا المجاز، وهو إمام مسجد رسول الله، صلى الله عليه وسلم،[مع]كثرة علمه، وارتفاع مقامه، علما وعملا وورعا، وتحقيقا واحتياطا في رواية الحديث.

كان راوذه الخليفة هارون الرشيد، على أن يلزم الأمة باتباع ما في "الموطإ"، ولا يخالفون ما فيها، فأبى من ذلك تورعا، واعتذر بأن أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم،[توزعوا] في سائر أقطار الإسلام، وكل أحد[يعمل] بما صح عنده. وتحرى في ذلك أن يكون في كتابه ما صح عند غيره، ولم يبلغه ذلك، لأن اختلاف الأمة في الأمور الاجتهادية، التي لا نص فيها قاطعا، رحمة في هذه الأمة، إن كان ذلك الخلاف غير خارج عن القواعد الأصولية.

وقد حررت هذه المسألة، وجمعت ما فيها من الأبحاث، وكلام من يعتد بكلامه في المسألة. وهي راجعة إلى أن خلاف الأمة رحمة. وعلى مقتضى هذا، أجاب إمامنا مالك، الخليفة هارون الرشيد، الذي قدمنا. ولفظ ما كتبته في تقييدي الذي سميته: (القول الفصل، والحكَم العدل، في مسألتي القبض والسّدل): وهذا هو قول إمامنا مالك، رضي الله عنه، لما أراد السلطان هارون الرشيد، أن يحمل الناس على مذهبه: يا أمير المؤمنين، إن اختلاف العلماء رحمة من الله على هذه الأمة؛ كل يتبع ما صح عنده، وكل على هدى، وكل يريد الله.هـ.(*)

وهذا هو العلم المراد به وجه الله، وإرشاد الأمة وهديها إلى طريق الحق، مما اقتضاه الاجتهاد، فيما لا نص فيه قاطع من الشارع، بعد بذلهم الوسع في ذلك وتحري الصواب. فإذا رأوا نصا يخالفه، أو نظرا أقرب إلى الصواب من نظرهم، رجعوا.

(*) ص37 من مخطوطة بخزانة المؤلف، رحمه الله، مكونة من 67 صفحة، كتبها عام1351 هـ. أم

[الكلام على بعض مناقب الإمام مالك]

وهكذا كان إمامنا مالك، وهو إمام الأمة، يقول في الأمور التي يجتهد فيها عبارة تؤذن بالأدب مع الله، والتخوف من أن يقع اجتهاده خطأ فيما قال: أرى، والله أعلم، الأمر كذا، إلخ. وفي "المدارك" من هذا النوع، من التحري في القول باجتهاده، الشيء الكثير. ففيها:

قال ابن وهب: كان مالك يقول في أكثر ما يسأل عنه: لا أدري. قال عمر بن يزيد: فقلت لمالك في ذلك، فقال: يرجع أهل الشام إلى شامهم، وأهل العراق إلى عراقهم ، وأهل مصر إلى مصرهم؛ ثم لعلي أرجع عما أفتيتهم به. قال: فأخبرت بذلك الليث، فبكى وقال: مالكٌ والله أقوى من الليث، أو نحو هذا الكلام.هـ[182/1].

وفي "المدارك" أيضا، عن معن بن عيسى: سمعت مالكا يقول: إنما أنا بشر، أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي؛ فكل ما وافق الكتاب والسنة، فخذوا به. وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة، فاتركوه.[182/1].

ومنها أيضا: وكان الرجل يسأله عن المسألة، فيقول: العلم أوسع من هذا. وقال بعضهم له: إذا قلت أنت، يا أبا عبد الله: لا أدري، فمن يدري؟! فقال ويحك، ما عرفتني ومن أنا، وأي شيء منزلتي، حتى أدري ما لا تدرون؟! هذا ابن عمر يقول: لا أدري، فمن أنا! وإنما أهلك الناس العُجب وطلب الرياسة، وهذا يضمحل عن قريب.[184/1].

وفيها: وقال مصعب: سئل مالك عن مسألةٍ فقال: لا أدري. فقال له السائل: إنها مسألة خفيفة سهلة، وإنما أردت أن أعلم بها الأمير ـ وكان السائل ذا قدر ـ فغضب مالك وقال: مسألة خفيفة سهلة؟! ليس في العلم شيء خفيف؛ أما سمعتَ قول الله تعالى: (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً)(**)؛ فالعلم كله ثقيل، وبخاصة ما يُساءل عنه يوم القيامة.[184/1].

ثم إن مالكا كان علمه مأخوذا عن أكابر التابعين، الذين أخذوا علومهم من الصحابة الذين هم القدوة، وعنهم أخذ العلم الصحيح؛ فمنهم ـ حسبما في "المدارك"، ونقله صاحب "الديباج"، ابن شهاب الشهير، وأبو الأسود، يتيم عروة، وأيوب السختياني، وربيعة، ويحيى بن سعيد الأنصاري، وموسى بن عقبة. وهؤلاء شيوخه، ورووا عنه.[الديباج المذهب:29].

وانظر ما كتبه الحافظ السيوطي، آخر ما كتبه على "الموطأ". ومع [علو مقام] هؤلاء الأعلام، وحملة السنة وقواعد الإسلام،[الذين] لهم الشهرة العظيمة بين الأنام، وهم في بحور المعارف ظاهرون كالأعلام؛ كان يتحرى في التمييز فيما أخذ

(**) المزمل:5

عنهم. وكتب في الرواية عنهم الصناديق من الكتب، مع طرح الكثير منها، ففي "المدارك"، قال ابن مالك:

لما دفنا مالكا، دخلنا منزله، فأخرجنا كتبه، فإذا هي سبع قناديق من حديث ابن شهاب، ظهورها وبطونها ملأى، وعنده قناديق، أو صناديق، من حديث أهل المدينة. فجعل الناس يقرأون، ويدعون ويقولون: رحمك الله يا أبا عبد الله، قد جالسناك الدهر الطويل، فما رأيناك ذاكرت بشيء مما قرأناه.هـ من "المدارك"[186/1]. وهناك نقول أخرى في هذا الموضوع.

فانظر كيف ترى الجهول القاصر، يرد على هذا الإمام، الذي امتلأ صدره بالعلوم والمعارف الصحيحة، التي أخذها عن أئمة كبار، ودراسته لذلك آناء الليل وأطراف النهار، وتفهمه لمعانيها، وسهره الليالي الطويلة وهو يتأملها ويعانيها، ومهما دخل له الشك في صحة حديث إلا رماه وألغاه، ولا يأخذ به. ولم يكن كحاطب ليل، يأخذ بكل ما سمعه، كما صرح بذلك؛ ولهذا قال تلميذه، الإمام الشافعي: كان مالك إذا شك في الحديث، طرحه كله. وقال ابن عيينة: كان مالك لا يبلغ من الحديث إلا صحيحا، ولا يحدث إلا عن ثقة.

وكان لا يُحدث عن أهل العراق، أي لما كان يكثر فيهم من الوضع. ويُروى عنه أنه قال في العراق: إنها دار الضرب، أي دار ضرب السكة وصوغها، أي إنها موضع لاختلاق الأحاديث ووضعها. قال في "المدارك": قيل لمالك: لم لا تحدث عن أهل العراق؟ قال: لأني رأيتهم، إذا جاءونا، يأخذون الحديث عن غير ثقة. فقلت: إنهم كذلك في بلادهم. وقال: عندي أحاديث؛ لو ضرب رأسي بالسوط، ما أخرجتها أبدا. قاله في "المدارك".[189/1].

ولحصول الثقة بمالك، واحتياطه في رواية الحديث، وتحريه في الأخذ به، خوف أن يروي ما لا يُروى عن الرسول، صلى الله عليه وسلم؛ أجمع الناس على جلالته وعلو مكانته في الحديث، حتى روى عنه كبار أشياخه الذين أخذ عنهم، وكانت لهم الشهرة والجلالة بين العامة والخاصة، كما أخذ عنه أقرانه، فما بالك بمن دون هؤلاء.

ولهذا ألف الناس في خصوص رواة مالك من الأقدمين وغيرهم. وللحافظ السيوطي، من المتأخرين، في ذلك تأليف سماه: "إسعاف المبطا، برجال الموطأ"، وقد طبع مع شرحه "الموطأ"، المسمى بـ" تنويرالحوالك، شرح موطإ مالك".

هذا، والكلام على ترجمة مالك، وما كان له من الجلالة، وما اتصف به من الأوصاف، والأخلاق والتواضع، مع انفراده بالرئاسة في الحديث والفقه؛[يطول]. وشهادة أعلام الوقت وأئمتهم له بذلك، أمر لا ينازع فيه أحد ممن يعتدّ بكلامه في هذا الموضوع.

ومن جلالته وكفاءته في الرواية والدراية، أن الأشياخ الذين أخذ عنهم وروى عنهم، وبهم تقدم في الحديث وغيره؛ تتلمذوا له، ورووا عنه، مع جلالتهم وتقدمهم

في الحديث وروايته وغير ذلك؛ فمنهم، كما في "المدارك"، من أشياخه: يحيى بن سعيد، وأبو الأسود بن نوفل، وزياد بن سعد، وابن شهاب، وهشام بن عروة، وربيعة، إلى آخر من سواهم. قال في "المدارك":

وأما من روى عنه من أقرانه، ممن مات قبله أو بعده؛ فكثير، كابن جريج، وابن عجلان، والدارَ وَرْدي، وعبد الله بن جعفر المديني، والليث، ونافع القارئ، وعبد العزيز بن الماجشون، والسفيانين، والحمادين، والزنجي، وأبي حنيفة، وصاحبيه، ووكيع، وشعبة، والأوزاعي، وسواهم ممن سنذكرهم بعد هذا. هـ كلام "المدارك".

ثم قال: قال غيره: ففي رواية هؤلاء المشيخة وأمثالهم عن مالك؛ دليل على عظيم شأنه. قال جعفر الفريابي: لا أعلم أحدا روى عنه الأئمة والجلة، ممن مات قبله بدهر طويل، إلا مالكا. هـ منها.[175/1].

ثم إن مقام مالك وجلالته في العالم الإسلامي، شهير شهرة الشمس في الظهيرة. فليعتبر المعتبر بأن علو مقام هذا الإمام، ومكانته بين الأعلام؛[لم يكن]إلا بتواضعه، وبعده عن الإعجاب والتفاخر بعلمه، مع أنه عالم عصره، ووحيد قطره في الحديث والفقه، واعتراف شيوخه الكبار له بذلك، كما سلف، لعلمه بأن العجب يُصيّر المعجب جاهلا، والكِبْر يُصيّر المرتفع وضيعًا؛ ومن آداب العالم، أن يكون متواضعا، يعد نفسه من الجهال، ويلاحظ التقصير في نفسه، ويرى الكمال في غيره.

[بعض ما ورد في مدح تواضع العالم، وذم إعجابه بنفسه]

قال الحافظ ابن عبد البر في كتاب العلم: ومن أفضل آداب العالم تواضعه، وترك الإعجاب بعلمه، ونبذ حب الرئاسة عنه. ويروى عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " إن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة، فتواضعوا، يرفعكم الله".

ثم أخرج الحافظ بسنده، إلى سيدنا أبي هريرة، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: " ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه".هـ[جامع بيان العلم:141/1]. قلت، كما في الهامش: رواه مسلم والإمام أحمد بن حنبل، والترمذي.

وفي هذا المعنى آثار من أهل العلم والتصوف كثيرة؛ فعن أيوب السختياني، حسبما رواه عنه أبو عمر، أنه قال: ينبغي للعالم أن يضع التراب على رأسه، تواضعا لله. وقالوا: المتواضع من طلاب العلم، أكثر علما، كما أن المكان المنخفض، أكثر البقاع ماء.[142/1].

وأما العجب؛ فورد فيه آثار ونصائح، منها ما رواه أبو عمر، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: " ثلاث مهلكات، وثلاث منجيات؛ فأما

المهلكات: فشحّ مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه. والثلاث المنجيات: تقوى الله في السر والعلانية، وكلمة الحق في الرضى والسَّخَط، والاقتصاد في الغنى والفقر"هـ. وذكر في الهامش أنه رواه أبو الشيخ في "التوبيخ"، والطبراني في "الأوسط" عن أنس.

ثم نقل أبو عمر مقالات كثيرة في ذم العجب، فنقل عن أبي الدرداء أنه قال: علامة الجهل ثلاث: العجب، وكثرة المنطق فيما لا يعنيه، وأن ينهى عن شيء ويأتيه. وقالوا: العجب يهدم المحاسن.هـ[جامع بيان العلم:143/1].

إلى غير ذلك من الآثار، وأقوال الأئمة الكبار، من الفقهاء وأهل التصوف.

وأصل كل ذلك؛ الرضى على النفس وتزكيتها. ويُغني عن كل هذه النقول، قوله تعالى: (فَلاَ تُزَكّوا أنْفُسَكُمْ هُوَ أعْلَمُ بمَنِ اتَّقى)(*).

وفي "الحِكَم العطائية"، من هذا المعنى كثير، حتى قال: " أصل كل معصية وغفلة وشهوة؛ الرضى على النفس". وقال: " لأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه، خير لك من أن تصحب عالما يرضى على نفسه".

وفي "الإحياء" من هذا الباب، ما فيه المقتع لمن ألقى السمع وهو شهيد، من سوء العاقبة، والضلال عن المنهج السديد، وصيران العالم جاهلا ممقوتا عند ذوي الرأي الرشيد، والمآل إلى الإعراض عنه، ورميه بوصف الجبروت والكبرياء، وهما غاية النقص في قدر الذي يظن أنه بذلك يزيد.

[سبب انحراف الناس
عن ابن حزم، وعن كتبه، وخاصة "المُحلى"]

وانظر إلى ما آل إليه حال الحافظ ابن حزم، الذي كان في عصره في العلوم كالبحر المديد، من الإهانة والطرد، وإحراق مؤلفاته وتنفير الناس منها، واستمر ذلك من المائة الخامسة إلى هذه المائة الرابعة عشرة، ولا سيما عند أهل المذهب المالكي، لما يقرأونه في "محلاه" من الغض في إمام مذهبهم، مالك بن أنس، الذي هو إمام الأئمة عند الكل، إذ هو شيخ الشيوخ، الذي له القدم الثابت في الحديث والفقه وكمال الرسوخ، كما سمعتَ؛ حتى إن كتابه "المحلى"، الذي كان يحسبه أنه في العلوم في المقام الأعلى، قد تصدى لرده أجلة الأئمة المالكية، كبعد الحق، والإمام المرجوع إليه في المغرب، وهو في وقته إمامه وقدوته في عاصمة القيروان، التي هي العاصمة الأولى من لدن الفتح الإسلامي للمغرب؛ ونقضوه عروة عروة.

وقد وجدت الآن مكتوبا بخطي، في أول ورقة من "المُحلى"، وكان من أول ما كتبته عليها، إذ صرت أطالعها، ما لفظه: (المُحلى عند المالكية): إن المالكية لا

(*) النجم: 32.

يقيمون لابن حزم وزنا، ولا ينزلونه من العلم بالمنزلة العليا. ولهذا تصدى لنقد كتابه "المحلى" فقيهان جليلان منهم، وهما: عبد الحق، وابن زرقون. وكتب الآخر كتابه "المُعلى، في الرد على المُحلى.هـ دائرة المعارف الإسلامية.

أما من تصدّى للرد على ابن حزم في حياته، فالقاضي أبو الوليد الباجي، أحد علماء المذهب المالكي الأفراد، الذي نوه بذكره أبو بكر ابن العربي. وهو الذي قال في ذكره، كذلك، القاضي عياض، حسبما نقل ذلك عنه المقري في "نفحه"، ولفظه: قال:

ولما قدم، أي القاضي الباجي، الأندلس، وجد لكلام ابن حزم طلاوة، إلا أنه كان خارجا عن المذهب. ولم يكن بالأندلس من يشتغل بعلمه؛ فقصرت ألسنة الفقهاء عن مجادلته وكلامه. واتبعه على رأيه جماعة من أهل الجهل، وحل بجزيرة ميورقة، فرأس فيها، واتبعه أهلها. فلما قدم أبو الوليد، كلموه في ذلك؛ فدخل إليه وناظره، وشهر باطله. وله معه مجالس كثيرة. هـ[نفح الطيب:354/1].

وقد سلف لنا، في غير هذا الكتاب، ما كان من أمر ابن حزم، ونشر مذهبه في الأندلس، ووصل ذلك حتى للمغرب، حتى سمي مذهبه بمذهب الحزمية، وكاد أن يتمكن ويمحو المذهب المالكي. وبالفعل ولي من هذا المذهب قاض بعاصمة مراكش، ولم يطل ذلك؛ بأن تغلب المالكية، ومحوا آثار هذا المذهب. ويفيد كلام أبي بكر ابن العربي أن الذي تدارك الأمر، ودافع عن المذهب المالكي، هو أبو الوليد الباجي.

[وصف ابن عبد البر تراجع أهل الأندلس عن الاجتهاد في العلوم الصحيحة، وحال المغرب آنذاك في ذلك]

والذي سهل إغارة ابن حزم على المذهب، هو ضعف حملة المذهب؛ بل تراجع حالة العلم، وفقد أهل الرواية والدراية. ولهذا يشير الحافظ أبو عمر ابن عبد البر، إذ قال:

واعلم، رحمك الله، أن طلب العلم في زماننا هذا، وفي بلدنا، قد حاد أهله عن طريق سلفهم، وسلكوا في ذلك ما لم يعرفه أئمتهم، وابتدعوا في ذلك ما بان به جهلهم وتقصيرهم عن مراتب العلماء قبلهم؛ فطائفة منهم تروي الحديث وتسمعه، قد رضيت بالدؤوب في جمع ما لا تفهم، فجمعوا الغث والسمين، والصحيح والسقيم، والحق والكذب؛ في كتاب واحد، وربما في ورقة واحدة. ويدينون بالشيء وضده، ولا يعرفون ما في ذلك عليهم. قد شغلوا أنفسهم بالاستكثار، عن التدبر والاعتبار؛ فألسنتهم تروي العلم، وقلوبهم قد خلت من الفهم. غاية أحدهم معرفة الكتب الغريبة، والإسم الغريب، أو الحديث المنكر. وتجده قد جهل ما لا يكاد يسع أحدا جهله، من علم صلاته وحجه، وصيامه وزكاته. وطائفة هي في الجهل كتلك أو أشد؛ لم يعنوا بحفظ سنة، ولا الوقوف على معانيها، ولا بأصل من القرآن، ولا اعتنوا بكتاب الله،

جل وعز، فحفظوا تنزيله، ولا عرفوا ما للعلماء في تأويله، ولا وقفوا على أحكامه، ولا تفقهوا في حلاله وحرامه. قد طرحوا علم السنن والآثار، وزهدوا فيهما، وأضربوا عنهما؛ فلم يعرفوا الإجماع من الاختلاف، ولا فرقوا بين التنازع والائتلاف. بل عولوا على حفظ ما دوّن لهم من الرأي والاستحسان، الذي كان عند العلماء آخر العلم والبيان. وكان الأئمة يبكون على ما سلف وسبق لهم فيه، ويودون أن حظهم السلامة منه. ومن حجة هذه الطائفة، فيما عولوا عليه من ذلك، أنهم يقصرون وينزلون عن مراتب من له القول في الدين، لجهلهم بأصوله، وأنهم، مع الحاجة إليهم، لا يستغنون عن أجوبة الناس في مسائلهم وأحكامهم؛ فلذلك اعتمدوا على ما قد كفاهم الجواب فيه غيرهم. وهم مع ذلك، لا ينفكون من ورود النوازل عليهم، فيما لم يتقدمهم فيه إلى الجواب غيرهم، فهم يقيسون على ما حفظوا من تلك المسائل، ويفرضون الأحكام فيها، ويستدلون منها، ويتركون طريق الاستدلال، من حيث استدل الأئمة وعلماء الأمة، فجعلوا ما يحتاج أن يستدل عليه، دليلا على غيره. ولو علموا أصول الدين، وطريق الأحكام، وحفظوا السنن، كان ذلك قوة لهم على ما ينزل بهم.[جامع بيان العلم:169/2].

ثم استمر أبو عمر في بيان فساد التقليد، والترغيب للفقيه في المقام الأعلى، وهو الاجتهاد وأخذ الأحكام من الأصول، التي هي الكتاب والسنة، وما أفاده الإجماع. ويصف حال فقهاء عصره، وإفتائهم وقضائهم.

ثم انتقل لحال المغرب في ذلك العصر، إثر قوله:

واعلم أنه لم تكن مناظرة بين اثنين، أو جماعة من السلف، إلا لتفهّم وجه الصواب، فيصار إليه، ويعرف أصل القول وعلته فيجري عليه أمثلته ونظائره؛ وعلى هذا الناس في كل بلد، إلا عندنا، كما شاء الله ربنا، وعند من سلك سبيلنا من أهل المغرب؛ فإنهم لا يقيمون علة، ولا يعرفون للقول وجها. وحسب أحدهم أن يقول: فيها رواية لفلان، ورواية لفلان. ومن خالف عندهم الرواية، التي لا يقف على معناها وأصلها وصحة وجهها، فكأنه خالف نص الكتاب، وثابت السنة. ويجيزون حمل الروايات المتضادة في الحلال والحرام. وذلك خلاف أصل مالك. وكم وكم لهم من خلاف أصول مذهبه. أنظر تمامه.

[تفسير وتذييل كلام الحافظ ابن عبد البر في مسألة الاجتهاد، وذم التقليد]

ومعنى كلامه في هذا ـ من كتابه "جامع بيان العلم وفضله"، ج2 صح: -171 169- هو مخاطبة الفقهاء من أهل الفتوى والقضاء، بوجوب حفظهم أصول الديانة، من الكتاب وثابت السنة، ومراجعة الأحكام فيهما، مع ذمّه التقليد المطلق، وإن انتسب إلى إمام من الأئمة، فعليه أن يراجع الأصول فيما التبس عليه.

وبالجملة، هو يقول بذم التقليد مطلقا للفقهاء، وإطلاق العنان في الروايات دون تصحيحها. وله في ذلك أبيات كنت كتبتها في هامش[كذا](*)

ثم هو يقول إن هذا الكلام، مع الفقيه العالم. أما العامي الجاهل، فحسبه السؤال والتقليد. ثم إن كلامه في هذا الموضوع، موافق لكلام ابن حزم؛ بأنه لا حجة لأحد في حكم من الأحكام، إلا أن يكون من الكتاب والسنة الثابتة أو الإجماع.

ولكن الحافظ أبا عمر، فاق ابن حزم في حسن أدبه، ولطافة رده على المخالف، مع طرحه التعصب للمذهب المالكي الذي إليه ينتسب. بل يعده كالمذاهب كلها، فمن وجد له الدليل القاطع، اتبعه فيه. وما ظهر له أنه لا دليل له صحيحا، رده ردا لطيفا.

[طريقة الحافظ ابن عبد البر
في الرد على المخالف بأدب، دون تضليل ولا تجهيل]

وللتبرك بأمثال هؤلاء الأعلام، الذين هم ورثة الأنبياء الكرام، أنقل هنا مسألة خلافية، ذكرها أبو عمر في كتابه "التمهيد"، ليظهر الفرق بين من يرد على المخالف بالقول الشديد، وبين من يرد بالدليل ويرشد إليه، دون تجهيل ولا تضليل. والعلم كله لله. ولا يحيط أحد بعلمه إلا بما شاء؛ إذ من علم شيئا، غابت عنه أشياء.

وهذا لفظ "الموطإ"، لما ذكر رواية إسحاق، عن حميدة بنت أبي عبيدة، عن خالتها كبشة، وكانت تحت ابن أبي قتادة؛ أن أبا قتادة دخل عليها، فسكبت له وضوءا، فجاءت هرة لتشرب منه، فأصغى لها الإناء حتى شربت، قالت كبشة: فرآني أنظر إليه، فقال: أتعجبين يا ابنة أخي؟ قالت: فقلت نعم، فقال: إن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: "إنها ليست بنجس، إنما هي من الطوافين عليكم، أو الطوافات". ثم صار أبو عمر يتكلم على هذا، [ثم قال]: ومن أسقط من حديث أبي قتادة عن النبي، عليه السلام، قوله:" إنها ليست بنجس"، فلم يحفظ، وقد ثبت ذلك بنقل الحفاظ الثقاة.هـ[التمهيد:318/1].

ثم ذكر الروايات بتصحيح أن الهر ليس بنجس، وأن لا بأس بفضل سؤره للوضوء والشرب، عن جماعة من الصحابة السادات: العباس وعلي، وابن عباس، وابن عمر، وعائشة، وأبو قتادة والحسن، والحسين. ومن التابعين: علقمة، وإبراهيم، وعكرمة، وعطاء بن يسار.

ثم ذكر من خالف في ذلك، فروى عن أبي هريرة، أن الهر كالكلب، يغسل منه الإناء من ولوغه سبعا. وعن الحسن البصري - في رواية - أن الإناء يغسل مرة واحدة. ثم ذكر رواية أخرى عن بعض التابعين.

(*) ترك المؤلف بياضا في الصفحة.

ثم جاء بما عليه الانفصال، المعضد بالرواية التي لا تحتمل أي اختلال، فقال: الحجة عند التنازع والاختلاف؛ سنة رسول الله، صلى الله عليه وسلم. [ثم قال]: ومن حجّته السنة، خصمته، وما خالفها مطروح، وبالله التوفيق.هـ [1-324].

هذا هو شأن أهل العلم في المناظرة مع أمثالهم من الأحياء، والمدافعة في الحق والتزام الإنصاف، دون إساءة أدب والرد بالعنف. وإن ظهر الحق في جانب بالدليل والبرهان، انقاد له دون تطاول ولا طغيان، كما سمعت من عبارة الحافظ أبي عمر.

[ابن حزم وخروجه عن حدود المُحاجة في ردوده، ومثال ذلك مسألة المسح على الجبائر]

والحافظ ابن حزم، وإن كان لا يُنازع في علمه واطلاعه، لكنه أفسده باستبداده، وأن الحق في جانب ما ذهب إليه، ويجهّل خصمه مبطلا في مقاله، منحرفا عن الصواب، قائلا بمجرد شهوته، وخارجا عن طريق السنة، وإن تقدم في معارفه وشهرة جلاله.

وأمثل لك بمسألة بسيطة، وهي مسألة المسح على الجبائر، الذي قال بذلك الأئمة: مالك والشافعي وأبو حنيفة، ولم ير هو ذلك، تعضيدا لمذهب داوود عنده. وهذا، وإن كان لما رجح عنده، أو عند من قلده، هو أمر لا بأس به، وهو شأن المجتهد، أو من قلده في ترجيح مذهبه، دون إبطال ما ذهب إليه غيره من أئمة الاجتهاد.

ولكن ابن حزم ذكر مذهبه، واستدل بحجته عليه، وعمد إلى مخالفه، فأشار إليه بوجوب بطلانه، وأنه خال من كل حجة، وأن مستنده الغرض والشهوة، فقال في صورة المسألة:

" ومن كان على ذراعيه أو أصابعه أو رجليه، جبائر أو دواء ملصق لضرورة، فليس عليه أن يمسح على شيء من ذلك. وقد سقط حكم ذلك المكان"، إلخ.[المُحلى: 74/2].

ثم صار يرد على من قال بالمسح على الجبائر، واستدلال من استدل بفعل ابن عمر، ورد ذلك ردا عنيفا، وجعله من قبيل الشهوة، فقال:

ومن المقت عند الله تعالى، أن تحتجوا فيما اشتهيتم، وتسقطوا الحجة به حيث لم تشتهوا. وهذا عظيم في الدين جداً. ثم قال بعد ذلك:

وممن رأى المسح على الجبائر: أبو حنيفة ومالك والشافعي، ولم ير ذلك داود وأصحابنا. هـ[المُحلىَ:76/2].

ولا[يخفى] ما في نسبة هؤلاء الأئمة الأعلام إلى القول بالشهوة والغرض، وحاشاهم من ذلك، لأنه يزيل بذلك ثقتهم. وكان يكفيه أن يقول: إن داود وأصحابه - وهو منهم - لا يقولون بالمسح. على أنه لم يأت لهذا المقال بنص من كتاب أو سنة

أو قول صاحب، كما يقول هو. ولو كان العكس في المسألة، لصاح بذلك وأكثر الإنكار، والله أعلم.

وعلى وجه الإجمال؛ إنه، كما تقدم مرارًا، أن علم أبي محمد ابن حزم لا يمكن أن ينازع فيه، كما أن مزيد اطلاعه على الحديث والآثار، ومذاهب التابعين الأعلام، هو في ذلك العَلَم المفرد، لأنه اطلع على أعداد من المؤلفات التي لم يتمكن منها في عصره أحد، لأنه، كما يظهر، ورث من تراث الخزانة الحَكَمية كل مؤلف نفيس، ومصنف فائق جامع، من تفسير وحديث وآثار، وغير ذلك من أحكام الصحابة والتابعين. يرشدك إلى ذلك، تلك "الرسالة" التي كتبها في تعداد المفاخر التي افتخر بها على المغرب، بل وعلى المشرق، بالمؤلفات والمصنفات التي ألفها علماء الأندلس، وأتوا فيها بكل رائع من العلوم والبدائع، إلى غير ذلك مما اكتسبه وعثر عليه، وهو إذ ذاك من أصحاب الحال والرئاسة. ولم يكن[له] إذ ذاك، فيما حاوله، من مدافع ولا ممانع؛ مع نبله وحفظه، وشدة غبطته بالعلم وجمع فوائده وفرائده، وإقباله على ذلك بالجمع والتأليف، وزهده - كما تقدم - في الوزارة. والله يؤتي علمه من يشاء. وهذا أمر اتفق عليه كل من ترجمه من أهل عصره ومن بعدهم؛ وناهيك ما حلاّه به عصريّه وتلميذه، الحافظ الثقة، أبو عبد الله الحميدي الأندلسي، في كتابه "جذوة المقتبس"، إذ قال إنه كان حافظا، عالما لعلوم الحديث وفقهه، مستنبطا للأحكام من الكتاب والسنة، متفننا في علوم جمّة، عاملا بعلمه، زاهدا في الدنيا بعد الرئاسة التي كانت له ولأبيه، حسبما قدمنا. وفيه يقول:

وما رأينا مثله، رحمه الله، فيما اجتمع له، مع الذكاء وسرعة الحفظ، وكرم النفس والتدين.هـ[ص291].

[لكن شدة تعصبه لمذهبه وإعجابه برأيه]، أثار عليه الانتقاد، ونسبته إلى سوء الاعتقاد، والتنفير من علمه ومؤلفاته، وامتدّ [ذلك] للعموم والأفراد، ولم يكتفوا بالطعن فيه وفي مؤلفاته، حتى أثاروا الحكومة عليه؛ فجمعت كتبه، وأحرقها المعتضد ابن عباد بإشبيلية. قال منشدا في ذلك:

دعوني من إحـــراق رَقّ وكاغــد وقولوا بعلم، كي يرى الناس من يَدري
فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي تضمنه القرطـاس، فهـو في صـــدري
يســير معي حيث انتقلتْ ركـــائبــي وتنــزل، إن أنــزل، وتـدفـن في قبـري

وعليه، فالرجل كان ممن أفنى عمره في اقتناء العلم ومراجعة أصوله، من الحديث والتفسير، ومذاهب الصحابة والتابعين، حتى كمل نصابه، وامتلأ وطابه؛ فواظب على الجمع والتأليف في كل ما حواه من العلوم؛ فقد نقل صاعد في "تاريخه": أخبرني ابنه الفضل، أنه اجتمع عنده من تواليف أبيه نحو أربعمائة مجلد. هـ باختصار.[طبقات الأمم:103].

قلت: وقد نُشر منها في تاريخنا هذا، من المؤلفات الكبيرة الغزيرة في الفقه، وفيها من أقوال المذاهب والصحابة والتابعين، شيء كثير. وفيها من القبول والرد، والاحتجاجات المؤذنة باتساع اطلاعه، ومعرفته بالحديث وصحيحه وضعيفه؛ لولا أنه أكثر[في] التعصب لمذهبه، حتى صار يصرح، أو ما يؤذن بالتصريح، بأنه المصيب، وأن غيره مخطئ.

وخطأ أئمة المذاهب الأربعة وأمثالهم، فيما خالفوه فيه، وأبطل حججهم. وربما تعدى تخطيئه إلى بعض الصحابة، وربما نسب لبعض أهل المذاهب ما يُؤذن بجهلهم، أو حكمهم بالشهوة والغرض، دون استناد إلى نص من كتاب أو حديث؛ فخرج بذلك عن أدب العلم وحدود المحاجّة والمناظرة، لأن أصل المناظرة والمحاجّة، هو استخراج الحق ممن يُتوسّم فيه الاطلاع عليه. فإذا اتضح الحق وبان من أي قائل به؛ وجب قبوله، دون استخراج ما يبطله من فلسفة أهل الجدال والمراء المنهي عنه شرعا؛ لأن التماس الحق من أهله، وقبوله والانقياد له، إذا بان، كان من شأن الصحابة، رضي الله عنهم.

قال في "الإحياء": كتشاورهم في مسألة الجد والإخوة، وحدّ شرب الخمر. قال: وما نقل عن الشافعيّ، وأحمد، ومحمد بن الحسن، ومالك، وأبي يوسف، وغيرهم من العلماء.(*) وهو كان من التعاون على طلب الحقّ.

قال الحافظ ابن عبد البر في كتاب العلم: وأما تناظر العلماء، ومجادلتهم في مسائل الأحكام، من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، [فـ]أكثر من أن تحصى. ثم ذكر من ذلك أمثلة وقضايا، منها ما وقع لزيد بن ثابت، مع سيدنا علي في المُكاتب، واحتجاج كل واحد لمذهبه. قال أبو عمر:

قال زيد بن ثابت لعليّ في المُكاتب: أكنت راجمه لو زنى؟ قال: لا. قال: فكنت تجيز شهادته؟ قال: لا. قال: فهو عبدٌ ما بقي عليه درهم. وذكر أيضا ما احتج به زيد هذا على من خالفه من الصحابة إذ خاصموه في ذلك. قال:

وناظر عبيد الله بن عمر أباه في المال الذي أعطاه إياه أبو موسى الأشعري هو وأخاه (أي قراضا)، وقال عبيد الله: لو تلف المال ضمنّاه، فلنا ربحه بالضمان.[جامع بيان العلم:107/2].

[شروط المناظرة وآفاتها]

وعلى الجملة؛ فإن المناظرة مشروعة، معمول بها في السلف الصالح، إن كانت بشروطها، وحقها المشروط فيها. قال أبو عمر(*):

(*) الإحياء: 32/1

(*) [سياق الكلام عن المزني].

وحق المناظرة أن يُراد بها وجه الله، عز وجل، وأن يُقبل منها ما يتبين. وقالوا: لا تصح المناظرة ويظهر الحق بين المتناظرين، حتى يكونا متقاربين أو متساويين في مرتبة واحدة؛ من الدين والفهم، والعقل والإنصاف، وإلا فهو مراء ومكابرة.هـ[جامع بيان العلم:108/2].

وقد ذكر حجة الإسلام الغزالي في "الإحياء"، فصلا في المناظرة، والممدوح منها والمذموم، وشروطها المحمود منها، فذكر لها ثمانية شروط. وما في الشرط الثامن:

أن يناظر من يتوقع الاستفادة منه، ممن هو مشتغل بالعلم. قال: ووراء هذه شروط دقيقة كثيرة. ولكن في هذه الشروط الثمانية، ما يهديك إلى من يناظر لله، ومن يناظر لِعلّة. ثم قال، وهو عندي المهم في مبحثنا:

" واعلم بالجملة، أن من لا يناظر الشيطان وهو مستول على قلبه، وهو أعدى عدوّ له، ولا يزال يدعوه إلى هلاكه. ثم يشتغل بمناظرة غيره في المسائل التي المجتهد فيها مصيب، أو مساهم للمصيب في الأجر، فهو ضحكة للشيطان، وعبرة للمخلصين. ولذلك شمت الشيطان به، لما غمسه فيه من ظلمات الآفات التي نعدّدها ونذكر تفاصيلها". [الإحياء:34/1].

ثم ذكر حجة الإسلام بيان هذه الآفات، بعد أن ذكر أصل منشإ هذه المناظرة التي هي لغير الله، فقال:

اعلم وتحقق أن المناظرة الموضوعة لقصد الغلبة والإفحام، وإظهار الفضل والشرف، والتشدّق عند الناس وقصد المباهاة والمماراة، واستمالة وجوه الناس؛ هي منبع جميع الأخلاق المذمومة عند الله، المحمودة عند عدوّ الله إبليس.

ثم صار يذكر تلك الأخلاق، فقال: فمنها: الحسد. ثم عقب ذلك بأن هذا الداء يكثر في الفقهاء وأهل العلم. قال: ولذلك قال ابن عباس، رضي الله عنهما: خذوا العلم حيث وجدتموه، ولا تقبلوا قول الفقهاء بعضهم على بعض، فإنهم يتغايرون، كما تتغاير التيوس في الزريبة. ثم قال: ومنها: التكبر والترفع على الناس. ولا يخفى ما ورد في الكبر والترفع، كما ذكر حجة الإسلام. ومنها: الحقد، الذي لا يكاد المناظر يخلو منه. قال: ومنها: الغيبة، وقد شبهها الله بأكل الميتة. ولا يزال المناظر مثابرا على أكل الميتة، فإنه لا ينفك عن حكاية كلام خصمه ومذمته. وغايته أن يُصدّق فيما يحكيه عليه، ولا يكذب في الحكاية عنه؛ فيحكي عنه لا محالة، ما يدل على قصور كلامه، وعجزه ونقصان فضله؛ وهو الغيبة، فأما الكذب فبهتان. وكذلك لا يقدرعلى أن يحفظ لسانه عن التعرض لعرض من يعرض عن كلامه، ويصغى إلى خصمه ويقبل عليه، حتى ينسبه إلى الجهل والحماقة، وقلة الفهم والبلادة.

ثم انطلق يتمم تلك الأخلاق الذميمة التي تنشأ عن هذه المناظرة المذمومة، ثم ما قاله في المناظرة المذمومة من الآفات والآثام.

وهذا كله مع المناظرة التي تكون بين اثنين حاضرين. أما إن كانت هذه الردود وهذه التضليلات والانتقادات مع الراد والمنتقد، في غيبة خصمه، فهذه أكبر وأعظم. إنما إذا كان الحاضر، يمكن له أن يدافع عن نظره ما أمكن، ويبدي من حججه ما يندفع به عليه خصمه. أما هذه الردود المنفرد فيها الراد؛ فهي غيبة محضة، فهي كقول أبي الطيب:

وإذا ما خلا الجبــان بأرض طلب الحرب وحده والنّـزالا

والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل. ولنقرأ هنا قول الله، عز وجل، لخاتم أنبيائه، المصطفى المختار من أصفيائه: (ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالتِي هِيَ أحْسَنُ).

وكل هذه المنازعات وهذه المناظرات، إن كانت لتعضيد الحق البيّن، وكان القول بذلك من الواجب المتعين؛ فهي من قبيل تغيير المنكر، فيجب القيام به، إذا لم يؤد إلى ما هو أكبر؛ وإلا فالواجب على الإنسان إمساك لسانه، ويترك الكل ويكله إلى شأنه. وكلنا متطلب راج لعفو الله وإحسانه.

[الرجوع إلى موضوع التزام الحافظ ابن عبد البر بأدب العلماء عند الاختلاف، ومواصلة الكلام على ابن حزم]

ولنرجع إلى ما ابتدأنا الكلام عليه، ولم نأت بتمامه، فأقول:

مما قدمناه، أن الحافظ ابن عبد البر، كان من أقران الحافظ ابن حزم، بل ربما كان من شيوخه، لأنه يروي عنه كثيرا. وابن عبد البر ربما يوافقه في معظم أفكاره، وهي رفض التقليد الذي عمّ زمانه، وأعرض الناس فيه عن الاعتناء بالأصول، من الكتاب والسنة، وأقبلوا على "قال فلان"، و"أخبر به فلان"، وجعلوا أراءهم وفتاويهم أصولا يفتون عليها. وقد تقدم نص ابن عبد البر في ذلك، وعقد في كتاب العلم فصلا أنكر فيه التقليد، نثرا ونظما، وربما كان يوافق ابن حزم.

ثم إن ما ذكره[كان] مناسبا لما وقع بالأندلس، أثناء القرن الخامس، من ضعف الهمم وقصورها، وهجر[أهلها] ممدُود أصول العلوم، واغتبطوا بمقصورها.

ولكن ابن عبد البر، لم يخلع عنه حلة مذهبه، ولم يتصدّ لتضليل فرد من أفراد العلماء وينزله عن منصبه. بل التزم مذهبه، مع عرض كل مسألة تعرض له على أصولها، ووصلها بأبوابها وفصولها. وإن عارضه خلاف يخالف ما وقع عليه اعتماده، واقتضاه رأيه واجتهاده؛ عارضه بالتي هي أحسن، دون تجهيل ولا تأثيم، اتباعا للأدب المطلوب من أهل العلم المتحققين به، الذين لا يرون لأنفسهم علوّا ولا امتيازا، اقتداء بإمام مذهبه وغيره من الأئمة السابقين، كما تقدم لنا فيما كان عليه

الإمام مالك، مع علوّ مقامه وشهرته، واغتباط الناس به، وعموم الثناء عليه في أيامه.

وما أصيب الحافظ ابن حزم بإدبار الناس عنه وجفائه؛ إلا بمخالفة هذا المنهج المستقيم، وعدم التخلق بهذا الخلق الحسن، الذي هو الأدب العلمي؛ من التواضع وترك الكِبْر ودعوى الانفراد، والإحاطة بالعلوم التي لم يحط بها أحد.

وهذا الخلق، هو أجمل ما يتحلى به العالم الرباني: يتعلم لله، ويعلم لله، ويناظر في الله. فإن وافق الصواب، فمن الله، وإن أخطأ، فهو بشر كالبشر، وهو أصله. ولهذا رفع الله عنه المؤاخذة فيما أخطأ، ولكن ما تعمدت به القلوب، كما في القرآن. وفي الحديث: " وضع عن أمتي الخطأ والنسيان، وما استكرهوا عليه".

وفي "الحلية" لأبي نعيم، في ترجمة الإمام [الزهري]، عن الأوزاعي، عن الزهري، قال: كنا نأتي العالم، فما نتعلم من أدبه أحب إلينا من علمه.هـ[362/3].

وفي مخالفة الحافظ ابن حزم لطريقة ما قدمناه، من التواضع وأخذ أدب العلم من أهله، قال الإمام الحفاظ النظار، أبو إسحاق الشاطبي، الوحيد في علمه، الفريد في دقة فهمه، في فصل أمارات العالم المتحقق، فقال:

أحدها : العمل بما علم، حتى يكون قوله مطابقا لفعله. إلخ، ثم قال:

والثانية: أن يكون ممن رباه الشيوخ في ذلك العلم، لأخذه عنهم، وملازمته لهم؛ فهو الجدير بأن يتصف بما اتصفوا به من ذلك. وهكذا كان شأن السلف الصالح؛ فأول ذلك ملازمة الصحابة، رضي الله عنهم، لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأخذهم بأقواله وأفعاله، واعتمادهم ما يرد منه، كائنا ما كان. [الموافقات:58/1].

ثم أخذ يذكر قضايا وقعت للصحابة مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تفيد ما أفاده من أن المتحقق من أهل العلم، لا بد أن يكون ممن لا زم الشيوخ وأخذ عنهم، ومثل لذلك بحال الصحابة مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى أن قال:

" وحسبك من صحة هذا القاعدة، أنك لا تجد عالما اشتهر في الناس الأخذ عنه، إلا وله قدوة اشتهر في قرنه بمثل ذلك. وقلما وجدت فرقة زائغة، ولا أحدا مخالفا للسنة، إلا وهو مفارق لهذا الوصف. وبهذا الوجه، وقع التشنيع على ابن حزم الظاهري، وأنه لم يلازم الأخذ من الشيوخ، ولا تأدب بآدابهم. وبضد ذلك كان العلماء الراسخون، كالأئمة الأربعة وأشباههم".هـ[الموافقات:59/1].

قلت: وملازمة العلماء لأشياخهم والأخذ عنهم، شيء معروف، وفي غير ما ديوان موصوف؛ وناهيك بشأن إمام الأئمة، مالك بن أنس، وكثرة أخذه من الشيوخ، والتخلق بأخلاقهم، وتتبع آثارهم. وكذلك كان شأن أشياخه. وناهيك بما كان عليه شيخه الإمام الزهري، وهو القدوة، الذي كان لأهل العلم أسوة، وما كان له من الحرص على الأخذ من الشيوخ، والتردد إليهم في ذلك، ولو أهين وعومل بما لا يناسب قدره.

ففي "الحليـة"، فـي ترجمـة الإمـام الزهـري، فـي روايـة عـن الإمـام مالـك، عن الزهري، قـال: خـدمت عبيـد الله بـن عبـد الله بـن عتبـة، حتـى إن كـان خادمـه ليخرج فيقول: من بالباب؟ فتقـول الجارية: غلامـك الأعيمش ـ فتظن أنـي غلامـه. وإن كنت لأخدمه، حتى لأستقي له وضوءه.

وروى أيضا عن مالـك عـن الزهـري، قـال: تبعتُ سـعيد بـن المسيب فـي طلب الحديث ثلاثة أيام.[362/3].

وفيهـا أيـضا عـن الزهـري، قـال: كـان يـصطاد العلـم بالمـساءلة، كمـا يـصطاد الوحش.[363/3].

وروى أيضا عن مالك عن الزهري، قال: جلست إلى ثعلبة بن أبـي صـغير، فقال: أراك تحب العلم! فقلت: نعم. قال: عليك بذلك الشيخ، يعنـي سـعيد بـن المـسيب. قال: فلزمت سعيد بن المسيب سبع سنين، وتحولت من عنده إلى عروة؛ ففجرت عن ثبج بحر.[366/3].

[تفسير كلام الشاطبي
في ابن حزم، من أنه لم يلازم الشيوخ]

ثم مـا قالـه الإمـام الشاطبي فـي حـق ابـن حـزم، مـن أنـه لـم يـلازم الـشيوخ؛ ليس مراده أنه لم يكن له شيخ يروي عنه، الخ؛[بل] معناه أنه لم يلازم شيخا خاصا يأخذ عنه ويقتدي به، كما كان شأن من تقدمه من الصحابة والتابعين، ومـن بعدهم كمالك بن أنس وغيره من تابعي التابعين.

أمـا مطلـق الروايـة والأخـذ، فـإن معاصـره الحـافظ الحميـدي، قـال فـي "جـذوة المقتبس"، في حقه: وسمع سماعا جمّا. وأول سماعه من أبي عمر، أحمد بن محمد بن الجسور، قبل الأربعمائة.هـ.

وقد ترجم لابن الجسور؛ الحميدي في "تاريخه" المذكور، فقال فيـه، فـي صفحة 99:

أحمد بن محمد بن أحمد بن سعيد، أبو عمر، يعرف بـابن الجسور الأمـوي، مولى لهم: محدث مكثر. سمع أبـا علـي، الحسن بن سلمة بـن سلمون، صـاحب أبـي عبد الرحمان النسائي، وأبا بكر، أحمد بن الفضل بن العباس الدينوري؛ حدث عنـه بكتاب "التاريخ" لمحمد بن جرير الطبري، حدّثه به عن الطبري؛ وأخبرنا به أبو عمر ابن عبد البر.

ثم ذكر سماعه من أهل الأندلس، قـال: وسمع منـه جماعـة، منـهم: أبـو عمـر بن عبـد البـر النميـري، وأبـو محمـد، علـى بـن أحمـد. وأخبرنـي عنـه أبـو محمـد بكتـاب "التاريخ" أيضا، وقال لي: إنـه أول شيخ سمع منـه قبل الأربعمائـة.هـ. قلت: وأبو محمد، يعني بـه ابن حزم، كمـا هـو ظـاهر. ثم ذكر الحميدي وفاتـه بمنزلـه بقرطبـة، سنة401.

ففي هذا ما يعرفك أن لابن حزم شيوخا، وأنه ممن اشترك[معه]في الأخذ عنهم، أبو عمر ابن عبد البر.

وبكل هذا تعلم أن ابن حزم كان من أعلام أهل الإسلام، وأنه أخذ عن أشياخ من أهل الأندلس عظام، وأنه ممن اتخذ العلم سميره، والجمع والتأليف أنيسه وخليله، وأنه عالم شارك في الفنون؛ من حديث وفقه وأدب، حتى حاذى أكابر الحفاظ بالمناكب. وإن ادعى الاجتهاد، وتحدى بذلك أهل عصره، فلا ينكرْ ذلك[عليه]المنكرون. وفي ذلك يقول:

أنا الشمس في جو العلوم منيرة   ولكن عيبي أن مطلعي الغربُ
ولو أنني من جانب الشرق طالع   لجدّ على ما ضاع من ذكريَ النهبُ

إلى أبيات أخر، إلى أن قال:

ولكن لي في يوسف خير أسوة   وليس على من بالنبيّ ائتسَى ذنبُ
يقول، وقال الحق والصدق، إنني   حفيظ عليم؛ ما على صادق عتبُ

والحقيقة أن ابن حزم ظهر علمه، وغزر حفظه وثقب فهمه، في عصر كان فيه أهل العلم قد قصرت هممهم عن مقام حفظ الحديث والآثار، وأخذ الأحكام منها ومن أصلها، القرآن الكريم؛ وصار العالم بذلك، قبل ابن حزم، مفقودا، أو عزيز الوجود. فاغتنم ابن حزم ـ المنفرد في عصرهم بهذه العلوم، إذ خلت الديار، ولم يقف في وجهه مبار يباريه في هذا المضمار ـ فأغار على تلك الجملة الصغرى التي كانت أسيرة التقليد، وإمّعة تُسائل هذا وذا؛ ما حكم القضية التي كانت تجتهد فيها الأئمة؟ فاغتنم الفرصة في استصغار هذه الشرذمة الخارجة عن منهج التحصيل، وصار يعارضهم ويبطل مذهبهم.

وبما أن أهل الأندلس كانوا كلهم مالكية، بمقتضى المرسوم الحكومي، جعل المذهب المالكي مرماه. وربما تعدى ما رماهم به إلى إمامهم، وصار يقول: أنا الشمس في سماء العلم، فهل من قادر على الصعود، ليدرك ما أدركته؟.

ولكن أهل الأندلس، لم يتحملوا ردّ مذهبهم، ولا تضليل ما هم عليه فيه من تقليد إمامهم؛ فتصدّوْا لرد هجومه، والإعلان بمروقه عن المنهج القويم وخروجه. وأثاروا عليه العامة، وفتحوا[باب] ما اقتحموه من تلك الطامة، وما أدراك ما عندهم من تلك الطامة، حتى سعوا في طرده وإخراجه من بلده، كما تقدم.

فكان هذا، والله أعلم، مما زاد في إغلاظه عليهم وعلى مذهبهم، وعلى غيره من المذاهب، وأشار إلى أن من أنكر عليه، إنما ينكر ما يدعو إليه من القرآن والسنة، إذ قال:

منابي من الدنيا علومٌ أبثها   وأنشرها في كل بادٍ وحاضر
دعاءٌ إلى القرآن والسنن التي   تناسىَ رجالٌ ذكرها في المحَاضِر

وقال:

أبنْ وجه قول الحق في نفس سامع   ودعْه، فنور الحق يَسْري ويُشرقُ

سيؤنسه رفقا، فينســى نِفَــاره   كما نســي القيْـدَ المُوثّق مطلـقُ

[عواقب الحقد والغضب،
وتشبيه لسان ابن حزم بسيف الحجاج]

ثم إنك أيها المنصف، الناطق بالحق؛ [تعلم] إن ابن حزم عالم في بابه، العلم المفرد؛ وهو أمر يقول به حتى عدوّه، لا يرجع عنه ولا يتردد. إلاّ انه لما أثير غضبه، وامتلأ قلبه من الحقد والغضب، ذهب إلى التضليل والقول الجاهر بالسوء كلّ مذهب. ولهذا قال المؤرخون: سيف الحجاج، ولسان ابن حزم، شقيقان.

ومع هذا فإنه عند اشتداد نار الغضب، يفقد العالم والأديب كل الأدب، ويتجرد من كل سكينة وأدب؛ لأن استيلاء الغضب على الإنسان، يذهب عقله، ويجرده من تثبته وزينته، ويوقعه في المهالك. ولهذا أمر النبي، صلى الله عليه وسلم، بالبعد عنه؛ فروي عن أبي هريرة أنه قال: يا رسول الله: أوصني بعمل وأقلل. قال: " لا تغضب"، ثم أعاد عليه، فقال: " لا تغضب". وقال ابن عمر: قلت لرسول الله، صلى الله عليه وسلم: قل لي قولا وأقلّه، لعلي أعقله، فقال: "لا تغضب"، فأعدت عليه مرتين؛ كل ذلك يرجع إليّ: "لا تغضب". وروي ذلك عن غيرهما.

ولأهل العلم وأصحاب التربية، عبارات في ذم الغضب وما يئُول إليه، وأنه يذهب العقل ويوقعه فيما لا تحمد عقباه. [ولما يسببه]الغضب للعقول، وإفساده للشعور، وإيقاعه في المحظور؛ حذّر منه الرسول الأمين، وأكد على تركه، الحين بعد الحين.

وفي "الإحياء"، أوصى رجل لابنه فقال: يا بني، لا يثبت العقل عند الغضب، كما لا تثبت روح الحي في التنانير المسجورة.[144/3].

ولهذا، كان مذهب بعض الأئمة، بعدم لزوم الطلاق في حين الغضب الشديد، محتجا بحديث "لا طلاق في إعراق" الخ، عند من فسر الإعراق بالغضب، وفيه خلاف.

ولكن هذا لا يصح في هذا الحال، الذي كان يعنف فيها الحافظ ابن حزم على الأئمة المالكية الكبار.

هذا، وكنت في بعض الحالات، أريد أن أدخله تحت قول سيدنا عمر بن الخطاب، فيما أخرجه الإمام أحمد في الزهد، عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه قال: لا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءًا وأنت تجد لها في الخير محملا. وأخرج البيهقي في "الشعب"، عن سعيد بن المسيب: كتبت إلى بعض إخواني من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن ضع أمر أخيك على أحسنه، حتى يأتيك ما يغلبك. ولا تظنن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شرا، وأنت تجد لها في الخير محملا، إلى غير ذلك مما ورد في الترغيب في تحسين الظن بأهل الإسلام، ما لم يتضح الضر، ولا يوجد له تأويلٌ.

ولكن وجدت في كلام الحافظ ابن حزم، التصريح بالسوء في مواضع، ونقل عنه نقلا متواترا من المتقدمين والمتأخرين.

ثم إننا قدمنا أنا لا ننكر عليه ردّ قول مذهب من المذاهب، بالحجج التي عثر عليها دونهم، أو صحت عنده، ولم تصح عندهم، سواء - كما قدمنا - كان مستقلا في الاجتهاد، أو كان ترجيحا لمذهب مقلده. وكان حسبه أن يبين حججه أو نظره بلطف ولين، كما كان يفعله الأشياخ [من] المتورعين، من المتقدمين والمتأخرين.

[ذكر أغلاط العلماء، هو لبيان الحق، وليس لإظهار العيب]

ويعجبني في هذا الموضوع، ما قاله الحافظ ابن الجوزي في كتابه "التلبيس"، لما ذكر التصوف، وسمّى من هم على الطريق السالم، مما لا ينافي الشريعة، وتمسكهم بالكتاب والسنة؛ وذكر منهم الجنيد، وأبا سليمان الداراني، والبسطامي وغيرهم، وما صرحوا به من أن طريقهم التمسك بالكتاب والسنة، وتبرؤهم ممن يحيد عن منهجهما، ثم قال:

" وإذ قد ثبت هذا من أقوال شيوخهم؛ وقعت من بعض أشياخهم غلطات لبعدهم عن العلم. فإن كان ذلك صحيحا عنهم، توجه الرد عليهم، إذ لا محاباة في الحق. وإن لم يصح عنهم، حذرنا من مثل هذا القول وذلك المذهب، من أي شخص صدر. فأما المشبّهون بالقوم، وليسوا منهم، فأغلاطهم كثيرة، ونحن نذكر بعض ما بلغنا من أغلاط القوم. والله يعلم أننا لم نقصد ببيان غلط الغالط، إلا تنزيه الشريعة، والغيرة عليها من الدخل. وما علينا من القائل والفاعل، وإنما نؤدي بذلك أمانة العلم. وما زال العلماء يبين كل واحد منهم غلط صاحبه، قصداً لبيان الحق، لا لإظهار عيب الغالط".

ثم ذكر عن يحيى بن سعيد، قال: سألت شعبة، وسفيان بن سعيد، وسفيان بن عيينة، ومالك بن أنس، عن الرجل لا يحفظ، أو يُتهم في الحديث؟ فقالوا جميعا: يبيّن أمره. وقد كان الإمام أحمد بن حنبل، يمدح الرجل ويبالغ ، ثم يذكر غلطه في الشيء بعد الشيء، وقال: نعم الرجل فلان، لولا أن خلة فيه. هـ.[ص168].

فهذا المحدّث الحافظ، الناقد للأحاديث، الذي يقبل منها ما يقبل، ويرد منها ما يرد؛ شأنه بيان الغلط، كما بين هو شأنه من الشيوخ، من الصوفية وغيرهم، وأنه يرد غلطهم إن عثر عليه، ولا يتعرض لشخص الغالط، وتجهيله والحط من قدره، كما يفعل الحافظ ابن حزم. تجاوز الله عنه، وغفر له ما اجترم من تجاوزه الحدود، فيما أطنب به من الردود، من غير مراعاة لأدب المناظرة، ولا اتباع أعلام الأمة في أدبهم في رد الخطإ، الذي يعد غلطاً، أو سهوا أو غفلة أو نسيانا. مع أنه يعلم أن الكلام فيه

المقبول والمردود، إلا كلام الرسول الذي لا ينطق عن الهوى، بل هو بالوحي من رب الأرباب، الحاكم بين عباده، ولا مردّ لحكمه وقضائه، وهو الحليم الودود.

[التنويه بكتاب "المُحلّى" لابن حزم]

ثم نرجع، فنقول: إن من نظر في كتبه، ولاسيما "المُحلّى"، فيجده من المراجع العظيمة، والمواد النفيسة لمن يريد الاطلاع على أقوال المذاهب من الصحابة والتابعين، وعلى أدلة الأئمة المجتهدين ومآخذهم.

فهو كتاب جليل عندي من هذه الناحية. كما أنه من الأدلة الواضحة على أن مؤلفه ممن صرف أوقاته وعامة حياته في الاشتغال بالحديث والآثار، وما استخرجه من طريق الاعتبار، لو كان اقتصر على ما أطلعه الله عليه من تلك المعارف الغزار. لكنه، رحمه الله، اتبع غير سبيل المرشدين، من أهل الرسوخ من الشيوخ الهادين المهتدين.

ومع هذا، فإني أقدره وأجل مقامه العلمي، واغتباطي به[شديد]، وأود لو كان اتبع الطريق المثلى، ومقام الدعوة إلى الحق، دون تضليل ولا تعنيف، لكان له المقام الأعلي في المعارف حديثا وفقها، واطلاعا على الأقوال والمذاهب، ونقد الحديث، ومعرفة صحيحه من سقيمه.

ثم إنه يؤخذ من تراجم أهل عصره له من الأعلام،[أنهم] يحلونه بأجمل الحلى ويصفونه، كما سبق، بالعلم والعمل، والزهد والورع، والديانة المتينة، ولا يتعرضون لهذه الزلات التي تناقض الديانة والورع. ومما يؤيد ما قلناه سابقا، هو صداقته ومصاحبته لأئمة حفاظ ثقاة، وروايته عنهم، بل وأخذوا هم عنه، كالحافظ الحميدي، وعمدة أهل الأندلس في الفقه والحديث وغير ذلك، بل وهو عمدة مذهب مالك،[الحافظ ابن عبد البر]. وكان، فيما يظهر، من أخص أصدقائه، لأنه يماشيه في الطرقات. ويؤخذ ذلك مما كتبه في رسالته التي نوه فيها بأهل الأندلس، وتقدمهم في المؤلفات الجليلة؛[إذ] أثنى على "التمهيد" لابن عبد البر، الثناء الجميل، حتى[قال] إنه لم يؤلف مثله في الإسلام. وهو عجيب جدا؛ لأن ابن عبد البر من أكبر علماء مذهب مالك. ولكنه، وإن كان في طبقات المجتهدين، وإمام الفقهاء والمحدثين، كان متمسكا بمذهب مالك. وإن ألفى قولا فيه مخالفة لما أدى إليه اجتهاده، من العثور على نص أو حجة مخالفة، تدارك ذلك برد لطيف، وأدب لائق بالمقام، لا رد تضليل وتعنيف.

وإني أفهم بحسب العادة أن ابن حزم، كان لا يخالف ابن عبد البر في أدبه العلمي، والله أعلم. وهذا يوافقه أن كل المؤرخين الذين ترجموا له، لم يذكروا لابن حزم هذه الزلات. ولعله لم يكن إذ ذاك تحلى بها، ولا كان يتخذها طريقا للرد، أو كان لا زال في سن لم تكن أهلا لإشهار أقواله. والله أعلم.

ويدل لما فهمناه، أن الحافظ الذهبي، سابق حلبة المؤلفين في التعديل والتجريح، أثنى عليه الثناء الجميل، وحلاه بما حلاه به غيره بالعلم والصلاح. ولكن ورد عنه فيه ما يخالفه، فقد وجدت مكتوبا بخطي، في أول ورقة من كتاب ابن حزم، المسمى بـ"الإحكام، في أصول الأحكام"، ما لفظه:

قال الحافظ الذهبيّ في حق ابن حزم، في كتابه "سير النبلاء"، بعد ذكر مناقبه ومعايبه: وأنا أميل إلى محبة أبي محمد، لمحبته للحديث الصحيح، ومعرفته به، وإن كنت لا أوافقه في كثير مما يقوله في الرجال والعلل، والمسائل البشعة في الأصول والفروع. وأقطع بخطئه في غير مسألة. ولكن، لا أكفره ولا أضلله. وأرجو له العفو والمسامحة، وأقطع بفرط ذكائه وسعة علمه.هـ من " فهرسة الفهارس"، أي للشيخ سيدي عبد الحي الكتاني الفاسي.

* * *

ثم نعود إلى إتمام هذه السلسلة الطويلة التي صاغها، بجريان القلم في تتبعها: [و]هو الإبانة عما كان لابن حزم من اطلاعه الفائق على كتب اليهود والنصارى، من التوراة والإنجيل، ويفوق أهلها في ذلك؛ وجئنا في ذلك باحتمال أن ابن حزم ربما كان يراجع كتبهم المترجمة، أو يترجمها هو بنفسه، لأنه لا يبعد أن يكون يعرف لغتهم، لشدة الاتصال والمخالطة مع المجاورين.

وهناك نقلنا ما يقوله بعض الأجانب، في التنويه بتقدم الدولة الأموية في تلك الدهور. وقد سبق ما وصف به ابن سعيد ما كان عليه أهل الأندلس باشتغالهم بالعلوم الدينية، والتحلي بالانتماء إليها، من الفقه والحديث وحفظ القرآن، حتى إن النساء كن يحفظن القرآن ويكتبن المصاحف، وفيهن جماعة كثيرة، في أرباض العاصمة القرطبية، حرفتهن تلك الأعمال المرضية.

وكانوا يعادون العلوم الفلسفية عداوة فائقة، حتى إن من اشتغل بذلك، سموه ملحدا خارجا عن الدين. وكل ذلك سبق تفصيله.

ولذلك لم يكن شأن أعلامهم وأئمتهم، الذين هم القدوة والمرجوع إليهم في أمور الدين، الاهتمام بشيء من هذه العلوم. وإنما كان اعتناؤهم بعلوم القرآن وتفسيره، ورواية الحديث، والتفقه في الدين، حتى كان الفقه عندهم هو منتهى آمالهم، وأشرف مقاصدهم، حتى صار عندهم وصف الفقيه، أسمى اسم ولقب يلقبون به رؤساءهم، من أمرائهم ووزرائهم.

ولهذا لم يتأسف قدوة أهل الأندلس، وعالمهم ومحدثهم، ابن عبد البر، عند تراجع أمر الأندلس، إلا مما رأى فيهم من التقاعد عن طلب العلم والإقبال عليه، والأخذ بأصوله من القرآن الكريم، وسنة رسوله النبي الأمين، حسبما سبق نصّه.

وكان ذكر ذلك في (باب رتب الطلب، والنصيحة في المذهب)، وهو فصل مهم نفيس. وكنا ذكرنا كلام هذا الإمام، بيانا لهذا التأخر والقصور الذي اعترى العلم في الأندلس؛ فوجد الحافظ ابن حزم [بذلك] ثلمة وفرجة دخل منها لإظهار امتيازه

وانفراده في هذا الباب، حتى انضمت إليه العامة، وحاولت أن تجعل مذهبه ناسخا لمذهب مالك في الأندلس.

[شرح الإمام ابن العربي لهذا المبحث]

وقد شرح هذا المبحث، بعد الإمام ابن عبد البر، القاضي أبو بكر ابن العربي، إذ قال في كتاب "الديباج" لابن فرحون، في كتاب "العواصم والقواصم" عنه، بعد أن ذكر ما وقع في الغرب من الفتن، إذ قال: عطفنا عنان القول إلى مصائب نزلت بالعلماء في طريق الفتوى لما كثرت البدع، وذهب العلماء، وتعاطت المبتدعة منصب الفقهاء، وتعلقت بهم أطماع الجهال، فقالوا بفساد الزمان، ونفوذ وعد الصادق في قوله، صلى الله عليه وسلم: "اتخذ الناس رؤساء جهالا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلّوا "، وبقيت الحال هكذا؛ فماتت العلوم، إلا عند آحاد الناس، واستمرت القرون على موت العلم وظهور الجهل، وذلك بقدرة الله تعالى. وجعل الخلف منهم يتبع السلف، حتى آل الحال إلى أن ينظر في قول مالك وكبراء أصحابه، ويقال: قد قال في هذه المسألة أهل قرطبة، وأهل طلمنكة، وأهل طلبيرة، وأهل طليطلة. وصار الصبي إذا عقل، وسلكوا أمثل طريقة لهم، علموه كتاب الله تعالى، ثم نقلوه إلى الأدب، ثم إلى "الموطإ"، ثم إلى "المدونة"، ثم إلى "وثائق" ابن العطار، ثم إلى "أحكام" ابن سهل، ثم يقال: قال فلان الطليطلي، وفلان المجريطي، وابن مغيث، لا أغاث يداه، فيرجع القهقرى، ولا يزال إلى وراء. ولولا أن الله تعالى مَنّ بطائفةٍ تفرقت في ديار العلم، وجاءت بلباب منه، كالقاضي أبي الوليد الباجي، وأبي محمد الأصيلي؛ فرشوا من ماء العلم على هذه القلوب الميتة، وعطروا أنفاس الأمة الزفرة، لكان الدِّين قد ذهب. ولكن تدارك الباري سبحانه بقدرته، ضرر هؤلاء، بنفع هؤلاء، وتماسكت الحال قليلا، والحمد لله تعالى.هـ.[الديباج المذهب: 121].

فترى القاضي أبا بكر ابن العربي، جرى في منهج سلفه أبي عمر ابن عبد البر، ولكن كلهم لا ينكرون التقليد، ويحملون الناس كلهم على الاجتهاد. يفسر ذلك ما اتخذوه طريقة مثلى في مؤلفاتهم، من أنهم لا يرفضون تقليد الأئمة الأربعة المجتهدين. ولكنهما لا يقولان بالتقليد الأعمى،[دون] الرجوع إلى الأصول، عند الاختلاف في النقول،[لا]إلى قول القرطبي، ولا الطلمنكي ولا غيرهما، ولا يجعلون فتاويهم بمنزلة النص القرآني أو الحديثي. بل يراجعون الأصول، كما يعلم ذلك من يراجع كلامهم وطريقتهم في مؤلفاتهم؛ فتجد ابن عبد البر، يعتمد مذهب مالك ويؤيده، وكذلك ابن العربي، فإنه يعتمده ويجادل عنه، ويحتج له.

[كلام الحافظ ابن عبد البر
في طريقة طلب العلم والوصول إلى مقام الاجتهاد]

ففي كتاب العلم لإمام الفقهاء والمحدثين والمورخين، يقول أبو عمر ابن عبد البر:

طلب العلم، درجات ومناقل ورتب، لا ينبغي تعديها. ومن تعداها جملة، فقد تعدى سبيل السلف، رحمهم الله. ومن تعدى سبيلهم عامدًا ضلّ، ومن تعداه مجتهدًا زلّ. فأول العلم، حفظ كتاب الله جل وعز، وتفهمه، وكل ما يعين على فهمه، فواجب طلبه معه. ولا أقول إن حفظه كله فرض، ولكن أقول: إن ذلك واجب لا زم على من أحب أن يكون عالما؛ ليس من باب الفرض.

ثم روى بسنده إلى الضحاك، في قوله تعالى: (كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ)، قال: حق على كل من تعلم القرآن، أن يكون فقيها؛ فمن حفظه قبل بلوغه، ثم فرغ إلى ما يستعين به على فهمه من لسان العرب، كان ذلك له عونا كبيرا على مراده منه، ومن سنن رسول الله، صلى الله عليه وسلم. ثم ينظر في ناسخ القرآن ومنسوخه وأحكامه، ويقف على اختلاف العلماء واتفاقهم في ذلك، وهو أمر قريب على من قرّبه الله عليه. ثم ينظر في السنن المأثورة الثابتة عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فبها يصل الطالب إلى مراد الله، جل وعز، في كتابه، وهي تفتح له أحكام القرآن فتحا. وفي سيرة الرسول، صلى الله عليه وسلم، تنبيه على كثير من الناسخ والمنسوخ في السنن. ومن طلب السنن، فليكن معوله على حديث الأئمة الثقات الحفاظ، الذين جعلهم الله خزائن علم دينه، وأمنا على سنن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كمالك بن أنس، الذي قد اتفق المسلمون طرّا على صحة نقله، وتفاوت حديثه، وشدة توقيه وانتقاده، ومن جرى مجراه من ثقاة علماء الحجاز والعراق والشام.[جامع بيان العلم:166/2].

ثم ذكر منهم شعبة وسفيان الثوري، والأوزاعي وابن عيينة والحَمَّادَيْن، وابن سعيد القطان، وابن المبارك، وأمثالهم من أهل الثقة والأمانة. قال: وعلى حديثهم اعتمد المصنفون للسنن الصحاح، ومسلم وأبو داود والنسائي، ومن سلك سبيلهم. قال:

وإنما صار مالك، ومن ذكرنا معه، أئمة عند الجميع، لأن علم الصحابة والتابعين في أقطار الأرض، انتهى إليهم، لبحثهم عنه. [167/2].

ثم ذكر ما قاله العلماء في هؤلاء وأمثالهم، وما تحقق لديهم من أن مدار علم الحديث الصحيح على هؤلاء، وتفرقهم في الأقطار الشهيرة، واسم كل واحد منهم.

[التنويه بكتاب"جامع بيان العلم وفضله"، وبمؤلفه الذي اختار تقليد الإمام مالك]

فعليك بمراجعة ذلك الكتاب الجليل، الذي مثله عديم أو قليل، وهو كتاب صادر من علامة زمانه، والعلم المفرد في أمانته واطلاعه، وغرة العلماء الأعلام في عاصمة الأندلس قرطبة، إذ كانت إذ ذاك قبة الإسلام[العالية]، مع تبحره في العلوم الفقهية والحديثية وغيرها؛ فسلك مسالك أهل الاجتهاد، والقول بالحق، دون تفاخر ولا إظهار انفراد ولا استبداد. وهو مع وصوله أقصى درجات الاجتهاد، ينتسب لمذهب مالك، وينوه بذكره، ويقول مرشدا لغيره، بعد أن بسط القول في ما يوصل الطالب إلى مرتبة الاجتهاد، قائلا:

" وهو أمر قريب كله على من اجتهد؛ فمن اقتصر على علم إمام واحد، وحفظ ما كان عنده من السنن، ووقف على غرضه ومقصده في الفتوى؛ حصل على نصيب من العلم وافر، وحظ منه حسن صالح. فمن قنع بهذا اكتفى، والكفاية غير الغنى. والاختيار لهُ أن يجعل إمامه في ذلك إمام أهل المدينة، دار الهجرة، ومعدن السنّة.هـ[جامع بيان العلم:169/2].

فإذا علمت طريق هذا الإمام، العمدة في العلوم، مع الإنصاف،[دون] تضليل إمام، ولا تجهيل أحد من علماء الإسلام؛ فعليك باتباع طريقه، والاقتباس من معارفه وإنصافه مع تحقيقه. ومثل هذا، هو الذي يُعدّ من ورثة الأنبياء، ومن الذين قيل فيهم: إن لم يكن العلماء أولياء، فليس في الأرض من يعد من الأصفياء. والعلم كله ردّه إلى الواحد الذي لا يحيط أحد بعلمه من خلقه إلا بما شاء.

[الرجوع إلى موضوع الحافظ ابن حزم، والاستغفار له]

ثم نرجع، فنقول، كما قال العلماء الأفاضل، والحفاظ الأماثل، من الأواخر والأوائل: إنه حافظ عصره، وفريد في نبله وذكائه، فقها وحديثا، وأدبا واطلاعا على مذاهب الصحابة، وآراء التابعين. ولولا ما أزله الشيطان به من إخراجه عن أدب أمثاله، من إعطاء كل إمام وشيخ وعالم ما يستحقه من إعظامه وإجلاله، لكان من أهل الفضل بلا نزاع، ولكان الثناء عليه مستمرا ما له انقطاع.

ومع هذا، فباب الرجاء[واسعة] لمغفرة ما اجترم، من تجاوزه عما يعد منه خطأ أو غفلة، أو عمدا قاصدا به، في اعتقاده، أنه يقول الحق ويصدع به، وإغضاب خصومه، فيما لمزهم به وهمزهم. إنه هو العزيز الغفار.

وأنا في هذه السطور، أرفع يدي مستغفرا لهذا الحافظ، الذي صرف حياته في الجمع والتأليف، وأفنى عمره في الكتابة والتصنيف، واقتناء صحيح الروايات عن جهابذة أعلام، وينفي ما يعثر عليه من الأغلاط والأوهام، وإن زلت به القدم، ووقع منه ما يوجب عليه التوبة والندم. ولكن قضى الله ما قضى، وفضل الله واسع، ورحمته تسع العاصي والطائع.

[مسألة استغفار الإمام الزاهد ابن عون، للحجاج بن يوسف الثقفي]

وأستأنس هنا بما رُويَ عن التابعي الزاهد، الحافظ للسانه، الموالي لتلاوة ذكره وقرآنه، الصائن لكلامه أكبر صون، عبد الله بن عون، إذ قال في روايته عن معاذ بن معاذ، قال: ما رأيت أحدا أعظم رجاء لأهل الإسلام من ابن عون؛ لقد ذكر له الحجاج، وأنا شاهد، فقيل له: إنهم يزعمون أنك تستغفر للحجاج؟ فقال: ما لي لا أستغفر للحجاج من بين الناس، وما بيني وبينه؟ وما كنت أبالي أن أستغفر له الساعة. قال معاذ: وكان إذا ذكر عنده الرجل بعيب، قال: إن الله تعالى رحيم.هـ من "الحلية".[41/3].

وإذا أجاز هذا التابعي الجليل - أحد أفراد رجال "الحلية" - الاستغفار للحجاج، الذي سفك الدماء، وشاع وذاع عداوه لأكابر الصلحاء والعلماء؛ [فكيف لا] يجوز الاستغفار لابن حزم، الذي إنما كانت إذايته بلسانه؛ لكن قارنوا لسانه بسيف الحجاج، كما تقدم. فقد نقل ابن خلكان في "تاريخه"، عن ابن العريف، أنه كان يقول: كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين. قال ابن خلكان: وإنما قال ذلك، لكثرة وقوعه في الأئمة.هـ[وفيات الأعيان:341/1].

ولكن، كما قال ذلك الإمام الزهد: إن الله تعالى رحيمٌ؛ لأن هذا الشيخ نظر إلى سعة رحمة الله، وعموم إحسانه، ولا سيما لزلات أهل العلم، وأنه سبحانه يخاطب عباده بقوله: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ الله، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ).

وهنا يحسن أن أعقب[على] هذا الرجاء، وهذه الرحمة الواسعة، التي يرجو كاتبه المذنب أن يكون داخلا تحت سعتها. وفي هذا المعنى يقول شيخ الشاذلية، سيدي أبو الحسن الشاذلي، حسبما نقله في " لطائف المنن":

طالعت مقام الرحمة، فإذا علي يقول لي: والله ليكونن من رحمة الله يوم القيامة، ما ينال منها ابن أبي الطواجن. وكان هذا، ابن أبي الطواجن، قد قتل الشيخ القطب عبد السلام بن مشيش، شيخ أبي الحسن الشاذلي، رضي الله عنهما.هـ[ص63].

قلت: وكان الإمام ابن عرفة، الفقيه التونسي الشهير، كثيرا ما ينكر قول الشيخ أبي الحسن: " فإذا عليّ يقول"، يعني نفسه. وقد أجاب عن ذلك الشيوخ.

قلت والله أعلم: ولا إنكار عليه في ذلك، لأنه يرجع إلى الإلهام أو الكشف، عند أهل الولاية الصادقة. ومن هذا، ما نقله أيضا في "اللطائف"، عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي، أنه قال: لو كشف عن نور المؤمن العاصي، لطبق ما بين السماء والأرض، فما ظنك بنور المؤمن المطيع!.[ص27].

قلت: وفضل الله واسع، لا ينكره إلا من قسا قلبه، وقل يقينه. وربما يؤخذ هذا من قوله تعالى: (أفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلإسْلام فَهُوَ على نُور مِنْ رَبِّهِ، فَوَيْلٌ لِلقاسِيَةِ قُلوبُهُم مِنْ ذِكْر اللهِ).

قلت: ويجب أن يلاحظ في مثل هذا المقام، أن الإنسان، وإن بلغ في العلم والعمل، والصلاح والتدين، والاستقامة والتباعد عن الزلل[ما بلغ]؛ لا بدّ أن تزلّ قدمه، وأن يحيد في أحيان عن صوب الصواب، ما يستدعي ندمه. وما العصمة إلا للرسول، عليه الصلاة والسلام. ولما قال من قال:

من ذا الذي ما ساء قط   ومن له الحسنى فقط

سمع هاتفا يقول:

ذاك محمد الذي   عليه جبريل هبط

* * *

[الرجوع لمسألة الحجاج بن يوسف، والاختلاف في توبته]

قلت: نرجع إلى استغفار ابن عون للحجاج، فأقول: إن الحجاج اختلف الأئمة فيه، هل مات كافرا، أم لا؟؛ ففي "العقد" عن الشعبي قال: يزعم الناس أن الحجاج مؤمن! قال: مؤمن بالجبت والطاغوت، كافر بالله. وذكر عن الأعمش أنه قال: اختلفوا في الحجاج، فقالوا: ممن ترضون؟ قالوا: بمجاهد. فأتوه فقالوا: إنا قد اختلفنا في الحجاج؟ فقال: أجئتم تسألوني عن الشيخ الكافر؟. وذكر عن الأوزاعي أنه سمع القاسم بن محمد يقول: كان الحجاج بن يوسف ينقض عرى الإسلام عروة عروة. ثم سرد أقوالا كثيرة تدل على خروجه عن الملة.

ونقل قبل هذا عن أئمة، ما يؤذن بالخلاف؛ فمنهم من أشار ولم يصرح، ومنهم من صرح بأنه ممن يرجى له، وأنه مسلم ظالم؛ فذكر عن جرير بن منصور، قال: قلت لإبراهيم: ما ترى في لعن الحجاج؟ قال: ألم تسمع لقول الله تعالى: (ألاَ لعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ)؟! فأشهد أن الحجاج كان منهم. وذكر عن وكيع عن سفيان، قال: يزيد الرقاشي عن الحسن: إني لأرجو للحجاج. قال الحسن: إني لأرجو أن يخلف الله رجاءك. هـ[العقد الفريد: 259/3].

وبالجملة، فقد اتفقت كلمة السلف، والخلف بعدهم، أنه كان سفاكا للدماء، لا يبالي في ذلك أحسن أم أساء. ولكن العلماء، منهم من نظر إلى أقواله وأفعاله التي توجب

الردة؛ فحكم بكفره. ومنهم من جعل هذه الأفعال إنما هي معاص وكبائر، وإجرامات عظيمة، ولم يبلغوا به إلى التكفير، على طريقة أهل السنة، وأنهم لا يكفرون أحدا من أهل القبلة بالذنوب والمعاصي.

وعليه؛ فاستغفار ابن عون للحجاج، كان ميلا منه إلى هذا المذهب. والمولى، جل وعلا، أعلم بحاله في اعتقاده ومقاله. ثم نرجع إلى تتميم التمهيد الذي قدمناه، من أن الإنسان، وإن بلغ في الصلاح والزهد والاستقامة، لا يخلو أن تبدُو منه هفوة، ويصدر منه ذنب.

[ردّ انتقاد ابن الجوزي
لكتاب "حلية الأولياء"، لأبي نعيم]

وذلك أنّنا كنا نقلنا فيما سبق عن الكتاب الجليل، الذي ألفه مؤلفه، جامعا فيه ما وقف عليه من أهل الصلاح والاستقامة والتقوى؛ أي الَّذين شملهم قول الله تعالى في كتابه العزيز: (ألا إنَّ أولِيَاءَ اللهِ لا خوْفٌ عليْهِمْ وَلا هُمْ يَحزنُونَ)، وهو كتاب جليل تلقاه المتقدمون والمتأخرون بالاستحسان، وإعجابهم بما سلكه مؤلفه في هذا الشأن، وهو الإمام المحدث الجليل، الصادق في كل ما يفعل أو يقول، أبو نعيم، مؤلف كتاب "الحلية"؛ فقد زلّ في شأنه الحافظ الناقد، أبو الفرج ابن الجوزي، وجهّله، وبالغ في تجهيله؛ جاعلا من مساوئه وهفواته،[أنّه] جعل الخلفاء الراشدين من أهل كتابه، وعدهم من أولياء كتابه. ولفظه غاب عني في هذه اللحظة، مع أن هذا التجهيل، وهذا التعقب وهذا القدح، إنما هو قدح في القائل بهذا المقول، إذ صدّر كتابه،[أي الحلية]، بأهل القدوة في الدّين، بأمر سيد المرسلين، إذ يقول: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي".

فواعجبا من الحافظ أبي الفرج ابن الجوزي، وهو أدرى بالأحاديث والسنن، وبالضرورة أنه اطلع على أحوال هؤلاء الأربعة، وسيرهم وما كانوا عليه بحملهم للشريعة، ومن المحافظة على أصولها وفروعها، وتبليغها للأمة، وتأديبهم بها شريعة وحقيقة؛ وهو يجهل الحافظ العابد الناسك، الجاري في مناهج الحديث والسنة أقوم المسالك، الذي اتفق من أهل الحديث على صدقه وإمامته، وعظيم مقامه في المحافظة على رواية الحديث وإبانته.

فقد قال تاج الدين ابن السبكي، في "طبقاته"، في ترجمة الإمام الجليل، أبي نعيم الإصبهاني: الصوفي الجامع بين الفقه والتصوف، والنهاية في الحفظ والضبط. وأحد الأعلام الذين جمع الله لهم بين العلو في الرواية، والنهاية في الدراية.[7/3].

ثم استمر التاج يذكر ما حلاه به العلماء الحفاظ، مما يعلم ذلك من مراجعة ترجمته في "الطبقات".

ثم قال عن أهل الفن أنهم كانوا يقولون: لما صنف كتاب "الحلية"، حمل إلى نيسابور، حال حياته، فاشتروه بأربعمائة دينار. وقال أبو الفضل الحافظ: قد جمع شيخنا السلفي أخبار أبي نعيم، وذكر من حدث عنه، وهم نحو ثمانين رجلا. قال: ولم يصنف مثل كتاب "حلية الأولياء". سمعناه على أبي المظفر الفاساني عنه، سوى فوت عنه يسير. وقال ابن النجار: هو تاج المحدثين، وأحد أعلام الدين. ثم ذكر طرقه من كراماته. ثم قال التاج: ومن مصنفاته: "حلية الأولياء"، وهي من أحسن الكتب. كان الشيخ الإمام الوالد، رحمه الله، كثير الثناء عليها، ويحب تسميعها.هـ[9/3].

وعلى هذا، فطعن أبي الفرج ابن الجوزي، في أبي نعيم في ذكره الخلفاء في هذا الكتاب، والمبالغة في تجهيله، هو نقص في الطاعن، لأن هذا الكتاب الذي موضوعه ذكر أولياء الله، الذين هم للمعتصم بالدين القدوة وعليهم الاعتماد. بل كان من حق أبي الفرج أن يثني الثناء الجميل على فعل هذا الإمام الجليل في تصدير كتابه، هذا الفريد في بابه، بهؤلاء الخلفاء الذين هم النجوم المشرقة في سماء هذه الشريعة الغراء، وهم أولياء الله وأصفياؤه دون تردد ولا مراء، وهم كما قال الإمام البوصيري:

أَغنِيَاءٌ نزاهَةً فُقرَاءُ   عُلمَاءٌ أئِمَّةٌ أمَـرَاءُ

اللهم عرفنا يا مولانا الحق والصواب إلى سبيل الرشاد. ولكن، كما لا يخفى، مما قدمناه مرارا: إن لكل جواد كبوة، وللصارم الماضي نبوة، وما العصمة إلا لأهل اصطفائه، من رسله وأنبيائه.

ولله در الحافظ الناقد الذهبي، إذ قال آخر ترجمة أبي نعيم، بعد أن حلاه بقوله: الحافظ، أحد الأعلام، صدوق، تُكلم فيه بلا حجة. قلت، أي قال الذهبي: كلام الأقران بعضهم في بعض لا يُعبأ به، لا سيما إذا لاح لك أنه لعداوة أو لمذهب أو لحسد، ما ينجو منه إلا من عصم الله. وما علمت أن عصرا من الأعصار سلم أهله من ذلك، سوى الأنبياء والصديقين.هـ[ميزان الاعتدال:52/1].

والله الحافظ الباقي، وهو القادر المرشد للحق ومن الضلال الواقي.

[الرجوع إلى موضوع القرآن الكريم وفضله، واعتراف العلماء الأجانب بذلك]

ولنرجع إلى تتميم القول فيما ابتدأنا فيه من ذكر ثناء الأجانب على أهل الإسلام، وعلى كتابهم القرآن المجيد المعجز، الباهر إعجازه، الكتاب الذي لا تنقضي عجائبه، ولو عارضه كل شيطان مريد، وهو الكتاب الجامع للعلوم الباهرة لأهل الفهوم، وفيه يقول باب مدينة العلم، في وصف النبي، صلى الله عليه وسلم:

" ثم أنزل عليه الكتاب نورا لا تطفأ مصابيحه، وسراجا لا يخبو توقده، وبحرا لا يُدرَك قعره، ومنهاجا لا يضل نهجه، وشعاعا لا يظلم ضوؤه، وفرقانا لا يخمد

برهانه، وتبيانا لا تهدم أركانه، وشفاء لا تُخشى أسقامه، وعزا لا تهزم أنصاره، وحقا لا تُخذل أعوانه. فهو معدن الإيمان وبحبوحته، وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغدرانه، وأثافيّ الإسلام وبنيانه، وأودية الحق وغيطانه، وبحر لا ينزفه المنتزفون، وعيون لا ينضبها الماتحون، ومناهل لا يغيضها الواردون، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون، وأعلام لا يعمى عنها السائرون، وآكام لا يجوز عنها القاصدون. جعله الله ريّا لعطش العلماء، وربيعا لقلوب الفقهاء، ومحاجّ لطرق الصلحاء، ودواءً ليس بعده دواء، ونورا ليس معه ظلمة. وحبلا وثيقا عروته، ومعقلا منيعا ذروته، وعزا لمن تولاه، وسلما لمن دخله، وهدى لمن ائتم به، وعذرا لمن انتحله، وبرهانا لمن تكلم به، وشاهدا لمن خاصم به، وفلجا لمن حاجّ به، وحاملا لمن حمله، ومطية لمن أعمله، وآية لمن توسّم، وجنة لمن استلأم، وعلما لمن وعى، وحديثا لمن روى، وحُكما لمن قضى". هـ[نهج البلاغة:437/1].

فهذا هو القرآن للمؤمن الذي اتقى، والمسلم الذي أسلم وجهه لله وهو محسن، إذ قد استمسك بالعروة الوثقى.

أما المسيحيون، على اختلاف نحلهم ومللهم، فكان عدوهم هو القرآن المجيد، الذي" أُحْكِمَتْ آياتهُ ثمّ فُصّلتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبيرٍ"(*). ولكن أبى الله إلا أن يظهر هذا النور، ويعترف بذلك حتى من يظن فيه أنه ممن امتلأ[قلبه] بالطعن فيه، من علماء ونبلاء النصارى في هذه العصور. ومن هذا يقول صاحب كتاب "الإسلام والحضارة"، تحت ترجمة:(القرآن والإسلام):

"اشتدّ متعصبة الشعوبية في الحط من القرآن الكريم، وقالوا، وهم الأعاجم الذين يصعب على أكثرهم أن يتفهموه ويتدبروه: إنه غير منظم ولا مبوب، وإنه محتذى ومنقول، وإنه زيف مدخول، وإنه غير بليغ ولا فصيح. وبلغت القحّة ببعضهم أن قالوا إن فيه أغلاطا نحوية، وركاكات بيانية. هذا، والقرآن أبلغ كتاب للعرب، ولولاه ما كان لهم أدب ولا شريعة: (كتابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًا). عجز فصحاء العرب عن الإتيان بمثله، مع أنهم خصّوا بالتحدّي، وكان للفصاحة عندهم المقام الأرفع، فاعترفوا بعد جدال طويل، أن نظم القرآن على تصرف وجوهه، واختلاف مذاهبه، خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه على أساليب الكلام المعتاد".[ص67].

ثم نقل جملة من كلام سيدنا علي، الذي قدمناه، فقال متصلا بالكلام السابق: جعله الله كما قال علي بن أبي طالب: ريا لعطش العلماء، وربيعا لقلوب الفقهاء، الخ ما سبق.

ثم صار يصف القرآن وإعجازه، وما يتبعه من الروعة ووضوح الحجة التي تحمل المعارض على انقطاع حجته والتسليم. ثم قال:

(*) [سورة هود:1].

" فالقرآن بإعجازه، يضرب الأمثال للحاضرين بالغابرين، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويشتمل على أنواع من الأعمال كلف بها العباد، ومشروعات لتأمين الدعوة، وهي الجهاد".[ص68].

واستمر يذكر ما في القرآن، وما فيه [من] خير للبلاد والعباد، مما لا يعزب عن علم كل حافظ للقرآن، الذي حصلت له آلات فهمه، من قواعد العربية وفنون بلاغتها.

ثم صار ينقل ما أقر به بعض الأجانب من النصارى،[حسبما تقدم قبل هذا].

قال:

ويكفينا في بيان فضل الإسلام، أن نعمد أيضا إلى نقل كلام بعض علماء الإفرنج فيه؛ فقد قال ولز، المؤرخ الإنجليزي:

" كان الإسلام في أول أمره خاليا من التعقيدات اللاهوتية، التي طالما ارتبكت بها النصرانية، وأحدثت شقاقا قضى على الروح النصراني. وليس للإسلام كهنة، بل له علماء ومعلمون ووعاظ. وهو حافل بروح الرأفة والسخاء والإخاء، كما أنه ينطوي على عاطفة النجدة التي تنبت في الصحراء. ولهذا جاز إلى قلوب عامة الناس دون أن يجد ما يصده في غرائزهم". وقال مونتيه السويسري:

" لما كان الإسلام دينا من الأديان، أصبح قوة أدبية عظيمة جدا، جديرة بالاحترام من وراء الغاية؛ ولذا تقضي الحال بأن تقوم الصلات مع أهله على أساس الإخاء والحب. وأهم الشروط في هذه الروابط الحسنة: احترام الإسلام احتراما مطلقا". ثم استمر في الإشادة بذكر فضائل الإسلام.

ثم ذكر المؤلف أن عظماء من الغربيين، لا يذكرون الإسلام إلا بالتعظيم. ثم ذكر[مثل ذلك] عن أناتول فرانس، وفحواه هو الحض على التحبب إلى أهل الإسلام.

وفي كلام هذا، الإنكار على من يتكلم في الإسلام جزافا، من غير معرفة بحقائقه. ثم ذكر عن آرثر جلين ليزنارد، كلاما طويلا، فحواه أن نعتبر أن الإسلام أسدى الجميل إلى أوربا، ويجب عليها أن تعترف له بذلك، وأن تعترف بهذا الدين العظيم المدينة[له] به، حين كان أهلها غارقين في بحار الهمجية والجهل في العصور المظلمة. ثم أطال التنويه بالمدنية الإسلامية، من عظمة العمران والعلم، ولا سيما في أيام الدولة العباسية، وأن أوربا كانت إذ ذاك في غشاوات من الجهل. ثم ختم هذه السطور الطويلة بقوله:

" دع أوربا، بل القارة النصرانية، تعترف بخطئها، دعها تعلن للعالم أجمع غباوتها الغزيرة، لقلة إسداء الشكر الواجب عليها. إنها ستضطر بعد إلى الاعتراف بالديْن الأبدي المدِينة به للإسلام".[ص70].

وقال جان مليا:

" من الواجب أن يُطرح بعد الآن، ما ادعاه في القرآن بعض المتفلسفين من الفرنسيس. فالقرآن تجب تلاوته بتؤدة. وليس فيه ما يتهمه به الأعداء من أنه ملفق

للتعصب. والإسلام دين سماوي، وهو دين حب وعاطفة وشرف، وأكثر الأديان تساهلا"[ص72].

ثم نقل صاحب كتاب "الإسلام والحضارة"، عن ليون الفرنسي الشهير، في كتابه عن الإسلام، ما لفظه، خلال كلامه على أن وحدة الإسلام الخلقية واحدة من أساسها، لأن الإسلام قام على كتاب واحد، وهو القرآن:

" إن هذا الكتاب، قانون ديني وسياسي واجتماعي، وأحكامه نافدة منذ عشرة قرون". ثم قال عنه:

" إن سذاجة الدين الإسلامي، وإيمان المؤمنين به، قد أورثاه قوة، فهو يكتفي بقول: (لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله)؛ قام بالدعوة إلى هذه الحقيقة، والمسلمون إخوة، لأنهم يعبدون إلها واحدا، وشريعتهم واحدة: يبغضون ما يبغضون، ويحبون ما يحبون. ويجمع الحج كل سنة في مكة، جماعات المؤمنين من كل صقع ولغة"، إلخ.[ص72].

وأطال صاحب كتاب " الإسلام والحضارة" بالنقول عن هؤلاء النصارى من فرنسيين وإنجليزيين وسويسريين، بعباراتهم التي مضمنها التنويه بدين الإسلام وبالقرآن المجيد، وبتقدم أهله في الحضارة والرقي قبل الأوربيين، وأن أهل أوربا أخذوا حضارتهم من العرب.

[تذييل كلام هؤلاء الأجانب في مزايا القرآن وأحقيّة الرسالة المحمدية]

ثم إن هذا المؤلف المذكور، لا يألوا جهدًا في جلب ما أمكنه نقله عنهم. ولكنه فاته التعقيب على كلام كل قائل من هؤلاء؛ وهو:

إن كان هذا القول الذي تقوّله عن الإسلام، وعن كتابه، وعن الرسول الذي أتى به، صدر منك عن صدق وإخلاص، وأنه الدِّين الأبدي، وتشير إلى أن عقيدته سالمة من الارتباك، أو اعتقاد شيء لا تقبله العقول أو يصعب عليها إدراكه؛ فما بالك لا تدين به! لأن فحوى كلامك أنه دين سماوي، وأنه الدين الحق، وما سواه باطل. فما المانع لك من الدخول فيه؟! فما هو الجواب؟.

ويظهر أن الجواب؛ هو التقرب إلى أهله، وإظهار المجاملة فقط. وهذا شيء لا نفع فيه للإسلام ولا لأهله، لأن دين الإسلام حق، والمؤمنون به، المتدينون به، على حق، والله تعالى قد أرسل رسوله بدين الإسلام، وهو دين الهدى، وأنه سيظهره على الأديان كلها، بشريعة ناسخة لكل شريعة قبله، بنص القرآن العظيم في قوله: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ).

فلم يبق إلا أن يكون هذا المدح وهذا التنويه،[لا يقال] إلا تقربا وخداعا؛ وقولا بأفواههم، وأنهم يقولون ما ليس في قلوبهم.

وهذه الكلمات المعسولة في الإسلام وأهله، ومدح شريعته التي قانونها هو القرآن، وما معه من بيان الرسول الذي أتى به؛ كم سمعناه مشافهة من رؤساء وعلماء، فرنسيين وإسبانيين وأمريكانيين، ولكن لا يعدو ألسنتهم!. فليتفطن النبيل، ولا يغتر بهذا التعظيم والتبجيل.

وفي غالب الظن، أو التحقيق، إنه عمل بإيصاء جمعية التبشير، الذين يريدون أن يطفئوا نور الإسلام بأنواع حيلهم، ومعاول خداعهم لأهله، وتصديهم لهم من بين أيديهم ومن خلفهم، وعن أيمانهم وشمائلهم.

[خطر الجمعيات التبشيرية، ومخططاتها للغارة على الإسلام]

وقد ذكر ذلك صاحب كتاب "الغارة على العالم الإسلامي"، محب الدين الخطيب؛ وهي مقالات ترجمت عن أعمال هذه الجمعيات التبشيرية. ومن أهمها ما نقله من كتاب رئيس هذه الجمعية، عن إمبراطور أهم إمبراطورية أوربية، في خطاب ألقاه على بعض المبشرين، وأشار فيه إلى الحكم على الإسلام من الوجهة الخلقية عامة، والدينية خاصة.

أما هذه الفكرة، فهي أنه لم يسبق وجود عقيدة مبنية على التوحيد، أعظم من عقيدة الدين الإسلامي، الذي اقتحم قارتي آسيا وإفريقيا الواسعتين، وبث في مائتي مليون من البشر، عقائده وشرائعه وتقاليده، وأحكم عروة ارتباطهم باللغة العربية، فأصبحوا كالأنقاض والآثار القديمة المتراكمة على جبل المُقطَّم، أو هم كسلسلة جبال تناطح السحاب، وتطاول السماء، مستنيرة ذرواتها بنور التوحيد، ومسترسلة سفوحها في مهاوي تعدد الزوجات، وانحطاط المرأة.

تلك هي الفكرة التي أشار إليها ناشرُو الكتاب في المقدمة، وأردفوها بقولهم: إن الكنيسة المسيحية، ارتكبت خطأ كبيرًا بتركها المسلمين وشأنهم؛ إذ ظهر لها أن أهمية الإسلام في الدرجة الثانية، بالنسبة إلى ثمانمائة مليون وثنِي، رأت أن تشتغل بهم. رأت هذا، وهي لم تعرف عظمة الإسلام، وحقيقة قوته، وسرعة نموه، إلا منذ ثلاثين سنة فقط. على أن أبواب التبشير صارت مفتوحة الآن في ممالك الإسلام، الواقعة تحت سيطرة النصرانية، مثل الهند والصين الجنوبية الشرقية، ومصر وتونس والجزائر، وأن في العالم الإسلامي، 140 مليون مسلم يرتقبون الخلاص.

وفي هذه المقدمة، بعض ملاحظات ونصائح للمبشرين، منها:

1) يجب إقناع المسلمين بأن النصارى ليسوا أعداء لهم.
2) يجب نشر "الكتاب المقدس" بلغات المسلمين، لأنه أهم عمل مسيحي الخ.

3) تبشير المسلمين، يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم، ومن بين صفوفهم، لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها هـ. انظر تمام المبحث، تحت ترجمة:(العالم الإسلامي) ص45.

ومن هذا يتبين لك ما أشرت إليه، من أن هؤلاء النصارى يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وأنهم شعبة من شعب التبشير، المتصدية لتنصير أهل الإسلام في سائر الأقطار.

أما مقالا تهم في الدين الإسلامي، والقرآن العزيز، وصدق الذي أتى به، فهي صادقة في نفسها، دون توقف على تلك العبارات المتكلفة من هؤلاء الأحبار، لإشراق نور ذلك في الأقطار، إشراق الغزالة في رابعة النهار. فأقوالهم صادقة، ولكنها صادرة عن قلوب خالية من اعتقاد صدقها. بل القصد بها تشويش الأفكار.

وما أشبه خبرهم بما في "البخاري"، في فضل آية الكرسي، ممّا وقع لأبي هريرة مع الشيطان. فعن أبي هريرة قال: وكلني رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته وقلت: لأرفعنك إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم. قال: دعني، فإني محتاج وعليّ عيال، ولي حاجة شديدة. قال: فخليت عنه". ثم عاد ثلاث مرات، فرصده في الثالثة. قال: فجاء يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهذه آخر ثلاث مرات، أنك تزعم أنك لا تعود؛ ثم تعود، فقال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها. قلت: وما هي؟ قال: إذا أويت إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي:(اللهُ لا إلـهَ إلاَّ هُو، الحَيّ القيّوم) حتى تختم الآية. وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنك شيطان حتى تصبح؛ وكانوا أحرص شيء على الخير. فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: " أما إنه صدقك، وهو كذوب. تعلم من تخاطب من ثلاث ليال، يا أبا هريرة ؟، قلت: لا. قال: ذاك شيطان"هـ. والحديث متعدد الطرق، بألفاظ مختلفة، وهذا ما نقلناه من "تفسير" ابن كثير.[306/1].

وعليه؛ فهؤلاء المنوّهون بالإسلام والقرآن، وإعجابهم بعقيدته وصدق نبيه، وأنه الدين القويم الدائم؛ هو نوع من التبشير، وتنفيذ إرشاد رؤساء هذه الطائفة التي تكيد للإسلام كيدا، وتزلزل أهله عن أصوله، وتصدهم عنها بحيلهم صدا، وتمدّ إليهم يد الخداع مدا.

ولقد عجبت من صاحب كتاب "الإسلام والحضارة"، في نقله عن لِبُون، في قوله: وعلى ما عُرف به الشرع الإسلامي من الصلابة، قد أخذ يسير على قاعدة النشوء والارتقاء، وبعبارة أخرى، على الأسلوب الأوربي. هـ؛ ولم يتعقبه، إذ يدس بهذه العبارة أن الإسلام ليس دينا سماويا جاء من عند الباري، من غير استمداد من غيره. بل نزل به من رب الأرباب إلى خاتم الأنبياء والمرسلين، روح القدس من ربه، وهو الذي يقول: (اللهُ نَزَّلَ أحْسَنَ الحَديثِ كِتابًا مُتَشَابِهًا مَّثَانِيَ، تَقْشَعِرّ مِنْهُ

جُلودُ الَّذِينَ يَخشَوْنَ ربَّهُم ثُمّ تلِينُ جُلودُهُمْ وَقلوبُهمُ إلى ذِكْر اللهِ، ذلكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بهِ مَنْ يَشَاءُ، ومَن يُضْلِل اللهُ فمَا لهُ مِنْ هَادٍ).[الزمر:23].

فليتفطن الذكي النبيل، المطلع الذي لا ينخدع لتحسين هذا المقال، وليستمع لتلك المقالة، التي قدمت، في نصائح رؤساء التبشير، إلى أن الطريقة المثلى لتنصير المسلمين، هو التقرب إليهم، وإظهار محبتهم، ومدح نبيهم، إذ بهذه الطريقة يغترّ الناقصون، والقاصرون الجاهلون، بحيل المخادعين.

هذا، وقد توصلوا إلى أغراضهم بهذه الطريقة، وقبل كلامهم الكاذب، حتى الخواص من المسلمين.

[تنبه كبار علماء الإسلام في عصرنا لخطر المبشرين، والدعوة للتصدي لمخططاتهم، والتحذير من كيدهم للإسلام]

قلت: وعندما كنتُ أكتب في هذا المبحث في عصرنا هذا، الذي أقبل فيه الكل على اعتماد أقوال مثل هؤلاء المخادعين، وقبول ما مهدوه من الطرق، لإبادة الإسلام؛ وقفتُ لأطالع ما كتبه محب الدين الخطيب، في كتابه"الغارة على العالم الإسلامي"، مع كتاب "الإسلام والنصرانية"، للشيخ عبده؛ فرجعت عما كنتُ أعتقده في هذين الرجلين، لأني كنتُ سمعت من بعض شيوخنا، أنهما ممن يساعد الأجانب؛ فعبده ممن يساعد انجلتيرا، والآخر فرنسا.

فوجدتُ، بعد تتبعي كلامهما، أنهما كانا يخدمان الإسلام، وأنه يتعين[معرفة ذلك]على من يهمه الأمر في هذا العصر العصيب، الذي جُل أو أكثر خواصه، فضلا عن عوامه، في غفلة عما يكيد هؤلاء المتقربون إلى الإسلام، من الخداع وأنواع الحيل، للقضاء على هذا الدين الحنيف؛ وقد ظهر فيه نجاح أعمالهم ظهورا بينا.

وأحسن مؤلف في تنبيه من فيه بقية من الإسلام، إلى هذا الخطر المحيط بأهل الإسلام في سائر أقطاره، مع قلة أنصاره وضعفهم عن مقاومة أخطاره؛ هو مؤلَف الخطيب،[الغارة على العالم الإسلامي]،الذي جمعه من مقالات صدرت عن أعمال المبشرين، لمحو هذا الإسلام من هذه البسيطة، ولضمّهم إلى نصرانيتهم.

قلت: ولما شرعت في تسطير هذا التنبيه، وقفتُ في آخر هذا الكتاب، على ما كتبه كاتب الشرق ـ المشهور بهذه التحلية لدى كتاب الشرق ـ وهو فيما علمنا من المناضلين عن الأمة الإسلامية، وهو الأمير شكيب أرسلان. ولفظ صاحب كتاب "الغارة": لما أخذنا في نشر فصول هذا الكتاب في صحيفة الفتح، كان أول من عرف أهميتها، وقدر قدرها، كاتب الشرق الأكبر، الأمير شكيب أرسلان، فكتب إلينا هذه الكلمة القيمة، مقترحا طبعها في كتاب مستقل. قال حفظه الله:

" إني أقترح طبع هذه المقالات المترجمة في الفتح عن أعمال المبشرين، كتابا على حدة، يطبع منه ألوف من النسخ، وعشرات ألوف، ويوزع على جميع العالم الإسلامي، بدون استثناء، ويقتنيه كل مسلم ذي حمية، ويقرأ منه الخطباء والمدرسون في الجوامع، ولا يبرح بين أيدي المسلمين، حتى يستظهروه غيبا، لعلهم ينهضون أخيرا لمقابلة الشيء بمثله، ويؤلفون الجمعيات، ويتبرعون لها بالأموال، ولو بعشر عشر معشار ما يتبرع به الإفرنج لجمعياتهم التبشيرية، التي لا نحتاج إلى ذكر مآربها الخبيثة، بما شرحته لنا تقاريرها، وما فضحته من أسرار أعمالها، وما أوضحته من الطرق التي هي سائرة عليها لهدم الإسلام من كل أقطار الأرض".

" ويجب أن يترجم هذا الكتاب إلى التركي والفارسي، ولسان الأورد، ولسان الملايو، وجميع ألسنة الشعوب الإسلامية. وإننا لنشكر زويمَر وأقرانه، وجميع هؤلاء المبشرين، على هذه التقارير التي لم تبق عند أحد شبهة في حقيقة مقاصد هذه الجمعيات، وهذه البعثات التبشيرية على اختلاف نحلها. كما أنها لم تُبق عند أحد شبهة في عضد الحكومات الأوربية لهذه الجمعيات التبشيرية، وهذه البعثات التي تبثها في العالم الإسلامي، تارة خفية، وتارة علنا؛ فإنه ما من سبيل للدفاع عن النفس، أحسن من معرفة العدو ما يكيد له عدوه. شكيب أرسلان".[ص:186].

ثم إنه بعد هذا المكر المتواصل، والخداع المكشوف لكل من له أدنى دراية بالسياسة الخارجية والداخلية، من أهل الجرائد والمجلات، كان من شأن هؤلاء أن يكونوا أكبر مدافع عما يشوش به أعداء الإسلام، من وسائل للقضاء عليه. ولكن، ما رأينا في هذه السنوات الأخيرة منهم من يناضل ويدافع، ويكشف عما يسترونه بوسائط المبشرين الذين يبذلون وسعهم في تنصير أهل الإسلام، غير مكتفين باستعمار أقطارهم واستعباد أهلها، واستخدامهم في مصالحهم السياسية والحربية والتجارية. أما أهالي هذه الأصقاع، من خواصها وعوامها، فيما يراد بهم، إما جاهلون أو متجاهلون، لاشتغالهم بالملاهي، وغفلتهم عما يحل بهم وببلادهم من الدواهي. وحسبهم تتبع الأخبار الفارغة من الفوائد، التي يدفعون بها عن أمتهم هذه المكائد، فالأغنياء شغلهم جمع الأموال بالملايين والملايير، والفقهاء اهتمامهم بالغلاء المتكاثر، مع سعيهم بالقيل والقال، والأخبار الكاذبة التي تعد من المحال.

[افتتان أهل الإسلام بتقليد الأجانب حتى في السيئ من الأخلاق والسلوك]

ولكن على المؤمن الديّن[أن يتمسك بدينه] في هذه الأهوال المبيدة، والنوائب الشديدة، التي أحاطت بهذه الأمة في كل جانب، والتفت عليها سلاسلها، وهي منقادة لذلك، لا تفكر في الدفع عن أنفسها. بل هي تعين الأعداء على تخريب بلادها،

وتسعى في تقويض ما بقي من أطلال دينها؛ فقد أصبح اليوم سكان الأقطار الإسلامية، يقلدون أعداءهم في كل أحوالهم، من عوائدهم وأخلاقهم، ويعتقدون أن كل ما يفعله الأجنبي هو الحق، وهو المنهج الأوفق، سواء سهل أو شق، ولا ينظرون إلى ما كان عليه سلفهم، وأحكمته شريعتهم، التي هي خير شريعة أخرجت للناس.

أما تقليد هذا الجيل الحاضر، ممن يعد من أهل بلاد الإسلام، فهو جهل مركب، لا يدري بتقليده الأعمى في أي مركب من مراكب الضلالة يركب. ولقد نبه لهذا بعض الفضلاء من أهل العصر، الذي امتحن الأفكار المختلفة والأديان، وبين المساوئ التي اكتسبتها البلاد الإسلامية من هذا التقليد الأعمى، الذي نالت به ـ حسب زعمها ـ في الحضارة والرقي المقام الأعلى، فقال:

ولقد هجمت علينا المدنية الغربية بأصناف من المسكرات والمخدرات، كان أجدادنا لا يعرفونها، وعاشوا بدونها قرونا في هناء وراحة. قال:

وهكذا الحال في المخدرات؛ كالمُورفين والكوكايين والهروويين، التي جاءت مع القرن الماضي، فأضعفت العقول، وقتلت الأنفس. وفتح التوسع في الحرية أبواب العهر والفجور، والإسراف على النفس؛ فأنشأ الفحش يُمارس تحت سمع القانون وبصره، وزادت الأمراض السرية، وتعطل التناسل في بعض الرجال والنساء.[قال]:

ثم انتشر القمار على اختلاف صوره، ومنه المضاربات وألعاب النصيب. وكان الناس في غابر الأيام، يقتنعون بالرزق المحلل؛ يأتيهم من أعمالهم الصناعية والزراعية والتجارية، لا يغامرون هذه المغامرات التي يردها العقل. قال:

وأدت الحرية الشخصية بالسلطة الأبوية في بعض البيوت إلى الارتخاء، فكان في الماضي الإفراط في هذا المعنى، وصار اليوم التفريط، وضعفت سلطة الأب على ابنه وابنته بالنسبة، وضعفت معها الشفقة والرحمة والكرامة. وأصبح كل أمر يقاس بمقياس الماديات، ولا يسأل الرجل من أين اكتسب ماله، إذا اجتمع له مال، لأن المعنويات قلما تكون ذات شأن في نظرهم، وإنما الشان كل الشأن للماديات، وقضت الحضارة على من قبلوها أن يجدّوا ويسرعوا، إن أمكن بقوة البخار والكهرباء والأثير. وكان الناس منذ قرن على تؤدة وتأن وصبر لا تشاهده في أهل هذا الجيل. ولذا رأينا التشاؤم أكثر من التفاؤل في كل بلد، والقناعة والرضى أقل من الشراهة والطمع. وأمسى كل صعلوك يحاول أن يغتني بين عشية وضحاها، بأي الطرق التي تفتح أمامه. وكثر حب الظهور، بل الجنون فيه. وتبع ذلك البذخ والتفخّل(*) والإسراف، بحيث يتعذر التوازن بين الدخل والخرج، فكان في ذلك خراب بيوت كانت عامرة، لولا التقليد المصطنع، والعادات المستحدثة. وكثرت بذلك السويداء والماليخوليا والخبل، وضعف الأعصاب، وفقر الدم والسل. كانت الرفاهية في الأيام

(*) [تفخّل: لبس أحسن الثياب] هـ من "المنجد" . أم

الماضية مقصورة على قصور الملوك والأمراء، فشارك فيها اليوم أهل الطبقات الثانية والثالثة. وكان للمجتمع في الشرق عادات مستحسنة من جمال الألفة، وحسن العشرة، وصحة العهد والوفاء، وقوة الإيمان ومعرفة الجميل، فعرا هذه الصفات بعض الفتور، خصوصا في البيئات التي اقتبست مدنية الغرب بعجرها وبجرها. وبعبارة ثانية، إن الناس انغمسوا في الأثرة، وكانوا من قبل أميل إلى الإيثار.[الإسلام والحضارة العربية:362/1].

هذا ما كتبه في هذه الجملة الواضحة الصحة في نفسها، دون تصحيح مصحح، لمظاهر الواقع الذي لا يجحده جاحد. ومن شك في ذلك، فليراجع في ذلك ببصره وبصيرته، وليشاهد ما كتبه صاحب كتاب "الإسلام والحضارة"(*)، ونقلنا منه فيما سبق جملة كثيرة. وقد ذكر صاحب هذا الكتاب، المُهم في هذا العصر، سبب تأليفه، فقال في أول الكتاب ما لفظه:

" الداعي إلى هذا التأليف: لما قرر المجمع العلمي العربي انتدابي إلى تمثيله في مؤتمر المشرقيات، الذي عقد في مدينة ليدن من بلاد القاع، في صيف سنة1931م، رغب إلي أعضاؤه المفكرون، أن ألقي فيه جملة أعرض فيها لما لا يزال يسري على أسلات أقلام(*) بعض مؤلفي الغرب، ولا سيما علماء المشرقيات، من أمور نابية عن حد التحقيق والنصفة، كلما ذكروا الإسلام وأهله، والعرب ومدنيتهم". إلخ.

ثم انطلق يبين ما حام حوله من كشف المعايب، إلى أن قال: والرجاء في هذه الصفحات أن تنفع في باب اعتبار الأحفاد، بذكرى صنيع الأجداد، الخ. ثم ختم هذه الكلمة بقوله: وأسأله تعالى أن يحل عقدة من لساني وقلمي، لأجمل ما توفرت من قِراب أربعين سنة على الدعوة إلى الأخذ به، من حسنات الحضارتين العربية والغربية. وهو الهادي إلى سواء السبيل هـ. دمشق: في 19 جمادى الثانية، 1352- 8 اكتوبر1933.

قلت: وليدن هذه، التي أشار إليها الكاتب بأنه انعقد فيها هذا المؤتمر، هي مدينة بهولاندة. قال في "النخبة الأزهرية": هي على نهر الرين، على بعد من مصبه في بحر الشمال. وهي مشهورة بمدرستها الجامعة، ودور كتبها الفاخرة. ويقال إن بها كنوز العلوم المشرقية.هـ[ص392].

* * *

قلت: وما وصف به السيد محمد كرد علي، حالة الأمم الإسلامية في الغارة عليهم، والاستيلاء على ممالكهم وأراضيهم، وسلبهم من التصرف في روح دينهم، وصرفهم عن عوائدهم، التي شأنها الهدوء والسلامة، والصدق والأمانة، وكان روحها التسامح والوداد، وحب الخير لكل من صافاه من العباد، وكان العون على ذلك القناعة بكل زاد، والسكون عند ما قدر له، دون تشوف إلى التفوق والخروج

(*) [طبع هذا الكتاب(الجزء الأول) بالقاهرة سنة 1934، لمؤلفه السيد محمد كرد علي].
(*) أسلات الخ: أسلتت الشاة: طرحت سلاها. المنجد. أم

عن المعتاد؛ هو الأمر الذي كان عليه أهل بلدنا، وغالب أقطارنا، المتمسك أهلها بأخلاق الدين الإسلامي وآدابه القرآنية، وحدوده التي حددتها لهم الأوامر والنواهي، وأبعدتهم بها عن تلك الملاهي التي هي عن ذكر الله لاهية. وقد فصل لهم ذلك رسول الأمة وإمامها ومرشدها، لما فيه من الخيرات الدنيوية، والسعادة الأبدية، بدخولهم جنات عالية، قطوفها دانية.

ولكن، لما تعدّت الأمة الحدود، وخالف[أهلها] ما أمرهم به القرآن، وبيّنه لهم سيد ولد عدنان، وما كان عليه أصحابه الكرام، ومن تبعهم من قادة الأمة التابعين لهم من الأعلام، وغيّروا معالم الشريعة، وقوّضوا أركان قواعدها المنيعة؛ فغيّر الله ما بهم، وأذلهم بعد عزهم، ووضعهم بعد رفعتهم، وسلّط الله عليهم أعداءهم، فسفك دماءهم، وملك أرضهم، واستعبدهم هم وأبناءهم، وصاروا تحت سطوته وأحكامه، خاضعين لقوانينه، يقودهم حيث شاء بلجام حسامه!

[رثاء حال دولة الإسلام، واستذكار وتذكير بما كان لها من ظهور في مختلف الأقطار]

آهٍ آهٍ، على أمة كانت سائدة بسيادتها على غالب المعمور، ولا سيما في استتباب الدولة العباسية، التي كانت تحت سلطانها كل الأقطار الإسلامية، شرقا وغربا. ولهذا كان الخليفة هارون الرشيد، يمد رأسه مستلقيًا، فينادي السحابة ويقول لها: اذهبي حيث شئت؛ يأتيني خراجك! لما لا يخفى أنه كان جل دخل بيت المال من خراج الأراضي الموقوفة لبيت المال من المغانم، إذ كانت المغانم تقسم. أما الأراضي، فتوقف اتباعا للنظام المُتّبع في الشرع، وعليه مر الخلفاء. ولهذا قال الشيخ خليل: " ووقفت الأرض".

وكانت الخلافة أيام الخليفة هارون الرشيد، تشمل آسيا وإفريقية من مصر، وشمال إفريقيا والأندلس. وكان رسم فاتح الأندلس، الذي وصل حدود فرنسا، أمله أن تواصل فتوحه لفتح أوربا، ودخوله من طريق فرنسا إلى آسيا.

ولكن اعترى رؤساء الجيش إذ ذاك داء التنافس، وفكك أعضاءه علة الحسد والتخالف والتنازع، الذي أنذرنا القرآن الكريم بأنه الداء المردي، والمذهب للدولة من أصلها، والممزق لها كل ممزق، ويميت حياتها ويسلبها ملكها، وتصير عدما بعد الوجود، ومملوكة بعد الملك، وقوتا للأعداء بعد أن كانت تقوت، وذليلة بعد العز، ووضيعة بعد السمو والعلو. ورأت هذه الدولة الإسلامية، وهذه الأمة التي هيَ خير أمة أخرجت للناس، ما قاله الباري، جل شأنه، وعز سلطانه، إذ خالفنا ما أمرنا به مولانا، من قوله: (وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)؛ ففشلنا غير مرة بهذه المخالفة، وتداركنا المولى في بعض دولنا، فلم نمتثل، ووقع بنا ما وقع.

فانظر إلى مصر، وإلى الدولة العثمانية، وإلى ما كان لها من الظهور، وانضمام أقطار الإسلام إليها، واعترافهم بخلافتها، فأصبحت ذات النفوذ المطلق في الشرق والغرب؛ ولكن لما أصيبت بداء التنازع والتخالف، تقطعت أوصالها، وزال اتصالها.

وانظر ما كان بيد الدولة الإسلامية من الجزر والأقطار، ونفوذ كلمتها بجزيرة صقلية الخصيبة، وما بدا فيها من زهرة الإسلام، حتى تخرج منها علماء عظام، كالإمام المازري، أحد كبراء المذهب المالكي، المرجوع إليه في الفتوى في دقيق المسائل العظام؛ حتى إن الإمام خليلا جعل هذا الإمام، أحد الأئمة الذين اعتمد عليهم في تحرير "مختصره"، كما هو مشهور.

[الدولة الإسلامية بالأندلس وما أبقته من آثار حضارية عظيمة]

أما القطر الأندلسي، [فقد] تأسست به خلافة ثانية لبني مروان، وعظم أمرها، وبان صلاحها وإصلاحها، وأصبحت به دولة عظيمة ذات نفوذ ومقابلة للأعداء، و[هو ما استدعى]اعترافهم، بعظمتها، وأعجبوا بسياستها الداخلية والخارجية، حتى خطبت ودادها الدول المجاورة لها، راغبة في عقد المعاهدات معها، واشتهرت في أوربا بتقدمها في العلوم الدينية والدنيوية؛ فأسست بذلك مؤسسات عظيمة. وناهيك ما أبقته في عاصمتها القرطبية من آثار عظيمة، كمسجدها العظيم، الذي صار الآن مقصدا للنبلاء من أهل أوربا، وأعجوبة تستوقف الفنيين منهم والمغتبطين بالاطلاع على الآثار القديمة، حتى يقول أهل أوربا وغيرهم ـ ممن شأنهم السياحة في البلدان، والوقوف على آثارها ـ إن إسبانيا، لولا الآثار التي أبقاها أهل الإسلام فيها، وفي غيرها، لما كان للسائح الفني ولا لغيره، فائدة في التجول في إسبانيا.

قلت: وهذا المقال في شأن الآثار الإسلامية في الأندلس، يعترف به كل من جال في تلك الأقطار، ووقف عليها وقوف استخبار أو اعتبار، مما يبكي عيون المؤمن المتأسف على إضاعة ذلك الفردوس العزيز وفقده، لمتابعة التنازع والتدافع على نيل الرئاسة، المجردة عن إعمال التأمل، وسديد الاعتبار؛ وهي الموصوفة عند أهل تلك الديار بأنها جنة الدنيا، وزهرة حياتها، بلا استثناء ولا ثنيا، ناهيك بخصب أراضيها، وسعة مزارعها، وعذوبة مياهها وفيضان أنهارها، كما قال ابن خفاجة:

يا أهل أندلس، لله دركمُ ماء وظل، وأزهار وأنهارُ

ثم قال، وخرج به عن الأدب، وأغرق بما كان للأندلس:

ما جنة الخلد إلا في دياركمُ ولو تخيّرت، هذا لكنت أختارُ

وأصلحت أنا ذلك، وقلت:

ما جنة الدنيا إلا في دياركمُ لكنني جنة الرحمان أختارُ

ولكن لا يخفى أن شأن الشعراء الغلو، رغبة في تحلية كلامهم بالغواية والكذب، كما قالوا: أعذب الشعر أكذبه. والله الواقي.

ثم بعد هذا أقول، ذاكرا ما كانت عليه الدولة هنا من التقدم والانتصار، وبروزها في هذه الأمة الإسلامية، بمملكتها وأعيانها وعلمائها ومؤلفاتهم، كالغزالة في رائعة النهار؛ فأصبحت بعد أن كانت مشرقة في سماء السيادة، بمجدها وجدها، ساقطة في هوّة الذل والهوان، بإحاطة أعدائهم، وإجلائهم من أرضهم وديارهم، وردهم على أدبارهم أقبح رد.

وفي هذه الحالة يقول في "النفح"، ناقلا عن " تاريخ" ابن حيان، بعد أن ذكر عن ابن بشكوال ما يشاكل موضوعنا، والتنويةَ بجزيرة الأندلس، وما احتوت عليه من أنواع الخيرات من الثمر والشجر، مع الرخص والسعة، ومن نمو دخلها من الأموال، أيام عبد الرحمان الناصر، نموا كبيرا، وحرر قدره، ولا حاجة لنا[بذكر] ذلك. وإنما الحاجة إلى أن نبين للمعتبر، ما آل إليه حال هذا القطر، الذي كفر بأنعم الله، فأذاقه الله الخزي والذل. وإن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيرُوا ما بأنفسهم؛ وهذا قول المقري في "نفحه"، ناقلا عن غيره:

كانت سلطنة الأندلس في صدر الفتح، على ما تقدم من اختلاف الولاة عليها، من سلاطين إفريقية. واختلاف الولاة داع إلى الاضطراب وعدم تأثل الأحوال، وتربية الضخامة في الدولة. ولما صارت الأندلس لبني أمية، وتوارثوا ممالكها، وانقاد إليهم كل أبيّ فيها، وأطاعهم كل عصيّ؛ عظمت الدولة بالأندلس، وكبرت الهمم، وترتبت الأحوال، وترتبت القواعد. وكانوا صدرا من دولتهم يخطبون لأنفسهم بأبناء الخلائف، ثم خطبوا لأنفسهم بالخلافة. وملكوا من برّ العدوة ما ضخمت به دولتهم. وكانت قواعدهم إظهار الهيبة، وتمكن الناموس من قلوب العالِم، ومراعاة أحوال الشرع في كل الأمور، وتعظيم العلماء، والعمل بأقوالهم، وإحضارهم في مجالسهم واستشارتهم. ولهم حكايات في "تاريخ" ابن حيان، منها ما هو مذكور من توجه الحكم على خليفتهم، أو على ابنه، أو أحد حاشيته المختصين، وأنهم كانوا في نهاية من الانقياد إلى الحق، لهم أو عليهم. وبذلك انضبط لهم أمر الجزيرة. ولما خرقوا هذا الناموس، كان أول ما تهتك أمرهم، ثم اضمحل.

وكانت ألقاب الأول منهم: الأمراء أبناء الخلائف، ثم الخلفاء أمراء المؤمنين، إلى أن وقعت الفتنة بحسد بعضهم لبعض، وابتغاء الخلافة من غير وجهها الذي رتبت عليه، فاستبدّت ملوك الممالك الأندلسية ببلادها، وسمّوا بملوك الطوائف. وكان فيهم من خطب للخلفاء المروانيين، وإن لم يبق لهم خلافة، ومنهم من خطب للخلفاء العباسيين، المجمع على إمامتهم.

وصار ملوك الطوائف يتباهون في أحوال الملك، حتى في الألقاب، فآل أمرهم إلى أن تلقبوا بنعوت الخلفاء، وترفعوا إلى طبقات السلطنة العظمى، وذلك بما في جزيرتهم من أسباب الترفه والضخامة، التي تتوزع على ملوك شتى، فتكفيهم وتنهض بهم للمباهاة. ولأجل توثبهم على النعوت العباسية، قال ابن رشيق القيرواني:

مما يزهدني في أرض أندلس　تلقيب معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها　كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

فذكر في "النفح" عبّاداً، الملقب بالمعتضد، وابنه محمدًا، ويلقب بالمعتمد.[99/1].

[ترجمة الملك المعتمد ابن عباد]

قلت: وهو الملك الذي كان له الأدب الرائع، والذكر الشائع، من بين ملوك الطوائف، وهو أجلهم مكانة، وأغبطهم بإنشاد الشعراء، وتقريب أبرعهم وأرقهم فصاحة وإبانة. وفيه يقول في "القلائد":

ملك قمع العدا، وجمع البأس والندَى، وطلع على الدنيا بدر هدَى. لم يتعطل يوما كفه ولا بنانه، آونة يراعه، وآونة سِنانه، الخ[ص4].

وهو الأمر الذي كان أعجب به ابن تاشفين، إذ استنجد به، لما فغر[فاه] العدو المجاور على اكتساح عاصمته اشبيلية وما حولها، وابتلاع ما بقي من أطراف الجزيرة. ولكنه بعد ذلك، بان لابن تاشفين ما أساء الظن به،[خصوصا] وأنه ـ فيما يقال ـ إنه يستعين بالعدو في محاربته. وآل الأمر إلى اعتقاله وسجنه بأغمات، قرب مراكش، بعد وقائع وقعت بين جيش ابن تاشفين، وبين المعتمد الذي أظهر غاية الدفاع عن نفسه، وأظهر الشجاعة والثبات، وعدم ارتياعه لقوة ابن تاشفين واندفاعه. وفي ذلك يقول مفتخرا:

إن تستلب عني الدنا　ملكي، وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه　لم تسلم القلب الضلوع

إلخ.

* * *

[تلخيص ما ورد في كتاب "المُعجب"، عن اختلال أحوال الأندلس، وظهور ملوك الطوائف]

قلت: وقد تصدى في "المُعجب" لبسط قضية ثورة ابن تاشفين على المعتمد، وشرحها، والسبب في تغيره عليه، بعد أن كان عند ابن تاشفين بالمكان الأرفع.

ولا بأس بتلخيص مقالته، لما فيها من فرائد الفوائد، وموفور الاعتبارات التي فيها قرة عين الطالب الرائد بذكره،[في] ما عرا هذه البلاد الأندلسية، بعد انقراض الدولة الأموية، من النكبات والعثرات؛ فقد ذكر تحت ترجمة: (أحوال الأندلس بعد انقطاع الدعوة الأموية عنها)، ما لفظه:

وأما حال سائر الأندلس، بعد اختلال دعوة بني أمية؛ فإن أهلها تفرقوا فرقا، وتغلب في كل جهة منها متغلب، وضبط كل متغلب منهم ما تغلب عليه. وتقسموا ألقاب الخلافة؛ فمنهم من تسمى بالمعتضد، وبعضهم تسمى بالمأمون، وآخر تسمى

بالمستعين والمقتدر والمعتصم، والمعتمد والموفق والمتوكل، إلى غير ذلك من الألقاب الخلافية. ثم قال:

وأنا ذاكر، إن شاء الله، في هذا الفصل أسماءهم، والجهات التي تغلبوا عليها، على نحو ما شرطت من الإجمال. ثم قال:

فأولهم في الربع الجنوبي، رجل اسمه سليمان بن هود، تلقب بالمؤتمن، وتلقب ابنه بالمقتدر، وتلقب ابن ابنه بالمستعين. كانوا بنو هود هؤلاء، يملكون من مدن هذه الجهة الجنوبية: طرطوشة وأعمالها، وسرقسطة وأعمالها، وأفراغة ولاردة، وقلعة أيوب. هذه اليوم كلها بأيدي الأفرنج، يملكها صاحب برشلونة. وهي البلاد التي تسمى أرَغُن. حد هذا الإسم مما يلي بلاد فرنسا. ويجاور بني هود هؤلاء، رجل آخر اسمه عبد الملك بن عبد العزيز. قال: هو أحق ملوك الأندلس بالتقدم. قال: لا أعلم له لقبا. كان يملك بلنسية وأعمالها، قال: وكان يلي الثغر رجل آخر، يقال له أبو مروان ابن رزين. كان يملك إلى أول أعمال طليطلة. وكان الذي يملك طليطلة وأعمالها، أبو الحسن ابن ذي النون. قال: وأبو الحسن هذا، أقدم ملوك الأندلس رياسة، وأشرفهم بيتا؛ تلقب بالمأمون. كان أبوه إسماعيل، هو الذي تغلب على طليطلة من قبل، واستبد بملكها أول الفتنة. ولم يزل أبو الحسن هذا يملكها، إلى أن استولى عليها النصارى سنة 476، قال: فهي قاعدة ملك النصارى إلى الآن.

قال: وكان يملك قرطبة وأعمالها إلى أول الثغر، جهور بن محمد، إلى أن غلبه عليها صاحب طليطلة، إسماعيل بن ذي النون.

وكان يملك إشبيلية وأعمالها، القاضي ابن عباد.

وكان يملك مالقة والجزيرة وغرناطة، وما والى ذلك، بنو برزال الصنهاجيون.

وتغلب على ألمرية وأعمالها، زهير العامري الخادم، ثم ملكها بعده خيران العامري، إلى أن أخرجه عنها ابن تاشفين سنة484.

وكان يملك دانية وأعمالها، مجاهد العامري. أصله رومي، مولى لابن أبي عامر، ثم بعده ابنه. وتلقب بالموفق. وقد أثنى عليه في "المعجب" بالصيانة وطهارة العرض، والتجافي عن شرب الخمور، ولا يقرب من يشربها، مؤثرا للعلوم الشرعية وإكرام أهلها. توفي قبل فتنة المرابطين.

قال: وكان يملك الثغر الذي من الجهة الشمالية، وبعض المدن المجاورة للبحر الأعظم (قلت: وهي بلاد البرتغال اليوم)، ابن الأفطس، المتلقب بالمظفر؛ ذهب عني اسمه. ثم كان له ابن اسمه عمر، يكنى أبا محمد، تلقب بالمتوكل على الله. كان يملك بطليوس وأعمالها، ويابرة وشنترين والأشبونة.

كان المظفر هذا أحرص الناس على جمع علوم الأدب، خاصة من النحو واللغة والشعر، ونوادر الأخبار وعيون التاريخ. انتخب مما اجتمع له من ذلك، كتابا كبيرًا ترجمه باسمه، على نحو "الاختيارات" للروحي، و"عيون الأخبار" لأبي محمد ابن قتيبة. جاء هذا الكتاب في نحو من عشرة أجزاء ضخمة. قال صاحب "المعجب":

وقفت على أكثره، ترجمه:"المظفري". وكان لابنه المتوكل، قدم راسخة في صناعة النظم والنثر، مع شجاعة مفرطة، وفروسية تامة، وكان لا يُغبّ الغزو، ولا يشغله عنه شيء.

واتصلت مملكته إلى أن قتله المرابطون، أصحاب يوسف بن تاشفين، وقتلوا ولديه الفضل والعباس صبرا؛ ضربوا أعناقهم في غرة سنة 485.

وكانت أيام بني المظفر بغرب الأندلس أعيادًا ومواسم، وكانوا ملجأ لأهل الآداب؛ خلدت فيهم ولهم قصائد شادت مآثرهم، وأبقت على غابر الدهر حميد ذكرهم.[المعجب: ص46].

[قصيدة ابن عبدون الشهيرة، وشراحها]

ثم أشار صاحب "المُعجب" إلى تلك القصيدة الغراء، والمرثية المرة في إثارة الأسف والحزن على ما عبثت به يد التحاسد والبغضاء. ولقد أبكت هذه القصيدة التي أشار إليها واستبكت، وأجرت دموع من سمعها دما، ولأفئدة أهل العبرة جرحت. وهي قصيدة الوزير، كاتب الأندلس الأبرع، ذي الوزارتين، أبي محمد، عبد المجيد ابن عبدون، وهي قصيدة رثاء ووعظ، وتعريف بأن[الدنيا] لا تبقي على مواليها، ولا على ذوي الرياسة والسلطنة من ذويها، ولا يحصنهم من دواهيها، مشيدات قصورها. ولهذا قال في مطلعها، وهو براعة استهلالها:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر   فما البكاء على الأشباح والصور

وهي قصيدة استوقفت أفكار نبلاء الأدباء، واستلهمت لعجائب بلاغتها سُباق الغايات في ميادين مناضلة نبغاء الشعراء. ولهذا تصدى لشرحها أحد أذكياء الأدب النبلاء، الأديب ابن بدرون، وكانت تسمى عندهم الشّامة. وسمى هو شرحها: "كمامة الزهر، وفريدة الدهر"، أو "كمامة الزهر، وصدفة الدر"، أو "شرح الشّامة، بأطواق الحمامة". قال في مقدمة الطبع:

واختصر شرح ابن بدرون، العلامة إسماعيل ابن الأثير الشافعي. وذكر في هذه المقدمة عن "كشف الظنون"، ما لفظه: قصيدة ابن عبدون، محمد بن عبد الله، وهي رائية، في التاريخ. ذكر فيها الملوك الماضية، وأكثر وقائع العالم. ذكرها بن بري، وقال: هي من أمهات القصائد. ذكر فيها عدة من مشاهير الملوك، والخلفاء الأكابر.هـ. شرحها جمال الدين ابن الجوزي، وشرحها أيضا إسماعيل بن أحمد بن الأثير الحلبي، وأحسن وأجاد، ثم ذيلها. وتوفي سنة ستمائة وتسع وتسعين. وشرحها الشهاب، وشرحها الأديب الفاضل، عبد المالك بن بدرون الحضرمي ثم السبتي، وسمّاه "كمامة الزهر، وفريدة الدهر". هـ المراد. [شرح ابن بدرون: ص2].

[داء الانقسام الذي فتك بالأقطار الإسلامية]

ولنرجع إلى ما كنا بصدده من بيان الداء العضال الذي فتك بأقطار الإسلام، وهو داء التفرق والانقسام. وفاتحة ذلك الداء المؤلم، والجارح لقلب كل مسلم، هو سريانه في أعضاء الخلافة العباسية، ذات النفوذ المطلق في سائر أقطار البلاد الإسلامية، شرقا وغربا، كما تقدم، ثم لما افترقت الآراء، وتخالفت الأفكار، وسرى في الأمة داء التباغض والتباعد، وفشا فيها التقاطع والتحاسد، وانتشرت الفوضى، واستبدت كل ناحية بأمرها، وأسندت أمرها إلى قائد جيشها، أو لزعيم قومها؛ فتقطع أمر الخلافة، وتفككت أعضاؤها، فأصبحت بعد التعالي في الانحطاط. ثم لم تلبث تلك الفروع المتفرعة عن أصلها[أن ذهبت]إلى التفرق في نفسها، وعادت بعد ألفتها إلى فرقتها. والعدو في كل ناحية بالمرصاد، آخذٌ بكل جهوده في انتظار الفرصة للإغارة وبلوغه في أخذ ثأره المراد.

واستمر الحال بين هؤلاء الرؤساء في أوحال وأحوال، بين مسالمة وقتال، والأمة معهم في عذاب ونكال. فتارة يعظم جانب قائد، وطورا ينحط الجانب الآخر، والأرواح تبيد، والكبراء بين متعة الأغاني والغواني والقصر المشيد!

ثم الرجوع في هذا كله إلى الغني الحميد، الفاعل في ملكه ما يريد.

[إتمام الكلام على ختام دولة الإسلام بالأندلس]

ثم نرجع إلى إتمام الكلام على ختام أمر الأندلس، فنقول: لم يزل أمر الأندلس، بعد تأليف تلك الحكومة المروانية الجديدة فيها، وهي آمنة في سربها، منتظمة في سلكها، عزيزة في ملكها، حافظة لأقطارها، مشيدة لمبانيها، وآثارها الدينية والدنيوية. تهابها الدول المجاورة، وتعظمها الملوك المسيطرة، كما سبق ذلك مفصلا.

حتى استحكم فيها ذاك الداء الفتاك، ففكّك أعضاءها، وفرّق وحدتها، وصارت تلك الوحدة فريسة بين الثوار، يفترس منها كل ثائر على قدر قوته؛ فمنهم من اقتنع بحظه، واغتنى بحفظه، وأضاف إليه ما اتسعت به إيالته، وعظمت به مكانته، كالمعتمد ابن عباد، صاحب إشبيلية، فإنه استولى على قرطبة، وأخذها ممن كانت بيده، وعدها من مفاخره؛ فكان أعظم ملوك الطوائف بالأندلس.

ثم لم يزل الحال يتبدل من سيئٍ إلى أسوأ؛ والعدو فاغر فاه، ليبتلع الجزيرة بأسرها، لانحطاط سكانها في سرّها وجهرها، واشتغالهم بلهوها، وتنظيم مجالس أغانيها بشرابها وخمرها، مع معاداة كل مدع للملك لجاره، ومنازعته في أقطاره، والعدو يستطلع أحوالهم، ويستمد من بعضهم أخبارهم، حتى صفا له الجو، وعلم أسرارهم؛ فأبدى للاحتلال أعلامه، وهيأ للاستيلاء عليهم أغلاله، وأيقن بضعفهم عن

المقاومة، وإلقاء السلاح عند المهاجمة، فأثقلهم بالمغارم والضرائب، وجعل التهديد والتلاعب بهم ضربة لازب. وهم لاهون، في بحور الملاهي عائمون، حتى اشتد الحال، وتيقن الناس أن العدو محيط بهم، وأن دفاعه عنهم من قضايا المحال. وكان من مقدمات ذلك احتلال طليطلة، التي كانت من أشراط الغارة الكبرى؛ فتوقع العقلاء أنهم في يد العدو أسرى، ولذا قال ابن العسال:

يا أهل أندلس، حثوا مطيكـــمُ فما المقــام بها إلا من الغلــطِ
السلك ينتثر من أطرافه، وأرى سلك الجزيرة منثورا من الوسطِ
ونـحن بين عدوّ لا يفارقنــــا كيف الحياة مع الحيات في سفطِ؟!

قلت: وهذا المقال انحطاط عن الهمة العالية، والشجاعة العربية، ورضى بالخضوع دون دفاع، وبذل المستطاع. وفي معارضة مقالة هذا القائل، الذي ألقى السلاح، قبل قرع الصّفاح بالصفاح، أقول:

يا أهل أنـدلس، حُلـوا خزائنكــمْ وأنفقوها على الأعداد والعُـددِ
ووحدُوا في الوغى صفوف جيشكمُ وكونوا على الأعداء في أحـدِ
وفارقـوا فرق التفريـق بينكــمُ وخالفوا خُلق الأحقاد والحَسدِ
وشمرّوا الذيل للأعداء وانصرفـوا عن لذةٍ تترك الأوطـان في بدَدِ
ولا تسمحـوا، والله ينصـركـــمْ، بقطعة أخذت بالجـدّ والجلــدِ
فإن نُصرتم، ففي الدنيا لكم فــرحٌ وإن قتلتم، حييتمْ مدَى الأبــدِ

وفي هذه الأبيات، خطاب ظاهر للأموات؛ ولكنه في الحقيقة تنبيه لنا وتذكرة لمن أراد أن يتخذ إلى طريق الرشد سبيلا. ولينظر إلى هذه الآثار، وليعتبر أولو الأبصار. والأمر كله بيد العزيز الغفار.

ثم نرجع إلى أن أقول: إن أخذ طليطلة، كان تذكارا وموعظة، وإيقاظا من نوم هذه الغفلة التي أعمَت الأبصار، وأضلت الأنصار. ولم يرجع أهل هذه الأمصار عن الملاهي، والاشتغال بالغواني والأغاني، وسماع الغواية من الشعراء، من المدائح الكاذبة، والاستجداء بها من كل ملك جبار، لا يبالي بصالح الأمة وإن وقعت في جُرُف هار.

وكانت ثورة الثوار وأقسامهم، بتلك المملكة الأندلسية التي كانت موحدة في تلك الديار؛ [فـ] استبدّ - كما قدمنا - كل ثائر بناحية. ويا ليتهم، لو استبد كل واحد، وصرف استبداده لإصلاح بلاده، والنظر في مصالح ولايته، وجمعهم في الكلمة وتعاضدهم في دفع البلاء المحيط بهم. لكنهم اشتغلوا بالآثام والأوزار، ومحاربة الثائر المجاور له في أخذ بلاده التي استبد بها. بل منهم من صار [يتقرب] ممن جاوره من الأعداء، ويقلده في أعماله وما عليه ولايته من الأزياء، شأن المغلوب مع الغالب. وقد قدمنا أسماءهم، وما استولى عليه كل واحد من المدن والأمصار.

[المعتمد ابن عباد، واتساع مملكته، وافتخاره بذلك]

وكان أوسعهم مملكة، وأشهرهم ذكرا، وأعلاهم شهرة وقدرا، المعتمد ابن عباد، إذ هو الذي اعتنى بما اقتطعه من البلاد، وسعى في توسيع دائرتها، حتى سمت همته لامتلاك قرطبة وما حولها، التي كانت عاصمة القطر الأندلسي أيام الدولة المروانية.

قال في "النفح" عن "القلائد":

وكانت قرطبة منتهى أمله، وكان رومُ أمرها أشهى عمله، وما زال يخطبها بمداخلة أهليها، ومواصلة واليها. قال: وحين اتفق له تملكها، وأطلعه فلكها، وحصل في قطب دارتها، ووصل إلى تدبير رياستها وإدارتها؛ قال:

مَن للملوك بشأو الأصْيَد البطل ... هيهات، جاءتكم مهْدية الدول
خطبتُ قرطبة الحسناء إذ منعت ... من جاء يخطبها بالبيض والأسل
وكم غدت عاطلا حتى عرضت لها ... فأصبحت في سرى الحَلْي والحلل
عرس الملوك لنا في قصرها عرس ... كل الملوك لها في مأتم الوجل
فراقبوا عن قريب، لا أبَا لكمُ، ... هجوم ليث بدرع البأس مشتمل

هـ[نفح الطيب:1/193].

قلت: فلما امتلأ سرورًا وفرحًا بهذا الانتصار، واتسع بأمّ الأمصار ملكه؛ أعجب بنفسه، ولم يدر ما يأتي به من تقلبات أمسه، فافتخر بالعدد، وغفل عن أن الدهر إذا جمع يوما ففي الغد فرق وبدّد. ثم إنه أسكرته خمرة هذا الانتصار الأبهر، حتى ادعى أنه المهدي المنتظر. والله غالب على أمره.

قال في "المُعجب":

" ولم يزل المعتمد هذا في جميع مدة ولايته، والأيام تساعده، والدهر على ما يريده يؤازره ويعاضده، إلى أن انتظم له في ملكه من بلاد الأندلس ما لم ينتظم لملك قبله - أعني من المتغلبين - ودخلت في طاعته مدن من مدائنها أعيت الملوك وأعجزتهم. وامتدت مملكته إلى أن بلغت مدينة مُرسية، وهي التي تعرف بتدمير، بينها وبين إشبيلية نحو من اثنتي عشرة مرحلة، وفي خلال ذلك مدن متسعة وقرى ضخمة. وكان تغلبه على قرطبة، وإخراجه ابن عكاشة منها، يوم الثلاثاء، لسبع بقين من صفر، سنة471".[ص80].

قلت: فبهذا صح له الافتخار، إذ اشتملت ولايته أهم الأقطار، وصار يُدعى ملك الملوك، كما وردت به الأشعار. ولكن، لما تمّت ولايته، وعظمت إمارته، وصح له هذا الافتخار، وأسكرته خمرة الانتصار، أنشد تلك الأبيات مفتخرًا ومهددًا لمن سواه من الملوك المتغلبين، غافلا عن تصرفات الأقدار، والتقلبات المتتابعة في هذه الدار، وأنها متى أضحكت يوما أبكت أياما؛ فهي (كَمَثَلِ غَيْثٍ أعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ)

ثم يئول للاصفرار؛ إذ بعد هذه الأفراح التي استعلى بها المعتمد، وطار كلّ مطار، تبدلت حاله بتوالي الملمّات، وترادُف الأكدار، كما يأتي خلاصة ذلك.
والملك الدائم، إنما هو للواحد القهار، الذي يؤتي ملكه من يشاء، وينزع عزّه عمّن يشاء.

[اشتداد الحال على أهل الأندلس، ورجوع أهلها إلى رأي المعتمد في الاستغاثة بملك المغرب]

قلت: ولما اشتد الحال على أهل الأندلس، بإحاطة العدو عليهم، واختطاف قواعد بلادهم، وظهرت صولته، وأذلتهم قوته، حتى أضحت تلك الممالك المتفرقة وملوكها، تفرض عليهم الضرائب، وألزمهم بأداء الجزية، كما كان هو الذي يؤديها لهم، وضاقت أرض الأندلس على أهلها بما رحبت، ورأوا احتلال الأعداء يحل بهم في الصباح أو المساء؛ رجعوا كلهم إلى رأيِ المعتمد ابن عباد، لأنه لما وقع له مع الأدفونش - في الضريبة التي كان يؤديها له - وأوفد إليه وفدا، ورئيسه يهودي، وكان الوفد وفد حرب، لا وفد هدنة، فبالغوا في التسوُّر عليه، حتى استعرّه الغضب، وقتل ذلك الوفد الإسباني عن آخره، وأبقى اليهودي.(*)
ثم بدا له أن الأمر عليه شديد، وأنه لا قبل له على رد هذا المتطاول العنيد، فرأى أن هذه الثلمة لا يدفعها عنه إلا الالتجاء إلى ملك المغرب، إذ ذاك، المشتهر بجيشه العرمرم، وشدة شجاعته وصرامته. ولكن كانت ملوك الطوائف تعارضه بالخاصة من شيعته، وتحذره، خيفة مغبة العاقبة، مشافهة ومكاتبة. وبعد لأي، أجابهم بكلمته الشهيرة، التي صارت مثلا: (رعْيِ الجمال، خيرٌ من رعْيِ الخنازير).
قال في " النفح": ومعناه أن كونه مأكولا ليوسف بن تاشفين، أسيرا يرعى جماله في الصحراء، خير من كونه ممزقا للأذفونش، أسيرًا له، يرعى خنازيره في قشتالة.هـ[526/2].

[وصول يوسف بن تاشفين إلى الأندلس، وصدى انتصاره في العالم الإسلامي]

ثم إنه لما جاء ابن تاشفين [إلى الأندلس] مجيبا للاستغاثة، وإنقاذ أهل الأندلس من غارة الإسبان - سواء قلنا بقدوم المعتمد لمراكش بنفسه، أو بالكتابة له، أو

(*) يبدو أن المؤلف اعتمد ما في "وفيات الأعيان"(30/2)، وكذلك ما في"النفح"(524/2)، من أن المعتمد ضرب اليهودي، رئيس الوفد، وقتل من كان معه من الإسبان. إلا أن ما في "الإحاطة"(75/2) يفيد عكس ذلك؛ أي إنه نكل بالوفد واحتبسه، وقتل اليهودي.

بإرسال وفد، أو أراد توسيع ملكه لمجرد رأيه، لما تم له أمر المغرب، واتسعت مملكته، وتكاثرت جيوشه وتعاضدت قوته، حارب الإسبان وسلطانهم المسمى إذفونش، وأيده الله بنصره وبالمؤمنين، نصرًا كان له في العالم الإسلامي شهرة كبيرة، انشرحت به الصدور، حتى إن الإمام الغزالي، وهو الإمام المشهور عند المسلمين، المؤلف لإحياء علوم الدين؛ شرع في الرحلة إلى زيارته، إعجابا بانتصاره، وإغاثته هذا القطر الإسلامي من هذا الكافر الظالم من ابتلاع أهله. ولكن حيل بينه وبين ما أمل، وكرّ راجعا، إذ بلغه موت هذا الفاتح الذي بلغ بنصرة هذا القطر منتهى الآمال، أو لما وصل إليه من أن الحكومة أحرقت كتابه "الإحياء"، بفتوى بعض الفقهاء. والله أعلم.

ثم إن ابن تاشفين، لما دفع، بفضل الله، هذا الحادث الملم، ورد حملة هذا الكافر التي روعت كل مسلم، رجع لبلده، وراية النصر بالقطر الأندلسي لائحة، وقلوب الأهالي بالنكاية في أعدائهم في لذات المسرات غادية ورائحة.

وكان الأمير ابن تاشفين[مستطلعا] لملوك الطوائف، واحدا بعد واحد، وعلم من أسرارهم المخلص منهم والجاحد.

وكان ممن اصطفاه وقربه من هؤلاء الملوك، المعتمد ابن عباد، لأنه أظهر له غاية الصفاء، وتبين له منه بوادر الوفاء، فمال إليه، وجعله عيبة سره، كما كان عنده قريبا من رتبة ابن صمادح، أمير بلنسية.

ثم صارت عقارب النمائم تدبّ، ومقاصد التباغض والتحاسد، تملأ قلب ابن تاشفين بالأحقاد وتفسد، حتى آب إلى بلده،[وظهر له] بأن هؤلاء الأمراء، الذين كانوا يجاملونه، إنما كان منهم ذلك نفاقا ومراءً، مع ما وصل إليه من أن بعضهم كان يوالي الأعداء.

وكان من جملة ما أبلغه إليه ابن صمادح، عن المعتمد، ما ذكره في "المُعجب"؛ فكان من جملة ما ألقي إليه، أن جعل يقرر عنده عُجْب المعتمد بنفسه، وفرط كبره، وأنه لا يرى أحدا كفؤا له، وزعم أنه قال له في بعض الأيام ـ عند ما قال له: طالت إقامة هذا الرجل بالجزيرة، يعني أمير المسلمين ـ : لو عوّجتُ له أصبعي، ما أقام بها ليلة واحدة، هو ولا أصحابه؛ وكأنك تخاف غائلته. وأي شيء هذا المسكين وأصحابه!؟ إنما هم قوم كانوا في بلادهم في جهد من العيش، وغلاء من السعر، جئنا بهم إلى هذه البلاد؛ نطعمهم حسبة وائتجارًا؛ فإذا شبعوا، أخرجناهم عنها إلى بلادهم. إلى أمثال هذا القول من تحقير أمرهم، وأعانه على ذلك قوم من وجوه الأندلس، إلى أن بلغوا ما أرادوه من تغيير قلب يوسف، أمير المسلمين.هـ بعض كلام "المُعجب". [ص86].

وتتبّعُ ما جرى في هذا الشأن، يطول شرحه، ويعظم في القلوب وقعه، ويعرف المتأمل العاقل أن هذا الانتصار، الذي أنقذ أهل الأندلس من المحق والاندثار،[كان إرشادا لهم] إلى أن يرجعوا عن هذا التحاسد وهذا التباغض والانشقاق، ويسلكوا

مسالك النجاة؛ وهي مسالك التحبب والتودد والاتحاد. ولكن إذا أرادَ اللهُ بأمة شرا، فما لها من إرادة الله من واق.

ولا سيما ما في هذه القضية من التخالف في النقول والروايات، وشبوبها بظهور التعصب لكل جانب، ونسبته القبيح للجانب الآخر. والله يقول الحق وهي يهدي السبيل.

[مواصلة تتميم ترجمة المعتمد، ونكبته على يد ابن تاشفين]

أما المعتمد، الذي كان أحرز في مملكته المقام الأعلى، واستولى في هذا القطر الأندلسي على القطعة الكبرى، فاستعظم على ما سواه من ملوك الطوائف واستعلى - كما تقدم - فله الذكر الذائع، و[من ذلك] شيمه في الكرم والجود والفنون الأدبية، من الشعر والنثر. وجمع في مجلسه من النبغاء، ما لم يتفق جمعه لملك في عصره. ولهذا اشتهر ذكره في الآفاق، وحلاه المؤرخون من أهل عصره، وغيرهم من الأدباء والنبلاء، بأوصافه الرائقة التي تنشرح لها الصدور، وتقرّ بها الأحداق.

ثم آل أمره إلى ما آل إليه، من الغارة عليه في مدينته وقصره، ومقاتلته؛ ولم يغنه ما أبدى من دفاعه عن نفسه بقوته وشجاعته، في تلك الموقعة العظيمة، التي هجم فيها جيش ابن تاشفين عليه في عاصمة ملكه، ودخوله عليه في قصره، حتى خرج إليهم مجردا عن ثيابه، وليس عليه إلا قميص نومه، ولم يجد بين يديه من مدافع، ممن ظن أنه له نافع. فوقع القبض عليه، بعد فتنة أدمت عيون القريب والبعيد، وارتاعت القلوب من هذه الحادثة الرعب الشديد.

وفي هذه الحال، يقول في "القلائد"، في ندبته وبكائه واستبكائه، بعد كلام طويل، بعد أن كان حلاه بقوله: ملك قمع العِدى، وجمع البأس والندَى. إلخ ما تقدم، قال في هذه الحال :

" ثم انحرفت الأيام، فألوَتْ بإشراقه، وأذوَتْ يانع إيراقه، فلم يدفع الرمح ولا الحُسام، ولم تنفع تلك المنن الجسام، فتُملك بعد الملك، وحط من فلكِه إلى الفُلك، فأصبح خائضا تحدوه الرياح، وناهضا يزجيه البكا والنياح، قد ضجت عليه أياديه، وارتجت جوانب ناديه، وأضحت منازله قد بان عنها الأنس والحبور، وألوت ببهجتها الصَّبا والدَّبور، فبكت العيون عليه دما، وعاد موجود الحياة عدما، وصار أحرار الدهر فيه خدما، فسحقا لدنيا ما رعت حقوقه، ولا أبقت شروقه، فكم أحياها لبنيها، وأبداها رائقة لمجتليها. وهي الأيام لا تقي من تجنيها، ولا تبقي على مواليها". الخ.[القلائد: 5].

[الانتصار في وقعة الزلاقة، وتلخيص ابن الأثير ما جرى من تملك ابن تاشفين ما بيد المسلمين من الأندلس]

ثم إن هذا الانتصار الذي وقع لأهل الأندلس، بسبب إغاثة الأمير يوسف بن تاشفين، من أعظم الانتصارات التي وقعت لأهل الإسلام على كفار إسبانيا. وسرّ به أهل الإسلام، شرقا وغربا، وامتلأت كتب التواريخ بذكره، كما سبق. وأشهر من ذُكر في هذه الواقعة الكبرى، هو أمير المسلمين ابن تاشفين، والمعتمد ابن عباد، ملك اشبيلية وقرطبة.

ومن أحسن المؤرخين الذين لخصوا هذه القضية، هو العلامة عز الدين ابن الأثير، في "كامله"، فإنه ذكر واقعة الزلاقة الشهيرة، التي قدمنا الكلام عليها ملخصة منتقاة من تلك الأخبار المتضاربة.

وأهم ما اعتنى بتلخيصه، تملك ابن تاشفين، بعد أن دخلها مغيثا لأهلها من غارة النصارى عليهم، ثم ظهر له الاستيلاء عليها، وهي إذ ذاك، ذات ملوك في أطراف متعددة، وكان أعظمهم مملكة المعتمد ابن عباد، لأنه كان يملك العواصم الكبرى من هذا القطر إذ ذاك، وهي إشبيلية وقرطبة؛ فقال في حوادث سنة **484**:

في هذه السنة، في رجب، تملك أمير المسلمين، يوسف بن تاشفين، صاحب بلاد المغرب؛ من بلاد الأندلس، ما هو بيد المسلمين ـ قرطبة وإشبيلية ـ وقبض على المعتمد ابن عباد، صاحبها، وملك غيرها من الأندلس.[76/10].

ثم ذكر ما جرى من حادثة شبيهة بما جرى للأمين بن هارون الرشيد، من التفاؤل، فتطيّر الرشيد[ابن المعتمد] منها، كما ذكره ابن الأثير(*). ثم قال ابن الأثير في حصار المعتمد، واقتحام عاصمته إشبيلية، وهذا هو المقصود، وأما ما قدمه في غير ذلك، ففيه تخليط، كما في "النفح". قال، [عند ذكره قدوم] سير بن أبي بكر، لتتميم أخذ الأندلس، والقبض على ملوكها، إذ لم يكن ممتنعا منهم إلا المعتمد ابن عباد :

" وعاد ـ أي سير ـ إلى اشبيلية، فحصرها، ولم يزل الحصار دائما، والقتال مستمرا، إلى العشرين من رجب من هذه السنة(484)، فعظم الحرب ذلك اليوم، واشتد الأمر على أهل البلد، ودخله المرابطون من واديه، ونهب جميع ما فيه، ولم يبقوا على سبد ولا لبد. وسلبوا الناس ثيابهم، فخرجوا من مساكنهم يسترون عوراتهم بأيديهم، وسبيت المخدرات، وانتهكت المحرمات، فأخذ المعتمد أسيرا، ومعه أولاده الذكور والإناث، بعد أن استأصلوا جميع ما لهم، فلم يصحبهم من ملكهم بلغة زاد. وقيل إن المعتمد سلم البلد بأمان، وكتب نسخة الأمان والعهد، واستحلفهم

(*) [الكامل:10-76].

لنفسه وأهله وماله وعبيده، وجميع ما يتعلق بأسبابه. فلما سلم إليهم إشبيلية، لم يفوا له، وأخذوهم أسراء، وما لهم غنيمة. وسيّر المعتمد وأهله إلى مدينة أغمات، فحبسوا فيها. وفعل أمير المسلمين بهم أفعالا لم يسلكها أحد ممن قبله، ولا يفعلها أحد ممن يأتي بعده، إلا من رضي لنفسه بهذه الرذيلة؛ وذلك أنه سجنهم، فلم يجر عليهم ما يقوم بهم، حتى كانت بنات المعتمد يغزلن للناس بأجرة ينفقها على أنفسهن. وذكر ذلك المعتمد في أبيات ترد عند ذكر وفاته؛ فأبان أمير المسلمين بهذا الفعل عن صغر نفسه، ولؤم قدره". [78/10].

انتهى المراد نقله من كلام "الكامل"، في هذه الإساءة التي قوبل بها ملك من الملوك، وسلك [ابن تاشفين] به وبأهله أقبح السلوك، ولم يراع مقامه بعد أن وقع أسيرًا تحت يده، ولم يعامله حتى معاملة السيد للمملوك؛ إذ ليس عقوبة الأمراء كعقوبة السوقة، كما هو الشأن في كل زمان، من أن الكريم إذا قدر عفا، ولا سيما المعاقبة بحظر الزاد، وتعريض أهله وذريته للتكفف والاحتقار!.

وأعلن ابن الأثير بتقبيح أفعال أمير المسلمين ابن تاشفين، وأنه شيء لم يفعله قبله أحد، ولا يفعله غيره [إلى] منتهى الأمد.

وكنت لما وقفت على هذا الكلام، أثبته في دفتر التذاكير، صح133.

[تعارض كلام بعض المؤرخين
في وصف ما قوبل به المعتمد بعد اعتقاله، ومناقشة ذلك]

ثم بعد ذلك، وقفت على كلام لابن بسام في " ذخيرته"، التي هي كـ"قلائد العقيان"، في تحلية الأعيان، ولفظه، فيما ينافي ما قاله ابن الأثير :

" ثم أخرج المعتمد في ذلك اليوم، وأطلق إليه جميع أمهات أولاده وبنيه، وكل من يختص به من أقاربه وذويه، وعُمر بهم مركب، فركبوا البحر، ورزقوا السلامة فيه، إلى أن وصلوا إلى أمير المسلمين، وناصر الدين، أبي يعقوب، يوسف بن تاشفين، رحمه الله، فبقوا هنالك في كنفه وذرَى فضله، تحت إحسان عميم، وبذل نائل جسيم، حتى انقرضت هنالك أيامه، ووافاه حمامه، بعد مرض شديد أصابه". هـ [الذخيرة، في محسان أهل الجزيرة: 31/2].

ثم كتبتُ بعد هذا الكلام الذي ذكره ابن بسام في " ذخيرته"، ما لفظه:

ترجيحٌ في هذه المعارضة

إذا ذهبنا إلى الترجيح بين ما نسبه ابن الأثير إلى ابن تاشفين، وبين ما قاله ابن بسام؛ تعين علينا تقديم مقال ابن بسام، لبعد ابن الأثير عن أخبار ابن تاشفين، وكون الثاني بين سمعه وبصره، إذ الأول مشرقي، والثاني مغربي، ولأن ابن بسام عاصر القضية وشاهدها، فإن ابن بسام ألف " ذخيرته" سنة 502، وتوفي سنة 542،

واشتداد تضعضع عرش المعتمد، الذي وقعت فيه هذه الحوادث، كان سنة 475، إلى أن انتهى سنة 488.

إلا أن يعلل كلام ابن بسام، بأنه حابى سلطانه، وهاب صولته، واتقى بنسبة الفضل إليه، ما يخافه من سوء عذابه ويخشاه. هـ ما وجد عندي مرسوما في دفتر التذاكير، صحيفة238.

وعلى وجه الجملة، فإن ما قاله ابن الأثير،[هو] عدم إشفاق ابن تاشفين، و[أنه]لم يراع للمعتمد ما كان له من التودد والتحبب معه، قبل نفوذ قضاء الله بسقوط عرشه،[ولا] تلك الأوقات، التي أقام له فيها المعتمد أبهى الحفلات، وأقامه في قصره العالي، مقام الحبيب الخالي الضمير من الأحقاد، التي كدرت تلك المصافاة؛ فالحرّ من راعى وداد لحظة، واستحضر أن كل صولة لا بد أن تبور، والكريم إذا قدر عفا، وسمع قول الله جل وعلا: (وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)، وليتيقن هذا الأمير، أنه معرض لمثل هذه البلوى. وكان عليه أن يخفف في العقوبة، ويتخذ مناهج الرفق، ويوسع له في الإنفاق. والله لا يعذب بقطع الرزق.

أما ما قاله ابن بسام، فهو نفاق؛ أسفر عنه كلام المعتمد وهو في حال الاعتقال والاسترقاق، إذ قال، وقد دخل عليه بناته السجن، وكان يوم عيد، وكنّ يغزلن للناس بالأجرة في أغمات، حتى إن إحداهن غزلت لبيت صاحب الشرطة، الذي كان في خدمة أبيها وهو في سلطانه، فرآهن في أطمار رثة، وحالة سيئة، فصدعن قلبه، وأنشد:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا فساءك العيد في أغمات مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعة يغزلن للناس؛ لا يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة أبصارهن، حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين، والأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكًا وكافورا

إلى أن قال:

من بات بعدك في ملك يُسرّ به فإنما بات بالأحلام مغرورا

ودخل عليه، وهو في تلك الحال، ولده أبو هاشم، والقيود قد عضّت بساقيه عض الأسود، والتوت عليه التواء الأساور السود، وهو لا يطيق إعمال قدم، ولا يريق دمعا إلا ممتزجا بدم، بعد ما عهد نفسه فوق منبر وسرير، وفي وسط جنة وحرير، تخفق عليه الألوية، وتشرق منه الأندية؛ فلما رآه بكى وقال:

قيدي: أما تعلمني مسلما أبيتَ أن تشفق أو ترحما
دمي شراب لك واللحم قد أكلته، لا تهشم الأعظما
يبصرني فيك أبو هاشم فينثني، والقلب قد هشما
ارحم طفيلا طائشا لبه لم يخش أن يأتيك مسترحما
وارحم أخيات له مثله جرعتهن السمَ والعلقما
منهن من يفهم شيئا فقد خفنا عليه للبكاء العمى
والغيرلا يفهم شيئا فما يفتح إلا لرضاع فما

نقل هذا كله ابن خلكان في "وفياته"،[33/2]، وسياقه عن "القلائد" أو غيره.

[رد كلام ابن بسام، فيما زعمه
بشأن حسن معاملة ابن تاشفين للمعتمد]

وفي هذا رد صريح لما قاله ابن بسام، من أن ابن تاشفين جعل المعتمد وأهله، لما اعتقلهم، في كنفه وذرى فضله، تحت إحسان عميم الخ. فقُل له، وهو المعتمَد في الدين: كيف هذا الافتراء، وإساءة ابن تاشفين، رحمه الله، في كل تاريخ مقررة مسطرة؟! ألم يعلم هذا الكاتب المرائي، لو اتقى تقاة، أن الله يرى.

وعليه، فما لمزه به ابن الأثير، وهو العلامة المطلع الخبير، من إهانة ذلك الأثير الأسير، وتعذيبه العذاب الكبير، وإجاعته هو وأهله حتى من الكسير، زيادة على إثقاله بالحديد والأغلال، التي تحول بينه وبين القيام؛ بل آلت إلى تمزيق عظامه بالإدماء والتكسير، [له ما يبرره]، وهو إذا بالغ وقال: إن هذا التعذيب لم يفعله أحد قبله، ولا يفعله أحد بعده،[فله العذر في ذلك]. والله أعلم.

وكأن ابن تاشفين، اعتمد على ما أفتاه به الفقهاء وأهل الشورى، من المغرب والأندلس، بخلعهم - يعني ملوك الطوائف - وانتزاع الأمر من أيديهم. قال ابن خلدون: وصارت إليه بذلك فتاوي أهل المشرق الأعلام، مثل الغزاليّ والطرطوشيّ.هـ [العبر: 187/6].

وسكت ابن خلدون عما وقع في هؤلاء الأمراء، وما قوبلوا به من عدل أو جور، أو صواب أو خطإ، أو إجراء الحق أو الباطل في هذه الأمة، التي جعلها الله أمة وسطا؛ بل ألقى الحبل على الغارب، من واسع تلك المشارب!.

ولكن، لما نقل سفارة أبي بكر ابن العربي ووالده إلى المستنصر(*)، ذكر مخاطبة الغزالي وأبي بكر الطرطوشي، يحضان ابن تاشفين على العدل والتمسك بالخير، ويفتيانه في شأن ملوك الطوائف بحكم الله. انظر المجلد السادس من كتاب "العبر"، صح188.

[تلخيص الوزير لسان الدين ابن الخطيب
لقضية المعتمد]

أما العلامة الأديب، المطلع اللبيب، الوزير في القطرين، سباق الغايات، في فنون الأدب وأنواع السياسات، الذي غاص في بحور هذه الغمرات، ولسعته من عقارب هذه السعايات، ما عرفته[من] سوء مغبة هذه المعادات في البداية والنهايات، وهو

(*) أي الخليفة العباسي ببغداد.

أمير الأدب، المجمع على الخضوع بين يدي نظمه ونثره، لحلاوة إملائه وطيب نشره، لسان الدين ابن الخطيب؛ فقال في شأن المعتمد، بعد ترجمته الخصوصية، ما لفظه، وهو مختصر القضية:

ولم يلبث أمير اللمتونيين، بعد جوازه إلى الأندلس، وظهوره على طاغية الروم بها، أن فسد ما بينه وبين رؤساء الطوائف بالأندلس، وعزم على خلعهم. فأجاز من سبتة العساكر، وسرّب الأمداد.

وأخذ المعتمد بالعزم فحصّن حصونه، وأودع المعاقل عدته، وقسم على مظانّ الامتناع ولده. ونازل الأمير سير إشبيلية، دار المعتمد وحضرة ملكه، ونازل الأمير محمد بن الحاج قرطبة، وبها المأمون، ونازل فوارس قواده رندة، وبها الراضي ابن المعتمد.

واستمر الأمر، واتصلت المحاذرة، ووقعت أمور يضيق الكتاب عن استقصائها؛ فدخلت قرطبة في جمادى الآخرة، عام أربعة وثمانين وأربعمائة. وقتل الراضي وجلب رأسه، فطيف به بمرأى من أبيه. وكان دخول إشبيلية على المعتمد، دخول القهر والغلبة، يوم الأحد لعشر بقين من رجب. وشملت الغارة، واقتحمت الدور، وخرج ابن عباد وابنه مالك للدفاع، فقتل مالك الملقب بفخر الدولة، ورهقت ابن عباد الخيل فدخل القصر ملقيا بيده.

ولما جنّ الليل، وجه ابنه الأكبر الرشيد إلى الأمير، فاحتجب عنه، ووكل بعض خدمه به، وعاد إلى المعتمد، فأخبره بالإعراض عنه؛ فأيقن بالهلكة، وودع أهله، وعلا البكاء، وكثر الصراخ، وخرج هو وابنه، فأنزلا في خباء حصين، مراقبين بالحراس، وأخرج الحرم من قصره، وأخذ ما اشتمل عليه، وأمِر بالكتب إلى ولده برندة، ففعل. وأجيز المعتمد البحر ومن معه إلى طنجة، فاستقر بها إلى شعبان من العام. وفي البحر في هذا الحال، يقول رحمه الله:

لم أنس والموج يدنيني ويُقصيني والموت كاد من الربّان يأتيني

إلى أن قال في حال الأسف والتوجع، متوسلا إلى الله:

يا رب إن لم تهب حالا أسرّ به فهب لعبدك أجرًا غير ممنـون

ثم قال لسان الدين: وجرى على بناته شيء يوم خروجهن، واضطرتهن الضيعة إلى معيشتهن من غزل أيديهن. وجرت عليه محن طال لها سجنه، وأقعده قيده، إلى أن نقل إلى أغمات، وحل عنه الاعتقال، وأجري عليه رزق تبلغ به مدة من أعوام أربعة، واستنقذه حمامه.هـ[الإحاطة: 81/2].

فهذا كلام ابن الخطيب، مخالف أيضا تمام المخالفة، لما حابى به ابن بسام الدولة الحاكمة، من أن المعتمد أقام لما نقل لأغمات، في كنف ابن تاشفين وذرى فضله، وتحت إحسان عميم، الخ. وكل ذلك يوافق ما قاله ابن الأثير، وما أعرب به المعتمد عن نفسه، مما كان يقاسيه في سجنه. وأذاع الحالة القاسية التي عومل بها صاحب هذه الأخلاق السامية، والشيم الفاشية، نبغاء الشعراء في الأقطار الأندلسية؛ وهم في

ذلك قائلون بالصدق فيما شاهدوه، لارتفاع التهمة عنهم في ذلك، لأنه كان صار إلى ربه، وتخلى عن هذه الحياة الفانية. عامله الله بفضله، وسامح من نافق ونسب لمقابله ما يخالف مرّ فعله.

[جهاد المعتمد إلى جانب ابن تاشفين، كان جهادًا مشتركًا، والنصر كان مشاعًا]

ثم إنا نجمل القول في مسألة ابن تاشفين والمعتمد، في حادثة إغارة أهل الأندلس لمعاونة ابن تاشفين، وانتصاره بجيشه، مع اندماج المعتمد وجيشه، وإظهار المعتمد في تلك المعركة من الشجاعة والإقدام، ما شهد له به الخاص والعام، حتى إنه قاتل بنفسه مع صفوف الجيش، حتى جرح.

وقد وصف ذلك في "النفح"، ناقلا عن غيره، لما غشيته جيوش الطاغية. قال: فصدم ابن عباد صدمة قطعت آماله، ومال الأدفونش عليه بجموعه، وأحاطوا به من كل جهة، فهاجت الحرب، وحمي الوطيس، واستحر القتل في أصحاب ابن عباد، وصبر ابن عباد صبرا لم يعهد مثله لأحد. واستبطأ السلطان يوسف، وهو يلاحظ طريقه. وعضته الحروب، واشتد عليه وعلى من معه البلاء، وأبطأ عليه الصحراويون، وساءت الظنون. وانكشف بعض أصحاب ابن عباد، وفيهم ابنه عبد الله. وأثخن ابن عباد جراحات، وضرب على رأسه ضربة فلقت هامته، حتى وصلت إلى صدغه، وجرحت يمنى يديه، وطعن في أحد جانبيه، وعقرت تحته ثلاثة أفراس؛ كلما هلك واحد، قدم له آخر، وهو يقاسي حياض الموت، ويضرب يمينا وشمالا.[529/2].

وابن عباد على الدفاع والمحاربة في هذا الحال، إلى أن وافته الإعانة من جيش ابن تاشفين، فتنفس عليه الحال، إذ وصلت الإعانة من جيوش ابن تاشفين. وانظر تمام وصف هذه المعارك في "نفح الطيب"، وغيره من كتب التاريخ، التي ذكرت فيها صفة وقعة الزلاقة.

والمقصود من نقل هذه الجملة هنا، أن المعتمد لم يكن في هذه المعارك ملقيا للسلاح، بل كان يجاهد جنبا لجنب مع جيش ابن تاشفين؛ فالدفاع مشترك، والنصر مشاع في هذا المعترك.

وعليه، فمن أعرض عن دفاع ابن عباد، وأنه تقاعد عن القتال، فما نطق بالصواب، ولا أنصف في هذا الباب. وإلى الله في ذلك المرجع والمآب.

[رجوع إلى انتقاد سلوك ابن تاشفين مع المعتمد]

ثم نرجع هنا إلى ما قدمناه من الانتقاد على ابن تاشفين في معاملة المعتمد، بعد الظفر به، من التضييق عليه في سجنه، وإضاعة عائلته، وهو كان قبل ذلك من أصدقائه، وخاصة أنه نزل ضيفا عليه في منازله، ومشيدات دوره وقصوره، مكرما منعما، مع ما كان له معه من تعاضد واتحاد عند اشتعال نار المعارك، بل كان أشد الناس شجاعة وتقدما في محاربة العدو.

فكيف يتغير قلبه عليه، بسعايات أعدائه، واختلاق الأكاذيب التي شأنها إثارة الأحقاد، وتسويد بياض الاعتقاد؛ مع أن المعتمد كان هو الداعي الأول، لاستنجاد ابن تاشفين، وطلب المساعدة منه، وبه اتصل، وكل ملوك الطوائف كانوا يخالفونه في ذلك، وحذروه مغبة قدوم ابن تاشفين إليه، لأنه سينول إلى ما آل إليه بعد ذلك. وقد قدمنا ذلك، ووصفنا ما قاله المؤرخون في مشاركة المعتمد في هذه المحاربة المتوجة بالانتصار، كما سبق.

وفي وصف الشعراء والمؤرخين لتلك المعركة، يتبين لك أن المعتمد وابن تاشفين، كانا في الملحمة متفقين، وعلى حرب العدو متحدين يدا بيد، كالعضوين في الجسد. من ذلك قول ابن وهبون:

أظن خطوبها قالت سـلام   فلم يعْبس لها منك ابتسامُ

ومنها:

فثار إلى الطعان حليف صدق   تثور به الحفيظة والذمــامُ
نمَا في حِمْيَر ونَمتْكَ لـخْم   وتلك وشائج فيها التحــامُ

إلى أن صار ابن وهبون يصف المعركة وما وقع من الانتصار، والفتك بجيش الأذفونش، إلى الفناء والانكسار، وفرار سلطانهم من القضاء عليه، وإذهاب روحه، أو وقوعه تحت أسر الجيش الجرار. وفي ذلك يقول:

فإن ينج اللعين فلا كحُـرّ   ولكن مثلما ينجُو اللئـامُ
فيا أذفونش يا مغرور هلاّ   تجنبت المشيخة يا غلامُ

ثم صار يصف هذه المعركة، وما وقع فيها من القتلى، التي كانت كأكوام الأشجار من العظام(*). ولقد وصفت هذه المعارك المتوجة بالنصر المبين، والسافرة عن شجاعة الأهالي ومدافعتهم عن بلادهم، وإقدامهم في المعارك، مما أعجب به الأعداء؛ وكان ظنهم أنهم لكثرة جموعهم، وإقدام جيوشهم، سيكون مآل المسلمين إلى الانكسار، والرجوع إلى وراء.

(*) ورد ذكر هذه الأبيات في "قلائد العقيان"، ص13.

[شجاعة المعتمد،
ومحاربته للعدو بنفسه وقوته]

ولهذا أمعن الفتح في "قلائده" في وصف هذه المعارك، وما ظهر من صبر المعتمد، وبلائه وتحمله لأسباب الهلاك والموت، من الجراح في ذاته، ومقاساته لحرارة السلاح، وضرباته في عظامه، وكسرها في سكناته وحركاته. وهو الشاهد العدل في أنه شارك المشاركة العظيمة في الدفاع، وأنه الرجل البطل الشجاع.

ولكن، لكون المعتمد من أهل الأندلس، ومن المناضلين في أحد عواصمها الشهيرة، وهي مدينة إشبيلية، ذات الوادي الكبير الذي تمخره السفن الجارية؛ لم تذكر حسناته، وإنما أعلنت سيئاته، وأهملت حملاته على صفوف العدو في هذه المعارك، ودفنت في مقابر الإهمال أعماله، لأن مغنية الحي لا تطرب، والجار القريب عن محاسن قريبه لا يعرب.

وطالما استنكرت هذه الأخلاق، المؤذنة بالتحاسد والافتراق، والأحقاد، التي لا تلائم حسن الجوار ووصلة الرحم التي هي [وصيّة] من الرحمان الخلاق. فتبا لها شيمة تؤذن بالتقاطع والانشقاق، وتواترت في ذمها المقطعات الرقاق، قال الحافظ ابن حزم:

أنا الشمس في جوّ العلوم منيرة ولكن عيبي أن مطلعي الغـربُ
ولو أنني من جانب الشرق طالع لجد على ما ضاع من ذكري النهبُ

إلى أن قال:

هنالك يدرى أن للبعد قصة وأن فساد العلم ءافته القربُ

ولنرجع إلى قضية المعتمد وابن تاشفين، فأقول: إذا علمت هذه الجملة، وهذا الدفاع الصادق بمهجته، ومحاربته بكل ما استطاع بنفسه وقوته، أفبعد هذان ينسب لهذا الرجل المدافع عن بلده بكل ما أمكن، حتى بروحه التي بين جنبيه؛ أنه كان يستعين بالنصارى على مدافعة ذلك الجيش الصحرواي، الذي دخل عليه قصره ومنزله، واتخذ طريق الفوضى من القتل والنهب وانتهاك الحرمات، دون فرق بين المحارب والعاجز من الشيوخ والنساء والصبيان، وغير ذلك من الأفعال السيئة المنهي عنها في الشريعة الإسلامية، حتى مع الكفار؟!.

[استبعاد موافقة ابن تاشفين على ما صدر من جيشه
من أعمال همجية، وانتقاد الفتاوي المعتمدة في ذلك]

والغالب أن أمير المسلمين، ابن تاشفين، كان غائبا عن هذه الأفعال التي يتبرأ منها المتبع لسنن المهتدين.

وأما تلك الفتاوي التي تمسك بها من نهج هذه الأعمال، فهي موضوعة في غير محلها، الذي حمله على الفتك بهؤلاء الملوك، واقتحام دورهم عليهم، وإباحة دمائهم، وسبي أموالهم، وهتك محارمهم، وقتل شيوخهم، ومحاربتهم محاربة خارجة عن محاربة أهل الكفر أصالة؛ إذ لم يتأدبوا بآداب الشريعة في جهاد الكفار.

بل تلك الهمجية التي أجراها الجيش البربري في مدينة إشبيلية، لم يقل بها أحد ممن له إنسانية مطلقا، فضلا عن أن يكون من الأمة المحمدية، فأحرى أن يكون ذلك بفتوى من أكابر العلماء، في سوء هذا الفعل.

فلينظر سيرة الفاتحين، من الخلفاء الراشدين، ومن بعدهم ممن سلك مسالكهم؛ من شاء أن يعرف أدب الإسلام في مقاتلة الكفار، والخارجين عن الخلفاء، والمنع من قتال النساء والصبيان، والشيوخ والرهبان، وعدم التمثيل في القتل، إلى غير ذلك.

وعليه، ففتاوي مثل الغزالي والطرطوشي ونحوهم من العلماء، لا تبيح فتاويهم هذه الأفعال الشنيعة، التي لا تقبلها الشريعة.

أما كون هؤلاء، كان جل ملوكهم ورؤسائهم، مدمنين للمعاصي، من عقد المجالس لإدارة كؤوس الخمور، ووصف محاسنها، والتحلي بها في مقاعد العموم، وعدها من قبيل المباح الذي فاعله غير ملوم؛ فهو لا يخرج عن أنه من المعاصي والكبائر، وأنه خارج عما أمر الله باجتنابه والتباعد عنه، وأنه من المنكرات التي يجب تغييرها.

وإن إدمان الملوك والرؤساء لهذه الأفعال، مما يوجب عزلهم، إن لم يكن في عزلهم فتنة تؤدي إلى الفتك بالأنفس ونهب الأموال، وهتك أعراض النساء المحجبات وكشف عوراتهن، اللائي صرن يسترن عوراتهن بأيديهن، حُفاة عراة يبكين، ويُبكين من وراءهن ممن سمع بما فُعل بهن. هذا والله الفسوق والعصيان، لا دفع الكفر والطغيان.

ومن الواضح أن أمير المسلمين، إذ ذاك، وهو يوسف ابن تاشفين، لو اطلع على هذه الأفعال الذميمة؛ لتبرأ من هذا الجيش وأفعاله، لِما ثبت أنه كان رجلا ذا إيمان صحيح وصلاح، لا يقر جيشه على هذا المنكر الصريح؛ فلم يبق إلا أن يقال: إن هذا صادر عن قواده وأمراء جيشه، الذين شأنهم انتهاب الأموال، دون خوف من الله ولا مغبة المآل.

والذي تحصل لنا في هذا الرجل،[أنه]المصلح الكبير، الذي أقامه الله، في عصره، فاتحا للأقطار، دافعا عما كان أصاب هذا القطر وغيره من الأخطار، وأنه كان أولا هُو والمعتمد في هذا الميدان، فرسي رهان.

ولكن، بسحر النميمة، تتبدل الحسنات سيئات، وتجعل البياض سوادا، والصداقة عداوة، لأنك قد علمت ما سبق، من إعجاب ابن تاشفين بالمعتمد، وتقريبه إليه، وفي منزله أقام، وعلى مكانته وحسن أدبه وشدة حفاوته به استكان.

ولكن لما أضاف إليه ابن صمادح، [الذي] أخذ في تمكين قربه من ابن تاشفين، وأضافه إلى مصادقة المعتمد. ولكن لسوء اعتقاده في المعتمد، وتأصل العداوة بينهما، جعل أهم أعماله وهجيراه، هو إفساد ما بين المعتمد والأمير ابن تاشفين، حتى أفسد ما بينهما. ولكن آل هذا الإفساد [إلى] أن عمّ الجاني، وأصبح ابن صمادح من ثمار ما غرس من السموم في شأن المعتمد يجني ويقتني، فكان مصرعهم واحداً، والمرء مقتول بما قتل به.

[ملخص ما جرى في الاستجداء بملك المـغرب وما بدا له، بعد مشاهدته لمحاسن الأندلس]

وبالجملة، فاستجداء أهل الأندلس، كان نافعا في أوله. ولكن، آل إلى الضرر، وتفريق رؤسائهم وملوكهم شذر مذر، مع أنهم كان جلهم في أول الأمر على حذر، متوقعين لاحتلال قطرهم من الأمير ابن تاشفين ووقوعهم في الخطر.

فكان أول ما أيقنوا بضعف قوتهم، وضعفهم عن مقاومة ذلك العدو الذي أحاط بهم، وأن الاستيلاء عليهم لا محيد عنه، ولا لهم منه من مفر، ووقع في نفسهم الاستعانة بملك المغرب، ابن تاشفين، إذ كانت له القوة الكبيرة، والجنود الكثيرة، وجال بخاطرهم ذلك، وتردد رؤساؤهم في ذلك، لأنهم كانوا يفيئون إلى ظله، مع توقع ابتلاعهم وانتزاع سطوتهم.

فلما رأوا ما دلهم على عبوره إليهم وعلموا ذلك، راسل بعضهم بعضا يستنجدون رأيهم في أمره. وكان مفزعهم في ذلك إلى المعتمد بن عباد، لأنه كان أشجع القوم، وأكبرهم مملكة. فوقع اتفاقهم على مكاتبته، إذ تحققوا أنه يقصدهم لاحتلالهم، [لـ] يسألوه الإعراض عنهم، وأنهم تحت طاعته. وأرسلوا مع الكتاب هدايا وتحفا.

وكان يوسف لا يعرف اللسان العربي، لكنه ذكي يفهم المقاصد. وكان له كاتب يعرف اللغتين العربية والمرابطية، فقرأ عليه مضمن الرسالة، وأفهمه محتواها، وندبه إلى المساعدة، وتركهم على ما هم عليه، مع اعترافهم بأنهم تحت طاعته، معترفون بإمارته. ثم قال له:

أيها الملك. هذا الكتاب من ملوك الأندلس يعظمونك فيه، ويعرفونك أنهم أهل دعوتك، وتحت طاعتك، ويتلمسون منك أن لا تجعلهم في منزلة الأعادي، فإنهم مسلمون ذوو بيوتات، فلا تغير بهم، وكفى بهم مَن وراءهم من الأعادي الكفار، إلخ.

فلما فهم الكتاب ابن تاشفين، استشار كاتبه في ذلك، فأجاب - مع طول وذكر الشواهد والنصائح من الحكماء من الملوك - على إقامة أهل الأندلس، ويكفيه الاعتراف به، وأنهم تحت إمارته وطاعته، وأنهم، إن اشتد عليهم الأمر، يطلبون منه الإعانة. فقبل منه ذلك، وأمر بجوابهم. وهذا لفظه:

(بسم الله الرحمان الرحيم. من يوسف بن تاشفين، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، تحية من سالمكم وسلم عليكم، وأنكم مما في أيديكم من الملك في أوسع إباحة، مخصوصين منا با كرم إيثار وسماحة. فاستديموا وفاءنا بوفائكم، واستصلحوا إخاءنا بإصلاح إخائكم. والله ولي التوفيق لنا ولكم، والسلام).

فلما فرغ من كتابه، قرأه على يوسف بن تاشفين بلسانه، فاستحسنه، وقرن به ما يصلح بهم من التحف ودرق اللمط التي لا توجد إلا ببلاده.

فسروا بولايته، وتقوت نفوسهم على دفع الفرنج، وأزمعوا،[أنهم] إن رأوا من الفرنج ما يريبهم، استعانوا به، بأن يعبر إليهم أو يمدهم. هـ من "نفح الطيب"، وسياقه عن كتاب"الروض المعطار"، ببعض اختصار. [523/2].

قلت: وهذه الفكرة هي التي كان عليها ابن تاشفين أولا، فيما يظهر. ولكن لما تجول في القطر الأندلسي، ودخل حواضره، كغرناطة وإشبيلية، ورأى ما فيهما من أنواع الحضارة، من المباني الرائقة، والبساتين الجميلة الرائعة، والمطاعم اللذيذة، وسائر الملذات التي لا عهد له بها في البلاد البربرية، كمراكش إذ ذاك، وأعجبته هذه المحاسن، استماله ذلك إلى الرجوع عما كان عزم عليه من إبقاء هذه البلاد في يد أهلها، واكتفائه باعتراف أهلها بالطاعة له، والدخول تحت إمرته. بل بدا له احتلال هذه البلاد، وإدخالها في إيالته؛ ففي "النفح":

" ثم رجع ابن تاشفين إلى مراكش، وقد أعجبه حسن بلاد الأندلس وبهجتها، وما بها من المباني والبساتين والمطاعم، وسائر الأصناف، التي لا توجد في سائر بلاد العدوة، إذ هي بلاد بربر وأجلاف عربان. فجعل خواصّ يوسف يعظمون عنده بلاد الأندلس، ويحسنون له أخذها، ويوغرون قلبه على المعتمد بأشياء نقلوها عنه. فتغير على المعتمد، وقصد مشارفة الأندلس".هـ[533/2].

هذا، وفي "النفح" ما يفيد أن ابن تاشفين، لما عزم على الرجوع إلى بلاده، ترك الأمير سير، وهو أميره المشهور، وترك معه جيشا برسم غزو الإفرنج؛ فاستراح قليلا، ثم دخل بلاد الإذفونش، وأطلق الغارة، وفتح الحصون، ورتب فيما أخذه رجالا، وأرسل ما غنمه في احتلال تلك البلاد إليه ـ أي لابن تاشفين ـ وعرّفه أن الجيوش مقيمة على مكابدة العدو ومحاربته في أضيق عيش وأنكده، وملوك الأندلس في أرغد عيش وأطيبه. وسأله مرسومه، فكتب إليه أن يأمرهم بالرحيل إلى أرض العدوة، فمن فعل فذاك، ومن أبى، فحاصره وقاتله، ولتبدأ بمن والى من الثغور، ولا تتعرض للمعتمد إلا بعد استيلائك على البلاد. وكل بلد أخذته، فولّ عليه أميرا من عساكرك.

فأول من ابتدأ به، بنو هود، وكانوا برُوطة، وهي قلعة منيعة حصينة من عاصمات الذرى، فحاصرها، فلم يقدر عليها، ورحل عنها. ثم جند أجنادا على هيئة الفرنج وزيهم، وأمرهم أن يغيروا على القلعة، وكمن هو وأصحابه بقرب منها. وآل الأمر إلى أن قبض على صاحب القلعة باليد. ثم نازل بني طاهر بشرق الأندلس،

فأسلموا له البلاد، ولحقوا ببر العدوة. ولما علم ابن صمادح الغلب، أسف ومات غمّا، وكان بألمرية. ثم قصد بطليوس، وكان بها المتوكل، عمر بن الأفطس، فحاصره وأخذ أعماله وماله، وقتل أولاده. وفيه قال ابن عبدون: * الدهر يفجع بعد العين بالأثر*، كما تقدم كل ذلك.

ولم يبق إلا المعتمد؛ فخاطبه سير، أمير ابن تاشفين، فلم يجب، فحاصره باشبيلية شهرا، ودخل البلد قهرا، في قضية شهيرة، واستخرجه من قصره وجميع أهله وولده، وحمل سجينا إلى أغمات، إلى أن مات.

هذا مضمن ما قاله في "النفح"، مختصرا. وفي آخر ذلك يقول: وأخبار المعتمد ابن عباد، وما رآه من الملك والعز في كل حاضر وباد، وما قاساه في الأسر من الضيق والعسر وسوء العيش، أمر عجيب، يتعظ به العاقل الأريب. وأما ما مدحته به الشعراء، وأجوبته لهم في حالي يسره وعسره، وملكه وأسره، وطيه ونشره، وتجهمه وبشره؛ فهو كثير، وفي كتب التواريخ منه نظم ونثر.هـ[532/2].

[الرجوع إلى تتميم الكلام على انتقاد سلوك ابن تاشفين مع المعتمد، وردّ جواب صاحب"الاستقصا"]

ولنرجع إلى تتميم كلام ابن الأثير، الذي انتقد به فعل ابن تاشفين بهذا الملك العظيم في سجن أغمات، من التضييق عليه بالإهانة والجوع والعري لأهله، وسعيهم في الطرقات يتسولون الناس، مع جلالة قدره في الأخلاق الكريمة، والأوصاف الجليلة، وتقدم الصداقة بينه وبينه، مما يوجب مسامحته، وإن أساء، كما قدمنا.

وأما ما أجاب به أبو العباس الناصري، عن ما فعل به ابن تاشفين، في"الاستقصا"؛ فهي محاباة، لأنه اتبع بها ما قاله ابن بسّام، الذي كان له عذر الاتّقاء. ولفظ الناصري:

" واعلم أنه قد يوجد هنا لبعض المؤرخين، حطّ من رتبة أمير المسلمين، وغض عليه، إما في كونه كان بربريا من أهل الصحراء، بعيدا عن مناحي الملك والأدب ورقة الحاشية؛ وإما في كونه تحامل على ملوك الأندلس، حتى فعل بهم ما فعل. وذلك حيث عاين حسن بلادهم، ورفاهية عيشهم. واعلم أن هذا الكلام جدير بالردّ. وأصله من بعض أدباء الأندلس الذين كانوا ينادمون ملوكها، ويستظلون بظلهم، ويغدون ويروحون في نعمهم؛ فحين فعل أمير المسلمين بسادتهم ورؤسائهم ما فعل، أخذهم من ذلك ما يأخذ النفوس البشرية من الذبّ عن الصديق، والمحاماة عن القريب، حتى باللسان".[131/1].

ثم ذكر الناصري ما كان عليه ابن تاشفين من الدّين والورع، إلخ، مما هو مسلّم عند الجميع.

أما ما ذكره ابن الأثير، إمام أهل التاريخ، من معاملة المعتمد ابن عباد، زعيم ملوك الطوائف بالأندلس، والباذل جهده في الدفاع عن بلده، ووقوفه في المعمعة الكبرى التي حصل فيها الانتصار- كما تقدم -؛[فإن] تلك المعاملة القاسية، خارجة عن الرأفة الإنسانية، بل والقواعد الإسلامية، إذ حاربه محاربة الكافر الأصلي، بل زاد في القساوة في الهجوم على عاصمته، مدينة إشبيلية، التي أطلق قواد حربه فيها العنان، ولم يراعوا في ذلك حدود الشريعة في جهاد كفار الأعداء، من الاقتصار على محاربة الرجال المحاربين، ولا يمدون يدهم بالفتك والقتل والسلب، وفتح أبواب الفوضى، حتى خرج النساء في الشوارع باديات عاريات، يسترن عوراتهن بأيديهن، أضف إلى ذلك ما يداس بين أيدي الجيش من الشيوخ والصبيان المبرئين من كل مسؤولية.

بل الشريعة الإسلامية السمحاء، تنهي في الجهاد المأمور به في الأعداء، عن تحري النساء والصبيان والشيوخ والمرضى، وحتى من المخالفين في الدّين من الرهبان النصارى، إلا إذا قاتلوا، كما هو معروف مقرر في باب الجهاد.

ولهذا أنكر من أنكر هذه الأعمال، ورأوا أن عزل هؤلاء الأمراء والملوك عن أعمالهم، ومقاتلتهم في عقر دورهم، وقتل من قتل منهم، وسجن من سجن منهم؛ ينافي ما كان وعدهم به، بعد الاعتراف بإمارته، وأنه كان أتى إلى الأندلس لإعانتهم على أعدائهم، وشاركه في ذلك من شاركه منهم، وفي مقدمتهم المعتمد، الذي قاسى من إهانته وإضاعة أهله، والفتك بحريمه، ما يجرح الأفئدة، وتنفر من نقله الأقلام، وتنهمر له بالدموع دما الآماق. وهذا المعتمد، كما قدمنا، أبلى البلاء الفائق، وألقى بنفسه في تلك المعامع. وفي ذلك يقول مؤرخ المغرب، الصادق المنصف، العلامة ابن أبي زرع، في " الأنيس"، ما لفظه:

" ولم يكن لرؤساء الأندلس، الذين شهدوا الزلاقة في هذا اليوم، أثر يشكر، فيقيّد عنهم ويؤثر، إلا ابن عباد وطائفة من جيشه؛ فإنه ثبت، وأبلى بلاء حسنا، وجرح ست جراحات".هـ[ص105]. وقد قدمنا ذلك عن غيره.

وهذا هو الأمر الذي دعا لاستنكار عزل هؤلاء الملوك عن وظائفهم. وإن سلمنا أن منهم من كان يعمل أعمالا يوجبها عزله؛[فليعزل]، ولكن، لا بالقتل وهتك حرماته، وسلب أمواله والفتك بأهله، والإغارة عليه، مع ما كان انعقد بينه وبين[أمراء]الأندلس، من أن قدومه لمجرد إعانتهم على دفع الأعداء، كما أرشده إلى ذلك حذاق كتابه. وقد قدمنا ذلك بنصه.

[ترجمة أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين، وما حلاه به صاحب كتاب "الأنيس"]

أما صلاح ابن تاشفين، وديانته ومحافظته على الشريعة؛ فهذا مما لا نزاع فيه، حسبما نقله ثقاة المؤرخين، كصاحب " الأنيس"، إذ قال في ترجمته ما لفظه:

كان، رحمه الله، بطلا ناجدا، شجاعا حازما، مهابا ضابطا لملكه، متفقدا الموالِيَ من رعيته، حافظا للبلاد وثغوره، مواظبا على الجهاد، مؤيدا منصورا، جوادا كريما سخيا، زاهدا في الدنيا، متورعا عادلا، صالحا متقشفا، على ما فتح الله عليه من الدنيا، لباسه الصوف؛ لم يلبس قط غيره، وأكله الشعير، ولحوم الإبل وألبانها؛ مقتصرا على ذلك؛ لم ينتقل عنه مدة عمره، إلى أن توفي، رحمه الله تعالى، على ما منحه الله من سعة الملك في الدنيا وخوله منها، فإنه خطب له بالأندلس والمغرب على ألف منبر، وتسعمائة منبر.

وذكر أنه كانت مملكته تشمل إسبانيا والبرتغال، والمغربين الأقصى والأوسط، والسوس الأقصى، إلى جبال الذهب من بلاد السودان. ثم ذكر أنه رد الأحكام كلها إلى القضاة، وأسقط ما دون الأحكام الشرعية.[ص94].

ومع هذا، لا ينافي ذلك ما أوقعه قواد جيشه من القتل والفتك بأرواح سكان القطر الأندلسي، وهتك الأعراض، وإهانة ملوك الطوائف منها، ولا سيما المعتمد، كما هو الموضوع، لأن في ذلك احتمالات؛ منها أن ذلك لم يكن عن إذن صريح منه، لأنه لم يكن حاضرا في ذلك بنفسه، بل كان ذلك بمباشرة نوابه، لأن مقتضى ما كان قرره أولا في شأن توجيه جيشه لهذا القطر، إنما كان بقصد إعانة أهله ودفع هذا العدو الصائل، ومهما حصل المقصود، رجع للقطر المغربي، وينسحب عنه ويتركه لأهله، لأنهم أعطوه العهد بأنهم يعترفون بإمارته، وأنه مهما أعاد العدو الغارة عليهم، إلا وكتبوا له بذلك. فوافق على ذلك، على مقتضى ما بين له كاتبه العربي، وأرشده إليه.

وفي ذلك كله دليل[على أن] تلك الفوضى، ارتكبها الجيش في إشبيلية وغيرها، وقتل بعض ملوك الطوائف، الذين كان لهم المقام العالي في العلم والأدب، ونحو ذلك مما يشرف الإنسان. نعم؛ الغالب أن هذه الفتنة، وهذه المقاتلة، بعد أن كانت معدّة للأعداء، أصبحت محولة إلى الأهالي من الأعيان والرؤساء؛ فلم يفرح هذا القطر المريض بالشفاء، حتى اعتراه حتفه بيد بني أمته الأقرباء.

وأصل كل ذلك، ذلك الداء الساكن في هذه الأمة في الأعضاء، من التحاسد والتباغض، وعقارب النمائم التي لا تزال تدبّ سمومها التي تفسد روح المودة والإخاء؛ يعرفك ذلك ما كان بين الأمير ابن تاشفين، وبين الملك المعتمد ابن عباد، فآل بسبب النمائم والسعي بأنواع إبلاغ القبيح إلى كل جانب، حتى آل الحال بينهما إلى ما آل إليه.

وهذا أمر ينبغي عدم تسطيره في الأوراق، لأن أهله أمة قد خلت، لها ما كسبت، وعليها ما اكتسبت. جبر الله كسرنا وكسرهم، وغفر لنا ولهم، لأن هذا السعي الذميم، كم أراق من دماء، وأفسد من إخاء، فخلت بسببه ديار، وانتشرت بها قلاقل وأكدار، والأمر كله بيد الواحد القهار.

* * *

[رجوع لموضوع المعتمد، وبعض ما قيل في التنويه بقدره، والرثاء لنكبته]

هذا، وإن في مقدمة الأدباء النبلاء، الذين عمّروا في أعصارهم معاهد النظم والنثر، وتخليده في دفاتر صارت بعدهم ناطقة بعيون أخبارهم، كأنهم من المحاضرين الأحياء؛ المعتمد ابن عباد، فإنه كان بدرا منيرا في أفق الأدب والكرم، جامعا بين طاعن بسيف وإمضاء بقلم. وفيه يقول الفتح:

" وكانت حضرته مطمحاً للهمم، ومسرحا لآمال الأمم، ومقذفا لكل كميّ، وموقفا لكل ذي أنف حميّ، لم تخل من وفد، ولم يصح جوها من انسجام رفد؛ فاجتمع تحت لوائه من جماهير الكماة، ومشاهير الحماة، أعداد يضيق بهم الفضاء، وأنجاد يزهى بهم النفوذ والمضاء".(*)

واستمرّ في تحلية مجلسه بدرر السجعات، وزين أوصافه برقائق العبارات، إلى أن قال:

" وكان قومه وبنوه لتلك الحلبة زينا، ولتلك الجملة عينا: إن ركبوا، خِلت الأرض فلكا يحمل نجوما، وإن وهبوا، رأيت الغمام سجوما، وإن أقدموا، أحجم عنترة العبسي، وإن فخروا، قصر عرابة الأوسي". إلخ ما تقدم في ترجمته.

ثم استمر في ذكر هذا الرثاء المثير للاعتبار، وعدم الاغترار بزهرة هذه الدار، وأن مآلها إلى الفناء والاندثار.

وممن نوّه بالمعتمد وجلالة قدره، من العلماء الأفذاذ المشهود لهم بالإتقان والحفظ، من غير قطره وعصره، العلامة محيي الدين، الشيخ عبد الواحد المراكشي، في "معجبه"، العجيب في نسقه وغزارة فوائده، مع نحول جسمه، وخفة حمله، إذ قال في صدر ترجمته:

وكان المعتمد هذا، يشبه بهارون الواثق بالله، من ملوك بني العباس، من ذكاء نفس، وغزارة أدب. وكان شعره كأنه الحلل المنشرة. واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب، ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس. وكان مقتصرا من العلوم على علم الأدب، وما يتعلق به، وينضم إليه. وكان فيه مع هذا، من الفضائل الذاتية ما لا يحصى، كالشجاعة والسخاء والحياء والنزاهة، إلى ما يناسب هذه الأخلاق الشريفة.

(*) "قلائد العقيان"، ص4.

وفي الجملـة؛ فلا أعلم خصلة تحمد فـي رجـل، إلا وقـد وهبـه الله منـهـا أوفـر قسم، وضرب له فيها بأوفى سهم. قال:

ولِيَ أمر اشبيلية بعد أبيه، وله سبع وثلاثون سنة. واتفقت له المحنة الكبرى، بخلعه وإخراجه عن ملكه، في شهر رجب، الكائن في سنة 484؛ فكانت مدة ولايته، إلى أن خلع وأسر، عشرين سنة؛ له في أضعافها مآثر، أعيى علي غيره جمعها في مائة سنة أو أكثر منها. كانت له، رحمه الله، همة في تخليد الثناء، وإبقاء الحمد.

هـ[المعجب، في تلخيص أخبار المغرب:63].

وبالجملة؛ فقد اتفق المؤرخون أن المعتمد ابن عباد هو المقدم في تلك الطوائف، وهو المحترم منها، وهو السابق في ميدانها علما وأدبا ونبلا، ونباهة واطلاعا وسياسة، وأصالة في الملك، إذ كان ورث ملك اشبيلية عن أبيه المعتضد. وهو كما سبق، المقترح للاستنجاد بالأمير ابن تاشفين، والذي اجتاز البحر إليه. ولهذا، كان ابن تاشفين، لما قدم الأندلس، اتخذه صديقا ومرشدا، ونزل ضيفا عليه، كما تقدم ذكره. وما كدّر صفو هذا الوداد، وسود بياض هذا الاعتقاد، إلا بسبب الأحقاد الساكنة في قلوب أعدائه، كابن صمادح وغيره. والظن أن الذي زاد في أحقادهم، ما كانوا يتوقعونه من أن هذا القرب ربما يكون مآله عند مفارقة ابن تاشفين هذا القطر، ورجوعه لمقره بالمغرب، إسناد رئاسة الأندلس بأجمعه للمعتمد، لما فيه من التأهل لذلك، مع شهرة ذكره وولايته على معظم العواصم الأندلسية. ولكن الأمر كله بيد الواحد القهار.

وبكل حال، فأحوال المعتمد وأوصافه التي جلبت إليه قلوب العامة، وتلك المجالس الأنيقة التي كان يؤلفها من الأدباء والشعراء والنبلاء، يضاف إلى ذلك الأعيان والخاصة؛ فكل هذا يؤيد ما قاله ابن الأثير، وهو من العلماء المشارقة، المنكر لما فعله أمير المسلمين ابن تاشفين، من المكر به وبأهله، وخروجه في ذلك عما تقتضيه القوانين الشرعية، والأخلاق الإنسانية.

وغالب الظن أن ذلك كان بإيعاز من الدائرة المحيطة به، التي شأنها إيثار الفتنة، وابتغاء استدامة الثورات، ومن البطانة المتصلة بالأمير، التي أهم مقاصدها استبداد الرئاسة، والتحكم في رقاب العباد.

فلو أبقى الأمير ابن تاشفين المعتمد في وظيفته وأقره فيها، وجعله من أفراده وأكبر قواده، لبلغ به ـ والله أعلم ـ أقصى مراده.

[ذكر بعض مشاهير
ملوك الأندلس وما تعرضوا له من محن]

كما أن ما وقع بتلك النبذة(*) الشهيرة، من ملوك الناحية الغربية، التي كانت إيالتها تحد المحيط، وهم بنو المظفر؛ فإن فيهم علماء وأدباء، وفي مقدمتهم المظفر، الذي ترك من مؤلفاته الشهيرة الكتاب المسمى باسمه، وهو"المظفري"، الذي قدمنا أنه كتاب يحتوي على آداب وأخبار، وأشعار ونكت لطيفة، كما وصفه بذلك في "المُعجب"، وأنه حاذى به كتاب ابن قتيبة، الذي سماه "عيون الأخبار"، حسبما سبق.

وقد حلى صاحب "القلائد"، المتوكل منهم، بأجمل الحلى وأطال، إلى أن استحالت به الحال، وذهب عنه السرور بمساعدة الأيام، وبارت تلك المعالي السامية المقام، وعادت وعاد كأنه أضغاث أحلام، وتلقى حرارة تلك المصائب الحالة به وبولديه، إذ ذبحا بين يديه، بالتسليم لقضاء الله الذي لا يمكن رده ولا يرام، مع ما كان لهم من مجاهدة الأعداء، ومقابلتهم بالشدة.

فمثل هؤلاء، كان الأولى، وما قضى به الرب العظيم هو الحق دون لولا،[أن لا يعاملوا بهذه الشدّة والقساوة].

وثالث الثلاثة من الأعيان: المعتصم بالله، ابن صمادح، ملك المرية. وقد حلاه في "القلائد" بقوله: ملك أقام سوق المعارف على ساقها، وابتدع في انتظام مجالسها واتساقها، وأوضح رسمها، وأنبت في جبين أوانه وسمها، لم تخل أيامه من مناظرة، ولا عمرت إلا بمذاكرة ومحاضرة. هـ[ص47].

وفي فقد حياته، وغمه عند هجوم صياح عداته، يقول الفتح في سجعاته، وتذهيب تهذيب كلماته، بعد أن وصف رائق حياته، وتمتعه بمساعدة دهره في بلوغ مرامه في كامل لذاته، ما لفظه:

ولم يزل كذلك، إلى أن نازلته المحلات، وطاولته المذلات، ففاضت نفسه في أثناء منازلتهم جزعا، وذهبت روحه، مقسما بالأنكاد موزعا، ونغّصت عليه منيته، حتى ما كان يلتفت إلا إلى وهج يغشاه، ولا يصيخ إلا إلى رجة تقلقل حشاه. فأكثر القتال، إنما كان تحت مجلسه الذي كان به مضجعه، وفيه تألمه وتوجعه. ولقد أخبرني من سمعه يقول، وقد علت أصواتهم، وتقلقلت لغاتهم: نغّص علينا كل شيء حتى الموت، فبكت إحدى حظاياه، فرمقها بطرفه الكليل، وقال وهو يتنفس الصعداء من حرّ الغليل:

ترفق بدمعك لا تفنه   فبين يديك بكاء طويل

هـ كلام "القلائد".[ص47].

(*) لعلّ المقصود هنا: النخبة الشهيرة الخ. أم

فهذا الملك، كان يقتضي علمه وأدبه، وسبقية وده وتقربه من الأمير ابن تاشفين، الأخذ[في أمره] بالتي هي أحسن، بأن يعزل من وظيفته، إن اقتضاه الحال، دون إعمال هذا الهجوم العنيف والشدة العظيمة، والله تعالى يقول للذي أرسل بالهُدى ودين الحق: (ادْعُ إلى سَبيلِ رَبِّكَ بالْحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أحْسَنُ)الآية،[إلى قوله]:(وَإنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ).[النحل:125-126].

ثم إن هؤلاء الملوك، وإن كانوا في أوليتهم ثائرين، ولكن، حيث تألفت الناس على طاعتهم، ورضيت بولايتهم؛ فلا وجه لمقاتلتهم، وهم في استقلالهم، مقيمون لقواعد الإسلام، داعون إليه، قائمون على إذاعة قواعده؛ وفيهم العلماء والفقهاء، والقضاة الحاكمون بمقتضى الشريعة الإسلامية.

وزيادة على هذا، فإنهم يدافعون على أنفسهم من جاورهم من الكفار جيرانهم، ويجاهدونهم بحسب طاقتهم، ولا سيما المعتمد ابن عباد؛ فكان يبدي جهده في ذلك. وكذلك بنو المظفر بالناحية الغربية، كما ذكر ذلك المؤرخون، حتى قويت شوكة أعدائهم، وكثرت أحقادهم، وتألفت من أجناس متعددة، فأصبحوا يحاولون الاستيلاء على ما بيد المسلمين من الحصون والعواصم، وأن لا يبقوا أحدا يسكن بهذا القطر الأندلسي؛ وفي هذا الحال، كان المسلمون قد ضعفت حالتهم، وتفرقت أقطارهم، واستبد كل عامل أو رئيس بقطر، فسهل الحال على العدو، وصار يهددهم، حتى صالحوه على أداء ضريبة سنوية، أي الجزية، ليدعهم.

وصار الحال كذلك، وهم آمنون في أوطانهم، سائرون على أعمالهم، حتى تكالب عليهم هذا العدو القوي، فتوقعوا[منه] ما لا قبل لهم به؛ فاقترح المعتمد ابن عباد، وهو إذ ذاك زعيم الطوائف، وملك ملوكها، أن يطلبوا من أقرب ملك إليهم، وهو ملك المغرب، أمير المسلمين، يوسف بن تاشفين، وله القوة الكبيرة من الجيش البربري الباسل، ومن غيره من الأحياء والقبائل؛ فعورض أولا في هذا النظر، وحذروه مغبة احتلاله لقطر الأندلس. وكان من جملة من عارضه في ذلك، ملوك الطوائف، وجل الأعيان العارفين بالمآل، حتى ولده الراضي.

ولكن[لـِ] صحة إيمان المعتمد، وتمكنه من يقينه، واعتصامه بالدين، لم يبال بمعارضة المعارضين، وإن كثرت أعدادهم. بل أجابهم ـ كما سبق ـ بما هو مشهور عنه، بحيث صار إلى زماننا هذا من قبيل الأمثال، إذ استمر على مقصده قائلا لهم: لأن أرعى الجمال، خير من أن أرعى الخنازير. فكان ما كان، مما قدره مقدر المقادير.

وبالجملة؛ فللمعتمد حسنات، وبالأخص في هذه المعركة الكبرى بالزلاقة، كما سبق ذلك. وله حسنات أخرى يمكن أن تجعل من مكفرات ما عسى أن يكون اقترفه من السيئات.

[الكلام على فتوى الفقهاء
بشأن ملوك الأندلس]

أما إفتاء الفقهاء بما أفتوا به ابن تاشفين؛ فإنها وقعت بحسب السؤال؛ ومع هذا، ففي عباراتها احتياط، و[ذلك في] قولهم بجواز إجراء حكم الله في خصوص هؤلاء الملوك، الذين اتهموا بأنهم يوالون الكفار.

وتهمتهم بذلك، المجردة عن الثبوت، لا تبيح إباحة دمائهم، مع أنه ورد في إباحة دم المسلم تشديد ووعيد عظيم. ومثل هذه التهم، الغالب أن يكون مصدرها من أهل الزيغ والعدوان، الذين شأنهم إيقاد نيران الفتن، ليطلقوا في إدراك مقاصدهم الفاسدة، طويل العنان؛ مع ما سمعته عن تمسك ابن عباد بإعانة المسلمين، ومعاداة عبدة الصليب. وهو أول من أشهر الحرب معهم، في مسألة الوفد الذي أوفده إليه الأذفونش، وقتله ورفضه لتهديده.

قلت: وعلى ما استند إليه المفتون، من مجرد التهم، دون تبين لما قيل؛[هو من]المنهيّ عنه في القرآن، إذ قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ).[الحجرات:6].

وفي مثل هذا، قال الشريف العلمي في "نوازله"،[ذاكرا] ما يتعلق بنفس قضية ابن تاشفين مع المعتمد، إذ قال من جواب سيدي يحيى السراج، عن "نوازل" البرزلي، ما لفظه:

" وفي نوازل البرزلي بعد كلام، قلت: ولم يتكلم في حكم الفئة التي وقعت في استعانتها بالعدو، وأحفظ أني رأيت لابن الصيرفي، في دولة لمتونة، من صنهاجة، أن المعتمد ابن عباد، استعان بهم في حرب المرابطين، فنصرهم الله عليه، وهرب هو، ثم نزل على حكم يوسف بن تاشفين، فاستفتى فيه الفقهاء؛ فأكثرهم يرى أنها ردة، وقاضيه وبعض الفقهاء، يرى أنها ليست بردة، ولم يبح دمه بالردة. فأمضى ذلك من فتواه، وأخذه بالأسر، ونقله إلى أغمات، وسكّنه بها إلى أن مات". هـ[212/2].(*)

[شرعية الاستنجاد بالمسلمين لدفع العدو،
ولزوم الاستجابة]

وبالجملة؛ فإن هذه القضية، التي جرت في استنجاد ملوك الأندلس وأهلها بابن تاشفين، واستغاثتهم بمدده في دفع العدو الذي تكالب عليهم بقوته العظيمة، التي لا قدرة لهم على مقابلتها؛ فهي جارية على قواعد الأحكام الشرعية.

(*) سبق نقل هذا النص في الجزء105/4 من هذه الفهرسة، عند الكلام على ما نسب للمعتمد من الاستنصار بالعدو، وفتوى العلماء بشأنه إلخ.

فعلى ابن تاشفين، وهو الأقرب إلى هذا القطر الأندلسي، أن يستجيب لطلبهم. بل ولو لم يطلبوا منه الإغاثة والإعانة، لكان واجبا ذلك عليه، لأن هذا قطر إسلامي أغار عليه العدو، وأقرب أهل الإسلام إليه هم أهل المغرب؛ ففي "القوانين" لابن جزي، في ذكر أسباب تعين الجهاد، ما لفظه:

" الثاني - أي من أسباب تعيّن الجهاد - أن يفجأ العدو بعض بلاد المسلمين، فيتعين عليهم دفعه، فإن لم يستقلوا، لزم من قاربهم" هـ[ص144].

ثم إن في قضية استعانة ملوك الأندلس وأهلها بابن تاشفين،[نقول]: كان أول مبدئه مبنيا على مجرد الإعانة على دفع العدو، الذي[استنفر] الجيش العرمرم للقضاء على ملوك الأندلس، واحتلال ممالكهم احتلالا كليا عاما، وطردهم من أرض الأندلس، كما هو صريح تهديده. وكانت الملحمة العظمى، والمعركة الكبرى، بالزلاقة، التي بالجهة الغربية من بطليوس، من ناحية أراضي البرتغال اليوم.

فلما أحرزت الجيوش الأندلسية النصر، بمشاركة جيش ابن تاشفين، وتقدم ما أظهره المعتمد في هذه المعركة العظيمة من صبر وجلد وإقدام - كما سبق - واعترف له بذلك القريب والبعيد، حتى إنه جرح جراحات كادت أن تقضي عليه، ومع هذا لا يبالي بذلك، إذ كان الفارس البطل، الذي مات تحت أقدامه ثلاثة أفراس، وهذا أمر لم يوصف به ابن تاشفين؛ إلا أن الذي وقع الانتصار به، هو كثرة عدد جيش المغرب، الذي جاء به ابن تاشفين الباسل، والقوي الشديد، عند اشتداد الحرب، واختلاط الحابل والنابل، فطارت بهذا الانتصار الركبان، ووقع القضاء على تلك الجيوش الذي كان يهدد بها الأذفونش ملوك الأندلس ويصول. ولكن، حيل بينه وبين هذا المأمول، وتحكم السيف في تلك القوة فلم يبق منها إلا القل القليل، الذي صار يطلب النجاة بالفرار، ويسابق الأذفونس المروع المرذول.

ثم بعد هذا الانتصار، اضطربت الأحوال، واعترى الناس الاختلال، وعاد الأمر بعد الصحة إلى الاعتلال، وتبدلت فكرة الأمير ابن تاشفين من الإغاثة والإعانة، إلى القضاء على أولئك الملوك الذين استجاروا به. وأتى لغزوهم،[بدلا من] غزو أعدائهم، والاستيلاء على أقطارهم، فشرع يردد الإغارة عليهم بعد الإغارة، حتى جرد الكل من ملكه، وتملك أرضهم وديارهم، فأصبحوا بعد الارتفاع[صائرين] إلى الاتضاع، وبعد التمتع بأنواع المسرات، إلى تجرع حرارة وأنواع المذلات والمضرات.

فليعتبر بهذا من كان من أولي الأبصار، وليترك ثقته بنعيم هذه الدار، وينادِ أهله وقومه: (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ القَرَارِ).[غافر: 39].

وكل هذا يعرفك أن مسألة الفتنة التي اعترت القطر الأندلسي، كانت عظيمة: أولها سرور، وآخرها شرور، والكلام فيها وتطبيقها على الحكم الشرعي، بدءا وتماما، مما يعجز عن القول الفصل فيها من كان من العلماء والفقهاء والمطلعين على تاريخها الحقيقي، وما جرى فيها من التخالف والتضارب، وتقف عقولهم في

ذلك، وقوف المضطرب الحيران؛ فإنك إذا نظرت إلى هؤلاء الملوك المستقلين بهذا القطر الأندلسي، وجدتهم مستمسكين بحبل من التأويل، إذ قيامهم في وظائفهم، كان عند اضطراب أمر الأندلس، بانتثار الخلافة المروانية، فبقي الناس، إذ ذاك، تعبث بهم رياح فتن، وتلعب بهم الأحداث؛ فتارة يأتي ثائر عليهم يفزعهم، وتارة يتجلى لهم في ليونة ورخاء.

والناس في كل هذه الأحوال، فوضى لا سراة لهم، ولا رئيس يُرجع إليه عند عموم البلاء. فكان - فيما يظهر - أن الرئيس في كل ناحية من والٍ وقاض،[متغلب]،إما برأيه، أو بانضمام الناس إليه، لتخفيف الحال؛ فيتصدى كل ذي قوة وقدرة على جمع الناس عليه بضم شملهم، وبدفع الفوضى عنهم.

وكان قيام هؤلاء في الظاهر، له وجه وجيه، يقبله كل ذي لبّ ناظر إلى ما تقتضيه المصلحة، من رفع الفوضى، والتقاتل في الصباح والمساء.

وكان أحقهم بهذا المعتمد، لأسبقية أبيه المعتضد لذلك في مدينة إشبيلية، وفيها أكابر الأعلام من عُمد الإسلام، فقبلوا الأمر الواقع، وحكّموا قول الناس: بعض الشر أهون من بعض، وتقليل أمر هذه الفوضى، وإيقاف هذه الفتن، ولو محليا.

[ما وقع بالأندلس، يشبه ما جرى في بغداد، بعد اختلال أمر الخلافة الشرعية، ومسايرة العلماء للمتغلبين خوف الفتنة]

وكأنهم - أي في الأندلس - لا حظوا في ذلك ما وقع في الشرق، في كرسي الخلافة الشرعية الأصلية ببغداد. وذلك لما ضعف أمر الخلافة، واختل نفوذها، وصار الأمر يتداول تارة بين الوزراء، وتارة بين رؤساء الجيش. ثم قام عمال الأطراف، فتغلب كل عامل على ما يتولاه. قال أبو الفداء في "تاريخه": ولم يبق للخليفة غير بغداد. وذكر ذلك في حوادث سنة 324. قال:

" وأما باقي الأطراف: فكانت البصرة في يد ابن رائق، وخوزستان في يد البريدي، وفارس في يد عماد الدولة ابن بويه، وكرمان في يد أبي عليّ، محمد بن إلياس، والريّ وأصفهان والجبل، في يد ركن الدولة ابن بويه، ويد وشمكير بن زيار، أخي مرادويج، يتنازعان عليها، والموصل وديار بكر، ومضر وربيعة، في يد بني حمدان، ومصر والشام، في يد الأخشيد، محمد بن طغج، والمغرب وإفريقية، في يد القائم العلوي ابن المهدي، والأندلس في يد نصر بن أحمد بن سلمان الساماني، وطبرستان وجرجان، في يد الديلم، والبحرين واليمامة، في يد أبي طاهر القرمطي".هـ[المختصر، في أخبار البشر:84/2]. قلت: وسكت أبو الفداء عن الحجاز!.

فإذا بان لك أن ولاية هؤلاء الملوك بالأندلس له وجه، وهو دفع الفوضى وإيقاف الفتن، وأن في هذا المعنى يقول الإمام الغزالي: "ولو قضينا ببطلان الولايات الآن، لبطلت المصالح رأسا. فكيف يفوت رأس المال في طلب الربح؟ بل الولاية الآن، لا تتبع إلا الشوكة. فمن بايعه صاحب الشوكة، فهو الخليفة، ومن استبد بالشوكة، وهو مطيع للخليفة في أصل الخطبة والسكة، فهو سلطان نافذ الحكم والقضاء في أقطار الأرض، ولاية نافذة الأحكام. هـ[الإحياء:97/2]. فتأمل كلام حجة الإسلام، وهو إذ ذاك في الشرق من أعيان علمائه، وأكبر أهل إفتائه، يراعي هذه الفوضى التي وقعت في تلك الأقطار، ويلتمس لها الأعذار، لأولئك الثوار، الذين استبدوا بأنفسهم، وانفصلوا عن الخليفة الشرعي، وسلبوه من كل تصرف شرعي أو سياسي، ولم يتركوا له سوى الإسم في السكة والخطبة، في بعض الأحيان. وصار كل قائم بناحية، مستقلا يفعل في إقليمه ما يشاء، وسمّوه بالسلطان.

ومع هذا، فقد علمت أن أهل الحل والعقد، وأهل العلم والفقه، سلموا الأمر، وانقادوا لأوامر هؤلاء السلاطين، واعترفوا بهم، وأعانوهم في وظائفهم.

وناهيك بإمام الأئمة، وعمدة الأشاعرة من المالكية، أبي بكر الباقلاني،(*) الذي كان ناشر مذهب الإمام الأشعري ومعضده، مع مشاركته في كل العلوم، و[كونه]المشار إليه في كل الفنون، والذي كان من عمد بني بويه؛ فقد استخدمه عضد الدولة في أهم سفاراته إلى ملك الروم،[وهو] الذي أظهر فيها الهمة العالية، وحافظ فيها على عزة الديانة الإسلامية، كما هو مذكور في مناقبه، عند ملاقاته لملك الروم، وعدم انقياده للخضوع لديه بالركوع، الذي هو عادة الملوك، وأبى أن يفعل ذلك إلا لملك الملوك، مع اتخاذ ذلك الملك غاية الحيل لذلك، وهو يخالفه في ذلك.

مع أن دولة بني بويه، كانت من الطوائف المتغلبة على الخلافة، كما هو معلوم في التاريخ. ولكن الإمام أبا بكر، نزل إلى الأمر الواقع، وأطاع لمن له الأمر واستبد به. والملك لمن ملكه، لا من استحقه. وسلف ذكر ذلك،مع ما وقع من الصحابة في انقيادهم ليزيد بن معاوية، مع إجماعهم على عدم جمعه لشروط الخلافة، لفسقه وخروجه عن الجادة؛ خوفا من وقوعهم في الفتنة وسفك الدماء.

[الاحتراز من الخطإ في التكفير، وعصمة دماء المسلمين وأموالهم]

وفي هذا المعنى، يقول أيضا الغزالي، في "الاقتصاد في الاعتقاد"، في شأن فتوى من أفتى بردة المعتمد أو غيره، مما اتهم به من الاستعانة بالكفار، دون تبيين تلك الأخبار، ولا إعطائها صدق المخبرين بها ولا اعتبار، ما لفظه:

(*) تقدم الكلام عنه وعن سفارته، في الجزء:37/4 من هذه الفهرسة.

والذي ينبغي أن يميل إليه المحصّل، الاحتراز من التكفير، ما وجد إليه سبيلا. فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة، المصرحين بقول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله؛ خطأ. والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة، أهون من الخطإ في سفك محجمة من دم مسلم، وقد قال، صلى الله عليه وسلم: " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، فإذا قالوها، فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها".هـ[ص157]. ونحو هذا في "الشفاء" للقاضي عياض.

وعليه؛ فالمسارعة إلى قتال ملوك الطوائف بالأندلس، وقتلهم صبرا، أو تضييقا، أو تعذيبهم بالعدوان الأليم، والإغارة عليهم في عقر ديارهم،.[لا يجوز]، لمجرد الأقوال الكاذبة، أو الصادرة عن مجرد الأحقاد، والمنافسة في الاستبداد، وعقارب النمائم التي دبت في هذه الفتنة وأفسدت الاعتقاد، وصرفت أمير الإغاثة عما كان جاء إليه بجيشه إلى هذه البلاد، لمجرد الإعانة ودفع العدو الذي فتح فاه على ابتلاع هذه الأقطار، وتعلقهم إذ ذاك به في الإعانة لهم حتى يحصل الانتصار، ثم يعود هو وجيشه إلى القرار، وهو الذي كان اعتقاد هذا الأمير ابن تاشفين، المحمود في مقاصده الدينية، ومحافظته على قواعد الشريعة الغراء، في الإيراد والإصدار].

ولكن لا مفرّ لما حكمت به الأقدار، والحكم لله الواحد القهار. ولا سيما والمسألة في طوائف الملوك، سبقت الأندلس بها الخلافة الكبرى، العباسية العظمى، فقام ـ كما سبق ـ عند ضعفها وانحطاط صولتها، كل زعيم أو عامل في ناحية، وتغلب على أهلها، وانعزل عن نفوذ الخلافة، وصيّر الأمر إليه، وصار يدعى ملكا أو سلطانا، كما قدمنا ذلك.

والعلماء إذ ذاك في الشرق متوافرون، والفقهاء في تلك العواصم بالحق قائمون؛ وهم لهذا المتغلب منقادون؛ لا يعلنون بتكفيره، ولا يمنعون الناس من طاعته. وهم بأنفسهم لدولة المتغلب خادمون، كما قدمنا ذلك عن إمام الأشعرية، وعمدة مذهب المالكية، أيام عضد الدولة، وهو الإمام الباقلاني الشهير، القليل المثيل والنظير. وفيه يقول ابن فرحون في "الديباج": الباقلاني المعروف بشيخ السنة، ولسان الأمة، المتكلم على مذهب أهل السنة وأهل الحديث، وطريقة أبي الحسن الأشعري، إمام وقته من أهل البصرة. هـ توفي سنة 403.

[ما وقع من الإغضاء عن سلوك عضد الدولة، وغيره من المتغلبين بعد انهيار الخلافة العباسية]

فعضد الدولة، يفوق ما رمي به شعراء الأندلس وأمراؤها كالمعتمد، من الانهماك في حضور مجالس اللهو، والاستغراق في أوقاتهم في التغزل بالأغاني،

والتفسق للغواني. بل هو في بعض أشعاره، يكاد يخرج عن دائرة الإسلام، ويخلع عن نفسه ربقة التوحيد. فمن ذلك قوله المشهور عنه:

ليس شرب الراح إلا في المطر وغناء من جوار في السحر
غانيـات سالبـات للنهـى ناغمات في تضاعيف الوتر
مبرزات الكأس من مطلعها ساقيات الراح من فاق البشر
عضد الدولة، وابن ركنها ملك الأملاك، غلاب القدر

فانظر إلى هذا البيت الأخير وقوله فيه: غلاّب القدَر. هل فاه به أحد من شعراء ملوك الأندلس، أو مدحوا به؟! ولكن قال أبو الفدا في "تاريخه": إنه لم يفلح بعدما قال هذا البيت.[122/2].

ثم إنه بعد هذا، لم ينفرد الباقلاني بموالاته لعضد الدولة. بل قال أبو الفدا: إنه كان محبا للعلوم وأهلها، فقصده العلماء من كل بلد، وصنفوا له الكتب، منها " الإيضاح" في النحو، و "الحجة" في القراءات، و"الملكي" في الطب، و"التاجي" في تاريخ الديلم، وغير ذلك. هـ[123/2].

ثم إن الدولة البويهية، قد امتدت مدتها، وتوارث أفرادها الملك، وخطب لها على المنابر، وألغت الخلافة بالكلية، وصارت تسمى الدولة الديلمية. وكان لهم في ذلك أشباه ونظائر، عرب وأتراك. وكان في الأتراك متغلبون، ولكن كانت لهم آثارات علمية، وأعمال دينية، وسير في العدل والاستقامة عالية؛ كنور الدين زنكي، الذي هو أول من أنشأ دار الحديث، وجعل بها أحباسا وأوقافا عظيمة، وتولى فيها أعلام كبار، تشهد بعلمهم وعلو مقامهم الأخبار والآثار، كالإمام النووي، وتقي الدين السبكي، وغيرهم.

ومقام هذا الرجل في العدل والزهد، وتحرّي الحق، والتباعد العظيم عن أكل أموال الناس بالباطل، حسبما أسلفنا ترجمته في مبحث مراحل رواية الحديث، من هذه الفهرسة. وهناك له نظائر وأشباه.

كما أن هناك من أفنى أيام ولايته في الشهوات، وهاك وهات، وخوضه في الجور والتعدي وأكل أموال الرعية بالباطل، في بحر الظلمات.

وبالجملة؛ فإن ما وقع في الشرق، عند ما انهار ركن الخلافة العباسية، من المتغلبين وملوك الطوائف هنالك، من الفتن والفوضى مِما لا يحويه قرطاس، لا يقاس[مع] ما وقع بجزيرة الأندلس بمقياس.

ومع هذا، فكان علماء الأمة - وهم إذ ذاك متوافرون، من المحدثين والفقهاء، ورؤساء طوائف أهل التصوف في زواياهم يعتكفون - إنْ دعُوا إلى مهمة من جانب أحد المتغلبين في مصره، أجابوا، لكن غير متعدين لحدود الشريعة.

ومن هذا سفارة الشيخ شهاب الدين السهروردي - صاحب "عوارف المعارف"، وهو إمام الصوفية وشيخهم المعتمد، وإليه في الطريق المستند، وبأوراده الصحيحة إلى الآن يستمد - بين الخليفة ببغداد، الناصر لدين الله، وذلك سنة 604، أي أوائل

القرن السابع، (وأصحب معه التشريف الخليفتي والتقليد، للمتغلب على مصر والشام)، و[بين]المتولي إذ ذاك، الملك العادل الأيوبي، إذ كان عادة بعض المتغلبين، لا يقطعون علاقتهم بالخليفة العباسي الشرعي، فيعترفون به، بمجرد الخلافة، مع استقلالهم في الحكم والتصرف، ويطلبون منه التشريف والتقليد، ليوهمُوا العامة أن ولايتهم شرعية، لا تغلبية من الفئة الباغية. ولا يخفى ما كان في هذا التقليد والتشريف من الحلل المذهبة، والعمائم السود المحلاة بالذهب، وأطواق الذهب، مما هو ممنوع شرعا. ولكن الشيخ أغضى عن ذلك، لعلمه أنه[إن أظهر] الغضب، لا تنفعه موعظته. ولكنه لم يترك الوعظ، فإنه نصب له كرسي وجلس للوعظ، وجلس الظاهر ومعه الأعيان، فصدع بالوعظ حتى وجلت القلوب، ودمعت العيون، كما وصف ذلك المقريزي في "السلوك"(*)، وأبو الفدا في "تاريخه".

ومن فعل هذا الشيخ، المقتدى به في الطريق؛ ما يرشد إلى أن الأمر لمن ملكه، لا لمن استحقه. لكن، في هذا الفعل الذي جرى عليه الملك العادل وأمثاله، جمع لطيف، وسياسة حكيمة.

[عقد الخليفة العباسي ببغداد لابن تاشفين، بإمارة المسلمين بالمغرب والأندلس]

وعلى ذلك جرى أمير المغرب ابن تاشفين، إذ طلب من خليفة عصره، وهو[المستظهر بالله العباسي؛ التشريف والتقليد بالولاية](**)، واتخذ واسطة في ذلك، وهو القاضي أبو بكر ابن العربي، واستعطف في ذلك الخليفة، حتى ساعده على مراده.

ثم صفا الأمر لابن تاشفين بعد ذلك بملك الأندلس بأسرها، وزاحم العدو، واتسقت مملكته في تلك الجهة، كما اتسقت في المغربين، واتسعت أحواله، واشتهر أمره، واعترف له الكل بالعدل والسيرة الحسنة.

وبالجملة؛ فلما تم أمر الواقعة، ومضى ما وقع فيها من خير وشر، وانقرض أمر ملوك الطوائف من بني عباد، وبني ذي النون، وبني الأفطس، وبني صمادح وغيرهم، انتظم ملك اللمتونيين، وكانت لهم بها وقعات مع الأعداء. ومات بعد ذلك الأمير ابن تاشفين، وخلفه ولده علي.

وكان علي على سيرة أبيه، بل ربما زاد في الاعتناء بأمر الشريعة الإسلامية. ولكن كان فيه ضعف من جهة حفظ المملكة والحزم، حتى جاء ابن تومرت، المهدي المشهور، واستمال العامة إليه بالقدح في مملكة الأمير علي، ونسبته إلى التساهل

(*) انظر هذا الموضوع في الجزء الرابع، صفحة50 من هذه الفهرسة.
(**) "الكامل"، لابن الأثير:174/10. أم

في أمر أهله، وتسامحه في صيانتهم. والعامة أغمار. يتطلعون إلى كل جديد، عدل أو جائر.

فأثار عليه الثوار، حتى تمكن من إقامة دولة الموحدين، واستيلائه على مملكة اللمتونيين.

[الكلام على قيام دولة الموحدين، وما لها من مآثر]

وجدّ الموحدُون، بعد تمكنهم في الملك، في استرجاع ما استولى عليه النصارى في الأندلس، وعظم ملكهم فيها وفي المغربين. ومبدأ ظهورهم، من لدن ولاية عبد المؤمن بن علي الذي استخلفه المهدي بن تومرت.

ثم كان بعد ذاك، مجيء[قطب]هذه الكتيبة الموحدة، الشهير، أبو يعقوب المنصور، فعظمت بدولته هذه الدولة الموحدية، واشتهر فيها ذكره، ونبل قدره؛ علما وسياسة، واعتناء بعلوم الفلسفة، حتى ألف بين يديه مجلسا علميا جمع فيه أكابر هذا الفن من أهل الأندلس، كالحفيد ابن رشد وغيره، كما سبق ذكره غير مرة.

ثم لم يزل أمر هذه الدولة الموحدية في علو وارتقاء، إلى أن آذن الله عليها بالقضاء، وجلاء الناصر عنها، بعد يعقوب المنصور سنة 595. وجاء القدر المقدور، فغزا الأندلس في جيش عظيم. لكن غرّه كثرته، وخانه رأيه، فاستبد به، ولم يستشر الخبراء من أهل الأندلس؛ فكانت هذه الوقعة، وهي وقعة العقاب، وهي الوقعة المشؤومة التي كانت الطامة الكبرى - كما في"النفح" - على الأندلس والمغرب، وكانت سنة 609.

ولم تقم بعدها للمسلمين قائمة تحمد. وإن تخلف بعد هذا التقدم والانتصار، الذي أعقبه الخذلان والانكسار، خلف أضاعوا الحزم والجد، واتخذوا مناهج التنازع والتدابر والحقد؛ فقد أصابهم ما أصاب غيرهم من ذهاب عزهم، وفقد سلطانهم.

ثم صار الأمر بعد إلى هذا الاضمحلال، وانتهت دولة بني عبد المؤمن، وكانت من أعظم الدول الإسلامية، كما قال صاحب "النفح".

وما أصاب الدول الإسلامية، شرقا وغربا، إلا بما كسبت أيديهم من العدوان، ومخالفتهم لما أمرهم به المولى سبحانه من الاتفاق والاتحاد، و[عدم] مجانبتهم التباغض والتحاسد، واجتناب دواعي الأحقاد. ولكننا تنكبنا مناهج الرشاد، واتبعنا خطوات الشيطان، ففقدنا عزنا، ووقعنا بسبب ذلك في استيلاء أعدائنا علينا. وتصرفوا فينا بأنواع الإهانة، وتجريعنا حرارة الاستيلاء، ومرارة المذلات؛(وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فمَا لهُ مِنْ هَادٍ).(*)

(*) الرعد:33.

[دولة بني مرين، والتنويه بجهادها
في الدفاع عن الأندلس]

قال في "النفح": فاستولى بنو مرين على المغرب. وأما المتوكل ابن هود، فملك معظم الأندلس. ثم كثرت عليه الخوارج، قريب موته، وقتله غدرا وزيره ابن الربيع بألمرية. واغتنم الفرنج الفرصة بافتراق الكلمة، فاستولوا على كثير مما بقي بأيدي المسلمين من البلاد والحصون. ثم آل الأمر إلى أن ملك بنو الأحمر. ثم استفحل مُلك يعقوب بن عبد الحق، صاحب المغرب وحضرة ملك فاس، فانتصر به أهل الأندلس على الإفرنج الذين تكالبوا عليهم؛ فاجتاز إلى الأندلس، وهزم الإفرنج أشد هزيمة، قال: ثم تتابعت غزواته، وكان له من البلاد الأندلسية: رندة، والجزيرة الخضراء، وطريف، وجبل طارق، وغير ذلك. قال:

ولم يزل ملوك بني مرين يعينون أهل الأندلس بالمال والرجال، وتركوا منهم حصّة معتبرة، وكان عند بني الأحمر منهم جماعة بغرناطة، وعليهم رئيس من بيت ملك بني مرين، يسمونه: شيخ الغزاة. قال:

ولما أفضى الأمر إلى أبي الحسن المريني، وخلص له المغرب، وبعض بلاد الأندلس، أمر بإنشاء الأساطيل الكثيرة برسم الجهاد بالأندلس، واهتم بذلك غاية الاهتمام، فقضى الله تعالى أن استولى الإفرنج على كثير من تلك المراكب، بعد أخذهم الجزيرة الخضراء، إلخ.

ووقف دفاع بني مرين عن أهل الأندلس، بعد أن بذلوا غاية مجهودهم، مع ما كانوا يلاقونه من الثوار والخارجين عن طاعتهم، وهم يقاتلون الكافر في الأندلس، والثوار في المغرب.

وقد نبّهتُ على هذا، لأن إعانة بني مرين وتملكهم بعض بلاد الأندلس، واقتسامهم تلك القطعة الباقية بالأندلس، بينهم وبين بني الأحمر بغرناطة، غير مشهور. وبيده سبحانه تصير الأمور.

* * *

وفي هذا الحال، الذي ضاق فيه المجال، ولم يبق فيه من مدافع، أمام هذا المصاب الواقع؛ أقامت تلك الباقية الضعيفة الواهية، ألسِنَة البلغاء في المنثور، والشعراء في المنظوم،[مقام]المدافع عن أحزانها التي أصابتها بسبب تلك الانحرافات الإجرامية، فأصبح هؤلاء البلغاء يتبارون في إنشاء القصائد الرائعة، وتنميق الرسائل بسجعاتها البديعة المطربة الرائقة. ولكن صار الحال الآن إلى الختام، وصح أن ينشد فيه قول أبي تمام:

السيفُ أصدقُ أنباء من الكتُـــبِ ... في حدّه الحَدُ بين الجدِّ واللّعبِ
بيضُ الصَّفائح، لا سُود الصحائف، في ... متوُنهنّ جلاء الشكِّ والرِّيَــبِ

فطالما نبه علماؤنا وأئمتنا من أهل الدين والزهد، من النوم العميق، واللهو المطبق، والاشتغال بتجويد المطربين بالعود والرباب، والشغف بحب ليلى ورباب، ووصف مجالس اللهو والمجون، وما كان فيها من الحديث يفترى، وإنشاد "أدر الزجاجة فالنّسيم قد انبرى". فلم يكن يتنبه هؤلاء من التفات، إذا أسكرتهم عن ذلك أغاني الغانيات، ومنادمة ما يجنون فيه الآثار المرديات؛ مع أن العدو يعد لهم المعدات، ويترقب بهم الفرص التي يجليهم بها عن هذه الأقطار التي[أبقاها] في يدهم الفاتحون بالسهام الصائبات، والسيوف المرهفات، والهمم العاليات، والثبات في المواقف الداهيات، مع فقدهم الأسلحة الكافية، والمؤن المتوفرة، بل ليس لهم إلا مواضي يقينهم، وحدة اتفاقهم، وقوة اتحادهم، وحفظهم قواعد دينهم، ونصرتهم لأوامر ربهم، وسنة نبيهم، (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ) الآية[محمد:7].

ولم يزل المتقدمون والمتأخرون من المتمسكين بالدين، والمحافظين على شريعة سيد المرسلين، ينشئون في هذا الموضوع الرسائل، ويحذرون أهل أعصارهم من مغبة هذا التدابر والتنافر، واستبداله بالاتحاد والتوادد، واتفاقهم على الاستعداد لدفع ما يحيط بهم من خطر العدو الماكر، الذي يترقب بهم الدوائر؛ فكم من عالم أنذرهم من هذا البأس، الذي إذا أتى عليهم أصابهم في الصميم، وأهلك أصولهم وحصونهم، وما يدر من شيء من بلادهم إلا استولى عليه، وأباد أهله، وفعل بهم ما فعلت بعاد الريح العقيم.

ولكن، كان هؤلاء المنادون بالحق، والمرشدون إلى مسالك النجاة، ينادون من لا حياة له، ولا شعور يملكه عقله. فذهبت أراضيهم، ورأوا من مكر العدو ما لم يخطر ببالهم، وأهينوا وقتلوا تقتيلا، وأجبروا على الدخول في الكفر؛ فمن ساعد، باء بغضب من الله، ومأواه جهنم. ومن أبى، طرد هو وأهله، ولجأ إلى جبال المغرب الأقصى وفيافيه. وصاروا حفاة عراة يتطلبون من سكانه ما يسد الرمق، حيارى من شدة الغلب. وأخذهم الله أخذ من ضيع حقوقه، وعذبهم بما كسبت أيديهم، من مخالفة أمر ربهم، وسيرة نبيهم، وعدم الاقتداء بسلفهم، من الخلفاء الراشدين ومن بعدهم. والله غالب على أمره.

وهذه الحالة المبكية، والأحوال المخزية المضنية، [هي التي وصفها] قاضي القضاة، الرئيس الوزير ابن عاصم، في كتابه الذي سماه (جنة الرضى، في التسليم بما قدر الله وقضى). وذلك عند ما ضاقت الأنفاس، وحصل من الانتصار الإياس. وجعله تسلية لنفسه، واعتبارا لمن يقرأه من بعده.(*)

ثم إن فتح الكلام في هذا الميدان، وهو ميدان إيقاظ اليقظان، مما قاسته هذه الأمة الإسلامية من الذل والهوان، ومعاناة شدائد التغلب من عبَّاد الأوثان، بسبب الإعراض عما أرشدهم إليه القرآن، من التآلف والتعاضد، والتآخي في دين الله، حتى

(*) حسبما سبق ذكره في الجزأين؛ الرابع والسادس من هذه الفهرسة.

يكون المسلمون شرقا وغربا، وجنوبا وشمالا، في صفاء الود وخلوص المحبة كالإخوان.

ولكن تباغضوا وتحاسدوا، وتنافسوا في جمع الأموال وتضاربوا فيها، [وسلكوا] مناهج التقاطع وموبقات العدوان؛ فذلوا بعد العز، وغلبوا بعد التغلب، وأخروا بعد التقدم، وباءوا بغضب الله، واتبعوا خطوات الشيطان.

[سلوك الإسبانيين السيئ مع المسلمين، حين تغلبهم، ومقارنته بحُسن معاملة الإسلام لأهل الذمة]

وهذه الأعمال القاسية، والانتقامات التي قامت بها هذه الدولة، بهذه النبذة الباقية الضعيفة، بعد إلقائها السلاح، خارجة عن حدود الإنسانية.

ومن راجع تواريخ حروب أهل الإسلام لأعدائهم، ير أنها لم تكن بعد الاستيلاء والانقياد، إلا معاملة بالتي هي أحسن، ومساواتهم في الحقوق كباقي الرعية، كما هو معروف ومسطر في كتب أحكام أهل الذمة. ثم هذه المعاملة القاسية، قد تحملتها كل الأمم الإسلامية، لما انفصلت عن وحدتها، وخالفت قوانين شريعتها.

والله سبحانه يقينا شرّ هؤلاء الأعداء، إذ لا زال مكرهم بأهل الإسلام متصلا، وغزوهم وإذايتهم في عقر ديارهم، إلى عصرنا هذا، الذي صارت الدول الإسلامية فيه تحت حكمهم وسيطرتهم، لشدة صولتهم واعتمادهم على أسلحتهم السامة، وآلات تدميرهم الماضية التي ليس لهذه الأمم القدرة على مقاومتها. وربما أشار كتابنا العزيز إليها، وهو قوله تعالى: (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ) الآية[الأنعام:65]. وسيأتي تفسيرها بعد هذا. والله أعلم بمصالح عباده وأحكم. وعلى العبد المؤمن المخلص في دينه، أن يسلم الأمر إلى مولاه، في كل ما نزل به وألم.

ثم نتوقف في هذه المباحث، التي دعانا إليها ما نشاهده في هذه الأمم الإسلامية من زيادة التنازع والتضارب، والتباغض والتخالف، وهو الداء العضال الذي أودى بالقديم منهم والحديث. وهو في كل يوم يزداد، ويفوق المعتاد، ثم إلى الله المشتكى، وعليه الاعتماد.

* * *

[الرجوع إلى موضوع ظهور هذا الدّين، والكلام على نشأة الشعُوبية، ومناهضتها للعرب]

ثم نرجع إلى ما كنا بصدده من ذكر ظهور هذا الدين، رغم الناقد والجاحد.

ونقلنا جملة من كتاب "الإسلام والحضارة العربية"، وما كان للأندلس منها، مما كان يستوقف حذاق الأجانب، وإن جحدوا سابقا ذلك، إذ رجعوا الآن إلى الحق، واعترفوا بأن الإنصاف في ذلك هو بالعقلاء اللائق والأحق.

ومن ذلك، ما ذكره صاحب الكتاب المذكور، في حق الشعوبية، وذكر ما ينكرون على الإسلام. وترجم في كتابه هذا للطائفة الشعوبية، ترجمة عامة، لم يفرق في ذلك بين الغربي والشرقي، ولا بين من ينتسب للإسلام، أو لغيره من الأديان. فقال في هذه الترجمة:

(الشعوبية في الشرق والغرب). ثم قال:

الشعوبية قوم متعصبون على العرب، مفضلون عليهم العجم. نشأت دعوتهم بعيد عصر الخلفاء، بدخول أجيال كثيرة من الفرس والترك والنبط، في خدمة الدولة الإسلامية؛ فنشأت العداوات بين العرب أصحاب الدولة، وبين العجم الذين انتحلوا الإسلام. وكما حدثت هذه المفاضلة بين العرب والعجم، حدث أمر المفاضلة بين العدنانية والقحطانية؛ وصيغتْ هذه العداوة بعد ذلك في صيغة أخرى، وهي قيس ويمن. هذا مع أن هدي الكتاب العزيز: (وجَعلنَاكُمْ شُعُوبًا وقبَائِلَ لِتَعَارَفُوا، إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أتقاكُمْ) الآية(*)، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التي نقلها. ثم قال صاحب هذا الكتاب:

ويقال على الجملة، إن الإسلام، الذي جاء لإسقاط الجنسية، حاول بعضهم - للحرية التي استمتعوا بها على عهد عزّ العرب - أن يعيدوا نغمتها. وألّف الشعوبيون رسائل وكتبا، وصنفوا المسامرات والخطب، وراجت أسواق الممادح والمقابح.

وردّ العرب على العجم برفق، لئلا ينفروهم. وكانوا يرمون إلى تأليف القلوب، لا إلى تمزيقها؛ شأن الأمم العاقلة التي ترمي أبدا إلى تكثير سوادها، وجمع القلوب على حبها؛ إلى أن قال:

ونحن هنا نطلق لفظة الشعوبية على كل من ناهضوا العرب في القديم والحديث، وفي الشرق والغرب، وقاموا ينقصون من قدر حضارتهم وتاريخهم، لأغراض في نفوسهم، لا تخفى على أرباب البصائر.[ص34].

ثم صار يذكر من كان يرفع من حال أهل الإسلام والعرب، قديما وحديثا، من الأجانب، ورد الشعوبية عليهم، وتجهيلهم لهم. وردّ المؤلف عليهم، على عادته في الانتصار للإسلام والعرب، بما لا يمكن رده؛ ويأتي بنصوص المستنصرين،

(*) الحجرات: 13

واستيعاب وإيضاح ذلك بوجه مقبول معقول، لا يصدر إلا عن ذوي العقول السليمة من كل تعصب وإنكار للحق، المؤيد بالأدلة النقلية والعقلية، كما هو شأنه في هذا الكتاب، الذي يستحق عليه كل مدح وثناء، ويطلب له من ربنا الثواب والجزاء.

ثم إن ما فسره، بأن الشعوبية التي يقصد الرد عليها؛ هم كل من ينقص من قدر العرب وحضارتهم وتاريخهم ونحو ذلك،[هو الذي] قاله أيضا صاحب "القاموس"، في شرح هذه اللفظة:

والشعوبي، بالضم: مُحتقر أمر العرب. ثم قال في "تاج العروس": قال ابن منظور: وقد غلبت الشعوب، بلفظ الجمع، على جيل العجم، حتى قيل لمحتقر أمر العرب: شعوبي. أضافوا إلى الجمع، لغلبته على الجيل الواحد، كقولهم: أنصاري. (وهم الشعوبية)؛ وهم فرقة لا تفضل العرب على العجم، ولا ترى لهم فضلا على غيرهم. وأما الذي في حديث مسروق، أن رجلا من الشعوب أسلم، فكانت تؤخذ منه الجزية، فأمر عمر أن لا تؤخذ منه؛ قال ابن الأثير: الشعوب ههنا: العجم. انظر تمامه.[تاج العروس:321/1].

وعليه؛ فما فسّر به صاحب "الإسلام والحضارة" الشعوبية، موافق لأهل اللغة عندنا. وبذلك صحّ لهذا المؤلف أن يعمِّم الكلام في الرد على كل شعوبي، كان مسلما أو أجنبيا.

وقد أفاض في الرد وفصل، وأمعن في الاستدلال على دحض ما نسبوه للعرب، ووافق الحق، وطعنهم بسلاح المعقول والمنقول، عن المخالف والموافق في الصميم، وأصاب المفصل. وجاء بتلك المطاعن والاتهامات التي لفقوها، تعصبا وجهلا، للعرب من أهل الإسلام، واحدة واحدة، ونقضها عروة عروة. وجاء في ذلك بما يسرّ الخاطر، ويقرّ عين الناظر، فقال أولا، تحت ترجمة:

(أمهات المسائل التي يرددها الشعُوبيُون)، ثم قال: تُرَدّ المسائل التي ضرب فيها متعصبة الشعوبية الإسلام، إلى بضع مسائل أمّهات:

" صِدق الرسول في دعوته - صحة الكتاب الذي حمله لأمته - الاعتقاد بالقضاء والقدر - تعدد الزوجات - الطلاق - الحجاب - الاسترقاق - المسكرات - الربا - التصوير ".(*)

ثم صار هذا المؤلف يرد على هذه المطاعن، ويستدل على ردها بكلام المخالفين في الدين، وعلماء الأجانب المنصفين، بأدلة ينقاد لها كل ذي لبّ كامل، وعقل رصين.

وهذه المطاعن كلها اليوم، أو جلها، انقاد لصحتها وتصويبها نبلاء العلماء من أهل العصر الحاضر. بل عضدوها بما يقر العين، ويبين الحق، ويرفع عنها كل نقص وشين، لأنها جاءت من عند حكيم عليم، وجاء بها من لا ينطق عن الهوى، وما يبلغ

(*) ["الإسلام والحضارة":63].

الأمة إلا بما يوحى إليه من رب عزيز عظيم. وأصل ذلك، هو القرآن الكريم الّذي (لاَ يَأتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ).[فصّلت:42].

وقد أطال هذا المؤلف في الردّ على هؤلاء المتعصبين بردود لا تقبل الردّ، لأنه أيد هذا الكتاب المعجز، بأدلة عقلية ونقلية، أفاض في بيانها كل أجنبي خبير، عالم بطرق الحق، ممارس للغة العربية، ومبرز في فهم أصولها وفصولها، ومطلع على أصول كل ذي دين، من فرنسي وألماني، وإنجليزي وسويسري. والحق ما شهدت به الأعداء.

وقد أسلفنا في ذلك الموضوع، جملة مصرحة بمدح هذا الكتاب العزيز، وهذه هي الجملة التي قال المؤلف، فيها الكفاية للاعتراف بالحق.

أما كلام هؤلاء الجهلة الطغام، المنحرفين عن الدين،[فهم من]المطبوع على قلوبهم، والمختوم عليها في فهم مطلق المعاني، فضلا عن أن يتفهموا معاني هذا الكتاب الذي خص الله به خير أمة أخرجها للناس، وهي ملة الإسلام.

أما باقي المطاعن، فجلها ردها القرآن أشد رد، وبين إحكامها وأحكامها، مما لا ينكره إلا الخصم الألد.

[القرآن الكريم، بلاغته وإعجازه وفضائله]

ثم إني أقول: إن القرآن[هو] الكتاب المعجز، الذي تحدّى الله به العرب العرباء، أهل التفاخر والتسابق في ميدان البلاغة والفصاحة، التي كان يتناضل بها، في حفلاتهم ومهرجاناتهم، أكابر أعلامهم، والمبرز من شعرائهم، حتى إن من قضيّ [له] بالإحسان، وفاز بقدح السبق الأعلى؛ عُدّ من الأعيان، وتسابق الناس إلى التقرب إليه بالمصاهرة وغيرها، بحسب الإمكان. ومضى من القرون ما يناهز أربعة عشر قرنا، والقرآن يتلى عليهم في الإسرار والإعلان، وتكتب آياته في المصاحف في كل مكان وزمان، والعرب والمستعربون يتلى عليهم، وهو يتحداهم: هل منكم من يأتي بمثله؟ هل فيكم من يأتي بسورة مثله؟ هل منكم من يأتي بحديث مثله؟. وهم بلسان الحال مُقِرّون بالعجز، لإعجازه الباهر عن معارضته، ولو بأقصر سورة منه.

فليخسأ القادح في هذا الكتاب العزيز، وليقل له إن القرآن قرآن كريم، يغلب من غالبه، ويُبيئه بلعنة الله وغضبه، وإن السماء لا تعبأ بنبح الكلاب، وليستمع لما يقوله في عصرنا في هذا الكتاب، هؤلاء الحكماء الكبار، الذين تأملوا ما فيه، وفهموا المنهج الذي يقتفيه، كما بين ذلك هذا المؤلف لكتاب "الإسلام والحضارة"، الذي أسفر عن حسن نيته وروحه الإسلامية. فجزاه الله خيرا، وأثابه على دفاعه، بنفيه تلك المطاعن، التي هي طعن في أفكار الطاعن وأنظاره الواهية.

أما المسلم السالم اعتقاده، الذي يسّره الله لدخوله في زمرة أهل حبّ الله وتقواه، فإن هجيراه تلاوة هذا الكتاب العزيز، واستحضار معانيه في إعلانه ونجواه، إذ هو الكتاب الذي فيه الآيات البينات، التي تخرج الناس من الظلمات إلى النور. وهو

أحسن الحديث الذي أنزله مولاه، ليتقرب إليه من اختاره لقربه ورضاه. وهو الكتاب المثاني الذي تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهمُ إلى ذكر الله، وهو الذي يهدي الله به من يشاء من عباده.

وقد وصفه الحديث الذي رواه الطيالسي والأنباري، عن سيدنا علي، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: " ستكون فتن كقطع الليل المظلم"، قلت: يا رسول الله، وما المخرج منها؟ قال: "كتاب الله، تبارك وتعالى، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم. هو الفصل ليس بالهزل. من تركه من جبار، قصمه الله، ومن اتبع الهدى من غيره، أضله الله؛ فهو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم. وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا تمله الأتقياء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه. وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا: (إنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا)، من علم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم".هـ من "التذكار" للقرطبي(*)، بترك كلامه على سند هذا الحديث لشهرته. وهناك أحاديث أخرى، فلتراجع في محلها.

[كتاب" نهج البلاغة"، واشتهاره بما تضمنه من كلام للإمام علي، والطعن الذي وجه إليه]

ولقد أسلفنا المقالة التي كتبها مفتاح العلوم ومعارفها، والمطلع على خفاياها وجلائلها، سيدنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، في الكتاب الذي ينسب إليه، وهو " نهج البلاغة"، المشهور بنسبته إلى هذا الإمام، الذي أجمع أئمة الإسلام على تقدمه وانفراده في العلوم على اختلاف أنواعها، وتعدد فنونها، بلا خلاف ولا منازعة في علوه في هذا المقام.

ولشهرته واعتماد أهل العصر على جل ما فيه، واغتباطهم بعباراته البليغة، نقل عنه صاحب هذا الكتاب، الذي نحن ننقل عنه بعض مباحثه، نقل عنه من هذه المقالة التي أشرت إليها في حق القرآن، ما لفظه، لما ذكر أسلوب القرآن الغريب، واختصاصه بخصائص عجز عن محاذاتها بلغاء العرب، وشهد المنصفون منهم، على جاهليتهم، بأنه كلام لا يصدر إلا عن رب كريم عظيم، وأن البشر بمعزل عن إنشاء مثل هذا الكلام، كما هو معروف، بعد أن وصف القرآن بأوصافه العظيمة، وعباراته الفائقة،[قال]:

"جعله الله، كما قال علي بن أبي طالب: ريا لعطش العلماء، وربيعا لقلوب الفقهاء، ومحاجً لطرق الصلحاء، وبرهانا لمن تكلم به، وشاهدا لمن خاصم به،

(*) صفحة:28

وفلجأ لمن حاجّ به، وعلما لمن وعى، وحديثا لمن روى، وحكما لمن قضى".(*)
وانظر المقالة بتمامها فيما أسلفناه. والله يوفقنا لما فيه رضاه.

وهذا الكتاب، هو كتاب " نهج البلاغة". وهو كتاب فريد في بابه، لما اشتمل عليه من الرسائل الدينية، والمواعظ الجامعة، والحكم المُحكمة، المؤثرة في القلوب الرائقة.

ولكن، أنكرها حفاظ الحديث، وعلماء التعديل والتجريح، ونفوا نسبتها لسيدنا علي، رضي الله عنه، لأمور تتخالف في نسقه الذي يخالف ذلك العصر، في تأنق تلك العبارات الدقيقة، والسجعات البديعة الأنيقة، التي هي أشبه بالكلام المحدث الجديد، الذي لا يخلو عن تكلف في مراعاة الألفاظ والتحسين؛ وتلك التكلفات لم تكن معهودة في كلام ذلك العصر، المجرد عن اختيار الكلمات، واتباع تحسين سياقها.

قلت: وأهم ما طعن به فيه، ما نقل فيه من القدح في أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، والتصريح بسبهم أو تخطئتهم؛ ففي "الميزان" للذهبي، في ترجمة علي بن الحسين:

علي بن الحسين العلوي الحسيني، الشريف المرتضى، المتكلم الرافضي المعتزلي، صاحب التصانيف. ثم قال: وولي نقابة العلوية، ومات سنة 436. ثم قال: وهو المتهم بوضع كتاب "نهج البلاغة"، وله مشاركة قوية في العلوم؛ ومن طالع كتابه "نهج البلاغة"، جزم بأنه مكذوب على أمير المؤمنين علي، رضي الله عنه. ففيه السّبّ الصّراح، والحط على السيدين أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما. وفيه من التناقض والأشياء الركيكة، والعبارات التي من له معرفة بنفس القرشيين الصحابة، وبنفس غيرهم ممن بعدهم من المتأخرين؛ جزم بأن أكثره باطل. هـ[223/2].

وللحافظ العلامة ابن تيمية في هذا الموضوع، كلام بالغ فيه بإنكار كتاب "نهج البلاغة". وأفاض القول فيه بأنه مكذوب مفترى على سيدنا علي، رضي الله عنه.

ولفظه في كتاب "منهاج السنة"، الذي نقلنا منه، إذ قال أثناء كلام له:

وأيضا، فأكثر الخطب التي ينقلها صاحب "نهج البلاغة"، كذب على عليّ. وعليّ، رضي الله عنه، أجل وأعلى قدرًا من أن يتكلم بذلك الكلام؛ ولكن هؤلاء وضعوا أكاذيب، وظنوا أنها مدح، فلا هي صدقٌ ولا هي مدحٌ. ثم قال:

وأيضا، فالمعاني الصحيحة التي توجد في كلام علي، موجودة في كلام غيره. لكن صاحب "نهج البلاغة" وأمثاله، أخذوا كثيرا من كلام الناس، فجعلوه من كلام علي. ومنه ما يحكى عن علي أنه تكلم به، ومنه ما هو كلام حق يليق به أن يتكلم به. ولكن، هو في نفس الأمر من كلام غيره. ولهذا يوجد في كلام "البيان والتبيين" للجاحظ وغيره من الكتب، كلام منقول عن غير علي. وصاحب "نهج البلاغة"، يجعله عن علي. وهذه الخطب المنقولة في كتاب "نهج البلاغة"، لو كانت كلها عن

(*) الإسلام والحضارة العربية:68

علي من كلامه، لكانت موجودة قبل هذا المصنف، منقولة عن علي بالأسانيد وبغيرها. فإذا عرف من له خبرة بالمنقولات، أن كثيرا منها، بل أكثرها، لا يعرف قبل هذا، حكم أن هذا كذب؛ وإلا فليبين الناقل لها في أي كتاب ذكر ذلك، ومن الذي نقله عن علي، وما إسناده؟هـ. "منهاج"، جزء 4 صح159.(*)

[ما سبق للمؤلف تقييده قديما في شأن "نهج البلاغة"، والاختلاف الواقع فيمن وضعه]

وقد سبق لنا الكلام على هذا الكتاب. ولفظ ما كنا كتبناه في كناش التذاكير، صح 225 :

"نهج البلاغة"، المنسوب لسيدنا علي، من الناس من يميل إلى أن أكثر هذا الكتاب من وضع الشريف الرضى، لما فيه من التعرض للصحابة بالأذى والهُجر، ولأن ما فيه من فلسفة الأخلاق، وقواعد الاجتماع، ودقة الوصف، وتكلف الصنعة، ليس في إمكان ذلك العصر، ولا في طبعه. والظاهر أن الشريف جمع كل ما نسب إلى الإمام، وفيه الصحيح والمشوب.هـ قاله بعض أهل العصر، وهو صاحب "تاريخ الأدب العربي"، أحمد حسن الزيات.هـ.

ثم إن هذا الاختلاف، والوضع المدعى فيه خلاف؛ هل هو من وضع الرضي هذا؟ أو من وضع أخيه المُرتضى؟.

ففي " وفيات الأعيان" لابن خلكان، في ترجمة المرتضى، أخي الشريف الرضيّ، ذكر أن له التصانيف على مذهب الشيعة، ومقالة في أصول الدين، وله ديوان شعر كبير. ثم قال: وقد اختلف الناس في كتاب "نهج البلاغة"، المجموع من كلام الإمام علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، هل هو جمعه، أم جمْع أخيه الرضيّ. وقد قيل إنه ليس من كلام علي، وإنما الذي جمعه ونسبه إليه، هو الذي وضعه. والله أعلم.هـ [336/1].

ففي كلام ابن خلكان، التبري من الجزم من وضع الأصل ومن روايته.

[ردّ شارح "النهج" على من نفى نسبة ما فيه لسيدنا علي، وتعقب هذا الرد]

أما ابن أبي الحديد، شارح هذا الكتاب، وهو"نهج البلاغة"، فإنه ردّ ردًا عنيفا على من أنكر نسبة ما فيه من تلك الخطب والمواعظ والحِكم لسيدنا علي، وأطال في ذلك، فقال في المجلد الثاني من الشرح المذكور. صفحة546، بعد أن ذكر جملة من

(*) [صفحة:247 من نفس الجزء، حسب طبعة بيروت، سنة1999]. أم

مواعظ وخطب بليغة مؤثرة في القلوب، عن الأعراب وغيرهم، ونقل عن "الكامل" للمبرد في ذلك، ما فيها من العبارات، وما فيها من مضاهاة لكلام الإمام. ولكن أين الثريا من يد المتناول، وكيف يقاس الدر بالحصى، والياقوت بالحجر؟! كما قال في خطبة شغف الناس بها، تنسب لبليغ يعرف بابن أبي الشحماء، وقال بعد أن نقلها بنصها:

هذه أحسن خطبة خطبها هذا الكاتب. وهي، كما تراها، ظاهرة التكلف، بينة التوليد. ثم قال: وإنما ذكرت هذا، لأن كثيرا من أرباب الهوى، يقولون إن كثيرا من "نهج البلاغة"، كلام محدث؛ صنعه قوم من فصحاء الشيعة، وربما عزوا بعضه إلى الرضيّ أبي الحسن وغيره. قال:

وأنا أوضح لك بكلام مختصر، ما في هذا الخاطر من الغلط، فأقول: لا يخلو؛ إما أن يكون كل "نهج البلاغة" موضوعا منحولا، أو بعضه.

والأول باطل بالضرورة، لأنا نعلم بالتواتر، صحة إسناد بعضه إلى أمير المؤمنين، عليه السلام. وقد نقل المحدثون كلهم أو جلهم، والمؤرخون، كثيرا منه، وليسوا من الشيعة، لينسبوا إلى غرض في ذلك.

والثاني يدل على ما قلناه، لأن من قد أنس بالكلام والخطابة، وشدا طرفا من علم البيان، وصار له ذوق في هذا الباب، لا بد أن يفرق بين الكلام الركيك والفصيح، وبين الفصيح والأفصح، وبين الأصيل والمولد. وإذا وقف على كراس واحد يتضمن كلاما لجماعة من الخطباء، أو لاثنين منهم فقط، فلا بد أن يفرق بين الكلامين، ويميز بين الطريقين. ألا ترى أنا، مع معرفتنا بالشعر ونقده، لو تصفحنا ديوان أبي تمام، فوجدناه قد كتب في أثنائه قصائد، أو قصيدة واحدة لغيره، لعرفنا بالذوق مباينتها لشعر أبي تمام ونفسه، وطريقته ومذهبه في القريض؟! ألا ترى أن العلماء بهذا الشأن، حذفوا من شعره قصائد كثيرة منحولة إليه، لمباينتها لمذهبه في الشعر، وكذلك حذفوا من شعر أبي نواس. إلخ.

ثم صار يمثل بالقرآن، وأن أوله كآخره. وتمثيله في الموضوع بالقرآن الكريم، لا يخفى [ما فيه]؛ فإني أقف هنا، وأقول: القرآن هو كلام الله المنزل على سيدنا محمد، صلى الله عليه وسلم، للإعجاز بأقصر سورة منه، وهو الذي قال فيه: (اللهُ نزّلَ أحْسنَ الْحَديثِ كتابًا مُتشَابهًا مَّثانِي، تقشَعرّ منه جلودُ الذِين يَخشَوْنَ ربَّهمْ ثمَّ تلينُ جلودُهمْ وقلوبُهمُ إلى ذكْر اللهِ)الآية[الزمر:23].

ثم إنه ذيل هذا الكلام بإيراد ليس هذا محله، وأن إنكار كل ما في "نهج البلاغة"، يفتح باب عدم الثقة بما ورد عن النبي، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه!، إلخ(*).

وهو من أضعف ما أيّد به "نهج البلاغة"، إذ هو إيراد بإيراد، لا يكدر صفو هذه الموارد؛ لأن من أنكر كل ما في "نهج البلاغة"، أنكره، لأنه لم يرو ذلك بسند عن

(*) شرح "نهج البلاغة"، لابن أبي الحديد:546/2.

سيدنا علي، لا بسند صحيح ولا ضعيف. وإنما ذكر أنه[من] جمع الشريف الرضيّ؛ والشريف الرضيّ كان من أهل القرن الرابع.

ولهذا كنتُ كتبتُ بهامش هذا المحل من كلامه، في الرد على من نفى كون "نهج البلاغة"، كله يروى عن سيدنا علي، فقلت:

في كلامه في هذا الاستدلال، نظر وتأمل؛ فإن المنكر يقول: إن ما في " نهج البلاغة"، لم يثبت كله بسند صحيح إلى سيدنا علي؛ مع اعتراف الكل بأنه إمام العلماء، وعمدة البلغاء، وبحر العلم والفقه الفياض. هـ.

ثم إن ابن أبي الحديد، بذلك الإيراد الساقط، أعرب للناس، وأبان لهم، أنه لا يدري ما هي الروايات الصحيحة المضبوطة بالقواعد، التي يعتدّ بها رواة الحديث النبوي وما يضاهيه، من التحري والتنقيب عن حال الرجال فيما يروُونه عن النبي، صلى الله عليه وسلم، من الأحاديث، أو عن أصحابه الكرام من الآثار. وكان هذا من لدن أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حتى إن سيدنا عمر بن الخطاب، كان إذا روى له رجل عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حديثا، لا يقبله منه حتى يحلفه. وقد نبه على هذا المعنى أمير المؤمنين، سيدنا علي بن أبي طالب، وأشار[إلى] أن الحديث، لا ينبغي أن يقبل ويعمل به، إلا بعد معرفة الناسخ والمنسوخ. هذا في عصر النبوة والرسالة، وفقد المغيرين على إدخال ما ليس من الديانة، [ووجود] تلك الطائفة المطهرة من الكذب والتدليس، واتصافهم بالصدق والأمانة، مع إيعاده، عليه السلام، بالنار لمن كذب عليه في الرواية، إذ قال، عليه الصلاة والسلام: " من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار".

* * *

[جهود الأئمة وعلماء الإسلام، في الدفاع عن أصول الملة وحمايتها]

ثم قيض الله لهذه الأمة أئمة ثقات علماء نبلاء، وحفاظا لأصول هذه الملة التي أرسل بها خاتم الأنبياء والأرسال بالهُدى ودين الحق والذكر الحكيم، الذي أخبر، سبحانه وتعالى، أنه سيحفظه من كل تغيير، إذ قال: (إنَّا نحنُ نزّلنا الذكرَ وإنّا لهُ لحافِظُونَ)[الحجر:9]، وقال تعالى: (هُوَ الذِي أرسَلَ رسُولهُ بالهُدَى ودِين الحقِّ ليُظهِرَهُ على الدّين كُلّهِ ولوْ كَرهَ المُشركُونَ)[التوبة:32]. فكان الصدر الأول من الصحابة والتابعين، ثم من تلا من بعدهم، في حفظهم أحاديث الرسول، عليه الصلاة والسلام، وحصنوها وحموها جهدهم[كذا]. ولكن لتفرق أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بعد فتوحات الخلفاء، ودخول أقطار في الإسلام، وفيها الأصيل والدخيل، والفارسي والرومي، والمصري والعراقي، وفيهم من صحّ إيمانه وصفا، وفيهم

المريض القلب والعليل؛ فوقع الاشتباه في الروايات، مع شدة التحفظ وتحري النقل عن الثقات.

ولما جاءت خلافة سيدنا عمر بن عبد العزيز، والأمة إذ ذاك على سليقتها العربية، من الاعتماد على الحفظ وترك الكتابة، إلا في القليل؛ نظر الإمام العادل، والخليفة العليم بالحق وتطهيره من كل كذب وباطل، وأمر بجمع الحديث وكتابته. ولكن كانت الكتابة تكتب في الأوراق مجملة، غير متحفظ فيها في النقل، لا على أنها مصنفات.

فجاء الإمام مالك، وأخذ عن مشاهير أعلام التابعين، كابن شهاب وأضرابه، وتعددت في ذلك أشياخه؛ فاجتمع لديه من الأحاديث المرفوعة إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، العدد الكثير، فصار يتصفحه ويبحث عن رواته، ويرد العليل، ويقبل الصحيح، إلى آخر ما هو معلوم فيما تقدم في مراحل الرواية من هذا الكتاب.

فكان الأول في إفراد الحديث الصحيح في كتابه "الموطأ"، فوقع الاتفاق ممن يُعتدّ به من أهل الحديث، على اعتماده، حتى إن الخليفة هارون الرشيد، أراد أن يحمل الأمة على اعتماده والعمل به. ولكن الإمام مالك، لورعه، لم يوافق على ذلك، واعتذر للخليفة بأن أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تفرقوا في سائر الأقطار التي أصبحت تدين بدين الإسلام، وكل أخذ بما صح عنده؛ وذلك لورعه، رضي الله عنه.

ثم اعتنى الأئمة بعد ذلك ـ كما سلف ـ بالجمع والتأليف في الحديث، مع عدم تمييز الصحيح من غيره، إلى أن جاء أمير المؤمنين في الحديث، وعمدة الرواة في القديم والحديث، أبو عبد الله البخاري، وألف كتابه "الجامع الصحيح".

وتبعه تلميذه الإمام مسلم، وبذلوا جهودهما، وجمعوا الروايات الواردة عن النبي، صلى الله عليه وسلم، من صحيح وعليل، ونقبوا عن الرواة في ذلك، حتى اجتمع لديهما من الأحاديث ما لم يجتمع لغيرهما، وصرفوا عنايتهم في البحث والتنقيب، وأنفقوا نفيس أوقاتهم في الذب عن ما أدخله في الروايات كل دخيل في الأمة، حتى أخرجا كتابيهما من بين تلك الروايات العليلة، أو المسترابة الدخيلة، أو المشكوك في صحتها، أو عروض ما ينافي شروط صحتها؛ كتابين عظيمين جليلين، سالمين من كل شك وريب، قاصدين رضى عالم الشهادة والغيب، وتطهير حديث سيد البشر من دنس الوضع والعيب؛ فتقبل كتابيهما جميع الأمة، وعظماء الأئمة، بالقبول الحسن، وجعلوا كتابيهما طالعا سعيدا، طلع في سماء الرواية بساطع الأحاديث الصحيحة وواضح السنن.

وهذا أمر مشهور عند أهل السنة والجماعة، مستغن عن تسطير القلم، إذ هو شيء واضح لديهم أوضح من نار على علم، وما مارَى فيه وشاقق وتأخر وأحجم، إلا من تابع غير سبيل المؤمنين، وآثر أن يصلّى في جهنم.

ولهذا ألف في هذا الفن واصطلاحه أعلام كبار، وأبانوا فيه مقام أهل الحديث الجامعين فيه، المصنفات والمسندات والمستدركات، ما لا يحصيه إلا الواحد القهار. وألطف كتاب وأجمعه وأرقه، وأضوء في الفن من ضوء الصباح، كتاب " علوم الحديث"، للحافظ الديّن الورع، أبي عمرو ابن الصلاح، المتوفى سنة 648، رحمه الله.(*)

[التحذير من تشكيك أهل الضلال في الأحاديث النبوية الصحيحة]

ففي هذا الكتاب الجليل، الردّ على من مارَى وشكك في قيّم الأمة الإسلامية، التي سلكت مسالك الحق، وخلت عقائدها عن كل ابتداع، واتصفت بكامل الأمانة والصدق، واتبعت سبيل أهل السنة المحمدية، من الصحابة الكرام، والتابعين الأعلام، ومن تبعهم من الأئمة المهتدين الذين لا تستميلهم الأهواء، ولا تزيغ قلوبهم بعد الهدى إلى غير المنهج السَّواء.

فليخسأ من يروم التشكيك، لمن قل علمه، وقصر اطلاعه، وحاول أن يقول إن ما ورد في الحديث الصحيح، يمكن أن تداخله الشكوك، وتستهويه الأهواء. وليرجع إلى وراء، وليتحقق أن قلبه، مما حرره الثقاة، وأثبته الجهابذة الحفاظ، بما يوجب القطع والجزم؛ هواء، تلعب به في أهواء الضلالة زعْزعٌ ورُخاء.

فالحمد لله على كمال هذا الدين، الذي لا يزال ظاهرا على الحق إلى يوم الفصل بين الضالين والمهتدين.

فكتاب الإمام البخاري، وتلميذه الإمام مسلم، وباقي الكتب الستة، وما جرى مجراهما من الملحقات والمخرجات، التي انتهج أصحابها مناهج تحرّي الصحيح؛ هي الكتب الجامعة المانعة. ومن مَارَى فيهما، أو تمارى، فلينسلخ عن ملة الإسلام ويرجع القهقرى. قال الإمام ابنَ الصلاح، في خصوص كتاب البخاري، عن أبي نصر الوابلي السنجريّ:

أجمع أهل العلم الفقهاء وغيرهم، على أن رجلا لو حلف بالطلاق، أن جميع ما في كتاب البخاري، مما روي عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قد صحّ عنه، ورسول الله، صلى الله عليه وسلم، قاله لا شك فيه؛ أنه لا يحنث، والمرأة بحالها في حبالته.

ونحوه قاله الحميدي في الجمع بين الصحيحين، إذ قال:

لم نجد من الأئمة الماضين، رضي الله عنهم أجمعين، من أفصح في جميع ما جمعه بالصحة، إلا هذين الإمامين. يعني البخاري ومسلم.[علوم الحديث:11].

(*) تقدم ذكره عند الكلام على مراحل الحديث في ج:5ص9.

قلت: وهناك شيء آخر اتفق عليه أئمة الإسلام منذ أعصار، أنهم إذا قال راوي الحديث: رواه البخاري ومسلم، وفي بعض العبارات: متفق عليه؛ يعنون بذلك البخاري ومسلم.

وبالجملة؛ فهذان الكتابان الجليلان، منهم يستمد المطلع النبيل، ويعتمد عليهما كل محصل سالك قصد السبيل. وهو في عصرنا هذا من قبيل النهار الذي لا يحتاج إلى دليل.

أما بعض أهل القاهرة، وأتباعهم من المغاربة، الذين لا يقيمون لأحاديث البخاري، ولا لأحاديث "الموطا" ونحوهما، وزنا، ويردون بعض أمور طبية، أو بعض أفكار من يخالطونه من الأمم الأوربية وغيرهم، من أهل النصرانية، إرضاء لهم؛ فـ[أمرهم] هذا من الضلال، الذي يوصف أهله بالاعتلال في الديانة، ونقصان في العلم، وفساد في العقل، وعدم درايتهم بالحرام والحلال، ولا يقرءون قوله تعالى: (وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُم)الآية[البقرة: 120].

ثم إن أمر الحديث في عصرنا هذا، قد كفينا أمره، وقام بشؤونه والاطلاع على ما يصح الاحتجاج به، وما لا يصح، إذ قد درسوه وعرفوا حلوه ومره،[كما تقدم ذلك في هذه الفهرسة]، عن إمام الفقهاء الشافعية، وعمدة الطرق الصوفية، وبحر المعارف والعرفان، حجة الإسلام الغزالي في"إحيائه".

قلت: والذي قاله حجة الإسلام، هو عليه معول كل إمام، ولا سيما بعد تحرير المذاهب الأربعة، أو الخمسة، وإجماع جمهور الأمة على تقليدها، لأن الحديث هو من الوسائل التي يتوصل بها إلى معرفة الأحكام الشرعية، من العبادات والمعاملات. وكل ذلك قام بتحريره الأئمة المجتهدون، وأفنوا أوقاتهم، وبذلوا مجهودهم، واستمدوا في تلك الأحكام على مقتضى ما أرشد إليه الرسول، عليه الصلاة والسلام، لسيدنا معاذ بن جبل، إذ سأله" بماذا تحكم؟"، قال: بكتاب الله، فقال: "فإن لم تجد؟"، قال: بسنة رسول الله، قال: "فإن لم تجد؟" فقال: أجتهد رأيي. فدخل في قوله: أجتهد، هو معنى "الاجتهاد"، فيدخل في ذلك الإجماع والقياس وأنواعه.

فهذه الأدلة الأربعة المعتمدة في استخراج الأحكام. وما بعد هذا من مرام، إلا الحكم بالرأي الفاسد العاري عن اتخاذ الوسائل المشروعة، لاتباع ما أسسته الشريعة من المقاصد.

* * *

[الرجوع إلى كلام شارح "نهج البلاغة"، وتعصبه الاعتزالي، ووصف الكتاب المذكور]

فليترك ابن أبي الحديد، رأيه الجديد، وليرجع إلى تحصيل أئمة السنة السديد، وليدع تعصبه الاعتزالي، الذي جعله وسيلة لنكث العقود التي أحكمتها أفكار أئمة أجلة، معتمدة فيها على أصح المساند، ولا يصح في نقضها إنكار معاند. والحكم كله

لله الحكم العدل، الحي القيوم، الأحد الواحد. ثم إن هذه الجملة التي أشرنا إليها، قد تقدم تفصيلها وتحصيلها في هذه "الفهرسة"، في مباحث مراحل الحديث(*). والله يعلم، ونحن لا نعلم.

أما الكلام على "نهج البلاغة"،[فـ]هو مجموعة من كلام سيدنا علي بن أبي طالب، رضي الله عنه؛ فيه مواعظ وحكم، وصفات من له وصف البقاء والقِدَم، ووصف مُبدعاته العلوية والسفلية، ونصائح كافية، وبمقاصد الديانة وافية، وكتابات ورسائل سياسية حربية، في تلك المأساة المحزنة المبكية، والمقاتلات الدامية الجارحة للقلوب؛ ولكن يجب التسليم في ذلك لعلام الغيوب، إذ أفعالهم كانت في ذلك عن اجتهاد، لا عن شهوة سوء اعتقاد.

ولهذا قال بعض من شرح هذا "النهج"، في تحصيل ما اشتمل عليه هذا الكتاب من المهمات، لكنه أخل بالمهمات منها من مبدعات الباري جل جلاله، من السماوات وما فيها، والأراضي وما بث فيها، ومن الدلائل على توحيده وانفراده بالخلق والإبداع، ووضوح الحجج في ذلك وضوح ضوء الشمس عند الانصداع؛ فقال، في جملة ما سطره:

"إن الكتاب حاو جميع ما يمكن أن يعرض للكاتب والخاطب من أغراض الكلام؛ فقد تعرض للمدح وللغزل الأدبي: للترغيب في الفضائل، وللتنفير من الرذائل، وللمحاورات السياسية، والمخاصمات الجدلية، ولبيان حقوق الراعي على الرعية، وحقوق الرعية على الراعي. وأتى على الكلام في أصول المدنية، وقواعد العدالة ، وفي النصائح الشخصية، والمواعظ العمومية. وعلى الجملة؛ فلا يطلب الطالب طلبة، إلا ويرى فيها أفضلها، ولا تخلج فكره رغبة، إلا وجد فيه أكملها".هـ . بهذا أصدر تقييده الشيخ محمد عبده، المصري الشهير.[نهج البلاغة:10].

وهي في نسقها، لا تعتني بشأن تلك الخطب الدينية؛ من التوحيد، والقواعد الدينية، ووصف الأدلة الشاهدة بعظمة الاختراعات الإلهية، والآيات الناطقة في صمتها أنه الخالق الواحد، ولا يمكن أن يجحد ذلك جاحد، إلا من هو لعقله الكامل فاقد. وسنتعرض لبعض ذلك، عندما نشرع في ذكر المطاعن على "النهج".

ولكن، لما كان شأن الشيخ عبده وأضرابه، إنما هو مصروف لما يهمهم من الإنشاءات الأدبية، والأمور العصرية، والأمور السياسية، والمناصب الدنيوية، ولم يكن لهم توجه مفيد إلى أمور التوحيد، وتمجيد الرب المجيد؛ أعرضوا عن هذه الموضوعات التي لا تهمهم وأمثالهم الذين همتهم كلها مصروفة إلى الدنيا وما هو المهم منها.

ثم أقول: إن موضوعنا هنا، هو تتميم ما كنا شرعنا فيه من عرض الأقوال التي وقع بها الاحتجاج على إبطال نسبة ما في "نهج البلاغة" لأمير المؤمنين، سيدنا

(*) تقدم ذلك في الجزء الرابع وأوائل الجزء الخامس.

علي بن أبي طالب. وقد قدمنا ما احتج به أهل رواية الحديث، والناظرون في رواة القديم منه والحديث، وهم علماء التعديل والتجريح، فيقبلون الصحيح، ويردون سواه من الضعيف والموضوع والمعتل غير الصحيح، فضلا عما لا راوي له، لا ضعيف ولا معتل، فضلا عن الصحيح، بل هو فاقد السند؛ وإنما هو قول مجرد مسند إلى صاحبه، وعن أسباب الاتصال به مجرد، شأن مجموعة "نهج البلاغة".

وقد تقدم لنا في ذلك مقالة الحافظ ابن تيمية، والحافظ الذهبي، مما فيه الكفاية، لمن أراد أن يعي طرق الهداية.

ثم بعد هذه العبارات المنقولة عن أهلها، المبينة لقواعد الوثوق بالآثار والأحاديث الموثوقة بروابط الأسباب الصحيحة، التي لا تقبل التشكك في أخذها ونقلها؛ وإن أوسعنا في إطالة ذيلها، فهي تبين تعصب الجاهلين بقواعد الديانة الصحيحة وأصحابها، المعتصمين بحبل الله المتين من عمدها وأربابها، السالكين على صراطها المستقيم، المتمسكين بمذاهب أهل السنة وأسبابها.

ثم أقول بعد هذا كله: إن كلام إمام العلوم السماوية ومفتاحها، ونور هذه المعارف الإسلامية ومصباحها، لا يخرج عن موضوعين؛[الشؤون] الدينية، والعادية:

أما الدينية، فهي الراجعة إلى توحيد الباري وصفاته العالية، من عظيم قدرته الباهرة، التي يتجلى أثرها في هذه الآثار السماوية والأرضية، وعجائب أسراره الظاهرة والباطنة، والنظام المحكم، والترتيب العجيب الذي يتوقف في عجائب نظامه الفِكر والفهْم؛ (أفلمْ يَنْظرُوا إلى السَّمَاءِ فوْقهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وزَيَّنَّاهَا ومَا لهَا مِنْ فُرُوجٍ)،[ق:6]، وهكذا شأن هذه الرسائل والخطب، التي نقلت في هذا المعنى عن سيدنا علي في هذا "النهج".

وتلك الرسائل والخطب، لا تخرج في هذه الموضوعات عن[مواعظ] قرآنية، أو تفسيرات لآيات جليلة، في عبارات رائقة، وفواصل بديعة في فصاحتها واتساقها.

وبذكر بعضها، يتبيّن لك أن تلك الرسائل، ليس من الأمر الغريب أو المستحيل، أن تصدر عن إمام البلاغة، وعمدة البيان، المنفرد بمعرفة نزول القرآن، الوارد عنه أنه قال، كما رواه الحافظ ابن سعد في "طبقاته" الشهيرة: سلوني عن كتاب الله، فإنّه ليس من آية إلاّ وقد عرفتُ بليل نزلت أم بنهار، في سهل أم في جبل.

وفي رواية أخرى عن "الطبقات" أيضا، أنه قال: والله ما نزلت آية إلا وقد علمتُ فيم نزلت، وأين نزلت، وعلى من نزلت؛ إن ربي وهب لي قلبا عقولا، ولسانا طلقا. هـ[338/2].

أفمثل من وُصف بهذه الأوصاف، ينكر[عليه] بمقتضى التعقل والاستبعاد، تلك الخطب البليغة، والرسائل التي اشتملت على قواعد العربية الفصحى، التي بدرايتها والتفوق فيها وفي بدائعها، يتبارى الفرسان، ويتمكن في قلوب الضالين إعجاز القرآن.

[فقرات من خُطب سيدنا علي، في التوحيد، ونشأة الكون وما فيه]

ولنبدأ ببعض فقرات في صفات الباري، من القدَم والبقاء، والغنى المطلق، والتنزه عن صفات المحدثات، وانفراده بإيجاده المخلوقات، إلى غير ذلك من النعوت اللائقة بجلاله. فمنها، وهي من فواتح "النهج"، إذ قال:

" كائن، لا عن حدث، موجود لا عن عدم، مع كل شيء، لا بمقارنة، وغير كل شيء، لا بمزايلةٍ. فاعل، لا بمعنى الحركات والآلة، بصير، إذ لا منظور إليه من خلقه، متوحد، إذ لا سكن يستأنس به، ولا يستوحش لفقده. أنشأ الخلق إنشاءً، وابتدأه ابتداءً، بلا رويّة أجالها، ولا تجربة استفادها، ولا حركة أحدثها، ولا همامةِ نفس اضطرب فيها. أحال الأشياء لأوقاتها، ولاءم بين مختلفاتها، وغرز غرائزها، وألزمها أشباحها، عالما بها قبل ابتدائها، محيطا بحدودها وانتهائها". هـ.[ص17].

وهذا كله لبّ التوحيد، مقتبس من القرآن المجيد.

ثم قال في نشأة هذا العالم ذي العجائب، التي يعجز عن وصفها وبيان أسرارها، من حاضر وغائب:

" ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء، وشقّ الأرجاء، وسكائكَ الهواء. فأجرى فيها ماء متلاطما تياره، متراكما زخّاره. حمله على متن الريح العاصفة، والزّعزَع القاصفة. فأمرها بردِّه، وسلطها على شدِّه، وقرنها إلى حدِّه. الهواءُ من تحتها فتيق، والماء من فوقها دفيق". [ص19].

ثم أشار إلى إنشاء الريح، ثم إلى السماوات، فقال:

" فسوّى منه سبع سماوات جعل سُفلاهُنّ موجا مكفوفا، وعُليَاهُنّ سقفا محفوظا، وسمْكا مرفوعا، بغير عمد يدعمها، ولا دسَارٍ يَنْظمُها. ثم زينها بزينة الكواكب، وضياء الثواقب. وأجرى فيها سراجا مستطيرا، وقمرا منيرا، في فلك دائر، وسقف سائر، ورقيم مائر". [ص20].

ثم ذكر ما بين السماوات، وما فيها من الملائكة، فقال:

" ثم فتق ما بين السماوات العلا، فملأهن أطوارا من ملائكته، منهم سجود لا يركعون، وركوع لا ينتصبون، وصافون لا يتزايلون، ومسبحون لا يسأمون. لا يغشاهم نوم العين، ولا سهو العقول، ولا فترة الأبدان، ولا غفلة النسيان. ومنهم أمناء على وحيه، وألسنة إلى رسوله، ومختلفون بقضائه وأمره. ومنهم الحفظة لعباده، والسدنة لأبواب جنانه. ومنهم الثابتة في الأرضين السفلى أقدامهم، والمارقة من السماء العليا أعناقهم، والخارجة من الأقطار أركانهم، والمناسبة لقوائم العرش أكتافهم. ناكسة دونه أبصارهم، متلفعون تحته بأجنحتهم، مضروبة بينهم وبين من

دُونهم حجبُ العزة، وأستار القدرة. لا يتوهمون ربهم بالتصوير، ولا يُجرون عليه صفات المصنوعين، ولا يحدّونه بالأماكن، ولا يشيرون إليه بالنظائر".[النهج:21].

ثم شرع، رضي الله عنه، في وصف خلق سيدنا آدم وإسكانه جنته. ثم ذكر اصطفاءه، جل جلاله، من أبنائه أصفياء وأنبياء، وانطلق في وصفهم وما خصهم الله به، من تشريفهم بوحيه، إلى ما هو معلوم في القرآن الكريم وأحاديث رسوله، مما لا ينكره مؤمن، ولا يماري فيه مسلم مطلع على أسرار القرآن، وما تضمنه من آيات الأخبار، وما بينه لنا فيها النبي المختار.

[ذكر بعض ما يمكن أن يُعضد صحة عـزْو تلك الخطب إلى الإمام سيدنا علي]

وهذا هو شأن خطبه، رضي الله عنه، مما لا يمكن تتبعها في هذا المكتوب. وإنما جئنا بهذا، لنبيّن أن إنكار من أنكر"نهج البلاغة"، لِعلة أن تلك العبارات التي فيه، هي عبارات جديدة، غير لائقة بعصره، عليه السلام! [مع أن ذلك العصر]، كانت فيه الفصاحة والبلاغة معجزة للأمة العربية، وبتلك الفصاحة والبلاغة يتباهون في ميادين مسابقاتهم، نظما ونثرا. وبما أن النظم شأنه أن يسهل حفظه، ويثبت في اللسان نشره؛ كان النظم أكثر في المنقول عنهم.

وهذه المُعلقات السبع، أو العشر، بذلك شاهدة؛ ومن قرأها ومارسها، ورُزق اطلاعا على شأن بلاغة العرب، وفنون مجازاتها واستعارتها، وأنواع محسنات بدائعها، التي كانت لهم سليقة، وينطقون بها في أشعارهم، وبليغ خُطبهم، وبيان كلامهم في محاورتهم؛ يجد[فيها] كل ما سمّاه الطاعنين في كلام أمير المؤمنين، المنسوب إليه في "النهج"، بأنه كلام جديد، ومخترع متكلف خارج عن مناهج العرب العرباء في عصر الوحي ونزول القرآن المجيد.

[خطب وفود القبائل العربية بين يدي النبي، عليه السلام، الذي أعطاه الله جوامع الكلم]

وليت شعري، هل قرأ هؤلاء تلك الخطب التي كانت تلقى بين يدي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عند وفود الوفود إليه من تلك الأمصار العربية، والقبائل الدانية والقاصية. وكل يُعرب عن مقصده بلسانه العربي الأصيل، دون إعمال تأمل أو تفكير، حتى كانت تلك الخطب، وتلك الجُمل التي يلقونها بين يدي إمام اللغات العربية المختلفة اللهجات، الذي أعطاه الله القدرة على الإحاطة بها؛ إذ كان، صلى الله عليه وسلم، يُخاطب كل قبيلة وطائفة، بما يعرفونه من محاسن خطابتهم، لأنه عليه

الصلاة والسلام، قال: " أعطيت جوامع الكلم، واختصر لي الكلام اختصارا"؛ ففي "الشفاء"، للقاضي عياض، ما لفظه:

"وأما فصاحة اللسان، وبلاغة القول، فقد كان، صلى الله عليه وسلم، من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يُجهل: سلاسة طبع، وبراعة منزَع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف. أوتيَ جوامعَ الكلِم، وخص ببدائع الحِكم، وعلم ألسنة العرب؛ يخاطب كل أمة منها بلسانها، ويحاورُها بلغتها، ويباريها في منزَع بلاغتها"، أنظر تمامه.(*)

[مواصلة الكلام على سيدنا علي، وفصاحته وعلومه المستقاة من بحر النبوة]

والمقصد هنا، أن من كان مُعلّمه وعمدته، هذا الرسول العربي الأصيل الذي علّمه الله[من] منازع اللغة العربية، التي هي لغة القرآن الكريم، كل منزع[منزع]؛ من الفصاحة والبلاغة ومحاسن الكلام،[وهو] ما أعجزهم عن تحصيله، وأوقفهم مواقف المعجب المُسَلم، دون القدرة على معارضته والإتيان بمثل فصاحته، عليه السلام، وبلاغته التي هي في أعلى مقام. فمن رزقه الله الدراية، وسلك في ذلك المسلك القويم؛ مارس كلامه، عليه الصلاة والسلام، والمعاني المختلفة، والمنازع المتكاثرة من الخطب الطويلة، والرسائل الموجزة، من جوامع كلمه المتكاثرة، التي خصت ونشرت في المؤلفات المشهورة.

فهل يمكن أن يقال لمن كان باب هذه المدينة العليمة المتسعة الأنحاء، أنه كان عاجزا عن التعبير عن معاني العلوم - التي كان استقاها من بحر العلوم الأعظم، ومُحيطها الأوسع الأتم - بالعبارات الجديدة المتكلفة، التي لم تكن في ذلك العصر، وعدم قدرته على نسجها في تلك المناسج التي أحكمتها الحضارة، ونمّقتها أفكار أهل التأنق في الفصاحة والبلاغة، واختراعها لمحاسن الإبداع في أسلوب جديد؟!

فإني أقول، وأنا العبد القاصر، لهؤلاء الذين يظنون أن كل من خالفهم، أتى بالرأي الباطل البائر: إن من راجع كلام سيدنا علي، رضي الله عنه، المنسوب إليه في " النهج"، يجد أنه لا يخلو: إما أن يكون خطبا وعظية، أو رسائل دينية إرشادية، أو حِكما تسلمها العقول الكاملة، والآراء المُحكمة المسندة إلى الشريعة الإسلامية.

أما خطبه، فقد قرأتها جلها، واستوعبت مختصرها ومطولها، فلم نجدها تخرج عن معانٍ من القرآن الكريم؛ إما بالاقتباس منه، أو بتفسير ما عسر فهمه عن

(*) الشفاء:34 (مخطوطة) بخزانة المؤلف.

غيره، أو تفسير لأحاديث نبوية؛ إما بلفظها، أو بمعان استقاها من ذلك البحر الفياض.

فانظر إلى ما قاله في خطبته التي وصف بها السماوات العلا، والخطط التي يتولاها سكانها، والتي سبق نقلها قبل هذا بقليل. وهي قطعة من خطبة طويلة في مبدعاته، جل وعلا، مسفرة عن عقيدة توحيدية تنزيهية، مع ذكر بعض وظائف ملائكته الكرام،الذِين (لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤمَرُونَ).[التحريم:6].

[إعجاب الإمام الفخر الرازي، بكلام سيدنا علي، في وصف الملائكة]

قلت: ولإعجاب إمام عقائد أهل السنة، وقطب سماء مذهب الأشعرية، الذي تدور عليه زواهر تحقيقات عقائدها، وهو الإمام فخر الدين الرازي، الإمام الذي بسيف نضاله تُدافع أهل السنة وتصول، وبمضاءة أفكاره السنية تقطع حجج أهل البدع من أهل الاعتزال، ويقف المتعصب منهم في مذهبه منقطعا لا يدري ما يقول، وهو الذي قال فيه تاج الدين السبكي، بعد أن حلاه بأجمل الحلى، ووصفه بالشهرة النيّرة التي هي كالنهار إذا تجلى، ما لفظه:

" وله شعار، آوى الأشعري من سننه إلى ركن شديد، واعتزل المعتزلي علما أنه ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد، وخاض من العلوم في بحار عميقة، وراض النفس في دفع أهل البدع وسلوك الطريقة".هـ[طبقات الشافعية:33/5]. ثم انطلق في ذكر تبحره في العلوم والمعارف، من القديم منها والحديث والتالد والطارف.

ومن تضلعه في العلوم، ودرايته بالمعلوم منها والموهوم؛ أعجب بكلام أمير المؤمنين، هذا المنسوب إليه في "نهج البلاغة"، إذ قال:

"واعلم أنه ليس بعد كلام الله، وكلام رسوله؛ كلام في وصف الملائكة، أعلى وأجل من كلام أمير المؤمنين علي، عليه السلام. قال في بعض خطبه: ثم فتق ما بين السماوات العلا، فملأهن أطوارا من ملائكته،"الخ.(*) ثم سرد تلك القطعة من كلام سيدنا علي بلفظها، الذي نقلناه حرفاً حرفاً.

ولا يخفى ما في إعجاب هذا العمدة، الذي أمده الله بالعلوم والمعارف، بما أعلاه الله بها وأيده.

[لا يمكن إنكار كل الكلام المنسوب لسيدنا علي، لما له من الخصوصية، وتبحره في المعارف القرآنية]

فيكون النظر الذي نحن بصدد تحقيقه، واتباع صواب طريقه، و[هو] أنه لا يمكن إنكار كل ما في " نهج البلاغة"، لا سيما من تأمله ودراه، وتيقن أن كلامه كله في

(*) تفسير الفخر(مفاتيح الغيب):251/1.

الموضوعات الدينية، لا يخرج عن معارف القرآن، وما اقتطفه بفهمه الثاقب واجتباه، إلى ما كان له من الخصوصية التي انفرد بها، وكونه باب مدينة العلم الواسعة الأطراف، كما قاله الرسول النبي الخاتم الذي هو أشرف بني عبد مناف: " أنا مدينة العلم، وعلي بابها". وهو حديث، وإن قيل بوضعه، فقد حسنه بعض الحفاظ لتعدد طرقه، كما سبق الكلام عليه.

على أن من أنكره، لا ينكر أن معناه صحيح، إذ في الأحاديث الصحيحة الواردة في شأنه، عليه السلام، ما يفصح بهذا المعنى، أو يزيد عليها. فقد روى الحافظ ابن سعد في "طبقاته"، أنه لما أرسله رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى قضاء اليمن، وهو شاب، فقال للنبي، صلى الله عليه وسلم: ما أدري ما القضاء؟ قال سيدنا علي: فضرب صدره بيده، ثم قال: " اللهم اهد قلبه، وثبت لسانه"، قال: فوالذي فلق الحبة، ما شككت في قضاء بين اثنين.

وفي حديث آخر من "الطبقات": "إن الله سيثبت لسانك، ويهدي قلبك". وروي في "الطبقات" أيضا عنه، رضي الله عنه، لما قيل له: ما لك أكثر أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حديثا؟ فقال: إني كنت إذا سألته أنبأني، وإذا سكتَ ابتدأني.[337/2].

وفي حديث آخر في "الطبقات" المذكورة، وهو الحديث الجامع عندي[في الجواب] عن كل الطعون، وذلك فيما رواه ابن سعد، عن أيوب، وابن عون، عن محمد، قال: نُبئت أن عليا أبطأ عن بيعة أبي بكر، فلقيه أبو بكر فقال: أكرهت إمارتي؟ فقال: لا، ولكني آليت بيمينٍ أن لا أرتدي بردائي، إلاّ إلى الصلاة، حتى أجمع القرآن. قال: فزعموا أنه كتبه على تنزيله. قال محمد: فلو أصيب ذلك الكتابُ، كان فيه علم. قال ابن عون: فسألت عكرمة عن ذلك الكتاب، فلم يعرفه.هـ[338/2].

ففي هذا الأثر، ما يُرشد إلى أن أمير المؤمنين، سيدنا علي، شأنه الاشتغال بكتابة القرآن وعلومه، وما يناسب ذلك، وشرحه.

قلت: وفيه ما يفيد أن سيدنا علي، كتب علوما وأثبتها في صحائف، فضاعت بعده. ومن الممكن أن يكون بعضها ما في "نهج البلاغة"، من الوصايا والمعارف، كتبها في تلك المصاحف، فضاعت من جملة ما ضاع، ولاسيما أنه لم يكن للصحابة وغيرهم من أهل ذلك العصر اعتناء بالكتابة وإثباتها في الصحف، إذ كان شأنهم الاعتناء بالحفظ.

ولو كانوا يعتنون بكتب ما جمعه أمير المؤمنين، وما أنشأه أو أملاه، من الخطب والرسائل، لكتبوا أيضا ما أملاه أمير المؤمنين، سيدنا أبو بكر، والخليفة سيدنا عمر، وهكذا. وما وصلنا من ذلك إلا اليسير الذي نشر في كتب التاريخ. والله أعلم وأحكم.

ثم إن الخليفة سيدنا علي، رضي الله عنه، روي عنه الكثير من وصاياه وخطبه، وروي عنه ذلك في كتب المحدثين، كـ"حلية" الحافظ أبي نعيم، كما سيأتي بعض ذلك.

ولكن سيدنا علي، ابتلي بفئتين من أهل البدع، وهما فرقة[الخوارج، وفرقة]الشيعة التي أفرطت في حبه. ثم هذه الفئة تشعبت شعبا كثيرة، منهم المعتدلون، ومنهم الخارجون في حبه عن الحدود، حتى خرجوا عن الدّين، وسلكوا مسلك الملحدين؛ وبذلك كثر النقل عنه، ونسبت له كل طائفة ما أدى إليه هواها، وأسندت إليه ما أضلها وأرداها.

ولا يخفى أن هذا الدين القيم، كان في صدره، وفي تعاضد أهله، على عقد واحد، ومنهج متحد. عمدته القرآن، واستمداده من السراج المنير، الذي لا ينطق إلا عن وحي يُوحى إليه من الملك الديان. عقدهم التوحيد في الذات والصفات والأفعال، منقادين لأحكامه، آخذين بأوامره، رافضين لنواهيه، يحبون بحبّه، ويبغضون ببغضه.

إلى أن نبغت فئة ضالة مضلة، لا تعرف للديانة أصلا ولا فرعا، ولم تبق مقيمة في حدودها، من مقصورها وممدودها. بل أخذت تبثّ سموم ضلالها، وفساد عقائدها، وتلقي سواد غايتها في بياض الحنيفية البيضاء، التي ليلها كنهارها.

فسرى شرهم في هذه الأمة التي دينها الإسلام، بعد الائتلاف والاتفاق، فصارت إلى افتراق وشقاق، كما جاء في الحديث؛ ففي "المواقف" للعضُد، وشرحها للسيد الشريف الجرجاني، عند كلامه في مسألة الإمامة، آخر الكتاب، ما لفظه:

تذييل للكتاب في ذكر الفرق التي أشار إليها رسول الله، صلى الله عليه وسلم بقوله: "ستفترق أمتي ثلاثا وسبعين فرقة، كلها في النار، إلا واحدة؛ وهي ما أنا عليه وأصحابي". وكان ذلك من معجزاته، حيث وقع ما أخبر به. قال الآمدي: كان المسلمون عند وفاة النبي، عليه السلام، على عقيدة واحدة، وطريقة واحدة، إلا من كان يبطن النفاق، ويُظهر الوفاق. ثم نشأ الخلاف فيما بينهم، أولا في أمور اجتهادية لا توجب إيمانا ولا كفرا، وكان غرضهم منها إقامة مراسم الدين، وإدامة مناهج الشرع القويم.[المواقف:376/8].

ثم صار يسرد في "المواقف" تلك الخلافات الواقعة بين الصحابة، رضي الله عنهم، التي مرجعها الاجتهاد، ولا أثر لها على الدّين، ولا تخرج صاحبها عن سنة الهادين المهتدين؛ إلى أن بدأ الاختلاط بهذه الأمة ممن دخل في الإسلام، وهو في ذلك على طرف، يتظاهر بالإسلام، وهو يكنّ له في صدره ما يصرفه عن سننه القويم أقبح طرف.

[أول من بثّ الخلاف في عقائد هذه الأمة]

وفي ذلك يقول في "المواقف"، تتميما لكلامه السابق: وكان الخلاف يتدرج ويترقى شيئا فشيئا، إلى آخر أيام الصحابة، حتى ظهر معبد الجهني، وغيلان الدمشقي، ويونس الأسواري، وخالفوا في القدر، وإسناد جميع الأشياء إلى تقدير

الله. ولم يزل الخلاف يتشعب، والآراء تتفرق، حتى تفرق أهل الإسلام، وأرباب المقالات إلى ثلاث وسبعين فرقة. [377/8].

ثم ذكر في "المواقف" أشهر الفرق، وصدّر بذكر المعتزلة والشيعة، والخوارج. ثم ذكر غيرها من مشاهير الفرق.

قلت: وأكبر هذه الفرق التي عظم داؤها، وتفاقم بلاؤها، وسرت في أمة الإسلام المتحدة سمومها الفتاكة، وأفكارها الضالة المضلة، حتى أريقت دماء، وذهبت أرواح، وصارت الأمة المسلمة - بدسائس الأعداء، بعد الصفاء والإخاء - إلى عداوة وبغضاء. واتصل التباغض بينها، وانفصل حبل التمسك بالمحجة البيضاء، و[هي]هذه هي الفرق الثلاث: المعتزلة، والشيعة، والخوارج؛ فأول نشأة هذه الطائفة التي كانت فاتحة هذا الداء العضال، والألم الذي كان من السنن السيئة التي شرعت بها الأمة في المعاداة والانفصال، وكان وزرها[على] من سنها وابتدعها، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة. وقد سبق أن أول من بث الكلام في هذه العقائد، معبد الجهني وأصحابه، ونفوا القدر، وقالوا: الأمر أنف. ثم إنه علم به، وعنه تفرقت فرق القدرية وتعددت، وتلك الفرق الاعتزالية.

أما المعتزلة الذين اشتهروا بهذا الإسم، فقد تفرقوا عددا، وتقطع اتصالهم قددا، ولعن بعضهم بعضا. وأحسن ما رأيت في تفسير مذهبهم وأجمعه لرؤوس ما خالفوا فيه أهل السنة؛ ما في كتاب " الملل والنحل" للشهرستاني:

المعتزلة، ويسمون أصحاب العدل والتوحيد، ويلقبون بالقدرية. وهم قد جعلوا لفظ القدرة مشتركا، وقالوا: لفظ القدرة، يطلق على من يقول بالقدر، خيره وشره، من الله تعالى، احترازا عن وصمة اللقب، إذ كان الذم به متفقا عليه، لقول النبي، عليه السلام: " القدرية مجوس هذه الأمة". [50/1].

ثم قال: فالذي يعم طائفة المعتزلة من الاعتقاد، القول بأن الله تعالى قديم، والقِدم أخص وصف ذاته، ونفوا الصفات القديمة أصلا، فقالوا: هو عالم بذاته، قادر بذاته، حي بذاته، لا بعلم وقدرة وحياة، هي صفات قديمة، ومعان قائمة به، لأنه لو شاركته الصفات في القدم، الذي هو أخص الوصف، لشاركته في الإلهية. واتفقوا على أن كلامه محدث مخلوق في محل، وهو حرف وصوت كتب أمثاله في المصاحف، حكايات عنه، فإنما وجد في المحل عرض، فقد فني في الحال.[51/1].

ثم صار يذكر رؤوس المسائل الاعتقادية التي خالف المعتزلة فيها أهل السنة، وهي معروفة لدى الفرقتين، ولأهل السنة الأجوبة عنها، وبيان صحة ما ذهبوا إليه.

والمقصد في هذا المبحث، هو مسألة قولهم بأن كلام الله محدث مخلوق،[وهو] الذي كان من الطامات الكبرى التي أحدثت في الأمة الإسلامية معارك دامية، آلت إلى إعدام أعلام من أهل السنة، وطردت أفاضل من أوطانها. وكانت هذه المسألة من إحدى المسائل العظيمة، إذ كانت سببا في تفريق كلمة الأمة، وتمزيق اتحادها كل

ممزق. وكان ابتداء هذه المصيبة التي عمّ داؤها، وأعضل دواؤها، لما نبغ أصلها، وفتح بابها معبد الجهني وأصحابه، كما سلف.

[الاهتمام بالعلوم الفلسفية، والآراء التعقلية المخالفة للعقيدة، وتأثير ذلك على وحدة المسلمين]

ولم تزل - أي تلك المصيبة - في انتشار ونماء وسريان، حتى اعتضد أمرها بقوة الخلفاء، أوائل زهرة أيامها، ومساعدة الدهر لها في اجتماع رؤوس الأمة من عمدها وأعلامها، واغتباط (مأمُونها) بالمعارف والعلوم، وإعطائها جانبا عظيما من اعتنائه، بجمعه مؤلفات متعددة في العلوم الإسلامية وغيرها من علوم القدماء؛ الفلسفية وغيرها، حتى جمع من ذلك ما لم يكن للعرب به إلمام، ولا كان للإسلام به اهتمام. وأنشأ المكتبة الشهيرة في عصره، التي ضم إليها كل مؤلف عزيز الوجود، من مؤلفات الطب والهندسة وغير ذلك، وسمى هذه المكتبة بـ"بيت الحكمة"، كما هو معلوم.

فكان هذا الجمع المختلف، الذي كان استمده من ملك الروم. ومن ذلك اغتبط الخواص بالاشتغال بالعلوم الفلسفية، التي نشأت منها هذه الأنظار التي مرجعها إلى التعقلات، واتخاذ الفلسفة أصلا لذلك. وهي منافية لقواعد الإسلام، التي مادتها القرآن الكريم، وما ورد من الوحي الإلهي إلى النبي الكريم.

فاعتضدت بذلك هذه الفرقة الاعتزالية، فصارت تبدي للناس تعقلاتها بغير علم نقلي. وإنما ترجع في ذلك إلى تحكيم عقولها التي هي معقولة عن إدراك الحقائق. وأدخلت في الأمة بذلك، التسور على اقتحام ما لا يمكن لها الإحاطة بمعناه من تلك المضائق؛ فمنها أنها تعتمد على القواعد المنطقية التي هي من مبادئ علم الفلسفة.

وقد صرح المشاهير من العلماء، بأن تعلم علم المنطق حرام، كما للإمام النووي وابن الصلاح وغيرهما؛ وإن كان حكى في "السلم" في المسألة أقوالا ثلاثة، فقال:

فابن الصلاح والنووي حرما   وقال قوم ينبغي أن يُعلما
والقولة الشهيرة الصحيحة   جوازه لكامل القريحة

قلت: وهذه المسألة، وهي مسألة الفلسفة، والاعتماد عليها في الإسلام، قد بسطنا القول فيها. وما حرره في ذلك العلماء، في الجزء الأول، في مبحث تقسيم العلوم، وما يجب فيها وما يستحب منها وما يمنع؛ فراجعه هناك.

[مسألة إنشاء الكون وبدء الخليقة، والتدقيقات الفلسفية في ذلك]

وبالجملة، فإن هذه التدقيقات الفلسفية، والاستطلاعات على آثار القدرة الإلهية، من إنشاء هذه الأكوان، السماوية والأرضية، و[ما] بث الله ما فيهما من دواب وحيوان، وأطلع في السماء من شمس وقمر ونجوم ثابتة وسيارات في أفلاكها، على نظام محكم، وترتيب تعجز عن معرفة كيفيته ونشأته عقول الإنسان، وتقف حائرة كيف يقلب تعالى الليل والنهار، ويجري في أفلاكها تلك الكواكب العظيمة المقدار، (والشمْسُ تجْرِي لِمُسْتَقرٍّ لهَا، ذلِكَ تقدِيرُ العَزِيز الْعَلِيم).(*) إلى ما في الأرض من بحور وأنهار، وجبال شامخات، وأراض واسعة تكل عنها الأبصار، وما تحويه من حيوانات مختلفة الصور والمقدار، مما في ذلك عبرة لأولى الأبصار، إلى غير ذلك مما كشفه لنا، ومما هو غائب عن الأنظار؛ من انسياب الرياح واختلاف مهباتها، وإنشاء السحاب المسخر بين السماء والأرض، وما يحيي به الأرض الميتة من العيون والأمطار، وما يرسله من الصواعق عند تسبيح الرعد بحمده، والملائكة من خيفة عظمة الملك القهار، إلى غير ذلك من العجائب الكونية التي يخوض أهل الفلسفة في الاطلاع على أسرارها، وزعمهم معرفة نشأتها، التي أخفي سرها عن هذه الخلائق، ويذكرون من ذلك ما يدل على فتور عقولهم، وقصور إدراكهم، وتمثيلهم لذلك بأمثلة يضحك منها الصبيان، ويستهزئ منها من له أدنى معرفة، وأقل دراية من بني الإنسان.

ففي كتاب " فتوحات العلم الحديث"، في نشأة الكون، ما لفظه، تحت ترجمة: (أصل الكون وأيام الخليقة)، صحيفة عدد 88:

" كل الشموس والسيارات والأقمار، نشأت من ذرة ضخمة على أثر انفجارها وتمزقها. بهذا تُلخّص نظرية الأب ليمتر في أصل الكون؛ وهي من أغرب النظريات العلمية الحديثة وأبعثها على الدهشة. وقد عني بها علماء الفلك والرياضة في أنحاء العالم، لأنها، على غرابتها، تفسر كثيرا من الحقائق المشاهدة التي حار العلماء في تعليلها". وانظر تمام كلام هذا الهذيان.

وأقلّ سؤال يوجه إلى هذه النظرية في نشأة الكون، أن يقال لقائلها: ومن أنشأ هذه الشموس والأقمار؟ والسيارات الكبار؟ ومن أخرج منها هذه الذرة؟ ومن الذي فجرها ومزقها؟ وبكل أدنى تأمل، تجد أن هذه العقلية ينزه عنها عقل الأحمق، فضلا عن الكامل العقل.

وقد كنت، لما وقفت على هذه النظرية، كتبت في هامش الكتاب المذكور ما لفظه: مثل هذه الأنظار، وهذا التخرص في نشأة الكون، يُزيل الثقة بهؤلاء الفلكيين،

(*) [يس:38].

وتصير أنظارهم وأقوالهم أوهاما باطلة، وأحاديث ملفقة، لأنك، إن سألتهم عن مستندهم في علمهم بذلك، أحالوك على الأوهام والتخرصات التي تهذي بها عقولهم.

فتبّاً لعقول تقبل هذا المحال، وتعجب منه، وتجعل صاحبه من ذوي العقول الفائقة في التقدم والكمال. أفلا يرجعون إلى الخالق الذي (خلقَ الإنسانَ من صَلْصَال كَالفخَّار، وخلقَ الجَانَّ مِن مَّارجٍ مِّن نَّار)،[الرحمان:14-15]، وقال: (وجَعَلنَا مِنَ المَاء كُلَّ شيءٍ حَيٍّ)[الأنبياء:30]، وقال: (ثُمَّ اسْتوَى إلى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فقال لهَا ولِلأرض إيتيَا طوْعاً أو كَرْهاً قالتا أتيْنَا طائِعين، فقضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ في يَوْمَين وأوْحَى فِي كُلِّ سماءٍ أمْرَهَا، وزَيَّنا السَّمَاءَ الدّنْيَا بمَصَابيحَ)الآية[فصلت:11-12]، وقال: (وهُوَ الَّذِي خلقَ الليلَ والنَّهارَ والشمْسَ والقمَرَ كُلّ في فلكٍ يَسْبَحُونَ)[الأنبياء:33].

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة، التي قضت على أن كل هذه الخلائق، وأصناف هذه المخلوقات، من إنس وجن وملائكة، وسماوات وما فيها من الكواكب والنجوم، وما أسكن فيها من الملائكة، وما لا يعلم خلقه إلا الله، جل وعلا، كما قال: (قُلْ لاَ يَعْلمُ مَنْ في السَّماوَاتِ والارْض الغَيبَ إلا اللهُ)الآية[النمل:65]، وقال: (ولِلهِ غيْبُ السَّماوَاتِ والارْض)[هود:122].

فلتدع أيها القارئ هذه التخرصات، وهذه التعقلات، التي كل العقول عنها معقولة عاجزة على إدراك منشأها، وهذه التمويهات والتعليلات.[و] هي، وإن أسندت إلى بعض العوائد التي أجرى الله وقوعها عند مشاهدتها، كمسألة الأمطار والرياح ونحوها؛ فإنما هي علامات وأسباب أجراها في ذلك مقدر الليل والنهار، ومنشئ السحاب الثقال في الفضاء، وتسخير البرق والرعد ليسبح بحمده، بدليل تخلفها وجريها على خلاف العادة.

<u>وانظر الآن</u> في هذه الحادثة التي وقعت في هذه العصور الأخيرة،التي وقعت في المغرب، في مدينة أكادير، وأدهشت سكان المغرب، بل أدهشت أهل العصر، وكتبوا في شأنها، وأفاض علماء هذا الشأن في ذلك، وكتبوا الكتابات الضافية. ومن جملتهم عالم كبير فرنسي، مختص بهذا الفن. وذكر كل ما قاله المتقدمون والمتأخرون في أسبابها. وأخيرا رد تلك التخرصات كلها، وأيقن بالعجز. وقد قرأت كلامه منشورا في جريدة "العلم" المغربية. فليخسأ الجاهل الذي يقول: إن علماء العصر، يمكن لهم الاطلاع على الحوادث الكونية.

<u>ثم يعجبني</u> في هذا الموضوع، من كلام علماء من المتقدمين، قول الإمام المطلع المجتهد، عمدة المفسرين، وحامل راية المؤرخين، الحافظ ابن جرير الطبري، إذ قال بعد كلام في الاستدلال العقلي على حدوث العالم، من أرض وسماء وما فيهما، فقال:

" فتبين بما وصفنا، أن بارئ الأشياء ومحدثها، كان قبل كل شيء، وأن الليل والنهار، والزمان والساعات، مُحدثات، وأن مُحدثها الذي يدبرها ويصرفها قبلها، إذ كان من المحال أن يكون شيء يُحدث شيئا، إلا ومحدثه قبله. وإن في قوله تعالى:(أفَلاَ يَنْظرُونَ إلى الإبل كَيْفَ خُلقتْ، وإلى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإلى الجبال

كيف نُصِبَتْ، وَإلى الارْض كَيفَ سُطِحَتْ)؛ لأبلغ الحجج، وأدل الدلائل، لمن فكر بعقل، واعتبر بفهم، على قِدَم بارئها، وحدوث كل ما جانسها، وأن لها خالقا لا يشبهها؛ وذلك أن كل ما ذكرَ ربّنا، تبارك وتعالى، في هذه الآية، من الجبال والأرض والإبل؛ فإن ابن آدم يعالجه ويدبره، بتحويل وتصريف، وحفر ونحت وهدم، غير ممتنع عليه شيء من ذلك. ثم إن ابن آدم، مع ذلك، غير قادر على إيجاد شيء من ذلك من غير أصل؛ فمعلوم أن العاجز عن إيجاد ذلك لم يحدث نفسه، وأن الذي هو غير ممتنع ممن أراد تصريفه وتقليبه لم يوجده من هو مثله، ولا هو أوجد نفسه، وأن الذي أنشأه وأوجد عينه، هو الذي لا يعجزه شيء أراده، ولا يمتنع عليه إحداث شيء شاء إحداثه، وهو الواحد القهار". انظر تمامه في "تاريخ"(*) هذا الإمام الكبير، الذي أحسن في هذا الاستدلال العقلي، الذي لا ينكره إلا ذو النظر السخيف، والتعقل المركب من مقدمات أساسها التعطيل والتحريف.

وبكل أدنى نظر، يتبين[هذا] للمؤمن الذي شرح الله صدره للإسلام، وملأ قلبه بنور اليقين الذي يدعوه إلى دار السلام، ويصرف عنه تلك التلفيقات الموضوعة، التي هي مصروفة عن عقول ذوي الألباب الكاملة. فتبا لعقول تفني أعمارها في تلفيق حجج؛ مقدماتها مقتدية بالتسورات، مما لا تدريه العقول، وتدع ما صح من صحيح النقول. والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

ثم إن مسألة بدأ الخليقة، لم يزل الفلاسفة يضيعون أوقاتهم، ويقررون في ذلك ضلالتهم، ويذيعون في الناس حماقتهم؛ ولكن مآل سعيهم الإخفاق، ونهاية مقدماتهم البعد من الإنتاج، والقرب إلى الاختلاف والشقاق.

أفلا يرجعون إلى الحق الواضح، وهو قول الله تعالى: (وإذ قال رَبّكَ للمَلائِكَةِ إنّي جَاعِلٌ في الأرْض خَلِيفَةً) الآية،[البقرة:30]، ويتركون الخوض فيما لا سبيل إلى الاطلاع عليه من تلك التسورات السخيفة، ويستمعون مقالة الحق، من قوله، جل وعلا: (وَهُوَ الَّذِي يَبْدِأ الخَلْقَ ثمَّ يُعِيدُهُ)(**)، وتقديسه بأسمائه الحسنى التي منها: المبدئ والمعيد، وأنه هو الأول والآخر، والظاهر والباطن؛ فهو الأول قبل كل شيء، وهو الآخر ما بعده شيء، وهو الظاهر بآثار قدرته، من اتخاذه الكائنات بأسرها، من سماء وأرض، وملَكٍ وإنس وجن، وحيوان ونبات، وما على ظاهر الأرض، وما في باطنها، من معادن وأسرار وخواصّ سخّرها لبني آدم، مما عثر عليه السابقون واللاحقون، وسيقف[الإنسان] على عجائب[أخرى] مما لم يعثر عليه. ويرى الكل أن هذه العجائب والغرائب، صارت الآن تعد عند العامة، والجاهلين من الخاصة، من خوارق العادات، بل وأنها من مخترعات أهل العصر! كلا؛ بل ذلك بإيداع الخالق، وخلقه في بطون الأراضي، إذ هو تعالى، كما قال في كتابه العزيز: (وَسَخّرَ لكُم مَا فِي السَّماوَاتِ وَمَا فِي الأرْض جَمِيعًا مِنْهُ)[الجاثية:13].

(*) جزء: 1 صفحة:15.

(**) الخ الآية: سورة الروم:27.

وقد تقدم في كلام الحافظ ابن جرير قوله: إن الله خلق الخلق، وسخر لهم التصريف فيما خلق لهم منها، من استخراج المعادن المتعددة، وصنعوا منها ما شاءوا. وكل ذلك بقدرته تعالى. وما لهم إلا الاختيار والكسب؛ فهذه المخترعات التي ترى، إنما هي في تحويل النحاس إناء، والذهب والفضة نقودا أو حلية يُتحلّى بها، أو غير ذلك.

أما إبداع الأصل، فليس لهم عليه قدرة. فلا يقدرون على خلق ما في الأرض من نبات وأشجار ومعادن وزيوت، وما تكنّه من الكنوز، وغير ذلك مما لا يحصى. وقد عثر عليه المتقدمون بسعيهم الحثيث، وقد يعثر على بعضه هؤلاء المتأخرون.

ولقد كان أهل العصور الماضية، عثروا على خواص أرضية، استعملوها في نحو ما استعمله أهل هذا العصر؛ ومنهم من كان يظهر أسبابه للناس، ومنهم من كان يخفيه ويظهره في صفة السحر.

ولكن، مع هذا، كانوا يُعرضون عن ذلك، اتباعا لجادة العادة. وقد ذكرنا ذلك مما قدمناه سابقا مما لا حاجة إلى إعادته، مع أن المقام يستدعي زيادة وإيضاحا للخاصة الجاهلين، والعامة المغرورين في هذه العجائب، التي يعدونها من المعجزات التي تبهر عقولهم، وتكاد تخرجهم عن محض الإيمان بالله وبقدرته. وإنه، جل وعلا، خالق الخلائق كلها، كما أسلفنا؛ إنسيّها وجنيّها وملائكتها، والسّماوات والأراضي وسكّانها، كما أنه الخالق لأعمالهم.

[الرجوع إلى موضوع نشأة الخليقة]

ثم نرجع فنقول: إن نشأة الخليقة، وما ضلّ فيه هؤلاء الضالون، وحاول الاطلاع عليه هؤلاء الملحدون، الذين أعجبوا بعقولهم القاصرة، وأفهامهم المعقولة الناقصة، وأتوا في ذلك بما يضحك منه الصبيان، ويرفضه من له أدنى شعور وأقل ذرة عقل من بني الإنسان.

وقد قدمنا أن المسلمين قاطبة من أهل السنة، وأصحاب البدع، ممن لم يخرج ببدعته عن الإسلام؛ على أن الله هو المبدع المعيد، وأن أول الخليقة، هو سيدنا آدم، عليه السلام. وهو نص القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

كما أن المبتدعة من الطوائف التي لم تخرج عن الإيمان، كالمعتزلة وأمثالهم، فهذه عقيدتهم أيضا؛ ففي "شرح نهج البلاغة"، للمعتزلي الكبير، ابن أبي الحديد، ما لفظه:

"واعلم أن الناس اختلفوا في ابتداء خلق البشر كيف كان، فذهب أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى، إلى أن مبدأ الناس هو آدم، الأب الأول، عليه السلام. وأكثر ما في القرآن العزيز، من قصة آدم، مطابق لما في التوراة. وذهب طوائف من الناس إلى غير ذلك.

أما الفلاسفة، فزعموا أنه لا أول لنوع البشر ولا لغيرهم من الأنواع. وأما الهند، فمن كان منهم على رأي الفلاسفة، فقوله ما ذكرناه، ومن لم يكن على رأيِ الفلاسفة، ويقول بحدوث الأجسام، لا يثبت آدم".[34/1].

[انتقاد ما ذكره ابن أبي الحديد هنا، من كلام أهل البدع والإلحاد، وافتخاره باعتزاله، وتضليله للإمام الأشعري]

ثم استمر ابن أبي الحديد يذكر تلك الآراء الساقطة، والأقوال الواهية المختلطة، التي لا تستمد بأمر معقول، ولا بسند إلى قول صحيح مقبول. وابن أبي الحديد يذكر ذلك بسعة خاطر، في صفة كلام مُسَلّم غير مستبعد، ولا راد لتلك الأكاذيب الملفقة التي لا يقبلها إلا أبله قاصر خاسر. وزاد أنه[ذكر] ترجمة أحمد الغزالي الطوسي، الملحد الخارج بأقواله عن الملة، والقائل بأقوال مُحّن بسببها الأئمة الأجلة.

ولقد كان من حق هذا المعتزلي، أن يردّ تلك التخرصات الواضحة البطلان، التي في إقرارها الجناية على الإيمان، والمؤدية بحكايتها إلى الدخول في الضلال والحيران. وابن أبي الحديد هذا، من أعداء أهل السنة،[وهو] الذي كان يصرح بتضليل الإمام الأشعري، رضي الله عنه، ومن أبياته التي يفتخر بها باعتزاله، إذ يقول:

أيا رب العباد رفعت صنعي وطلت بمنكبي، وبللت ريقي
وزيغ الأشعريّ كشفت عني فلم أسلك ثنيات الطريق
أحب الاعتزال وناصريه ذوي الألباب والنظرالدقيق

إلخ ما قاله من هذا التعصب الضالّ، وقدحه في إمام السنة وناصرها دون منازعة ولا جدال.

[نبذة من ترجمة ابن أبي الحديد، ورجاء الخير له]

أما ابن أبي الحديد هذا، الذي شرح " نهج البلاغة"، وأبدى فيه من النقول التاريخية، والنكت الأدبية، ما يشهد له بذلك ما نشره في "الشرح" المذكور؛ فقد وصفه من ترجمه بأنه[كان] من أعيان العلماء الأفاضل، والأكابر الصدور الأماثل، حكيما فاضلا، كاتبا كاملا، عارفا بأصول الكلام. وذكر أنه تولى الولايات الديوانية، والخِدَم السلطانية، وكان مولده سنة 586، ووفاته سنة 656. وقد ذكر له هذا المترجم مؤلفات كثيرة، في فنون مختلفة.(*)

(*) [شرح نهج البلاغة: 575/4].

قلت: ويظهر من كلامه، أنه ليس من غلاة المعتزلة، إذ رأيت له مخالفات في بعض رؤوس مسائلهم، كالقول بكرامات الأولياء التي لا يقول بها المعتزلة. وقد ذكر في "شرح نهج البلاغة"، ما يفيد أنه يقول بها في مواضع مختلفة. كما أن حبه[لسيدنا علي]، والإفراط في تنويهه بمعارفه ومناقبه، من غير ميل إلى مذهب الشيعة، هو عندي مما يقربه إلى رضى الله، من تجاوزه الحد في تعصبه لمذهب المعتزلة، والقدح في مذهب أهل الله، و(إنَ اللهَ لا يَغْفِرُ أنْ يُشرَكَ بهِ، ويَغْفِرُ مَا دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يشَاءُ)الآية،[النساء:48-116]،إنه الواسع الغفران، ذو الرحمة التي تعم المُطيعين وأهل العصيان.

[الكلام على الفرقة الاعتزالية
التي فرقت الوحدة العقائدية للمسلمين]

ثم نرجع فأقول: إن هذه الفرقة الاعتزالية، أول فرقة ـ كما سلف ـ بعثت التفرق في عقائد أمة الإسلام، التي كانت على عقد واحد، واتساق في التوحيد الخالص الذي يستمد من الذكر الحكيم، وسنة النبي الفاتح الخاتم، دون مزج ذلك بفلسفة الفلاسفة، والتعقلات التي هي من مبادئ تفريق الأمة، وتمزيق ألفتها واجتماعها، كما كان عليه الصحابة من التمسك بتوحيد القرآن، دون التفات إلى تأليف الأدلة المنطقية، وترتيب مقدماتها على قواعد المنطق اليوناني؛ إذ مات الأصحاب، رضي الله عنهم، وما خاضوا في معنى العرض والجوهر، ولا جروا في إيمانهم بتلك الاستدلالات.

وأول مبدإ داء التفرق في الاعتقاد، كان من ناحية أهل الاعتزال، إذ أعلن[به] معبد الجُهني وغيلان الدمشقي، وتكلموا في القدر وقالوا: لا قدر، وإنما الأمر أنف، أي مستأنف، لا أمر قدره الله في الأزل، كما سلف.

ولم تزل هذه الجذوة، التي أوقدها هؤلاء الضالون، تشتعل وتتـقد؛ وسُمّوا بالقدرية(*). وأهل الحق والسنة ينكرون عقيدتهم، حتى ورد: "القدرية مجُوس هذه الأمة".

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل كانت هذه الضلالة تنمو وتكبر في الأمة، حتى بلغت الفرق إلى ما أخبر به الرسول، عليه السلام؛ وقويت الفرقة الاعتزالية ونمت، وأمِر أمرها، وساعدها الحظ، باغتباط الدولة العباسية بمبادئ العلوم الفلسفية، وكان في طليعتها المأمون بن الرشيد؛ فكان من المعضدين لعقيدتهم، ومن الناصرين لمقاصدهم، فصارت هذه الفئة الضالة في انتشار، يحميها الحُسام البتّار، وجماعة أهل السنة في ضعف وانهيار، إذ هم عزل لا معضد لهم ولا ناصر إلا الواحد القهار. واستمر الحال كذلك، وأهل السنة مُجدون في الدفاع، ويبذلون مما يقيهم عن الانقياد جهد المستطاع، إلى أنْ استخلف المعتصم، أخو المأمون، وهو رجل لم يتحل بحلية

(*) سبق الكلام على بدعة القدرية في الجزء4 من ص192 من هذه الفهرسة.

من حلل المعارف، ولا يعرف من الجماعة المتنازعة من هو على الحق، ومن هو على الضلالة، وعن صراط السلف متخالف؛ وجماعة أهل الاعتزال متواصلة للدعاية إلى ضلالها، منصورة بأعلام اعتقادها، فاغتنمت الفرصة بهذا الإمام الذي لا يدري ما الإيمان ولا الإسلام، ولا ما هي عقيدة السلف الصالح التي يجب على الأمة وعليه التمسك بها والالتزام. وصار علماء السوء ـ على العادة ـ في تأييده والاستدلال له، لينتصر للضلالة، على عماية منه وضلالة. فأصبح النزاع حربيا، بعد أن كان حرفيا سلميا علميا؛ وجرد سيف الانتقام، لينصر به حزب الضلالة بما يرام.

قلت: وقد وصف هذا الحال التاج السبكي في " طبقاته"، وشرح ذلك شرحا وافيا.

[مسألة نشأة القول بخلق القرآن
التي امتحن فيها علماء الإسلام من أهل السنة][**]

وأنا أقول: إن مسألة نشأة القول بخلق القرآن، وامتحان علماء الإسلام من أهل السنة، كان داهية دهياء، ومصيبة صماء،[وهي]التي أصيبت بها هذه الأمة من جهة هذه الطائفة التي لم يكن شأنها الهداية. وإنما كان مرادها تضليل هذه الأمة، وتفريق أعضائها، وتكسير جموعها جمع تكسير.

ولقد فصل هذه الطامة الكبرى، التاج السبكي في "طبقاته، بما لم يُسبق إليه. وسألخص مضمنها، إن أعان الله على ذلك، فأقول:

أول ما أفتتح به هذه الفتنة الكبيرة، والبلية المبيرة، بالكلام على موقد نارها، ومؤجج سعيرها، وهو القاضي أحمد بن أبي دؤاد، الذي ترجمه التاج بقوله: إنه كان ممن نشأ في العلم، وتضلع بعلم الكلام، وصحب ابن العلا السلمي، صاحب واصل، أحد رؤساء المعتزلة. وكان ابن أبي دؤاد رجلا فصيحا كريما ممدحا، وفيه قيل:

لقد أنست مساوي كل دهر   محاسن أحمد بن أبي دؤاد

إلى آخر الأبيات الثلاثة[206/1]. وكان معظما عند المأمون، يصغي إلى كلامه، كما هو شهير؛ فدسّ إليه القول بخلق القرآن، وحسنه عنده، حتى ثبت في عقيدته، فأجمع رأيه في سنة 218 ، على الدعاء إلى عقيدته بخلق القرآن، فكتب إلى نائبه ببغداد في امتحان العلماء، وبين له في ذلك الكتاب، أن القول بخلق القرآن هو الحق. وذكر في ذلك آيات قرآنية تؤيد بظاهرها زعمه، وأطال في ذلك المنشور باستدلالات، ويحمل فيه[على] من قال بقول أهل السنة بأن كلام الله قديم؛ وفي الأمر يقول المرسوم: (. . فاجمع من بحضرتك من القضاة؛ فاقرأ عليهم كتابنا، وامتحنهم فيما يقولون، واكشفهم عما يعتقدون)، قال: (فإذا أقروا بذلك ووافقوا، فمرهم بنص من بحضرتهم

[**] شرع المؤلف في الكلام على هذه المسألة في الجزء484/6 من هذه الفهرسة.

من الشهود، ومسألتهم عن علمهم في القرآن، وترك شهادة من لم يقر أنه مخلوق). وكذلك أمره أن يفعل ذلك في قضاة حضرته.

ثم كتب إليه في أشخاص سبعة من مشاهير الأعلام، منهم ابن سعد، صاحب "الطبقات"، ويحيى بن معين، وأمثالهما من أهل العلم ورجال الحديث. وكانوا أجابوا بما يوافق رأيه، تقية وخوفا على أنفسهم، كما صرح بذلك بعضهم، كيحيى بن معين؛ إذ قالوا: أجبنا خوفا من السيف.

ثم كتب كتابا يأمر بإحضار من امتنع. فأحضر جماعة، منهم أحمد بن حنبل، وجماعة كثيرة من أمثاله. وأمر المأمون بإحضارهم ودعوتهم إلى القول بخلق القرآن، وأمر بتهديدهم بإزالتهم عن وظائفهم، وبالقتل؛ فمنهم من ورّى، ومنهم من جعل التقيّة وقاية، كما صرح بعضهم بذلك وسبق.

وكان المأمور[به] من قبل المأمون في هذه الرجفة، التي فيها الإمام أحمد،[هو] التهديد والتخويف. فأجاب من أجاب بما تقدم تقية. وبقي على امتناعه الإمام أحمد وثلاثة معه، وهم المسمى سجادة، ومحمد بن نوح، والقواريري؛ فقُيدُوا، ثم سئلوا من الغد، وهم في القيود، فعاوَدهم ثلاثا، فأجاب سجادة والقواريري، وامتنع الإمام أحمد، ومحمد بن نوح، فوجه بهما إلى طرسوس. ولما بلغ المأمون أن من أجاب، إنما أجاب كرها، غضب لذلك. ثم إن المأمون مرض ومات.

وكان لتصميمه على هذه العقيدة الضالة، كتب وصية للمعتصم، الذي تولى الخلافة بعده، باتباعه في حمل الناس عليها. ولكن، كان من سعادة الإمام أحمد، أن مات المأمون قبل ما كان عزم عليه من إحضار الإمام لديه لضربه. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

قال التاج: وكانت هذه الفتنة عظيمة. قال: وقد طال أمرها، وطار شررها. واستمرت من هذه السنة التي هي سنة218، إلى سنة234. قال: فرفعها المتوكل في مجلسه، ونهى عن القول بخلق القرآن، وكتب بذلك إلى الآفاق، وتوفر دعاء الخلق له، وبالغوا في الثناء عليه والتعظيم له، حتى قال قائلهم: الخلفاء ثلاثة: أبو بكر، يوم الردة، وعمر بن عبد العزيز، في رد المظالم، والمتوكل، في إحياء السنة.[الطبقات:209/1- 215/1].

قلت: وهذا كلام يحتمل التأويل، إذ حمله على ظاهره مطلقا، فيه ما فيه؛ إذ مقام الخلفاء الراشدين أعلى وأعظم؛ إلا أن تأويل كلام هؤلاء: إن هذه الحسنات التي قام بها المتوكل، عظيمة في إطفاء هذه النار التي كانت متأججة في عيون أهل السنة، وعظماء الحامين لحمى الملة.

ولو استمر الحال على هذه الفتن الموبقة، والأعمال الجائرة، والعبث بمقامات عمد هذا الدين، والتحكم فيهم ظلما بالإهانة والتهديد، والضرب الشديد، والنفي عن بلادهم والتشديد عليهم كل التشديد، وتعذيبهم لِصرْفهم عن الحق في ذات الله؛ لاضمحلت معالم الدين بذهاب أهلها من الفقهاء المجتهدين، والعمد المحدثين.

وهذه الحسنات مما يرجى أن يكفر بها ما ينسب لهذا الخليفة، مما أشار إليه التاج السبكي. والله سبحانه يقول: (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ)الآية.[هود:114].

بل بالغ بعض أهل التصوف ـ إذ خالط قلبه وامتزج بحب هذا الخليفة، الذي قام بدفع هذا الحادث المدلهمّ، وإطفاء تأجج ناره بنور رأيه الموفق لرفع هذا الظلام الملمّ ـ فقال هذا البعض: إن الخليفة المتوكل، كان ممن له الخلافة الظاهرة والباطنة، أي ممن كان له التصرف في أهل الظاهر والباطن؛ فهو أمير المؤمنين في الأحكام الظاهرة، وقطب الولاية في الأسرار الربانية. وممن جزم بذلك، إمام أهل الحقيقة، وعمدة الأسرار عندهم، والإشارات الخفية، والإلهامات الدقيقة، محيي الدين الحاتمي، في "فتوحاته". ونقلنا ذلك عنه فيما سبق من هذا الكتاب. ولا مانع من هذا في فضل الله، الذي يؤتيه من يشاء، وهو ذو الفضل العظيم.

[ما جرى في إحضار الإمام أحمد بمجلس المعتصم، وما ظهر عليه من ميل لموقف الإمام]

فجمع، أي المعتصم، أعيان العلماء، وأجلّتهم الفضلاء، وجبرهم على القول بخلق القرآن، سائرًا في ذلك على سيرة أخيه المأمون. وكان في طليعة هذا الفوج الإمام أحمد، فأحضر إلى دار المعتصم. قال أحمد: فأدخلت حجرة في بيت في جوف الليل، وليس في البيت سراج. قال: فأردت أن أتمسح للصلاة، فمددت يدي، فإذا أنا بإناء فيه ماء، فتوضأت وصليت. وهو إذ ذاك مقيد بقيود يحملها بتكة سراويله.

قلت: وهذه كرامة، إذ وجد الإناء في بيت مظلم، خال من كل أسباب الوضوء، رضي الله عنه.

قال أحمد، فجاءه رسول المعتصم، يدعوه لمجلس المعتصم، فأخذ بيده وأدخله إليه، وإذا هو جالس، وابن أبي دؤاد حاضر، وجماعة من أصحابه. قال أحمد: فقال له، أي المعتصم: ادنه، فدنوت، وأنا على حالتي من حمل القيود. قال أحمد: فقلت: أتأذن لي في الكلام؟ فقال: تكلم. فقلت: أنا أشهد أن لا إله إلا الله. ثم قلت: وإن جدك ابن عباس يقول، لما قدم وفد عبد القيس على رسول الله، صلى الله عليه وسلم،(وذكر حديث الإيمان والإسلام، وذلك مشهور في البخاري وغيره). ولما أتمّ الحديث، وظهر أن المعتصم ـ على عدم درايته لهذه العلوم ـ مَال نظره إلى تصويب ما عليه الإمام أحمد، وقال له: لولا أني وجدتك في يد من كان قبلي، ما عرضت لك. ثم قال لهم: ناظرُوه.[طبقات الشافعية:211/1].

وأخيرا اعترض مُوقد هذه النار، وهو ابن أبي دُؤاد، على ذلك كله، وصار يغريه بأمور سياسية ظاهرة، ويحرضه على الانتقام من الإمام. وذلك أن المعتصم، لما أحضره مرتين، وهو يدعوه إلى القول بخلق القرآن، ويشدد عليه بالتهديد، بما يطول شرحه، كما قاله التاج، والإمام مصمم على اعتقاده، لا يبالي بتهديده. وقد وصف

بعض ذلك الإمام أحمد بنفسه، إذ قال: ولما كانت الليلة الثالثة، قلت: خليق أن يحدث في أمري شيء الخ؛ أي توقَّعَ الوقوع به، إذ شدَّ قيوده وأكبالـه التـي كـان موثقا بها في السجن. قال: فأدخلت إلى محلٍ؛ وقوم معهم سيوف، وقوم معهم سياط. قال: فلما انتهيت إليه، قال: اقعد، ثم قال: ناظروه، فجعلوا يناظروني، وجعل صوتي يعلو أصواتهم. والمعتصم يراوده ويقول له: ويحك يا أحمد، أجبني حتى أطلق عنك بيدي، وهو مصمم على ما أجاب به. ثم ابتدأوا في ضربه، وهو مصمم على ما أجاب به أولا، والضرب على ظهره، والمعتصم يرغب إليه أن يجيب، وهو لا يبالي بالضرب، حتى قال من حضر هذا الضغط عليه بالضرب والتشديد، والمراودة من المعتصم، في هذه الأيام الثلاثة، وهو على عقيدته مصمم ولا يبالي: إنه تُفقد في هذه الأيام الثلاثة وهم يناظرونه، فما لحن في كلمة. قال: وما ظننت أن أحدا يكون في مثل شجاعته وشدة قلبه.

ويقال إن المعتصم لانَ في أمره، لِما رأى من ثبوته وصلابته في أمره، حتى أغراه ابن أبي دؤاد، وقال له: إن تركته قيل إنك تركت مذهب المأمون؛ فهاجه ذلك على ضربه. هـ[باختصار من "طبقات الشافعية":212/1].

قلت: وهذا مما يعرفك أن نشأة هذه القولة المشئومة، والفكرة الملعونة، والفتنة التي لولا لطف الله، وتوالي حفظه لحملة هذا الدين، لأدّت إلى القضاء على أهله الهادين المهتدين، وذهب العلم الديني الحقيقي بذهاب أهله، وكاد أن يقع ما أخبر به رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من قبض العلم بقبض العلماء.

ولكن الله تعالى وعد الأمة بأن دينها القويم سيبقى ظاهرا، ولو كره من كره من أهل الكفر، وأهل هذه البدع.

ثم إن ما سلف من ميل المعتصم بقلبه إلى الإمام أحمد، وحرصه على حفظه من الضرب ونحوه، يشير إشارة خفية إلى أنه مجبور مقلد لما يلقيه إليه ابن أبي دؤاد من الآيات القرآنية، والاحتجاجات العقلية، التي المعتصم عنها بمعزل، ويلقي الحبل بغاربه في عنق قاضي قضاته ابن أبي دؤاد، الذي يتحمل هذه الأوزار، ويلقى به إلى النار.

[ما قيل في ذم القاضي ابن أبي دؤاد، وعدِّه من علماء السّوء]

ولهذا قال تاج الدين ما معناه: إن ابن أبي دؤاد، هو من علماء السوء، لقوله إن المعتصم لم يكن يدري شيئا من العلم، ثم حمل الناس على القول بخلق القرآن. قال التاج: قلت: إن أخاه المأمون أوصاه بذلك، وانضم إلى ذلك القاضي أحمد بن أبي دؤاد، وأمثاله من فقهاء السوء؛ فإنما يتلف السلاطين فسقة الفقهاء، فإن الفقهاء ما بين صالح وطالح؛ فالصالح غالبا لا يتردد إلى أبواب الملوك، والطالح غالبا يترامى عليهم. ثم لا يسعه إلا أن يجري معهم على أهوائهم، ويهوِّن عليهم العظائم. ولهو

على الناس شر من ألف شيطان. كما أن صالح الفقهاء، خير من ألف عابد. ولولا اجتماع فقهاء السوء على المعتصم، لنجاه الله مما فرط منه. ولو أن الذين عنده من الفقهاء على الحق، لأروه الحق أبلج واضحا، ولا يغروه على ضرب مثل الإمام أحمد. ولكن ما الحيلة، والزمان بني على هذا؟! وبهذا يظهر حكمة الله في خلقه. انظر تمامه[الطبقات:219/1].

ثم إن التاج لم يذكر ما أصيب به ابن أبي دُؤاد هذا من الانتقام الرباني، واكتسابه من ذلك ذم الناس له، وبغضهم له، والقدح في دينه، حتى بالغ بعضهم، وحكم عليه بالكفر.

وقد نقل الخطيب البغدادي في "تاريخه" جملة من ذلك في ذمه، بسنده عن أبي العباس ثعلب، عن أبي الحجاج الأعرابي:

نكست الدين يا ابن أبي دؤاد　　فأصبح من أطاعك في ارتداد
زعمتَ كلام ربك كان خلقا　　أمَا لكَ عند ربك مِن معاد؟
كلام الله أنزله بعلم　　وأنزله على خير العباد

الخ الأبيات الأربعة. وروى أيضا عن بعضهم أنه قال:

لو كنتَ في الرأي منسوبا إلى رَشَدٍ　　أو كان عزمك عزما فيه توفيقُ
لكان في الفقه شغل ـ لو قنعت به ـ　　عن أن تقول: كتاب الله مخلوقُ

الخ. وروى الخطيب بسنده، عن الحسن، عن الحسن بن ثواب، قال: سألت أحمد بن حنبل، عمن يقول: القرآن مخلوق؟ قال: كافر. قلت: فابن أبي دؤاد؟ قال: كافر بالله العظيم. قلت: بماذا كفر؟ قال: بكتاب الله تعالى، قال الله تعالى: (ولئِن اتَّبَعْتَ أهْوَاءَهُم بَعْدَ الّذِي جَاءَكَ مِنَ العِلْم)الآية،[البقرة:120]؛ فالقرآن من علم الله، فمن زعم أن علم الله مخلوق، فهو كافر بالله العظيم. هـ[153/4].

[مناظرة الإمام أحمد وابن أبي دؤاد في مجلس الخليفة الواثق]

قلت: ومما نقله الحافظ الخطيب البغدادي بسنده، من المناظرة التي وقعت بحضرة الخليفة الواثق، للإمام أحمد، مع ابن أبي دؤاد، وأفحم بها الإمام أحمد ابن أبي دؤاد، وعجز عن الرد فيها على الإمام أحمد، ووقف وقوف الحائر الذي لم يجد جوابا: قال الخطيب، بعد ما ذكر ما وقع للإمام أحمد في مفاتحة الخليفة، إذ قال ابن أبي دؤاد للأمير:

يا أمير المؤمنين، الرجل متكلم! فقال: كلمه. فقال: يا شيخ، ما تقول في القرآن؟ قال الشيخ: لم ينصفني ـ يعني ولي السؤال ـ فقال له: سل. فقال الشيخ: ما تقول في القرآن؟ فقال: مخلوق. فقال: هذا شيء علمه النبي، صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، والخلفاء الراشدون، أم لم يعلمُوه؟ فقال: علمُوه، ولم يدعوا الناس إليه. قال: أفلا وسعك ما وسعهم؟! قال: ثم قام أبي، يعني والد محمد الواثق،

الذي كان يدعى المهتدي بالله، فجلس مجلس الخلوة، واستلقى على قفاه، ووضع إحدى رجليه على الأخرى، وهو يقول: هذا شيء لم يعلمه النبي، ولا أبو بكر ولا عمر، ولا عثمان ولا علي، ولا الخلفاء الراشدون، ولم يدعوا الناس إليه، أفلا وسعك ما وسعهم؟! ثم دعا عماراً الحاجب، فأمر أن يرفع عنه القيود، ويعطيه أربعمائة دينار، ويأذن له في الرجوع، وسقط من عينه ابن أبي دؤاد. ولم يمتحن بعد ذلك أحدا. هـ من تاريخ الخطيب(باختصار)[152/4].

قلت: وفي "طبقات" التاج السبكي، لما حكى قصة الواثق على وجه مختصر، قال: وكان هذا، أي ما فعله الواثق في الانتصار للإمام أحمد، وإطلاقه من الوثاق؛ من الأسباب في خمود الفتنة، وإنما رفعها بالكلية، إنما كان على يد المتوكل. هـ[*] من جملة كلام مختصر، من رواية الخطيب التي أسلفنا.

وبكل وجه، فهذه الفتنة الكبرى، كان سبب إيقاد نيرانها، والمتحمل لأوزارها؛ فرق المبتدعة التي تفرق على يدها ما كان عليه صدر الأمة من الاتفاق والإتلاف في العقيدة، دون تفرق واختلاف.

[مقالة المؤلف لنفسه ومن وافقه في رأيه؛ من أن الدِّين المحمَّديّ، هو دينٌ أبدي]

ثم أقول بعد هذا، لنفسي ومن وفقه الله لفهم هذا الموضوع، وإن كان في عصرنا هذا صار من المفقود، أو في حكم المفقود. ولكني أنا في نفسي، وحسن ظني بربي، في صباحي وأمسي؛ أعتقد اعتقادا جازما، وأقول قولا صحيحا لازما: إن هذا الدّين عمدته كتاب الله، الذي (لا يأتيهِ الباطلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ)، الذي هو(تنزيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)، وفيه تعالى يقول: (فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ، لا يَمَسّهُ إلاّ الْمُطَهّرُونَ)،[الواقعة:78-79]، ويقول: (إنّا نَحْنُ نزّلْنَا الذكرَ وإنّا لهُ لحافظُونَ)[الحجر: 9].

وارجعْ إلى ما كتبناه سابقا في هذه "الفهرسة"، من أن هذا الكتاب، هو المحفوظ من كل مرتاب، وأنه الدِّين الأبدي إلى يوم يقوم الحساب؛ وراجع ما قاله الولي المتفق على ولايته وكراماته، سيدي عبد العزيز الدباغ، تلك المقالة التي سكّن بها روع تلميذه علامة الزمان، والمرجع إليه في العلوم الإسلامية نقلا وعقلا عند مخالفة[يشترك فيها] اثنان، وهو العلامة ابن مبارك الشهير، إذ كان أوجس في نفسه خيفة من انقراض هذا الدّين، لظهور بعض أمارات الانقراض.

* * *

[*] طبقات الشافعية: 216/1

[ما أبدعه الله في الكون وفي الإنسان، من أسـرار تستدعي التأمل والاعتبار]

ولكن الشيخ العارف الدباغ السابق الذكر، بيّن لتلميذه أن ذلك غلط منه؛ إذ لم يستوعب نظره سر هذا الكون وخباياه العجيبة، ومبدعاته التي عقولنا معقولة عن الإحاطة بها، والمعرفة بحقائقها، التي تضل في مهامه دقائق أسرارها، خُطا العقلاء الأذكياء، وتبطل عند نتائج مقدماتها الفلسفية، جهود الفلاسفة في سعيهم ومجهوداتهم للتحقيق في منشإ هذا الكوْن وتدبيره، والاطلاع على ما يجري في أنفسهم في الليل والنهار، من قعود وقيام، ويقظة ومنام، وكيف تُدِير هذه المضغة، التي تسمى بالقلب، دولتها التي هي بدنها، والحاكمة في أعضائها، إذ بصلاحها صلاحه، وبفسادها فساده. فلينظر الإنسان إلى قول الباري، جل شأنه، وعز سلطانه، على لسان نبيه، عليه السلام: " ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب". ولينظر إلى طعامه وشرابه، وكيف يسري في البدن، وكيف تُوصل الحكمة الباهرة نفعه إلى كل عضو ما يناسبه منه، وهكذا. ولله در إمام الصوفية الكبير، إذ يقول:

قل لمن يفهم عني ما أقول   قصر القول، هذا شرح يطول

إلخ.

قلت: وفيما أشرت إليه من أسرار هذا الكون وعجائبه، وعجز العقول البشرية عن الإحاطة بحقائق مجراه [كفاية]؛ ومثّلنا لذلك بالإنسان وما في باطنه من الأسرار العجيبة، ومثلنا بقلبه الذي هو تحت أضلاعه، وبينا أن القلب الذي هو رئيس الحركة التي تحرك الأعضاء ليلا ونهارا، وفي أنفسنا قال تعالى: (وَفِي أَنْفُسِكُمْ)، أي تأملوا في أنفسكم وتصرفاتها، تجدون أنفسكم عاجزين عن فهم أسرارها. وأشرت إلى ذلك إشارة خفيفة.

ثم وقع نظرنا - دون قصد ولا تشوف - لما في "الإحياء"، لحجة الإسلام، وتعرضه لشرح هذا المبحث شرحا وافيا. وذكر ألفاظا أربعة، هي متقاربة، وهي: النفس، والروح، والقلب، والعقل. وشرح معنى كل واحد من الألفاظ ومعانيها، والفرق بينها، حسبما بلغ إليه علمه، مما فيه غاية الكفاية للباحث في هذا المعنى الذي أشرت إليه، مما لا يمكن لنا جلبه في هذا الكتاب بتمامه، ولا نستطيع استقصاءه ولا اختصار بعضه، لطوله واحتياجه إلى طول النظر فيه. ومن جملة ما في ذلك قوله - وهو مضمن ما أشرت إليه - قال:

[كلام الإمام الغزالي على القلب، حسب منهجه الصوفي]

فالقلب هو العالم بالله، وهو المتقرب إلى الله، وهو العامل لله، وهو الساعي إلى الله، وهو المكاشف لما عند الله ولديه. وإنما الجوارح أتباع وخدم وآلات، يستخدمها القلب ويستعملها استعمال المالك للعبد، واستخدام الراعي للرعية، والصانع للآلة.
ثم قال:

وهو الذي، إذا عرفه الإنسان فقد عرف نفسه، وإذا عرف نفسه، فقد عرف ربه.
وأطال حجة الإسلام في هذا المعنى، على منهجه الصوفي. وشرح في ذلك معنى ما أشرت إليه، من أن مضغة الجسد إذا صلحت، صلح الجسد كله، وإذا فسدت، فسد الجسد كله، لأن القلب الذي في هذا الجسد، هو مصدر الخير والشر، لأنه أمير هذا الجسد، وأن الجوارح كلها مسخرة له، فهي له جنود. وقد تعرض حجة الإسلام لذكر هذه الجنود، وفصل وأطال، على طريقة أهل الله العارفين، فقال:

وله، أي للقلب، جندان؛ جند يرى بالأبصار، وجند لا يرى إلا بالبصائر، وهو في حكم الملك، والجنود في حكم الخدم والأعوان. ثم صار يذكر الجند المشاهد بالعين، فذكر من ذلك اليد والرجل، وسائر الأعضاء المعروفة. ثم أطال في الموضوع، مما يلذ في السماع، ويبين حالة الإنسان في الاجتماع. ثم قال في بيان حاجة الإنسان إلى هذين الجنديين، بعد أن أطال الكلام، مما هو معقول ومشاهد بالأبصار والجنان. قال: فافتقر لأجل ما ذكره إلى جندين، باطن، وهو الغضب الذي يدفع به المُهلكات، وينتقم من الأعداء، وظاهر، وهو اليد والرجل الذي بهما يعمل بمقتضى الغضب. وذلك كله بأمور خارجة.

ثم استمر في بيان هذا القلب الذي[هو] الملك في عالم الأجسام، ويستطيبه كل ذي لب موفق للاعتبار، فيما أبدعه الواحد القهار، الذي تعجز عقولنا القاصرة عن الإحاطة بسره في جهره وسره. وفقنا الله.

[تفسير قول النبي، عليه الصلاة والسلام: " ألا وَإنّ في الجسد مُضغة" الخ]

أما أهل الظاهر من العلماء،[فـ] فسروا هذا الحديث الذي قال فيه رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "ألا وإن في الجسد مضغة" الخ، كما سبق، فشرحوا هذه الفقرة بشرح مختصر مفيد واف بالمراد، فقال شارح " الأربعين النووية":

قال الحافظ المجتهد القدوة، شيخ الإسلام، ابن دقيق العيد، ما لفظه: في قول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: " ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت، صلح

الجسد كله" الخ، ثم فسر المضغة في اللغة، ثم قال: والقلب، في الأصل مصدر. وسمي به هذا العضو الذي هو أشرف الأعضاء، لسرعة الخواطر فيه، وترددها عليه. قال: وخص الله تعالى جنس الحيوان بهذا العضو، وأودع فيه تنظيم المصالح المقصودة؛ فتجد البهائم على اختلاف أنواعها، تدرك به مصالحها، وتميز به مضارها من منافعها. ثم خص الله نوع الإنسان، من سائر الحيوان، بالعقل، إضافة إلى القلب، فقال تعالى: (أفلَمْ يَسِيرُوا في الارض فتكُونَ لهُم قلوبٌ يَعْقلونَ بهَا أو آذانٌ يسْمَعُونَ بهَا)[*]، وقد جعل الله الجوارح مسخرة له ومطيعة. فما استقر فيه، ظهر عليها، وعملت على معناه، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر. فإذا فهمت هذا، ظهر لك قوله، صلى الله عليه وسلم: " ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت، صلح الجسد كله، وإذا فسدت، فسد الجسد كله، ألا وهي القلب". قال تقي الدّين داعيا - وأنا أدعو معه - : نسأل الله العظيم أن يصلح فساد قلوبنا. يا مقلب القلوب، ثبت قلوبنا على طاعتك.هـ[ص50].

ولا يخفى أن هذا الموضوع، الذي جرنا إليه، هو أن كل البشر عاجزون عن استكشاف ما غاب عنهم من الأسرار، وما في طيها مما لا يعلم حقيقته إلا الواحد القهار.

وخلاصة ما يستدعي الكلام عليه، هو ما أثاره هذا المبحث من تحقيق تفسير أربعة أسماء متقاربة في المعنى، متلازمة في الإفادة. وقد ترجم لها حجة الإسلام في " إحيائه" بقوله: (بيان معنى النفس والروح والقلب والعقل). وسألخص كلامه فيها فيما بعد، إن شاء الله.

قلت: وقبل أن نتفرغ لتلخيص ما قاله قدوة العلماء الأعلام، وعمدة أهل الظاهر والباطن من أئمة الإسلام، حجة الإسلام الهمام؛ أذكر ما قاله المطلعون من أهل الدراية والعرفان، في هذه الأمور الأربعة التي تتشارك في المعنى، وينفرد كل واحد منها بخصيصة في بعض الأعيان، فأقول:

[الكلام على الروح وما فُسِّرت به]

أول ما جرنا إليه هذا القول الواسع، وتتبع عوارضه بحسب الإمكان، هو الكلام على الروح التي نص الله في كتابه على أنها من أمره وسره،[وأنها]التي ليس للبشر سبيل إلى معرفة حقيقتها، إذ قال تعالى: (وَيَسْألونَكَ عَن الرّوح، قل الرّوحُ مِن أمْر رَبِّي، ومَا أوتِيتُم مِنَ العِلْم إلاّ قليلاً)،[الإسراء:85]؛ فنبدأ بذلك بقول أهل "التفسير"، ومُقدمهم في ذلك في "تفسيره"، فخرالدين الرازي، إذ قال، بعد وجه مناسبة ذكر هذه الآية، إثر قوله: (قلْ كُلٌ يَعْمَلُ عَلى شَاكِلَتِهِ)[الإسراء:84]:

---

[*] سورة الحج:46

للمفسرين في الروح المذكورة في هذه الآية أقوال. أظهرها أن المراد منه، الروح الذي هو سبب الحياة. وذكر سبب نزولها، وهو سؤال اليهود، كما هو مشهور. ثم ذكر بعض الأبحاث المتعلقة بالآية. ثم أطال في ذلك على عادته، رحمه الله. وليس لنا فيه غرض، لأنه إنما هي أبحاث وإيرادات عقلية فلسفية، ليس تحتها طائل صحيح يُعمل به. ثم ذكر الأقوال في تفسير الروح من هذه الآية، وأنها خمسة. وسبق له أنه قال: أظهرها أنها الروح التي تقوم بها الحياة. [مفاتيح الغيب:434/5].

قلت: وعلى هذا القول غالب المفسرين. منها قول الإمام ابن كثير: الأكثر عليه. وفي "الكشاف":

الأكثر على أنه الروح الذي في الحيوان. سألوه عن حقيقته فأخبر أنه من أمر الله، أي مما استأثر بعلمه. وعن أبي بريدة: لقد قضى النبي، صلى الله عليه وسلم، وما يعلم الروح.هـ[197/2].

ثم ذكر أقوالا ثلاثة فقط: وهو خلق عظيم أعظم من الملك، أو جبريل، أو القرآن. وهكذا فعل سائر أهل التفسير في سرد ما ورد من الأقوال، من ضعيف وسقيم، ولكن جمهورهم على ما يقتضيه سياق الآية من أنها الروح التي في الحيوان، وعليها جرينا فيما سبق.

وأجمع كلام رأيته في الروح، هو ما ذكره الراغب في "مفرداته"، إذ قال:

الروح؛ والروح في الأصل واحد. وجعل الروح اسما للنفس. قال: وذلك لكون النفس بعض الروح، كتسمية النوع باسم الجنس، نحو تسمية الإنسان بالحيوان، وجُعل اسما للجزء الذي به تحصل الحياة والتحرك، واستجلاب المنافع واستدفاع المضار، وهو المذكور في قوله: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرّوح، قُلِ الرّوحُ مِن أَمْرِ رَبِّي)،[الإسراء:85]،(وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحِي)[الحجر:29، ص:72]، وإضافته إلى نفسه إضافة ملك، وتخصيصه بالإضافة، تشريفا له وتعظيما، كقوله: (وَطَهِّر بيْتِيَ)،[الحج:26]، (ويَا عِبَادِي)،[العنكبوت:56 والزمر:53]، وسمى أشرف الملائكة أرواحًا نحو: (يَوْمَ يَقُومُ الرّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفاً)،[النبأ:38]،(تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرّوحُ)،[المعارج:4]،(نَزَلَ بِهِ الرّوحُ الأمِينُ)[الشعراء:193]؛ سمى به جبريل، وسماه بروح القدس في قوله: (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُس)،[النحل:102]،(وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُس)[البقرة:253-87]. وسمى عيسى، عليه السلام، روحا في قوله: (وَرُوحٌ مِنْهُ)[النساء: 171]؛ وذلك لما كان له من إحياء الأموات. وسمى القرآن روحا في قوله: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِن أَمْرِنَا)[الشورى: 52]؛ وذلك لكون القرآن سببا للحياة الأخروية الموصوفة في قوله: (وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ)[العنكبوت:64].هـ[المفردات،(بهامش النهاية لابن الأثير): 93/1].

وهذا الكلام البيّن الواضح، يوضّح لك أن ما ذهب عليه الأكثر من المفسرين، من أن الروح التي ذكرت في الآية، وهي المسؤول عنها، هي الروح التي بها تقوم نفس

الإنسان. وحاصل ما فيها من الأقوال المخالفة، إنما هي على سبيل المجاز، كما أوضحه هذا المحقق الرَّاغِب.

ولهذا ألغى المفسر الألوسي ما سوى ذلك من الأقوال، واعتمد قول الأكثر، قائلا: الظاهر عند المنصف، أن السؤال كان عن حقيقة الروح، الذي هو مدار البدن الإنساني، ومبدأ حياته، لأن ذلك من أدق الأمور التي لا يسع أحدا إنكارها، ويشرئبَ كل إلى معرفتها، وتتوفر دواعي العقلاء إليها، وتكلّ الأذهان عنها، ولا تكاد تُعلم إلا بوحي. ثم قال: والحق ما ذكرنا، وهو الذي عليه الجمهور، كما نص عليه في "البحر" وغيره.هـ[روح المعاني:140/15].

أما أهل الحقائق من أهل التصوف، فإنهم[تكلموا] في معنى الروح وسبَحوا في بحر الإشارات، التي تقصر عنها أفهام أهل الظاهر، السالكين مسالك الطرق الشرعية الواضحات، وعدم التعرض لما لا يفهم من تلك الإشارات، بشرط صدورها عن من له أهلية في هذا الباب، ورسوخ قدمه في الديانات. أما من شأنه التلاعب بالقواعد، والخروج عن اعتبار أصول الدين من الواجبات والمحرمات؛ فليتعرض له بالانتقاد، ويبين له مسالك الرشاد. والله المرشد إلى الحق ومهيع الصواب.

أما السيد الشريف الجرجاني، فإنه سلك في " تعريفاته" أولا مسالك أهل الظاهر، الذي لا يضل فيه من سلكه من ماهر وقاصر، فقال: الروح الحيواني جسم لطيف، منبعه تجويف القلب الجسماني، وينتشر بواسطة العروق الضوارب إلى سائر أجزاء البدن. ثم قال: الروح الأعظم، الذي هو الروح الإنساني، مظهر الذات الإلهية من حيث ربوبيتها. ولذلك لا يمكن أن يحوم حولها حائم، ولا يروم وصلها رائم. لا يعلم كنهها إلا الله تعالى، ولا ينال هذه البغية سواه.[ص77].

ثم صار يسبح في بحر العبارات الغامضة، التي أقف أنا ومثلي، حول حماها، ونُقرّ بالعجز عن تأويل فحواها. وحسبنا الكلام الواضح الدلالة، الذي منبعه الكتاب العزيز، وحديث صاحب الرسالة.

أما ما يتعلق بالآية الكريمة، التي هي محط نظرنا، ومقصد فهمنا، وهي قوله تعالى: (قُل الرّوحُ مِن أمْرِ رَبِّي) الآية،[الإسراء:85]؛ فقد اتفقت كلمة المحققين، كما سلف، أن هذه الروح هي الروح الحيوانية، وأنها من الأسرار الربانية التي عجز عن معرفة حقيقتها، وكيفية تصرفاتها، كل البشر. أما ما روي في تفسيرها من الأقوال، فقد بينه المفسر الراغب، وأنها كلها مجازية راجعة إلى الحقيقة الأولى. والله أعلم.

وقد ذكرت عن حجة الإسلام، أن الأسماء هنا أربعة: الروح، والقلب، والنفس، والعقل؛ وقد عقد لكل واحد منها مبحثا وأطال فيه، ومزج كلامه في تلك الألفاظ بمعان ظاهرة مفهومة، وأخرى اصطلاحات صوفية؛ مرجعها إلى أهل المنامات والإشارة.

وملخص ما عقد له في تلك الفصول الطويلة، ما قاله في أول المبحث، من عقد مبحث لكل الأسماء الأربعة. قال:

فإذاً قد انكشف لك أن معاني هذه الأسماء موجودة، وهي القلب الجسماني، والروح الجثماني، والنفوس الشهوانية، والعلوم؛ فهذه أربعة معان يطلق عليها الألفاظ الأربعة. ومعنى خامس، وهي اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان. والألفاظ الأربعة بجملتها يتوارد عليها؛ فالمعاني خمسة، والألفاظ أربعة، وكل لفظ أطلق لمعنيين. وأكثر العلماء قد التبس عليهم اختلاف هذه الألفاظ وتواردها، فتراهم يتكلمون في الخواطر، ويقولون: هذا خاطر العقل، وهذا خاطر الروح، وهذا خاطر القلب، وهذا خاطر النفس. وليس يدري الناظر اختلاف معاني هذه الأسماء. ولأجل كشف الغطاء عن ذلك، قدمنا شرح هذه الأسامي. وحيث ورد في القرآن والسنة لفظ القلب؛ فالمراد به المعنى الذي يفقه من الإنسان، ويعرف حقيقة الأشياء. وقد يكنى عنه بالقلب الذي في الصدر، لأن بين تلك اللطيفة وبين جسم القلب، علاقة خاصة، فإنها وإن كانت متعلقة بسائر البدن، ومستعملة له، ولكنها تتعلق به بواسطة القلب، فتعلقها الأول بالقلب، وكأنه محلها ومملكتها، وعالمها ومطيتها. هـ [إحياء علوم الدين:4/3].

[التوقف في الكلام على سِرّ الرّوح، لكونه،عليه الصلاة والسلام، لم يتكلم على ذلك]

قلت: وقد وقع الاختلاف في معرفة النبي، صلى الله عليه وسلم، لحقيقة هذه الروح التي أخبر الله في كتابه العزيز، أنها من أمره وسره، وأنها مكتومة عن غيره. وهو مقتضى الأمر السابق من أنه، عليه الصلاة والسلام، مات ولم يتكلم في شأنها. وهذا هو قول حجة الإسلام، لما تكلم عن القلب. وذكرنا فيما سلف جملة من ذلك، وأنه يعبر به عن معنيين. أحدهما: اللحم الصنوبري. والمعنى الثاني: هو اللطيفة الربانية الروحية التي لها بهذا القلب الجسماني تعلق. وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان. وهو المدرك العالم العارف،إلخ ما تقدم. قال حجة الإسلام: وقد تحيرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته، فإن تعلقه به، يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام، والأوصاف بالموصوفات، أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة. قال: وشرْح ذلك مما نتوقاه لمعنيين: أحدهما أنه متعلق بعلوم المكاشفة. قال: والثاني أن تحقيقه يستدعي إفشاء سرّ الروح، وذلك مما لم يتكلم فيه رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ فليس لغيره أن يتكلم فيه.هـ [الإحياء:3/3].

أما من ذهب إلى أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، علم حقيقة الروح، واستدلوا بالحديث الذي رواه الإمام أحمد وغيره، من أنه، صلى الله عليه وسلم، ما مات حتى أطلعه الله على كل شيء؛ فهذا، إن صحّ تنزيله على موضوعنا، فذلك لا

ينافي التعميم، لأنه يمكن أن يكون من خصائصه، عليه السلام، كما ورد في قوله تعالى: (عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أحَداً إلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَّسُولٍ)الآية[الجن: 26]، والله أعلم.

وإطالة الأبحاث في هذه المسألة، وتذييلها بالاحتمالات، وكثرة إيراد الأسئلة؛ لا ينبغي إطالة الاشتغال به. والأسلم ما جرى عليه كل المفسرين، أو غالبهم، من فهم الآية الكريمة على ظاهرها، من أن سر الروح من الأمور الخاصة به تعالى، وأنه لم يجعل للبشر إلى اطلاعه عليه سبيلا.

وهو الأمر الواقع، ومن لم يقف عند هذا الحد من المتقدمين والمتأخرين، ومن تكلم في ذلك، فكلامه شبه هذيان، وشيء غير معروف، وتسور على القول بما لا يدري معناه، وآثم قلبه بالتهجم على علم كتمه عنه ربه وأخفاه. فلنرجع إلى إسناد العلم في ذلك إلى عالم السر وأخفى، إذ هو المورد الأعذب الأصفى. والله يرشدنا إلى التسليم، حتى نلقاه، جل جلاله، بقلب مُسلّم لما خفي علينا، ومن داء التسوّر على معرفة الغيب سليم.

* * *

[الرجوع لتتميم الكلام على فتنة القول بخلق القرآن، وتأثير بدعة المعتزلة في وحدة الأمة]

ثم إن هؤلاء الجماعة المتعصبة للقول بخلق القرآن، إن كان مرادهم كلام الله، الذي هو صفته القديمة؛ فهؤلاء ينطبق عليهم ما أجاب به الإمام أحمد بأنهم كفار. وقد وردت في ذلك أحاديث وآثار مصرحة بمن قال إن القرآن مخلوق، هو كافر. ففي " التذكار" للإمام القرطبي، من حديث ابن مسعود، قال:

قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "القرآن كلام الله، عز وجل، غير مخلوق، فمن قال غير ذلك، فهو كافر بالله". وروى الأوزاعي عن أبي الدرداء، قال: قلت: يا رسول الله، القرآن مخلوق؟ فقال عليه السلام: "القرآن كلام الله غير مخلوق". وروى ابن لهيعة، عن قيس الثمالي عن أبي هريرة ، من حديث طويل، وفيه أن النبي، صلى الله عليه وسلم، صعد المنبر فقال: "أيها الناس: إن القرآن كلام الله، عز وجل، غير مخلوق، منه يخرج، وإليه يعود"، ثم قال: "ولكن سيأتي بعدي أقوام يزعمون أن القرآن مخلوق، وكذبوا؛ يلقون الله كذابين. فمن كذب على الله فقد كفر، وهو في النار". وروى نحو هذا عن كهمس. ثم قال القرطبي:

ذكر هذه الأحاديث بإسناده، الإمام الحافظ أبو نصر، عبيد الله بن سعيد بن حاتم الوابلي السجستاني، في كتاب " الإبانة" له، عن مذهب السلف الصالح في القرآن الخ. ثم ذكر عن عبد الله بن المبارك: سمعت الناس منذ تسعة وأربعين سنة،

يقولون: من قال إن القرآن مخلوق، فامرأته طالق ثلاثا بتّة. قلت: ولمَ ذلك؟ قال: لأن امرأته مسلمة، ومسلمة لا تكون تحت كافر. ثم ذكر ما رواه أبو حفص بن شاهين بسنده إلى مولى النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " إذا ذكر القرآن فقولوا: كلام الله غير مخلوق، ومن قال: مخلوق، فهو كافر". ثم ذكر عن أبي حفص أنه قال: هذا قول أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، رضي الله عنهم. وهو قول جماعة الصحابة والتابعين من أهل العلم. ثم قال القرطبي: ولا خالف هذه المقالة، إلا من عرف بسقوط العدالة والذم له واللعنة. هـ(*) قلت: أما إسناد تلك الأحاديث، فقد بُحث فيها من جهة اصطلاح أهل الحديث، والله أعلم.

قلت: واعلم أن هذه المسألة المشئومة، التي أول من أثارها، هم أهل الاعتزال. وقد علمتَ مما سبق، أن الذي تولى كبرها، وتحمل وزرها، هو ابن أبي دؤاد، يؤازره الخليفة المأمون العباسي. وهي كما قلنا، إن وقوعها في أوائل أمة الإسلام؛ كان من المصائب العظيمة التي فرقت جمعها، وأثارت أحقادها، وغرست أصول الافتراق بين أهلها، بعد الائتلاف والاتفاق؛ ففرقت عقائدها السالمة من الاختلاف، وصارت بطريقها الوحيدة المسالك طرائق قددا.

فأخذت دولتها العباسية في تفكك أعضاء مملكتها، وانقسمت مجموعة نظامها ونفوذ سطوتها، وتقاسمتها الثوار، وآل أمرها، بعد ثبوت صولتها، إلى ضعف وانهيار، كما هو مسطر في كتب التواريخ والأخبار.

أما أمر الدّين، فصار إلى ما أخبر به سيد المرسلين إلى أن هذه الأمة ستفترق، وأن عقد جمعها[سينفصم] وتختلف في عقائدها ولا تتفق. ولكن لا مرد لما يأتي به القدر، وفي ذلك عبرة لمن اعتبر وتدبر.

[تصدي كبار العلماء لتحليل مقالة
المعتزلة، والرد عليهم بالدلائل العقلية والنقلية]

ثم نرجع فنقول: إن هذه المسألة، لو وفق لفهمها علماء الأمة، وأزالوا عن قلوبهم وبصائرهم غشاوة التعصب المردي، وسلكوا مسالك النجاة، وهي مسالك الإنصاف والرجوع إلى الحق، لما استفحل أمرها.

ولكن بعض كبار العلماء من السنة المبرزين في معرفة الحق، المؤيد بالدلائل العقلية والنقلية في هذه العلوم، أحدثوا سلاحا لرد المبتدعين. ومن أكبرهم وأجلهم، وأعرفهم بالرد على المخالف، المجانب للحقيقة المجانف، السيد العضد الجرجاني، وسعد الدين التفتازاني، وأمثالهما؛ فإنهم حللوا المسألة تحليلا، لم يُبق للخصم فيه نقضا ولا تعليلا.

(*) كتاب " التذكار في أفضل الأذكار": ص8.

فإن من طالع كتاب "المواقف"، لعمدة أهل الكلام، عضد الدين الإيجي، وشرحه للمحقق في فن الكلام وغيره، الشريف الجرجاني، وقد لخص ما أطال به صاحب "المواقف" في الاحتجاج على المعتزلة، بأن الكلام الذي هو من صفاته، تعالى، غير مخلوق؛ إذ كلامه تعالى يعد من صفاته، وصفاتهم مصروف عنها صفات المخلوقين. وبين في ذلك وجه الخلاف بين أهل السنة والمعتزلة، وصدر في هذه الصفة بقوله في المقصد السابع من التقسيم، من المرصد الرابع في الصفات الوحدانية، فقال في المقصد المذكور:

"في أنه تعالى متكلم، والدليل عليه إجماع الأنبياء، عليهم السلام". ثم ذكر [أن المسلمين اختلفوا] وافترقوا في فهم معنى كلام الله تعالى، على أربع فرق: ففرقتان منهم، ذهبوا إلى صحة القياس الأول. وقدحت واحدة منهما في صغرى القياس الثاني. وقدحت الأخرى في كبراه. وفرقتان أخريان ذهبوا إلى صحة الثاني، وقدحوا في إحدى مقدمتي الأول، على التفصيل المذكور. قال:

" وإلى ما ذكرناه، أشار المصنف، رحمه الله، بقوله: ثمّ قال الحنابلة: كلامه حرف وصوت، يقومان بذاته، وأنه قديم. وقد بالغوا فيه، حتى قال بعضهم جهلا: الجلد والغلاف قديمان. وهذا باطل بالضرورة؛ فإن حصول كل حرف من الحروف، مشروط بانقضاء الآخر، فيكون له أول، فلا يكون قديما، فكذا المجموع المركب منها.

وقالت المعتزلة: كلامه تعالى أصوات وحروف، يخلقها الله في غيره، كاللوح المحفوظ، أو جبريل، أو النبي، وهو حادث. وهذا لا ننكره، بل نقول به، ونسميه كلاما لفظيا. ونعترف بحدوثه وعدم قيامه بذاته تعالى. لكنا نثبت أمرا وراء ذلك، وهو القائم بالنفس. ونزعم أنه غير العبارات، إذ قد تختلف العبارات بالأزمنة والأمكنة والأقوام. ولا يختلف ذلك المعنى النفسي بل يُدل عليه بالعبارة. وهو معنى قائم بالنفس، واحد لا يتغير مع تغير العبارات، ولا يختلف باختلاف الدلالات، وغير متغير. ونزعم أنه غير العلم، إذ قد يخبر الرجل عما لا يعلمه، بل يعلم خلافه، أو يشك فيه، وأن المعنى النفسي، الذي هو الأمر، غير الإرادة، لأنه قد يأمر الرجل بما لا يريد، كالمختبر لعبده، هل يطيعه أم لا".[شرح المواقف:8-91].

ثم استمر في "المواقف" للاستدلال على ثبوت الكلام النفسي، وعلى الأمثلة في ذلك، وعلى الإيرادات التي يوردها المخالف. وكل ذلك تعقلات لم تسفر عن محل النزاع بيننا وبين المعتزلة، الذي لو وقع الاتفاق فيه، لارتفع الخلاف.

<u>إذا عرفت هذا</u>؛ فاعلم أن ما تقوله المعتزلة في كلام الله تعالى، وهو خلق الأصوات والحروف الدالة على المعاني المقصودة، وكونها حادثة قائمة بغير ذاته تعالى، فنحن نقول به، ولا نزاع بيننا وبينهم في ذلك، وما نقوله نحن ونثبته من كلام النفس، فهم ينكرون ثبوته. ولو سلموه، لم ينفوا قدمه الذي تدعيه في كلامه تعالى؛ فصار محل النزاع بيننا وبينهم نفي المعنى النفسي وإثباته. فإذن، الأدلة الدالة على حدوث الألفاظ، إنما تفيدهم بالنسبة إلى الحنابلة القائلين بقدم الألفاظ.

ثم استمر في "المواقف"، في الرد على المعتزلة في مذهبهم، وإدحاض حججهم، وتأييد ما ذهب إليه أهل السنة، من الفرق بين التلاوة والمتلو، والقراءة والمقروء. وأطال في ذلك.

فهذه جملة مختصرة من "المواقف". وخلاصتها أن محط الخلاف بين أهل السنة والمعتزلة؛ أن أهل السنة يقولون: إن الألفاظ المكتوبة والمقروءة والمحفوظة في الصدور، هي حادثة مخلوقة، والمعنى المتلو، وهو كلام الله القديم الذي هو من صفاته، وصفاته تعالى، لا يعتريها وصف من صفات المخلوقات، التي يعتريها أوصاف المحدثات.

كلام صاحب " شرح العقائد النسفية"، هو خلاصة ما أطال به صاحب"المواقف"، وهو أحسن ما قيل في الموضوع]

ثم إن أحسن كلام في هذا الموضوع، هو ما حرره سعد الدين التفتازاني، في "شرح العقائد النسفية"، مع سلاسة العبارة، وتحرير المقام أتم تحرير.

وإكمالا لما جرّ إلينا الكلام في مسألة خلق القرآن، التي جرّت إلينا إطالة هذا المقال؛ نأتي بكلام السعد، فنقول:

قال السعد، عند قول النسفي: {والقرآن كلام الله تعالى غير مخلوق}، وعقب القرآن بكلام الله، لما ذكره المشايخ من أنه يقال: القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق، ولا يقال: القرآن غير مخلوق، لئلا يسبق إلى الفهم أن المؤلَّف من الأصوات والحروف قديم، كما ذهب إليه الحنابلة جهلا أو عنادا. وأقام غير المخلوق، مقام غير الحادث، تنبيها على اتحادهما، وقصداً إلى جري الكلام على وفق الحديث، حيث قال، صلى الله عليه وسلم: "القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق. ومن قال إنه مخلوق، فهو كافر بالله العظيم". وتنصيصا على محل الخلاف بالعبارة المشهورة فيما بين الفريقين، وهو أن القرآن مخلوق، أو غير مخلوق. ولهذا تُترجم المسألة، بـ(مسألة خلق القرآن).

وتحقيق الخلاف بيننا وبينهم، يرجع إلى إثبات الكلام النفسي ونفيه؛ وإلا، فنحن لا نقول بقدم الألفاظ والحروف، وهم لا يقولون بحدوث كلام نفسي. ودليلنا ما مرّ، أنه ثبت بالإجماع، وتواتر النقل عن الأنبياء، صلوات الله عليهم، أنه متكلم، ولا معنى له سوى أنه متصف بالكلام، ويمتنع قيام اللفظي الحادث بذاته تعالى، فتعين النفسي القديم. وأما استدلالهم بأن القرآن متصف بما هو من صفات المخلوق، وسمات المحدوث، من التأليف والتنظيم، والإنزال والتنزيل، وكونه عربيا مسموعا، فصيحا معجزا، إلى غير ذلك؛ فإنما يقوم حجة على الحنابلة، لا علينا، لأنا قائلون بحدوث التنظيم؛ وإنما الكلام في المعنى القديم. والمعتزلة، لمّا لم يمكنهم إنكار كونه

تعالى متكلما، ذهبوا إلى أنه متكلم، بمعنى إيجاد الأصوات والحروف في محالها، أو إيجاد أشكال الكتابة في اللوح المحفوظ، وإن لم يقرأ، على اختلاف بينهم. وأنت خبير بأن المتحرك من قامت به الحركة، لا من أوجدها، وإلا لصح اتصاف الباري بالأعراض المخلوقة له. تعالى عن ذلك علوا كبيرا. قال:

ومن أقوى شبه المعتزلة: أنهم متفقون على أن القرآن اسم لما نقل إلينا، بين دفتي المصاحف، تواترا. وهذا يستلزم كونه مكتوبا في المصاحف، مقروءا بالألسن، مسموعا بالآذان. وكل ذلك من سمات الحدوث بالضرورة. فأشار إلى الجواب بقوله: {وهو} أي القرءان، الذي هو كلام الله تعالى،{ مكتوب في مصاحفنا، محفوظ في قلوبنا، مقروء بألسنتنا، مسموع بآذاننا، غير حالّ فيها}، أي مع ذلك، ليس حالا في المصاحف، ولا في القلوب والألسنة والآذان. بل هو معنى قديم، قائم بذات الله تعالى، يلفظ ويسمع بالنظم الدال عليه، ويحفظ بالنظم المخيل، ويكتب بنقوش وصور وأشكال موضوعة للحروف الدالة عليه، كما يقال: النار جوهر محرق، تذكر باللفظ، وتكتب بالقلم. ولا يلزم منه كون حقيقة النار صوتا وحرفا. قال:

وتحقيقه أن للشيء وجودا في الأعيان، ووجودا في الأذهان، ووجودا في العبارة، ووجودا في الكتابة. والكتابة تدل على العبارة، وهي على ما في الأذهان، وهو على ما في الأعيان؛ فحيث يوصف القرآن بما هو من لوازم القديم، كما في قولنا: القرآن غير مخلوق؛ فالمراد حقيقته الموجودة في الخارج. وحيث يوصف بما هو من لوازم المخلوقات والمحدثات؛ يراد به الألفاظ المنطوقة المسموعة، كما في قولنا: قرأت نصف القرآن، أوالمخيلة، كما في قولنا حفظت القرآن، أوالأشكال المنقوشة، كما في قولنا: يحرم للمحْدث مسّ القرآن. ولما كان دليل الأحكام الشرعية، هو اللفظ، دون المعنى القديم؛ عرّفه أئمة الأصول بالمكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر.الخ.

ثم قال السعد: وأما الكلام القديم، الذي هو صفة الله تعالى، فذهب الأشعري إلى أنه يجوز أن يسمع، ومنعه الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايني. وهو اختيار أبي منصور، رحمه الله. فمعنى قوله تعالى: (حتَّى يَسْمَعَ كلامَ اللهِ): يسمع ما يدل عليه، كما يقال: سمعت علم فلان؛ فموسى، عليه السلام، سمع صوتا دالا على كلام الله تعالى. لكن، لما كان بلا واسطة الكتاب والملك، خُصّ باسم الكليم.هـ(*) كلام السعد. وهو كاف هنا، وإن كان السعد ذيله بإيرادات وأجاب عنها. وكذلك بسط ذلك أصحاب حواشيه.

ومضمن ما فصّله صاحب "المواقف"، والسعد في "شرح العقائد النسفية"، هو المعنى الذي استمر عليه المتأخرون، وصاروا إليه من غير تعقب ولا نظر. وهو واضح، إلا أن الإمام أحمد، رضي الله عنه، يمنع أن يقول بحدوث حتى قول: لفظي بالقرآن مخلوق، وهو واضح الجواز، سدًا للذريعة. ففي "شرح الرسالة"، للشيخ

(*) شرح العقائد النسفية: 82.

زروق، عند قولها: {وأنّ القرآن كلام الله ليس بمخلوق فيَبيد، ولا صفة لمخلوق فينفذ}، ما لفظه:

"وأكثر المتأخرين بحدوث الحروف والأصوات والكتابة الدالة عليه. وامتنع أحمد بن حنبل من هذا الإطلاق، فقيل له: قل لفظي بالقرآن مخلوق، فقال: لا أقول ذلك، ولا يسمع مني التلفظ بالخلق مع ذكر القرآن، حسما للذريعة، حتى لا يحتج به المبتدعة في القول بخلق القرآن. وصبر على ما أوذي في الله لأجل امتناعه، إذ سجن وضرب لأجل ذلك. ثم طرأت بعده فرقة ادعوا أن مذهبه قِدَم الحروف، وغلوا في ذلك، حتى قالوا: إن جلد المصحف وعلاقته قديمان".[1-35].

قلت: وهذا جهل عظيم لا يصدر إلا عن فاقد العقل أو معتوه، فضلا عن أن يقوله عالم. قال الشيخ زروق: قال الشيخ ناصر الدين: وكل معتقد أن القول بأن القرآن مخلوق، محرم، بخلاف قول القائل: قراءتي ولفظي بالقرآن مخلوق، كما ذهب إليه البخاري وأبو سعيد الكلاعي.[شرح الرسالة:1-35].

وقد قدمنا ذلك مفصلا، وأن القول بهذا لا خلاف فيه بين المعتزلة وأهل السنة. وسبق في ذلك أئمة علم الكلام كصاحب "المواقف" والسعد وغيرهم. ولا خلاف في ذلك بين المتأخرين.

قلت: وإن كان ما ذهب إليه المحققون من الفرق بين القول بأن المقروء مخلوق، وبين من قال: القراءة مخلوقة، وإن القول الأول هو ممنوع، والثاني ليس بممنوع، وهو ما سلف عن البخاري وغيره، وهو ما جاء في نظم أبي الحجاج،(الذي تقدم في آخر الجزء السادس من هذه"الفهرسة"). وإنما منع من قول الكل، لأن النبي، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه والسلف الصالح، لم يخوضوا في هذا المبحث، واتبعوا مقالة الرسول وأصحابه: القرآن غير مخلوق. وقد قدمنا ذلك مفصلا.

[علم الصحابة وفضلهم، ومعرفتهم بمدلول الألفاظ وحقائق الكلام]

وليس ذلك لجهل السلف للمعنيين، والجزم بمنع الكل، كما فعل الإمام أحمد، تورعا؛ وإلا فأصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كانوا أعلم بمدلول الألفاظ ومعانيها، وأدرى بحقائق الكلام ومجاريها.

ومن توهم أنهم قالوا بذلك، لجهلهم وقصور عقولهم؛ فلم يقدر قدر أصحاب رسول الله، عليه الصلاة والسلام، الذي علم علوم الأولين والآخرين. والذين توهموا هذا، لم يقرأوا ما ورد في شأنهم في القرآن الكريم: (وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ)الآية،[الفتح:29]، وقوله صلى الله عليه وسلم، في أوائل الإسلام، في الوفد الذي وفد إليه من المسلمين، ليعلمهم قواعد الدين، ثم سألهم، عليه السلام،

عما تخلقوا به قبل الإسلام، وأجابوا بجواب سرّه، عليه الصلاة والسلام، حتى قال لهم: علماء حكماء، كادوا من فهمهم أن يكونوا أنبياء؛ وهو عليه الصلاة والسلام، لا ينطق إلا بالحق. فهذا قوله في أعراب حديثي عهد بالإسلام، فما بالك بقوله، صلى الله عليه وسلم، في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، ومن ماثلهم. ويرحم الله الإمام البوصيري إذ يقول في حقهم:

أغنياءٌ نزَاهَة فقراءُ   علمـاءٌ أئمـةٌ أمـرَاءُ

فليخسأ الجاهل بأقدار هؤلاء العلماء النبلاء، الذين بلغوا علومهم عن خَاتم الأنبياء. وقال الأئمة من أهل الدين، الهادين المهتدين: كل علم لم يأت إلينا عن أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فهو غير مقبول.

وإنما جئناك بهذه المقالة، التي هي عند الأئمة المهتدين، من قبيل الضروري من أمور الدين؛ وليتيقن الجاهل بأن علومهم تفوق علوم الماضي والمعاصر، وليقرأ قوله تعالى: (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، والذِينَ معَهُ أشدَّاءُ علَى الكُفارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) إلى قوله: (لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ).

[الثناء على الصحابة في قول الله تعالى: (مُحمّدٌ رَسُولُ اللهِ والَّذِينَ مَعهُ) الآية]

وقال الإمام ابن كثير في " تفسيره": يخبر تعالى عن محمد، صلى الله عليه وسلم، أنه رسوله حقا بلا شك ولا ريب، فقال: (محمدٌ رسُول اللهِ). وهذا مبتدأ وخبر، وهو مشتمل على كل وصف جميل. ثم ثنى بالثناء على أصحابه، رضي الله عنهم، فقال: (والَّذِينَ مَعهُ أشِدَّاءُ عَلى الكُفَّار رُحَمَاءُ بَيْنَهُم)، كما قال عز وجل: (فَسَوْفَ يأتِي اللهُ بقَوْم يُحِبّهُمْ ويُحبّونَهُ أذِلَّةٍ على المُؤمِنينَ أعِزَّةٍ على الكَافِرِينَ)، وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديدًا عنيفًا على الكفار، رحيمًا برًا بالأخيار، غضوبًا عبوسًا في وجه الكفار، ضحوكًا بشوشًا في وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالى: (يَأيّهَا الّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّار ولْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً)[التوبة:123].

وقال النبي، صلى الله عليه وسلم: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم، كمثل الجسد الواحد: إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر". وقال صلى الله عليه وسلم: "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضا"، وشبك، صلى الله عليه وسلم، بين أصابعه؛ كِلا الحديثين في الصحيح. وقوله سبحانه وتعالى: (تَرَاهُم رُكعاً سُجّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً)؛ وصفهم بكثرة العمل، وكثرة الصلاة، وهي خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها لله، عز وجل، والاحتساب عند الله تعالى جزيل الثواب، وهو الجنة المشتملة على فضل الله، عز وجل، وهو سعة الرزق عليهم، ورضاه تعالى عنهم. وهو أكبر من الأول، كما قال جل وعلا:

(وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَر)، وقوله جل جلاله: (سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِن أَثَر السَّجُودِ). فعن ابن عباس: يعني السمت الحسن. وعن مجاهد وغير واحد: الخشوع والتواضع.

ثم ذكر ابن كثير أقوالا أخر في تفسير هذه السيما. ثم روى حديثا عن ابن ماجه عن جابر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "من كثرت صلاته بالليل، حسُن وجهه بالنهار". ثم قال: والصحيح أنه موقوف.

ثم قال ابن كثير: وقال بعضهم: إن للحسنة نورا في القلب، وضياء في الوجه، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الناس. ثم ذكر عن سيدنا عثمان، رضي الله عنه، أنه قال: ما أسرّ أحد سريرة، إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفلتات لسانه. قال ابن كثير: والغرض أن الشيء الكامن في النفس، يظهر على صفحات الوجه؛ فالمؤمن، إذا كانت سريرته صحيحة مع الله تعالى، أصلح الله تعالى ظاهره للناس، كما روي عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أنه قال: من أصلح سريرته، أصلح الله تعالى علانيته. ثم روى حديثا عن جندب بن سفيان، رضي الله عنه، قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: "ما أسرّ أحد سريرة، إلا ألبسه الله رداءها، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر". ثم ذكر بعض الآثار من هذا المعنى، ثم قال:

فالصحابة، رضي الله عنهم، خلصت نياتهم، وحسنت أعمالهم. فكل من نظر إليهم، أعجبوه في سمتهم وهديهم. وقال مالك، رضي الله عنه: بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة، رضي الله عنهم، الذين فتحوا الشام، يقولون: والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا. وصدَقوا في ذلك؛ فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة. وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم. وقد نوه الله تبارك وتعالى بذكرهم في الكتب المنزلة، والأخبار المتداولة. ولهذا قال تعالى: (ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ)، ثم قال: (وَمَثَلُهُم فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ)، أي فراخه،(فَآزَرَهُ)، أي شده،(فَاسْتَغْلَظَ)، أي شبّ وطال، (فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ) أي فكذلك أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، آزروه وأيدوه ونصروه؛ فهم معه كالشطء مع الزرع، (لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّار). ومن هذه الآية، انتزع الإمام مالك، رحمة الله عليه، في رواية عنه: تكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة، رضي الله عنهم، لأنهم يغيظونهم. ومن غاظ الصحابة، رضي الله عنهم، فهو كافر لهذه الآية. ووافقه على ذلك طائفة من العلماء، رضي الله عنهم. وكذلك الأحاديث في فضل الصحابة، رضي الله عنهم، والنهي عن التعرض لمساوئهم كثيرة. ويكفيهم ثناء الله عليهم ورضاه عنهم.

ثم قال تبارك وتعالى: (وَعَدَ اللهُ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ)، من هذه، لبيان الجنس،(مَغْفِرَةً)، أي لذنوبهم، (وأجْراً عَظِيماً)، أي ثوابا جزيلا ورزقا كريما. ووعد الله حق وصدق؛ لا يخلف ولا يبدل.

وكل من اقتفى أثر الصحابة، رضي الله عنهم، فهو في حكمهم. ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة. رضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل جنات الفردوس مأواهم، وقد فعل. قال مسلم في صحيحه: حدثنا يحيى بن يحيى، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "لا تسبّوا أصحابي. فو الذي نفسي بيده؛ لو أن أحدكم أنفق مثل أحُد ذهبًا، ما أدرك مُدّ أحدهم ولا نصيفه". هـ[203/4].

ولا يخفى ما في هذه الآية الكريمة من التنويه بقدر أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الذي لا تنويه فوقه، ولا إشادة بذكر أوصافهم أكبر من هذه الإشادة.

وفيها ما لا يخفى من تنبيه كل مؤمن، معاصر لهم أو يأتي بعدهم، أن يقتدي بهم، ويتحلى بحلاهم، لأن هذه الأوصاف الجليلة، بها يحفظ المؤمن الحقيقي إيمانه، ويشد عضده وعضد إخوانه من المسلمين، ويكتسب عزه وعز دولته، ويحرسها من الأعداء، ويدفع بها كيد الكائدين، مع القيام بحقوق ربه، والقيام بقواعد دينه، مع شدة الإخلاص في أعماله، والتوجه إلى ربه، وابتغاء فضله ورضوانه، مع اتخاذ الأسباب الدافعة عنه مكر الأعداء، وتفريق أهل الأهواء. وليتخذ أساس ذلك التراحم والتحابب مع إخوانه المؤمنين، حتى يكون الجميع منهم كالجسد الواحد، إذا اشتكى فيه عضو تألم سائر الجسد، وكالبنيان المرصوص؛ يشد بعضه بعضا.

ولكن، أين نحن من هذه الأوصاف، فقد[تبدلت] الشدة مع الأعداء لينا وارتخاء، بل وانقيادا لهم في كل حال من الأحوال؛ فألقينا السلاح، وآثرنا الراحة وشرب الراح، وقلدناهم في أعمالهم الضارة بديننا، ولا تنفعنا في دنيانا، واقتدينا بهم في اتخاذ الملاعب والمضحكات الجالبة لهتك الحرمات، واختلاط النساء بالرجال في المجتمعات.

وبالجملة؛ فقد أصبح اليوم جمهور الأمم التي تنسب للإسلام، تهدم قواعد دينها، وتهزأ به، وتقلد الأجانب في الأخلاق المذمومة حتى عند أهلها، وترمي بأخلاقها التي هي من أساس دينها إلى ما يرديها وينزلها من أعلى المحاسن والأخلاق، التي كان عليها آباؤها وأجدادها، إلى أسفل سُفل، وأقبح وصف؛ يتبرأ منه حتى أعداؤها.

ولم يكتف هذا الجمهور المتخلي عن تلك الأخلاق الحميدة، وإبدالها بكل صفة رذيلة؛ بل صار يستصغر ما كان عليه الصدر الأول في دولة الإسلام، ويستقصرهم في المعارف والعلوم، ويحتقر كل ما أسسوه من التقدم في ميادين العزة والاستعداد بالنفس والقوة،[لمواجهة] ما عسى أن يطرأ من الأعداء من الهجوم.

[الرد على من يصف العصور الأولى للإسلام بالجهالة والقصور وسوء التدبير]

فلينظر هؤلاء الجاهلون في أعمال العصر الأول، الذي هو الأساس الصحيح الذي صار عليه من جاء بعدهم، وعلى أساسه المعول، وليبدأ بمعرفة الخلفاء الأربعة، وما كانوا عليه من المعارف الدينية، والدراية الدنيوية، من تدبيرهم أمور دولتهم، ورقيهم بالسعي في تثبيت أقدامهم.

وليكن تأمّلكَ فيما قاله الخليفة الثاني، وهو عمر بن الخطاب، العالي المقدار، الذي فتح الأقطار والأمصار.

وانظر إلى ما كانت عليه جيوش الفتح من الاتحاد والالتئام، والشجاعة والإقدام، مع الاتصاف بالأخلاق السامية، والاتسام بالشيم الإسلامية العالية، من التآلف والتوافق، والانقياد لرؤسائهم، مع وفاء العهود، واجتناب التنازع، وملازمة الحدود، والنزاهة عن الغلول في الغنائم، وعدم بذل الرشا التي تعد من أكبر الجرائم.

ولقد كان القائد من قواد الجيوش العظيمة، التي تستولي على النواحي الواسعة، ويحصل الظفر بها وبأهلها، يعاملهم بعد الاستيلاء بأحسن المعاملة، بعد الدخول تحت الذمة والطاعة. كما تعامل أهل الإسلام بإجراء العدالة والإنصاف، دون إجرائهم مجرى الممالك الضعاف، كما هو الحكم في الإسلام؛ فيأتي رئيس الناحية المحتلة بهدايا فاخرة، فيقصد بها رئيس الجيوش الظافرة، فيقبلها منه على أنها من جملة الغنائم التي تضاف لبيت المال، فيعارضه ذلك الرئيس، صاحب الهدية، ويقول له: أنا قصدت بها شخصك، فيرد[عليه] رئيس الجيوش، ويقول له ما معناه: إما أن أضيفها إلى الغنائم العامة، أو خُذ هديتك! فتعجب رئيس تلك الناحية إذ ذاك، وقال له: والله لو بقيتم على هذه الحالة، ما غلبكم غالب، ولا استولى عليكم محارب، أو كلاما هذا معناه. ووقع هذا في ناحية من نواحي العراق، فيما أظن.

فليعتبر اليوم المعتبر، وليرجع عن نظره القاصر، وليعتقد أن تلك العصور التي يعدها أنها كانت عصور جهالة وقصور، هي عصور تقدم وظهور، وحضارة مؤسسة على قواعد العدالة والإنصاف في أحكامها بين الغالب والمغلوب.

[سيرة الخليفة سيدنا عمر بن الخطاب في قيادة الأمة وتدبير شئونها]

فهذا أمير المؤمنين، ذو السطوة العظيمة، والمكانة المكينة الذي جمع ـ بسعادة أقدامه، وثبوت إقدامه، ونظامه العسكري، وصرامته في حسن سياسته، من غير أن يماري أو يداري، سيدنا عمر بن الخطاب ـ في فتوحه بين الشرق والغرب، شملت إيالته من أقصى العراق إلى[أن] اخترق إفريقية، واحتلت جيوشه المظفرة مصر

وبرقة إلى طرابلس الغرب، في هدوء وسكون، رغم تباعد الأقطار، وانقطاع أسباب المواصلات، إذ لم تكن لديه طائرة ولا سيارة إلا الجمل والحمار، والخيول المسومة والرماح والسيوف، وثبات قلوب الجيوش التي، لشدة إيمانها وصدقها في الحروب، كانِ الألف منها بمنزلة الآلاف.

[توجيهاته للعمال ورؤساء الجيش، واستطلاع أحوالهم]

ثم هو، رضي الله عنه، كان مقامه الحجاز، وهو يكتب لعماله ورؤساء حربه في كل حين، يستطلعهم عن أحوالهم، وعن حِلهم وترحالهم، ويأمرهم بالعدالة بين الناس، وعدم إجراء الظلم عليهم، ويحضهم على أنه، إن عرضت لهم مشكلةٍ، وعجزوا عن حلها، فليرفعوها إليه، ليرشدهم إلى ما فيه حلّها.

ومن كتابته وقراراته التي يوجهها إليهم كل حين؛ يظهر لك بُعد همة هذا الرجل العظيم. ومن كتبه إلى الجيش، وخطبه العامة التي كان يلقيها يوم الجمعة؛ تعرف - مما نقلناه - ما كان لهذا الإمام، من الاهتمام بأمر الأمة، وتدبير وظائفها الحربية والدينية، أحسن تدبير ونظام، مما هو أرقى من كل نظام، حتى في هذا العصر، الذي يحسبه الجاهل أنه أرقى من عصر البداوة والتأخر والجهالة، وأن أهله كانوا أبعد الناس عن الحضارة والرقي.

فمن رسائله إلى قواد الجيش، رسالته إلى أبي عبيدة بن الجراح، لما استعمله على جند خالد بن الوليد، لما عزله عنه:

(.. فقُم بأمرهم الذي يحق عليك؛ لا تقدم المسلمين إلى هلكة، رجاء غنيمة، ولا تنزلهم منزلا قبل أن تختبره لهم، وتعلم كيف مأتاه. ولا تبعث سرية إلا في كثف من الناس. وإياك وإلقاء المسلمين في الهلكة. وقد أبتلاك الله بي، وابتلاني بك، فأغمض بصرك عن الدنيا، وأله قلبك عنها. وإياك أن تهلكك، كما أهلكت من كان قبلك؛ فقد رأيت مصارعهم)، هكذا نقل في "تاريخ" الطبري.[أشهر مشاهير الإسلام: ص453].

ومن رسالة أخرى له: (.. وقد وليتك أمور المؤمنين، فلا تستح، فإن الله لا يستحي من الحق. وإني أوصيك بتقوى الله العظيم، الذي لا يفنى، ويفنى سواه، الذي استخرجك من الكفر إلى الإيمان، ومن الضلالة إلى الهدى. وقد وليتك على جند خالد، فاقبض الجيش منه، ولا تنفذ المسلمين إلى الهلاك رجاء غنيمة)، إلى غير ذلك من الوصايا.

ومن كتاب له أيضا، وهو عن جواب لأبي عبيدة عما كتبه إليه من الفتوح في نواحي حلب من الشام:

(.. وأما ما ذكرت من انصرافك عن قلعة حلب، إلى النواحي التي قربت من أنطاكية، فهذا بئس الرأي. أتترك رجلا ملكت دياره ومدينته، ثم ترحل عنه، وتسمع

أهل النواحي والبلاد بأنك ما قدرت عليه!؟ فما هذا رأي، فيضعف رأيه، ويعلو ذكره بما صنع، ويطمع من لم يطمع، فترجع إليك الجيوش، وتكاتب ملوكها. فإياك أن تبرح حتى يحكم الله، وهو خير الحاكمين؛ فبث الخيل في السهل والسعة، واكففها في المضائق والجبال، ومن المعدات إلى حد الدروب. ومن صالحك منهم، فاقبل صلحه، ومن سالمك فسالمه. والله خليفتي عليك وعلى جميع المسلمين).[ص454].

وهكذا كان شأنه في تدبير الجيوش في الحروب وغيرها، والاستطلاع على أحوالها، وإرشاد قوادها إلى المنهج الأقوم، والطريق المؤدي للظفر، إذا آنس منهم خطأ أو انحرافا. فكان، رحمه الله، قائما مقام وزير الحرب، بل كان بمنزلة القائد العام المفوض إليه أمر الحرب وتدبير الجيش.

[حرصه بعد الانتصار على إقامة العدل بين الناس، وعهده لأهل إيلياء(القدس) في حفظ حقوقهم الدينية والدنيوية]

ثم كان مع هذا، إذا انتصر في غارة، واستولى على قطر؛ عامل أهله معاملة حسنة، فأقامهم على ديانتهم، وأقرّهم في ديارهم وفي أموالهم، ولم يكلفهم مالا يطيقون. إنما يفرض عليهم أداء يسير من المال، في مقابلة المحافظة عليهم وعلى أموالهم وأولادهم.

ويدُلك على ذلك؛ نصّ العهد الذي ذكره الطبري في "تاريخه"، إذ قال لأهل إيلياء لما استولى الجيش عليها:

(بسم الله الرحمان الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر، أمير المؤمنين، أهل إيلياء، من الأمان. أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها، وسائر ما بها؛ أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صلبهم، ولا من شيء من أموالهم. ولا يكرهون على دينهم، ولا يُضار أحد منهم، ولا يسكن أحد بإيلياء معهم من اليهود. وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يُعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا الروم واللصوت(*)؛ فمن خرج منهم، فإنه آمن على نفسه وماله، حتى يبلغوا مأمنهم. ومن أقام منهم، فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية. ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلي بيعهم وصلبهم، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم. ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان؛ فمن شاء منهم قعد، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية. ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله؛ فإنه لا يؤخذ منهم حتى يحصد حصادهم. وعلى ما في هذا

(*) (اللصت): اللصّ، ج: لصُوت. قاله في المنجد. أ م.

الكتاب، عهد الله وذمة رسوله، وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية. شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاصي، وعبد الرحمان بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان. وكتبَ وحضر سنة خمسة عشر). هـ من"تاريخ" ابن جرير الطبري.[159/4].

فلينظر من يرى أن هذه العصور من عصور الظلمة والجهالة، وليقس كيف كان استعمار الإسلام، وكيف كان عدلهم مع أهل الأقطار التي احتلوها وملكوها، من الإحسان والرفق في المعاملة؛ وقِسْه مع الاستعمار الآن، وقساوتهم مع من احتلوه وأخذوه ظلما، وإخراجهم للناس من أراضيهم وديارهم بغير حق؛ تعلم بهذا جهل أهل العصر بحضارة ورفق أهل العصور السابقة.

هذا حال الخليفة العظيم، الذي شملت أخباره عدالته، ومعرفته بتدبير أمور دولته، من حرب وسلم، وسهره على تدبير أمور أمته، وإقامة مصالحها، مما يعجز[غيره]عن إقامتها كما أقامها هذا الخليفة الكبير، الوحيد في معرفته، وسعيهُ لترقية دولته، وتقديمها على غيرها من الدول الراقية في عصره.

هذا من جهة تدبير الجيوش، وتربية القواد، وحملهم على مناهج الإصلاح والرشاد، ومراقبة أحوالهم في كل حين وآن.

أما من جهة أخرى، فهو رئيس الحكومة، يسير بها سير التقدم في كل الميادين، من إرشادهم إلى تعليم أبنائهم العلوم، وحثهم على التكاثر منها، إذ كان هو العالم المتقدم في كل العلوم؛ وناهيك بقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فيه، فيما رآه في النوم، ورؤيا الأنبياء حق، أن عبد الله بن عمر قال: سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: "بينا أنا نائم، أتيت بقدح من لبن، فشربت حتى إني لأرى الرّيّ يجري في أظافيري، ثم أعطيت فضله عمر"، قالوا: فما أولت ذلك؟ قال: "العلم". رواه ابن سعد في "طبقاته"، ورواه البخاري في صحيحه.

وروى أيضا في "الطبقات"، عن عائشة، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: "ما من نبي إلا في أمته معلم أو معلمان. وإن يكن في أمتي أحد، فابن الخطاب. إن الحق على لسان عمر وقلبه".[335/2].

وفيها عن رجل من أهل المدينة، قال: دفعت إلى عمر، فإذا الفقهاء عنده مثل الصبيان؛ قد استعلى عليهم في فقهه وعلمه.

ومن "الطبقات" المذكورة، عن عبد الله بن مسعود، أنه قال: لو وضع علم أحياء العرب في كفة، وعلم عمر في كفة، لرجح بهم علم عمر. فقال الأعمش: فحدثت بهذا الحديث إبراهيم فقال: قال عبد الله: إنْ كنّا لنحسب عمرَ قد ذهب بتسعة أعشار العلم.هـ[336/2].

ولم يكن هذا الخليفة الجليل، يكتفي بهذه العلوم المأثورة، والآثار المنشورة. بل كان له المقام الأعلى في التضلع من سائر العلوم؛ فإنه كان جهينة الأخبار في سائر المعارف والآثار، زيادة على ما سبق من العلوم الحربية، والسياسات التي يحمي بها

بلاد الأمة ويزيد في اتساعها، وقوة سكانها، وبث ما يكون سلاحا لها في تقدمها وشهرة أركانها.

[إرشاده لعماله وحثهم على العناية بالتعليم، والتربية البدنية، والعدل، والتواضع]

ولهذا كان يكتب إلى عمال الأمصار بما يمكنهم من القوة، والاستعداد للطوارئ لرد أعدائهم؛ فقد كتب إلى سائر عمال الأمصار ما لفظه:

(أما بعد؛ فعلموا أولادكم العلوم، والفروسية، وارووُهُم ما سار من المثل، وحَسُن من الشعر). وقال: (لا تزال العرب أعزة، ما نزعت في القوس، ونزَت في ظهور الخيل).

وكتب إلى عامله أبي موسى الأشعري، وهي أوامر سياسية، وتهديدات شرعية، وأوامر فيها إرشادات يأمر بها كل عماله، إذ يقول:

(أما بعد؛ فإن للناس هزة عن سلطانهم، فأعوذ بالله أن يدركني وإياك عمياء مجهولة، وضغائن محمولة، وأهواء متبعة، ودنيا مؤثرة؛ أقم الحدود، واجلس للمظالم ولو ساعة من نهار. وإذا عرض لك أمران: أحدهما لله، والآخر للدنيا؛ فابدأ بعمل الآخرة، فإن الدنيا تفنى والآخرة تبقى. وكن من مال الله، عز وجل، على حذر، واجف الفسّاقَ واجعلهم يدًا ويداً، ورجلا ورجلاً. وإذا كانت بين القبائل ثائرة، يا فلان يا فلان؛ فإنما تلك نجوى الشيطان، فاضربهم بالسيف حتى يفيئوا إلى أمر الله، ويكون دعواهم إلى الله وإلى الإسلام). ثم قال:

(وعدْ مرضى المسلمين، واشهد جنائزهم، وافتح لهم بابك، وباشر أمورهم بنفسك، فإنما أنت رجل منهم، غير أن الله قد جعلك أثقلهم حملاً. وقد بلغني أنه فشا لك ولأهل بيتك، هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك، ليس للمسلمين مثلها! فإياك يا عبد الله بن قيس، أن تكون بمنزلة البهيمة التي مرّت بواد خصيب فلم يكن لها همة إلا السمن، وإنما حظها من السمن لغيرها. واعلم أن للعامل مردًا إلى الله؛ فإذا زاغ العامل، زاغت رعيته. وإن أشقى الناس، من شقيت به نفسه ورعيته) هـ[شرح نهج البلاغة:94/3].

هذا بعض ما في كتبه لعامله أبي موسى الأشعري، وهو مرسوم عام في بيان الخطة التي كان يخطها لسائر عماله. وله في ذلك كتب أخرى، ومدارها على الأمر باتباع العدالة والإنصاف، وحملهم أهل ولايتهم على الاتصاف بأجمل الأوصاف، التي تعلي الشعب وترقيه إلى المراتب العليا في الدين، من محاسن الأخلاق والمحافظة على مصالح الدنيا.

وكل ذلك يدُلك على ما كان عليه الصدر الأول من هذه الأمة الإسلامية. فما يقوله جهالنا اليوم، إن هذا الصدر كان خلوا من كل رقيّ وحضارة!؟. وأي حضارة أعظم من هذه الأوصاف، وأي رقي أرقى من هذه العدالة والإنصاف.

أما عدالة هذا الإمام، ومعارفه العظيمة التي كان يسير بها في الأمة نحو المقام الأعلى؛ فذاك يعرفه الخاص والعام، وينوه به كل خبير من الاطلاع والدراية من أهل الإسلام.

ويعجب من سيرته وحسن تدبيره، في حربه وسلمه، وترتيب جنوده وعماله، ودهاء أعماله في خروجه وفتوحاته؛ الأجانب الخارجون عن الإسلام. ولقد كفانا فيما[نحن بصدده]، وحقق المقام، صاحب كتاب "أشهر مشاهير الإسلام"، فكفانا وكفى غيرنا[ممن] كان يعد العدة لخوض بحر ترجمة هذا الخليفة العظيم، الذي هو مثال كفيل بعظمة خلفاء وأمراء ذاك العصر، الذي يسميه الجهال أنه عصر التأخر والانحلال.

[نماذج من نصائحه العامة، ومنها ما هو في معنى الرفق بالحيوان]

أما نصائحه، رضي الله عنه، العامة، ورقائق حكمه التي تقع في القلوب المواقع المؤثرة التي تنشرح لها الصدور، وتملأها انشراحا واشتياقا إلى التجارة التي لن تبور؛ فهي كثيرة.

فمن كلامه، رضي الله عنه: من عرض نفسه للتهمة، فلا يلومَن من أساء به الظن. ومن كتم سره، كانت الخيرة بيده. ضع أمر أخيك على أحسنه، حتى يأتيك منه ما يغلبك. ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك المسلم شرا، وأنت تجد لها في الخير محملا. وعليك بإخوان الصدق وكيس أكياسهم؛ فإنهم زينة في الرخاء، وعدة عند البلاء. ولا تتهاون بالخلق، فيهينك الله، ولا تعترض بما لا يعنيك، واعتزل عدوك، وتحفظ من خليلك إلا الأمين، فإن الأمين من الناس، لا يعادله شيء. ولا تصحب الفاجر، فيعلمك من فجوره، ولا تفش إليه سرك. واستشر في أمرك أهل التقوى. وكفى بك عيبا أن يبدو لك من أخيك، ما يخفى عليك من نفسك، وأن تؤذي جليسك بما تأتي مثله؛ إلى غير ذلك من الوصايا والحكم النافعة في الدين والدنيا.[شرح نهج البلاغة: 94/3].

ومن هذا الباب، وفيه معنى الرفق بالحيوان، ما رواه الأحنف، قال: قدمنا على عمر بفتح عظيم نبشره به، فقال: أين نزلتم؟ قلنا: في مكان كذا. فقام معنا، حتى انتهينا إلى مناخ ركائبنا، وقد أضعفها الكلال، وجهدها السير، فقال: هلا اتقيتم الله في ركائبكم هذه؟! أما علمتم أن لها عليكم حقا؟! هلا أرحتموها؟! هلا حللتم فيها، فأكلت من نبات الأرض؟! فقلنا: يا أمير المؤمنين. إنا قدمنا بفتح عظيم، فأحببنا التسرع إليك وإلى المسلمين بما يسرهم.[شرح نهج البلاغة:96/3].

أما الزهد في الدنيا والتباعد عن محاسنها وزهرتها، والنظر واستصغار ما يروق ويفتتن من زينتها، ورغبة الخلق إلى اقتناء نفائس حللها وحليتها؛ فذاك كان مشهورا من حاله، إذ لم يكن يخطر حب الدنيا بباله.

فقد أرسل سعد بن أبي وقاص[إليه] في فتح القادسية، حلية كسرى وسيفه ومنطقته، وغير ذلك مما كان في ذلك العصر من الأمر العجيب، واحتواء ذلك على كل ثمين من الجواهر والحلي الذي لا يتفق أن يكون إلا عند كبار الملوك. ولكن أمير المؤمنين قابله بالاحتقار، وقال: اللهم إنك منعت هذا لنبيك ورسولك، وكان أحب إليك مني وأكرم، ومنعته أبا بكر، وكان أحب إليك مني وأكرم، ثم أعطيتنيه، فأعوذ بك أن تكون أعطيتنيه لتمكر بي. ثم بكى، حتى رحمه من كان عنده، وقال لعبد الرحمان بن عوف: أقسمت عليك لما بعته، ثم قسمته قبل أن تمسي. فما أدركه المساء إلا وقد بيع، وقسم ثمنه على المسلمين.

ووجه بتاج كسرى إلى عمر، فاستعظم الناس الجواهر التي كانت عليه، فقال: إن قوما أدّوا هذا لأمناء. فقال علي، عليه السلام: إنك عففت فعفوا، ولو رتعت لرتعوا.

ومن كلامه في الزهد، ما رواه في " الحلية" بسنده، عن هشام بن عروة أنه قال: قال عمر في خطبته: تعلمون أن الطمع فقر، وأن اليأس غنى، وأن الرجل إذا يئس من شيء استغنى عنه.[50/1].

وروى بسنده عن عامر الشعبي قال: قال عمر بن الخطاب: والله لقد لان قلبي في الله، حتى لهو ألين من الزبد. ولقد اشتد قلبي في الله حتى لهو أشد من الحجر. وروى أيضا عن عون بن عبد الله بن عتبة، قال: قال عمر بن الخطاب: جالسوا التوابين، فإنهم أرق شيء أفئدة. وروى أيضا عن سفيان بن عيينة بن أبي خالد قال: قال عمر بن الخطاب: كونوا أوعية الكتاب، وينابيع العلم، وسلوا الله رزق يوم بيوم.[الحلية: 51/1]. إلى غير ذلك مما يدل على إقباله على ربه، وامتلاء قلبه بحبه. ولم تشغله هذه الإمارة بجمالها، ولم يبال، لزهده في الدنيا، بإدبارها وإقبالها.

وكل هذا كان شأن الصحابة الكرام، كما سبق في ذكر الآية التي مدحهم الله بها. وهي كافية في تعظيم ما منحهم الله من الرفعة وعلو المقام. وسيأتي زيادة في ذلك في ترجمة سيدنا علي بن أبي طالب.

ثم إن ترجمة أمير المؤمنين، سيدنا عمر بن الخطاب، هي واسعة الأطراف؛ فالإحاطة ببعضها، في هذه الجملة الاستطرادية، من العسير. وإنما جئنا بهذا النزر اليسير، لمجرد تنبيه الغافل من أهل هذا العصر، الذي يجهل مقام هذا الإمام العظيم، وأمثاله الخلفاء الراشدين، وأمثاله من صحابة الرسول. وناهيك في ذلك قوله تعالى: (مُحمّدٌ رسولُ اللهِ والذينَ معَهُ) الآية التي تقدم الكلام عليها؛ إذ لم يفارق، صلى الله عليه وسلم، هذه الدار، حتى ترك الأمة على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها في الصفاء، بما بثه في أصحابه من المعارف والعلوم، إذ يقول فيهم: " أصحابي كالنجوم". وقدم في حياته، صلى الله عليه وسلم، أفرادا، وخصهم بمعارف من

معارفه، عليه السلام، فقال في الخلفاء، كما رواه ابن سعد عن حذيفة، قال: كنا جلوسا عند النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: " إني لست أدري ما بقائي فيكم، فاقتدوا بالذين من بعدي - وأشار إلى أبي بكر وعمر - واقتدوا بهدي ابن عمار، وتمسكوا بعهد ابن أم عبد". وروى أيضا عن القاسم بن محمد قال: كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، يفتون على عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم. وزاد في شأن سيدنا عمر، ما نوه به أكابر الصحابة بعلمه، مما تقدم بعضه، من ذلك قول سيدنا عبد الله بن مسعود: لو وضع علم أحياء العرب في كفة، وعلم عمر في كفة، لرجح بهم علم عمر. قال عبد الله: إنا كنا لنحسب عمر بتسعة أعشار العلم؛ إلى غير ذلك مما يفيد علو مقام أمير المؤمنين في العلم والقضاء.

* * *

ولنرجع إلى ما كنا بصدده من شرح ما كان عليه الصدر الأول، ومن تلاهم، من الإطلاع والتحقيق في كل ما يهم الأمة من الأوضاع الدينية والدنيوية، الحربية والسياسية، والمصالح المالية، ومصارفها العسكرية والأهلية، وتحري الولاة في ذلك مصادر استخلاصها، وإقامتها في مواضعها، مع العدل والنزاهة، لا [بـ]الخيانة والغلول في الغنائم، كما علمت ذلك فيما قدمنا مبينا في رسائل سيدنا عمر وتقريراته، مما أعجب به النبلاء من أهل العصر الحاضر.

ثم، حسبما أشرنا إليه مرارا في هذا المبحث، إن المقصود منه، هو ردّ من استجهل حال تلك القرون، ووسم أهلها بالجهل.

ثم إني بعد ذلك، وجدت أن في عصرنا الحاضر نبلاء فضلاء، استوفوا هذا المبحث، واستكشفوا ما أخفته أستار الجهالة، فأفاضوا في ذلك المقال، وبينوا الحقائق كما هي، دون تحيز واختلاق الخرافات والقيل والقال، وجاءوا في ذلك بأوفى مما كنتُ أزوّر في نفسي رسمه، وأطيل تبييضه ورقمه، كصاحب "تاريخ" الدولة الأموية، وهو(*)، وصاحب كتاب " اشهر مشاهير الإسلام"، وهو علامة الشام وعمدة علمائه، رفيق بك العظم، فإنهما قد اعتنوا بآثار خلفاء الإسلام وأمرائهم، بالأخص الخليفة الأعظم، وبدر العلوم والمعارف الدينية والدنيوية، ونظاماتها العسكرية والمالية، وترتيب مراتب القواد، وتصرفات العمال، وغير ذلك من الأمور الاجتماعية، سيدنا عمر بن الخطاب. وأسلفنا جملة كثيرة من مشرب أعمال ذلك الخليفة، العذب الرائق، كلما أدرت زجاجة رحيقها في مجلس صفحات هذا[الكتاب]، تتشوف الأذواق للازدياد من معسولها لكل ذائق.

(*) ترك بياضا في الأصل لكتابة اسم صاحب التاريخ المذكور.

[تلخيص ترجمة
سيدنا عمر من "طبقات" ابن سعد]

وفي هذا الحال اطلعت، على وجه المصادفة دون قصد، على ترجمة هذا الخليفة العادل في "طبقات" الحافظ الثقة ابن سعد، فإني، وإن كنت قد طالعتها واستوعبت ما فيها، وعلّمْت على المهم فيها، ولكن اشتقت للعود إليها، وتشريف هذه "الفهرسة" بجملة مختصرة منها؛ فإنه رحمه الله، أتى في هذه الترجمة بغرر درر محاسن هذا الصحابي الجليل، فأقول: قال ابن سعد في "طبقاته الكبرى"، في المجلد الثالث[صح265]، منها في ذكر البدريين من المهاجرين والأنصار:

ومن بني عديّ بن كعب بن لؤي؛ عمر بن الخطاب، رضي الله عنه وأرضاه، ابن نُفَيْل بن عبد العزّى بن رياح بن عبد الله بن قُرْط بن رزاح بن عديّ بن كعب، ويكنى أبا حفص. ثم ذكر نسب أمه، ثم ذكر منزله، ثم ذكر عنه ما يفيد ذكر أوليته عنه، إذ قال:

مرّ عمر بن الخطاب بضَجْنان، فقال: لقد رأيتُني وإني لأرعى على الخطاب في هذا المكان،(**) وكان والله ما علمتُ فظا غليظا، ثم أصبحتُ إلى أمر أمة محمدٍ، صلى الله عليه وسلم، ثم أنشد متمثلا:

لا شيءَ فيما ترى إلا بشاشتُهُ   يبقى الإلهُ ويودي المالُ والولدُ

ثم ذكر ابن سعد، راويا عن الحسن، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: "اللهم أعزّ الدين بعمر بن الخطاب". ومن رواية عن سعيد بن المسيب، قال: كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إذا رأى عمر بن الخطاب، أو أبا جهل، قال: "اللهم اشدُدْ دينك بأحبّهما إليك". فشدّدَ دينه بعمر بن الخطاب.[265/3]. وهذا الحديث مشهور.

ثم ذكر إسلام عمر، وما وقع في ذلك، ومن تمام كلامه في ذلك،أنه قال: أسلم عمر بعد أربعين رجلا وعشر نسوة.[269/3].

وذكر عن ابنَ المسيب، أن النبي، صلى الله عليه وسلم، كان قال بالأمس: " اللهم أيّد الإسلام [بأحبّ الرّجلين إليك: عمر بن الخطاب، أو عمرو بن هشام"]. فلما أسلم عمر، نزل جبريل فقال: يا محمد. لقد استبشر أهل السماء بإسلام عمر.

ثم ذكر ابن سعد ما وقع لأهل الإسلام من الفرح بإسلامه، فروى عن صهيب، قال: لما أسلم عمر، ظهر الإسلام، ودُعي إليه علانية، وجلسنا حول البيت حلقا، وطفنا بالبيت، وانتصفنا ممن غلظ علينا، ورددنا عليه بعض ما يأتي به.[269/3].

وروى عن عبد الله بن مسعود قوله: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر. وروى عنه أيضا أنه قال: كان إسلام عمر فتحا، وكانت هجرته نصرا، وكانت إمارته رحمة. لقد

(**) كذا في "طبقات" ابن سعد. وفي كتاب"أشهر مشاهير الإسلام"،(186/1)،انه كان يرعى غنم أبيه الخطاب، بمكان يسمى(ضيفان). أ م.

رأيتنا، وما نستطيع أن نصلي بالبيت، حتى أسلم عمر. فلما أسلم عمر، قاتلهم حتى تركونا، فصلينا.

أما تسميته بالفاروق، فروى ابن سعد عن أيوب بن موسى قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: "إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه. وهو الفاروق. فرّق الله به بين الحق والباطل".[270/3].

ثم ذكر ابن سعد هجرة عمر إلى المدينة، ووصف خروجهم، وأنهم خرجوا مشاة وركبانا، وأن الركبان أهل القوة، وأعقبوا معهم، وأن من لم يجد ظهرا، خرج ماشيا.

ثم ذكر أنه نزل، رضي الله عنه، ومن معه بقباء، والنبي، صلى الله عليه وسلم، بمكة لم يخرج. ثم وصل النبي، صلى الله عليه وسلم، وآخى بين عمر وأبي بكر، أو بين عمر وعِتْبان، ويقال بينه وبين معاذ بن عفراء. وقيل غير ذلك. قلت: وقضية الهجرة من المدينة، مفصلة في غير هذا الموضوع.

ثم ذكر ابن سعد مشاهد عمر، وأنه شهد المشاهد كلها: بدرا وأحدا والخندق، مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وخرج في عدة مشاهد، وكان أمير بعضها. وكان صلى الله عليه وسلم، حيث نزل بحضرة أهل خيبر، أعطى اللواء عمر. ولما استأذن النبي، صلى الله عليه وسلم، في العمرة، وأذن له، فقال له: "لا تنسانا يا أخي من دعائك"، فقال عمر: قال لي كلمة ما يسرني أن لي بها الدنيا.

ثم ذكر ابن سعد قضية استخلافه، فروى عن عائشة أنها قالت: لما ثقل أبي، دخل عليه فلان وفلان، فقالوا: يا خليفة رسول الله. ما ذا تقول لربك، إذا قدمت عليه غدا، وقد استخلفتَ علينا ابن الخطاب؟ فقال: أجلسوني، أبالله تُرهبُوني؟! أقول: استخلفتُ عليهم خيرهم. وروى عن غيرها تاريخ وفاته، واستقبال عمر بالخلافة. قال: توفي أبو بكر الصديق، مساء ليلة الثلاثاء، لثمان بقين من جمادى الآخرة، سنة ثلاث عشرة. فاستقبل عمر بخلافته يوم الثلاثاء، صبيحة موت أبي بكر.

ثم روى بسنده عن الحسن، قال: فيما نظن أن أول خطبة خطبها عمر، حمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

(أما بعد؛ فقد ابتليتُ بكم، وابتليتُم بي، وخلفت فيكم بعد صاحبي. فمن كان بحضرتنا، باشرناه بأنفسنا. ومهما غاب عنا، ولينا أهل القوة والأمانة؛ فمن يحسن، نزده حسنا، ومن يسئ، نعاقبه. ويغفر الله لنا ولكم). ثم روى رواية أخرى. وفي لفظ الخطبة بعض مخالفة قليلة، والمعنى واحد.

[عفافه، رضي الله عنه، في الأخذ من بيت المال]

ثم ذكر ابن سعد في عفافه وورعه، ما كان يستحله من بيت المال،[حيث قال]: أنا أخبركم بما استحلّ لي منه: يَحل لي حلتان، حلة في الشتاء، وحلة في القيظ، وما

أحجّ عليه وأعتمر من الظهر. وقوتي وقوت أهلي، كقوت رجل من قريش، ليس بأغناهم ولا بأفقرهم. ثم أنا بعدُ رجل من المسلمين، يُصيبني ما أصابهم.

ثم روى أنه قال: إن أنزلتُ نفسي من مال الله منزلة مال اليتيم، إن استغنيتُ استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف. وفيه إشارة للآية: (مَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأكُلْ بِالْمَعْرُوفِ)، كما صرح بذلك في بعض الروايات. وروى عنه أنه قال: لا يحل من هذا المال إلا ما كنتُ آكلا في صُلب مالي.هـ.

* * *

[كونه لم يقبل الخلافة إلا بعد أن تعيّنت عليه، والكلام على فرض الكفاية]

ثم بعد أن قبل الخلافة، وتم له الأمر، بيّن للناس أن قبوله لذلك كان عليه واجبا لأمرين:

أولهما: كون الخليفة الأول، رأى أنه أحق بها وأهلها، ولهذا قال، لما خوفوه بأنه سيُسأل عن ذلك: استخلفتُ عليهم خيرهم. كما تقدم.

وثانيا: فإنه، رضي الله عنه، كانت الخلافة متعينة عليه، لأن نصب الخليفة واجب على الأمة، وفرض كفاية عليها، فإذا قام واحد منها بهذا الفرض، سقط التكليف بذلك عن الجميع، على قاعدة فرض الكفاية.

وهذا ما لم يتعين على واحد من الأمة، لكونه لم يوجد كفؤا لها مثله. وأما إذا تعين، فيجب عليه القيام[بها]؛ ولهذا قال[في خطبته]: ولو علمت أن أحدا من الناس أقوى عليه مني، لكنتُ أقدَّم فتضرب عنقي، أحبّ إليّ من أن ألِيَه.هـ. وفي حق القاضي إذا تعين عليه أن يلي القضاء، يقول الشيخ خليل في "مختصره": ولزم المتعين أو الخائف فتنة، إن لم يتول، أو ضياع الحق؛ القبول والطلب.

ولقد أجاد الإمام المحقق، أبو إسحاق الشاطبي في شأن فرض الكفاية، وشرحه شرحا وافيا، إذا قال:

طلب الكفاية يقول العلماء بالأصول: إنه متوجه على الجميع. لكن إذا قام به بعضهم، سقط عن الباقين. وما قالوه صحيح من جهة كلي الطلب، وأما من جهة جزئيه، ففيه تفصيل.

ثم قال بعد بيانه البحث في تعريف أهل الأصول، وأن الطلب إنما هو متوجه على من فيه أهلية للقيام بذلك الفعل المطلوب، لا على الجميع عموما، والدليل على ذلك أمور:

أحدها: النصوص الدالة على ذلك، كقوله تعالى: (وَمَا كَانَ الْمُؤمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ) الآية. ثم قال:

والثاني: ما ثبت من القواعد الشرعية القطعية في هذا المعنى، كالإمامة الكبرى أوالصغرى، فإنها إنما تتعين على من فيه أوصافها المرعية.(*) وقد بسط، رحمه الله، القول في ذلك، وأجاد وأفاد.

فسيدنا عمر، ممن جمع شروط الإمامة، وحققها وأعطاها مقامها؛ وناهيك بشهادة الخليفة الأول في ذلك، إذ قال إنه استخلف على الأمة خيرها، لأنه، رضي الله عنه، جمع العدل كله، كما قال الإمام مالك فيما سبق عنه. وقال فيه سيدنا علي، كرم الله وجهه: إنه جمع السنة، كما يأتي في وصفه له، رضي الله عنهم أجمعين.

وهذه جملة أدمجت هنا، استطرادا وتأييدا لقول الخليفة سيدنا عمر، الذي قوله الفصل، وحكمه العدل المؤيد بنور الرسالة، الذي لا يحتاج بعدها إلى إقامة برهان، وتكلف دلالة.

* * *

[مواصلة ترجمة الخليفة عمر بن الخطاب، وسيرته في التصرف في المال العام]

ولنرجع إلى ما كنا بصدده من اختيار جملة من ترجمة سيدنا عمر، المبسوطة في "طبقات" ابن سعد، المنقولة بإسناده، الذي انتقاه وحقق في اعتماده. ونستمر فيما كنا بصدده من تورع هذا الخليفة العظيم، الذي أحكم في خلافته إمامة مصالح الدين والدنيا، ووضعها في المرتبة العليا، التي لا تردد فيها ولا ثنيا.

فمنها ما كنا بصدد[ذكره]، مما سنه لنفسه من اتباعه طريق النزاهة، وهجران الترفه، والتباعد عن أكل أموال الدولة والرعية، وأكله منه أقل ما يتقوت به المقلّ، من الرعية عند الحاجة، كما قدمنا.

ومن ذلك، أنه، كما نقله ابن سعد بسنده، عن مصعب بن سعد، قالت حفصة بنت عمر، أي وهي كانت زوجة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لأبيها: يا أمير المؤمنين، أو يا أبت: إنه قد أوسع الله الرزق وفتح عليك الأرض، وأكثر من الخير؛ فلو طعمتَ طعاما ألين من طعامك، ولبستَ لباسا ألين من لباسك؟ فقال: سأخاصمُك إلى نفسك. أما تذكرين ما كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يَلقى من شدة العيش؟ قال: فما زال يذكّرها حتى أبكاها.

وفي رواية أخرى عن الحسن قال: كلّمُوا حفصة أن تُكلّم أباها أن يُلين من عيشه شيئا. فقالت: يا أبتاه، أو يا أمير المؤمنين: إن قومك كلموني أن تلين من عيشك، فقال: غششتِ أباكِ ونصحتِ لقومك.

وروي عنه أنه كان يتجر لأجل اقتيات أهله. وورد أنه استسلف من عبد الرحمان بن عوف، أو غيره، من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أربعة آلاف

(*) "الموافقات": 1/119.

درهم، فقال الذي طلب منه السلف للشخص، الذي بعثه إليه: قل له يستسلفها من بيت المال، ثم ليردها. فأجاب عمر بأني أستسلفها من شحيح، فإن مت أخذها من ميراثي، بخلاف بيت المال، فإني إن مت قالوا: أخذها أمير المؤمنين، دَعوها له، وأوخذ بها يوم القيامة.

قلت: وهذه الجملة الأخيرة كلها منقولة من "الطبقات" مختصرة؛ فبمثل هذا الورع يكون أمير المؤمنين، والمحافظ على دينه وحقوق المسلمين.

هكذا، هكذا تكون المعالي   طرق الجدّ لا طرق المزاح

ومن هذا الورع والنزاهة، أنه سأل يسار بن نمير: كم أنفقنا في حجتنا هذه؟ قال: خمسة عشر دينارا، إذ حج بالناس، وهو أمير المؤمنين.

وروى في "الطبقات" عن يحيى بن سعيد، عن شيخ لهم، قال: خرج عمر بن الخطاب إلى مكة، فما ضرب فسطاطا حتى رجع، كان يستظل بالنطع. وروى بسنده أيضا، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: صحبت عمر بن الخطاب من المدينة إلى مكة في الحج، ثم رجعنا، فما ضرب فسطاطا، ولا كان له بناء يستظل به. إنما كان يُلقي نطعاً أو كساء على شجرة، فيستظل تحته.

وروى أيضا بسنده عمن سمع الحسن يحدث، قال: قدم أبو موسى في وفد أهل البصرة على عمر. قال: فقالوا: كنا ندخل كل يوم وله خبز ثلاث، فربما وافقناها مأدومة بزيت، وربما وافقناها بسمن، وربما وافقناها باللبن، وربما وافقناها بالقدائد اليابسة؛ قد دُقّت ثم أغلي بها، وربما وافقنا اللحم الغريض، وهو قليل. فقال لنا يوما: أيها القوم. إني والله لقد أرى تعذيركم وكراهيتكم لطعامي. وإني والله لو شئت، لكنت أطيبكم طعاما، وأرفعكم عيشا. أما والله ما أجهل عن كراكرَ وأسنمة، وعن صلاً وصناب وصلائق؛ ولكني سمعت الله، جل ثناؤه، عيّر قوما بأمر فعلوه فقال: (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا). وإن أبا موسى كلمنا فقال: لو كلمتم أمير المؤمنين؛ يفرض لنا من بيت المال أرزاقنا، فو الله ما زال حتى كلمناه، فقال: يا معشر الأمراء، أما ترضون لأنفسكم ما أرضاه لنفسي؟ قال: قلنا: يا أمير المؤمنين. إن المدينة أرضٌ العيشُ بها شديد، ولا نرى طعامك يُعشّي ولا يؤكل. وإنا بأرض ذات ريف(*)، وإن أميرنا يعشّي، وإن طعامه يؤكل. فنكت في الأرض ساعة. ثم رفع رأسه فقال: فنعم، فإني قد فرضت لكم كل يوم من بيت المال شاتين وجريبين، فإذا كان بالغداة، فضع إحدى الشاتين على أحد الجريبين، فكل أنت وأصحابك. ثم قال: فإذا كان بالعشي، فضع الشاة الغابرة، على الجريب الغابر، فكل أنت وأصحابك. ثم قال: وأشبعوا الناس في بيوتهم، وأطعموا عيالهم؛ فإن تحفينكم للناس، لا يحسن أخلاقهم، ولا يشبع جائعهم. والله مع ذاك، ما أظن رُستاقاً يؤخذ منه كل يوم شاتان وجريبان، إلا يسرعان في خرابه. هـ كلامه في هذا الموضوع، ببعض اختصار.

(*) يعني به ذات خصب.

ثم ذكر ابن سعد من رسالة شدة اهتمامه بأمر الجيش، وإيصاءه قوادهم ـ كما تقدم، بأن لا يضربوا أبشارهم، ويشتموا أعراضهم، ولا يأخذوا أموالهم. وإنما ولاهم على الجيوش، ليعلموهم كتاب ربهم، وسنة نبيهم. ويقول للجيش: إن من ظلمه عامله، فليرفع ذلك إليه. فقال عمرو بن العاص، وهو أحد أمراء الجيش: يا أمير المؤمنين أرأيت إن أدّب أمير رجلا من رعيته، أتُقِصّه منه؟ فقال عمر: وما لي لا أقِصّه منه، ورأيتُ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يُقِصّ من نفسه!؟.

قلت: ولعل هذا إن ظلمه، كما سبق، وإلا اختلّ النظام، ولم يبق لقائد الجيش أي اعتبار واحترام. وما قلناه يؤخذ من قوله: فمن ظلمه عامله مظلمة، إلخ. وهو ظاهر.

[أوليات الخليفة سيدنا عمر]

ثم صار يذكر ابن سعد أوليات أعماله في خلافته، من أمور ترجع إلى الدين، وإلى إصلاحات ترجع لإمامة الدولة وتنظيم أمورها، وإحداث أعمال مهمة ترجع إلى تنظيم أحوال اجتماعية عامة وخاصة.

فمنها: أنه أول من تسمى بأمير المؤمنين، وكان بعد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أبو بكر الصديق، وكان يقال له خليفة رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فلما مات أبو بكر، وقام مقامه سيدنا عمر، قيل له: خليفة خليفة رسول الله؛ فرأى المسلمون أنه إن استمر على هذا، تعدد ذكر خليفة خليفة خليفة إلخ فيطول هذا؛ فقال بعض أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم: نحن المؤمنون، وعمر أميرنا. فدعي عمر أمير المؤمنين؛ فهو أول من تسمى بذلك. ثم قال ابن سعد، مستمرا في ذكر أوليات هذا الأمير العظيم:

وهو أول من كتب التاريخ في شهر ربيع الأول، سنة 16، فكتبه من هجرة النبي، صلى الله عليه وسلم، من مكة إلى المدينة.

وهو أول من جمع القرآن في الصحف، وهو أول من سنّ قيام شهر رمضان، وجمع الناس على ذلك، وكتب به إلى البلدان، وذلك في رمضان سنة 14، وجعل للناس بالمدينة قارئين؛ قارئا يصلي بالرجال، وقارئا يصلي بالنساء.

وهو أول من ضرب في الخمر ثمانين، واشتد على أهل الريب والتهم، وأحرق بيت رويشد الثقفي، وغرب ربيعة بن أمية، وكان صاحب شراب، فدخل أرض الروم فارتد. وهو أول من عسّ بالليل بالمدينة، وحمل الدّرة وأدّب بها. وقيل، بعده: لَدِرّةُ عمر، أهيب من سيفكم.

وهو أول من فتح الفتوح، وهي الأرضون والكور التي فيها الخراج والفيء؛ فتح العراق كله، السواد والجبال، وآذربيجان وكور البصرة وأرضها، وكور الأهواز وفارس، وكور الشام، ما خلا أجنادين، فإنها فتحت في خلافة أبي بكر الصديق. وفتح عمر كور الجزيرة، والموصل، والإسكندرية. وقتل، رحمه الله، وخيله على الري،

وقد فتحوا عامتها. وهو أول من فتح السواد وأرض الجبل، ووضع الخراج على الأرضين، والجزية على جماجم أهل الذمة، وفرق بين الأغنياء والفقراء في قدر الجزية. وقد بلغ خراج السواد والجبل على عهده، مائة ألف ألف، وعشرين ألف ألف واق. والواق درهم ودانقان ونصف.

وهو أول من مصّر الأمصار: الكوفة والبصرة، والجزيرة والشام، ومصر والموصل، وأنزلها العرب، وخط بالكوفة والبصرة خِططا للقبائل. وهو أول من استقضى القضاة في الأمصار، وهو أول من دوّن الديوان، وفرض لأهلها الأعطية من الفيء، وأعطاهم على حسب أقدارهم وتقدمهم في الإسلام. وهو أول من حمل الطعام في السفن في البحر الأحمر، ثم حمل إلى المدينة، نقله من مصر.

* * *

[إنشاء ما يسمى الآن بـ (الجمعية الخيرية)، ويشبه ما كان بتطوان من أحباس خاصة بالمنقطعين]

وهو أول من اتخذ دار الدقيق؛ فجعل فيها الدقيق والسويق، والتمر والزبيب وما يحتاج إليه، ليعين به المنقطع.

قلت: فهو، فيما يظهر، أول من أسس ما يسمى الآن بالجمعية الخيرية. ويشبه ما كان بتطوان (المغرب)، مؤسسا منذ أزمان، من أحباس خاصة، سمي: (أحباس المنقطعين)، أنشأها أهل تطوان من أموالهم الخاصة، وصار الناس يحبسون من أملاكهم، قاصدين بذلك أن تكون هذه الأحباس مرصدة لأهل الفاقة والمنقطعين من أهل الحاجة، تقربا إلى الله وحسنة منهم، حتى أصبحت هذه المصلحة من المصالح، يعين لها ناظر يقوم بشئون مداخيل هذه الأحباس، ويفرقها على أهلها.

وكان، فيما أدركنا، يعين من أعيان المدينة، ويقوم بذلك احتسابا دون أخذ مرتب على ذلك. ثم بعد ذلك، أصبحت نظارتها من جملة المصالح الرسمية؛ يعين الناظر لها من قبل الحكومة. ثم في أيام الاستقلال أدمجت في جملة أحباس المساجد.

وكان مقر من ينقطع به الحال، ولا يجد مسكنا، في دار تسمى بـ(المارستان). وكانت فيما أدركنا، هي الدار التي تجاور الزاوية الريسونية، التي أضيفت بعد ذلك للزاوية المذكورة، بتبرع المرحوم السيد الحاج العربي الدفوف.

[معالجة مرضى الحيوان بتطوان]

وربما كان يضاف لهذا (المرستان)، بعض مرضى الحيوان، وأن ذلك كان، فيما كنا نسمع، أن لهذا حبسا خاصا بمرضاه. قلت: وقد شاهدت في صغري الطائر المسمى

باللقلق، (باللارج)، يذهب ويجئ حول باب (المرستان) المذكور، وأسمع من الناس أنه مريض أدخل(المرستان) لأجل التداوي.

قلت: وهذا الحبس الخاص المسمى بحبس المنقطعين، لم أسمعه خاصا إلا بمدينة تطوان، والله أعلم.

* * *

[مواصلة ذكر أوليات الخليفة سيدنا عمر]

وذكر ابن سعد، أن من أوليات سيدنا عمر، إجراء الماء ما بين مكة والمدينة، على ما تفيده تلك العبارة الواقعة في "طبقاته"، وهي مجملة. ولكن مضمنها، فيما يظهر، هو هذا. وفي كتاب"أشهر مشاهير الإسلام"، التصريح بما قدمنا.

ثم قال ابن سعد: وهدم عمر مسجد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وزاد فيه، وأدخل دار العباس بن عبد الطلب فيما زاد، ووسعه وبناه، لما كثر الناس بالمدينة، وأخرج اليهود من الحجاز إلى الشام، وأخرج أهل نجران، وأنزلهم ناحية الكوفة.[الطبقات الكبرى:283/3].

قال ابن سعد، بسنده عن عبد الله بن إبراهيم: إن أول من وضع الحصى في مسجد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عمر بن الخطاب، وكان الناس إذا رفعوا رؤوسهم من السجود، نفضوا أيديهم، فأمر عمر بالحصى، فجئ به من العقيق، فبسط في مسجد النبي، صلى الله عليه وسلم.[284/3].

وسيدنا عمر، هو أول من أراد أن يكتب الحديث والسنن. ثم رجع عن ذلك، لما توقعه من الإعراض عن القرآن. قال ابن سعد بسنده عن الزهري، إنه قال: أراد عمر أن يكتب السنن، فاستخار الله شهرا، ثم أصبح وقد عزم له، فقال: ذكرت قوما كتبوا كتابا فأقبلوا عليه، وتركوا كتاب الله.

قلت: وكأنه، رضي الله عنه، ألهم ما توقع، إذ وقع بعده تفرق هذه الفرق؛ من المعتزلة والشيعة والخوارج، وصار كل يختلق من الآثار ما يوافق مذهبه. وقد تفاقم الأمر، كما قدر الله، من اختلاق الناس في شأن سيدنا علي. وظهر مذهب الشيعة، ومن يقابلهم، وتفاقم الأمر أيام بني أمية، وصار كل فريق يضع من الأحاديث ما يوافق مذهبه. وسيأتي الكلام على ذلك في ترجمة الكلام على الشيعة، التي هي الفرقة الثانية من الفرق الضالة التي أضرت بأهل السنة، وفرقت ألفتهم واتفاقهم. وانظر "شرح النهج"،ج 3 ص13 وما بعدها.

[توسل سيدنا عمر في الاستسقاء
بسيدنا العباس، ومسألة الدعاء عند قبور الأولياء]

قلت: ومن أولياته عند القحط، واشتداد الجفاف، خروجه للاستسقاء، وتوسله إلى الله بمن يرجى خيره من أهل الشرف والفضل، إذ توسل بسيدنا العباس، عم رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

والأولية هنا، متوجهة إلى كون سيدنا عمر؛ توسل بمن توسم فيه الخير والفضل من أقارب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وممن يدخل في مجموع قوله تعالى: (ألاَ إنّ أولياءَ الله لا خَوْفٌ عليْهِمْ ولا هُمْ يحْزنونَ الذِينَ آمَنُوا وكانُوا يتَّقونَ، لهُم البُشرَى في الحياةِ الدّنْيا وفِي الآخِرةِ)، وهو سيدنا العباس، وهو حريّ بهذه الأوصاف. ومن كان بهذه الأوصاف، حريّ أن يكون دعاؤه مستجابا، كما يدخل ذلك في قوله تعالى: (لهُم البشرَى في الحياة الدنيا وفي الآخرة).

وعلى هذا العمل الذي نهجه أمير المؤمنين سيدنا عمر، انتهج الناس، قديما وحديثا، التوسل بالأموات من أهل الولاية والفضل، والدعاء لدى أضرحتهم عند ما تصيبهم ملمة، كانحباس المطر، وتأخره عن إبّانه، فيخرجون عند الاستسقاء، إذا لم يظهر لهم من يتوسم فيه أثر الصلاح والولاية من الأحياء، وجهوا وجهتهم إلى قبورهم.

وقد شاهدتُ ذلك بتطوان مرارًا، إذ خرج الناس كلهم حفاة بثياب مبتذلة، وعليهم أثر الخشوع والحزن، ويرأس ذلك قاضي المدينة ومعه أجلة العلماء والفقهاء والعدول، والعامة والخاصة، ويقصدون أضرحة من ينسب للصلاح والولاية، ويقرأون عند قبورهم بعض القرآن. وهم في ذلك يتوسلون إلى الله بهم، كتوسل سيدنا عمر بسيدنا العباس؛ وهم عارفون بأن هذا الولي، ليس له من الأمر شيء،[وإنما هو] من قبيل التوسل بصالح الأعمال، كما قررنا ذلك بأوسع من هذا في "شرح المشيشية"، وردَدنا أقوال القادحين في زيارة أولياء الله في قبورهم، [الذين] اتبعوا في ذلك المذهب التيمي، ويقولون إن سيدنا عمر، كان توسله بسيدنا العباس، وهو حي، ولم يعلموا أن كل من يرجى بركته حيا، كذلك يرجى بركته وهو ميت، بدليل أن أكابر الأعلام من أهل الحديث والعلم بالفقه والأحكام، كانوا يرغبون في الدعوة حول قبورهم، رجاء بركتهم. وناهيك بإمام المحدثين، وأوثق رواة الحديث، وعمدتهم في معرفة الرواية، الحافظ الخطيب البغدادي، مؤلف كتاب "تاريخ بغداد"، لأنه لما أم البيت الحرام، لأداء فريضة الحج، وشرب ماء زمزم ــ الذي ورد فيه أنه لما شرب له ـ لثلاثة أمور: منها أن يدفن عند موته، مجاورا لقبر بشر الحافي.

قلت: وفي ذلك ورد قوله، عليه السلام: " ادفنوا موتاكم وسط قوم صالحين، فإن الميت يتأذى بجار السوء، كما يتأذى الحي بجار السوء"، ورمز له في "الجامع

الصغير" لصاحب "الحلية"، وأشار له بعلامة الضعف. ولكن عمل الأئمة الكبار على هذا، من الدفن بجوار من يرجى الانتفاع بجواره من الموتى.

هذا ما كتبته اقتضابا دون مراجعة، وإنما جريت على ما حفظته في صدري. وقد تضمنت هذه الجملة التي ألقيتها، حكم ما عليه الناس قديما وحديثا، مع الجواب بما طعن فيه المعترض في وجه الاحتجاج على ذلك، بفعل سيدنا عمر في التوسل بسيدنا العباس، قائلا: إنه لا شاهد فيه، لأنه لم يتوسل بذات سيدنا العباس، وإنما أحضره ليدعو ويستسقي بدعائه مع الناس. جاريا على مذهبه من أنه لا يتوسل بمخلوق إلى الخالق.

[الكلام على أصل الاستسقاء، وصفة ما دعا به سيدنا العباس]

ولهذا أحوجني هذا إلى ذكر أصل المسألة، وذكر وصف استسقاء سيدنا عمر، وذكر أن الأولية، إنما هي في توسله بسيدنا العباس، وما قال فيها الناس.

وأما أصل الاستسقاء، فهو سنة سنها النبي، صلى الله عليه وسلم. وذلك أن الناس قحطوا في عهده، صلى الله عليه وسلم، فخرج بهم للاستسقاء؛ ففي صحيح البخاري: (باب الاستسقاء، وخروج النبي، صلى الله عليه وسلم، في الاستسقاء).

ثم ذكر في "الفتح" ما وقع من الخلاف في استسقاء النبي، صلى الله عليه وسلم، هل كان بعد سؤال الناس لذلك، إذ للإمام الأعظم دخل في هذا، أو هو دون سؤال؟ وذكر ما ورد في ذلك، وما وقع من تخالف الأدلة وآراء الأئمة في ذلك. ثم قال في "الفتح": وأوضح من ذلك ما أخرجه البيهقي في "الدلائل"، من رواية مسلم الولاني، عن أنس قال: جاء رجل أعرابي إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله أتيناك وما لنا بعير يئط، ولا صبي يغط. ثم أنشده شعرا يقول فيه:

وليس لنا إلا إليك فرارنا   وأين فرار الناس إلا إلى الرسل

فقام النبي، صلى الله عليه وسلم، يجر رداءه، حتى صعد المنبر، فقال: " اللهم اسقنا" الحديث، وفيه: ثم قال صلى الله عليه وسلم: "لو كان أبو طالب حيا لقرت عيناه. من ينشدنا قوله. فقام عليّ فقال: يا رسول الله كأنك أردت قوله: * وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه* الخ الأبيات.

وبما تقدم، صرح البخاري في ترجمة قوله: (باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا). ثم أخرج عن عبد الرحمان بن عبد الله بن دينار، عن أبيه، قال: سمعت ابن عمر يتمثل بشعر أبي طالب: وأبيض الخ. وقال عمر بن حمزة، حدثنا سالم عن أبيه: ربما ذكرت قول الشاعر، وأنا أنظر إلى وجه النبي، صلى الله عليه وسلم، يستسقي، فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب: "وأبيض يُستسقى" إلخ. وهو قول أبي طالب.[الفتح:337/2].

ثم أخرج البخاري عن أنس، أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كان إذا قحطوا، استسقى بالعباس بن عبد المطلب، فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا، صلى الله عليه وسلم، فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيُسقون.هـ [337/2].

ثم ذكر الحافظ في "الفتح"، عن الزبير بن بكار، صفة ما دعا به العباس في هذه الواقعة، والوقت الذي وقع فيه ذلك؛ فأخرج بإسناده، أن العباس لما استسقى به عمر، قال: اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يكشف إلا بتوبة. وقد توجه القوم بي إليك، لمكاني من نبيك. وهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث. فارتخت السماء مثل الجبال، حتى أخصبت الأرض، وعاش الناس. وذكر في رواية عن ابن عمر، قال: استسقى عمر بن الخطاب، عام الرمادة، بالعباس بن عبد المطلب، فذكر الحديث. وفيه: فخطب الناس عمر، فقال: إن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كان يرى للعباس ما يرى الولد للوالد، فاقتدوا أيها الناس برسول الله، صلى الله عليه وسلم، في عمه العباس، واتخذوه وسيلة إلى الله. وفيه: فما برحوا، حتى سقاهم الله.

ثم ذكر الحافظ عن ابن سعد، ما يفيد أن هذا كان عام الرمادة، وأن عام الرمادة، كان عام ثمان عشرة، وأنه دام تسعة أشهر. والرمادة بفتح الراء، وتخفيف الميم، سميّ العام بها، لما حصل من شدة الجدب، فاغبرت الأرض جدا من عدم المطر. ثم قال الحافظ:

ويستفاد من قصة العباس، استحباب الاستشفاع بأهل الخير والصلاح، وأهل بيت النبوة. وفيه فضل العباس، وفضل عمر، لتواضعه للعباس، ومعرفته بحقه.هـ [339/2].

[رد إنكار ابن تيمية لمسألة التوسل]

ولكن الحافظ ابن تيمية، لا يسلم هذا الاستدلال، ويرى أن عمر بن الخطاب، لم يكن استسقاؤه بسيدنا العباس، توسلا إلى الله به، ولكن لدعائه واستسقائه مع الناس. وكنتُ كتبتُ قبل هذا، عند مطالعتي لكتاب البخاري؛ كتبتُ على قول البخاري، فيما رواه عن أنس، أن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كان إذا قحطوا، استسقى بالعباس بن عبد المطلب، فقال: اللهم إنا كما نتوسل إليك بنبينا، صلى الله عليه وسلم، فتسقينا. وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، فيسقون؛ ما لفظه: بهذه القصة الثابتة في البخاري، يردّ على ابن تيمية وأتباعه في منع الاستشفاع بالمخلوق.

إلا أن ابن تيمية لا ينكر هذه القصة. لكن، يقول: معنى الاستشفاع بهذا المخلوق، هو طلب الدعاء منه، وليس هناك الإقسام به على الله، والسؤال بذاته بحضوره. فأما في[مغيبه]، أو بعد موته؛ فالإقسام على الله والسؤال بذاته، لم ينقل عن أحد من

الصحابة والتابعين. وأطال على ما هو مذهبه من إنكار التوسل بالحي، والإقسام على الله به.

ولكن، في إنكاره توسل سيدنا عمر بسيدنا العباس، واستسقاءه المطر، لمكانته من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، هو إنكار للأمر الصحيح، الوارد في هذا الأثر النص الصريح، الذي لا يقبل التأويل، ولا التضعيف والتعليل. وهو توسل صريح واضح، صدر من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، الذي لا ينطق إلا بالقول الحق، ولا يصدر عنه إلا عن صواب، وعن الإخلاص والصدق، ومعه أصحاب النبي الأخيار؛ فصار كأنه إجماع، إذ لم يصدر منهم رد ولا دفاع.

ولقد روى ابن سعد قضية استسقاء سيدنا عمر هذه بسيدنا العباس، وأطال فيها، وروى صفة استسقائه، ووصف ذلك وصفا كافيا، في كيفية الخروج إليه، والحالة التي يجب أن يكون الناس عليها، من توجه بخشوع ولباس مبتذل، وتضرع إلى الله وبكاء، وتوجه إلى القبلة، ورفع يديه إلى السماء.

ففي رواية له عن ابن عون قال: قال عمر بن الخطاب، للعباس بن عبد المطلب: يا أبا الفضل. كم بقي علينا من النجوم؟ قال: العوّاء. قال: كم بقي منها؟ قال: ثمانية أيام. قال عمر: عسى الله أن يجعل فيها خيرا. وقال عمر للعباس: أغدُ غدًا إن شاء الله. قال: فلما ألحّ عمر بالدعاء، أخذ بيد العباس ثم رفعها، وقال: اللهم إنا نتشفع إليك بعم نبيك، أن تذهب عنا المحل، وأن تسقينا الغيث. فلم يبرحوا حتى سُقوا، وأطبقت السماء عليهم أياما.[321/3].

وأخرج ابن سعد أيضا بسنده، عن السائب بن يزيد، قال: نظرت إلى عمر بن الخطاب يومًا في الرمادة، غدا مُتبذّلا متضرعًا، عليه برد لا يبلغ ركبتيه، يرفع صوته بالاستغفار، وعيناه تهرقان على خديه، وعن يمينه العباس بن عبد المطلب. فدعا يومئذ، وهو مستقبل القبلة، رافعا يديه إلى السماء، وعجّ إلى ربه، فدعا، ودعا الناس معه. ثم أخذ بيد العباس فقال: اللهم إنا نستشفع بعم رسولك، إليك. فما زال العباس قائما إلى جانبه مليّا، والعباس يدعو وعيناه تهملان. ثم روى أيضا عن غيره، نحو ما تقدم بالاستشفاع بسيدنا العباس.[الطبقات:321/3].

ثم أخرج عن سليمان بن يسار، أنه قال: خطب عمر بن الخطاب الناس في زمان الرمادة، فقال: أيها الناس، اتقوا الله في أنفسكم، وفيما غاب عن الناس من أمركم، فقد أبتليت بكم، وابتليتم بي، فما أدري السّخطةُ عليّ دونكم، أو عليكم دُوني، أوقد عمّتني وعمّتكُم؛ فهلموا، فلندعُ الله يصلح قلوبنا، وأن يرحمنا، وأن يرفع عنا المحل. قال: فرئيّ عمر يومئذ رافعا يديه يدعو الله. ودعا الناس، وبكى، وبكى الناس مليّا، ثم نزل.

وقال في ذلك أيضا، حسبما رواه ابن سعد: أيها الناس، إني أخشى أن تكون سُخطة عمتنا جميعا؛ فأعتبوا ربكم، وانزعوا وتوبوا إليه، وأحدثوا خيرا. هـ[الطبقات:322/3].

فبعد ما سمعتَ هذه الروايات الصحيحة، والآثار الصريحة، في كون سيدنا عمر توسل وتشفع بسيدنا أبي الفضل، العباس بن عبد المطلب، داعيا إلى الله أن يغيث الأمة، وينزل الغيث عليهم، من بعد ما قنطوا، وينشر رحمته، التماسا لبركته واتصاله بسيد الوجود؛ فاستجاب الله دعاءه، ورفع عن الأمة بلاءه، وفتح بالغيوث النافعة سماءه. فأين إنكار الحافظ ابن تيمية، وأين تضليله للمتوسلين، بمن أودع الله فيه بركته وسره من المخلوقين، حتى في غير الآدميين، كتصريح رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهو الناطق بوحي ربه عن تحقيق، بما أودعه سبحانه من البركة في وادي العقيق؛ ففي "وفاء الوفاء"، للسيد السمهودي، ما لفظه:

روينا في الصحيح، عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول بوادي العقيق: "أتاني الليلة آت، فقال: صلّ في هذا الوادي المبارك، وقل: عمرة في حجة". وفيه: وروى ابن شيبة عن عمر، رضي الله عنه، مرفوعا: "العقيق واد مبارك". وفيه: عن سعد بن أبي وقاص، في قضية نومه، صلى الله عليه وسلم، بهذا الوادي، وأيقظوه، فقال لمن أيقظاه: " لقد أيقظتماني، وأني لأراني بالوادي المبارك".

وروي أن عمر، رضي الله عنه، قال: احصبوا هذا المسجد - يعني مسجد المدينة - من هذا الوادي المبارك. ورواه صاحب "الفردوس" مرفوعا. وذكر عن غير واحد من ثقاة أهل المدينة، أن عمر، رضي الله عنه، بلغه أن وادي العقيق قد سال. قال: اذهبوا بنا إلى هذا الوادي المبارك، وإلى الماء الذي لو جاءنا، جاء من حيث جاء، لتمسحنا به.هـ [186/2].

إلى غير ذلك مما نقله صاحب "وفاء الوفاء"، في فضل هذا الوادي وبركته، مما يفيد صاحب القلب القاسي، أن في أسرار هذا الكون من حيوان وجمادات وأناسي، حكما وبركات وخواص أودعها الله فيها.

ولينظر الناظر بعين الاعتبار، في بعض البقاع والأقطار، وما خصها الله به من الشرف ورفعة الأقدار، وجعلها مقامات لاستحضار رضى العزيز الغفار، كالأمكنة المقدسة: من البيت الحرام، الذي وضعه الله للناس وجعله مطلعا للأنوار، وأن من دخله كان آمنا من كيد الأشرار، وكبيت المقدس الذي كانت تؤمه الأنبياء الأصفياء الأخيار، وكمسجد المدينة المشرفة بسيد الأبرار، وجعل أن الرحلة إلى هذه البقاع الثلاثة، مما تشد له الرحال، التماسا لدفع الذنوب والأوزار؛ وهي كلها مخلوقة مبنية من تراب وأحجار، وما شرفت إلا بتشريف الفاعل المختار. وانظر إلى قول الفاروق لما قبل الحجر الأسود، قال: والله ما قبلتك، إلا لما رأيت نبي الله، صلى الله عليه وسلم، قبلك، وإلا فأنت حجر من الأحجار.

فهو سبحانه الواحد القهار، يفعل في ملكه ما شاء ويختار. فمن هذه، صفاته المقدسة، وأفعاله الباهرة في كل خلقه التي لا تعقب لها ولا إنكار؛ أفلا يخص من شاء من هذه الأمة، التي هي خير أمة أخرجت للناس، ببعض البركات والأسرار،

التي من توسل إليه بما أودعه فيها، وخصه بها، من تلك الصفات المشرفة بتشريفه، أن يقبل توسله، لأنه توسل به إليه.

وانظر إلى القضية التي في صحيح البخاري، من أولئك النفر الثلاثة الذين وقعوا تحت تلك الحجرة، وأيقنوا بالهلاك، فصار كل واحد منهم يتوسل إلى ربه بأحب الأعمال إليه، ففرج الله عنهم.

ومن هذا التوسل بسيدنا العباس،[التوسل بالصالحين] من هذه الأمة، من أوليائه وأصفيائه. فإن قيل: إن توسل سيدنا عمر، كان بحي، فكيف يجوز التوسل بالميت؟ فالجواب: إن الإمام حجة الإسلام الغزالي وغيره، قالوا: إن كل من يتبرك به حيا، يتبرك بقبره بعد موته، كما في "الإحياء". ونقله العارف بالله، سيدي يوسف الفاسي، ونقله عنه ولده، سيدي العربي في "مرآته"، إذ قال أثناء جوابه الحفيل، عن زيارة قبور الصالحين، وشد الرحال إليها، بعد أن ذكر الخلاف في ذلك، في جوابه عن المسألة في جواب طويل، أفاد فيه وأجاد، وبلغ به لمن أراد استيفاء مباحث هذه المسألة أقصى المراد، إذ قال ما لفظه:

وقال في "الإحياء": كل من يُتبرك به في حياته، يُتبرك بقبره بعد وفاته. ونقله ابن الحاج في " مدخله"، واعتمده بنصه وحروفه. وظاهر كلام المتأخرين وأحوالهم العمل عليه. وظهرت بركاته على خلق كثير، في أمور شتى، لو اشتغلنا بها، لاستدعت أسفارا عديدة، ووقع لنا منها غزير.هـ. وللشيخ أبي إسحاق، إبراهيم التازي، قصيدة في هذا المعنى، قال فيها:

زيارة أرباب التقى مَرْهمٌ يُبري ... ومفتاح أبواب الهداية والخير
وتُحدث في الصدر الخليّ إرادة ... وتشرحُ صدرًا ضاق من سَعة الوزر
وتنصُر مظلوما، وترفعُ خاملاً ... وتكسبُ معدومًا، وتُجبُر ذا كَسْر

ثم قال:

عليك بها، فالقوم باحُوا بسرها ... ووصَوْا بها يا صاح، في السر والجهر

الخ. ثم ذكر عن الشيخ زروق ما يفيد أن زيارة الميت أنفع. ثم قال: وظاهر ما في "رسالة" القشيري، من أن قبر معروف، يُستسقى به، ترياق مجرب؛ جوازها عنده. ثم قال: وفي "المدخل": إن كان الميت المزور ممن ترجى بركته، فيتوسل إلى الله تعالى به.[مرآةالمحاسن:154].

ثم ذكر ما هو عندنا الأصل في هذا المبحث، وهو توسل سيدنا عمر بسيدنا العباس في الاستسقاء، برواية الإمام البخاري التي قدمناها. وعلى تلك الرواية عول أهل الحق في الماضي والحال.

[ما كان عليه عمل أهل تطوان في الاستسقاء، كما أدركه المؤلف]

وعلى ذلك أدركنا العمل في بلدنا(تطوان)، فإنهم كانوا إذا اشتد المحل، وطال الجفاف، اجتمع الناس عند قاضي المدينة، واشتكوا سوء الحال، وضيق صدر الفلاح، وجفاف المزارع؛ استدعي القاضي العلماء والعدول، وأهل المدينة وأعيانها، وشرفاءها وأهل الصلاح، وعامة الناس؛ وانتقى لصلاة الاستسقاء من يتوسم فيه الفضل والخير من أهل العلم، فخرجوا ضحى حفاة بذلة وتخشع، وقصدوا المصلى للصلاة. ثم لما انتهوا من الصلاة، خرجوا وهم حفاة، يتقدمهم قاضيهم، وأفاضل العلماء والعدول، وأفاضل الأعيان، وسائر الناس، وهم يجهرون بالدعاء والتضرع.

ورأيت أنا في بعض وقوع الخروج، قاضي المدينة، وهو كبير السن، حافي الأقدام. وكذلك أمثاله من العلماء والأعيان. وفي ذلك العام، كان الذي صلى بالناس، شيخنا الإمام الهمام، الخيِّر الديِّن، سيدي محمد البقالي، رحمه الله. وكانت الصلاة بباب المقابر، ومنها صار الجميع بإمامهم، يزورون أضرحة من يشار إليه بالولاية والصلاح، متوسلين ببركاتهم وما وُسموا به من صالح الأعمال، إلى الكبير المتعال، كما توسل أمير المؤمنين سيدنا عمر بسيدنا العباس، كما قدمنا.

[اتخاذ عمل الفاروق سنداً لعمل الناس، في مسألة التوسل إلى الله بأهل الصلاح]

وعلى هذا اعتمد في ذلك أهل المغرب، كما اعتمد عليه غيرنا. وهو قول الحافظ ابن حجر السابق، في جعل عمل الفاروق سندا لعمل الناس، بالتوسل بأهل الصلاح والخير، واستسقاء المطر بهم.

ومِمن اقتدى بهذا العمل، أهل سمرقند، إذ احتبس عليهم المطر في بعض السنين، فاستسقوا مرارا، فلم يسقوا. قال تاج الدين السبكي، في ترجمة الإمام البخاري: فأتى رجل صالح معروف بالصلاح، إلى قاضي سمرقند، فقال له: إني قد رأيت رأيا، وأنا أعرضه عليك. قال: وما هو؟ قال: أرى أن تخرج ويخرج الناس معك إلى قبر الإمام محمد بن إسماعيل البخاري، وتستسقي عنده، فعسى الله أن يسقينا. فقال القاضي: نعم ما رأيت. فخرج القاضي والناس معه، واستسقى القاضي بالناس، وبكى الناس عند القبر، وتشفعوا بصاحبه؛ فأرسل الله تعالى السماء بماء عظيم غزير، فقام الناس من أجله بخرتنك، سبعة أيام أو نحوها، لا يستطيع أحد الوصول إلى سمرقند، من كثرة المطر وغزارته، وبين سمرقند وخرتنك، نحو ثلاثة أميال. هذا كله كلام تاج الدين السبكي في "طبقاته"، في ترجمة الإمام البخاري.

ثم قال تاج الدين: وأما "الجامع الصحيح"، وكونه ملجأ للمعضلات، ومجربا لقضاء الحوائج؛ فأمر مشهور. ولو اندفعنا في ذكر تفاصيل ذلك وما اتفق، لطال الشرح.هـ كلام التاج.[طبقات الشافعية:15/2].

[ما كانت عليه عادة تطوان في قراءة صحيح البخاري عند حدوث معضلة](*)

قلت: وعلى ذلك أدركنا الحال في بلدنا؛ فمهما نزلت بالناس معضلة، من قحط أو نحوه، إلا وجمع قاضي المدينة العلماء والعدول وطلبة العلم، وكل من يهمه الأمر، في أحد المساجد، ووزعوا نسخة "الصحيح" التي كانت في خزانة الكتب بالجامع الكبير من تطوان، مجزءة لأجل هذا الأمر، ووزعت تلك الأجزاء على الحاضرين، حتى يقع الختم في جميع الصحيح سرًا. وكان من العادة أن يختم بقراءة حديث[ختام] الكتاب "الصحيح"، بقراءة أحد العلماء، الذي يرق صوته، وتحسن قراءته برفع صوته.

وكنت حضرت مرة في هذه القراءة. وكان القاضي إذ ذاك بتطوان، الفقيه العلامة، الشريف المُسن، سيدي التهامي أفيلال، رحمه الله، ومعه علماء الوقت وفقهاؤه، منهم شيخنا العلامة المتبرك به، سيدي محمد البقالي، وشيخنا النبيل، المغتبط بحب أهل الله وصدق النية فيهم، سيدي محمد ابن الأبار؛ فأسندت قراءة حديث الختام إليه، لرقة صوته وحسن قراءته، فقرأ هذا الحديث الشريف، المبين للمؤمن فضائل التسبيح والتقديس، وكرم الباري وجوده ومواهبه العظيمة، بمجرد تسبيحه بهذه الكلمات الخفيفة على لسانه، وجعلها على قلة حروفها ثقيلة بحسناتها في ميزانه. سبحانه، الجواد الكريم.

فقال الإمام البخاري، رضي الله عنه، خاتما لجامعه العظيم، الكتاب الذي من قرأه واستوعب ما فيه، كان له الكفاية في علوم الدين الإسلامي؛ إذ من تعلمه وحقق فهمه، فإنه من داء الجهالة يشفيه، راويا عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: " كلمتان حبيبتان إلى الرحمان، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم". فإذا قرأ القارئ هذا الحديث بترنّمه اللطيف، وانثنى إلى الذكر، تابع الحاضرون كلهم، كبيرا وصغيرا، تكرار الذكر بخشوع وتضرع، وأعلوا بذلك أصواتهم، حتى إن المسجد يرتج من خشوع أصواتهم. ويستمرون على ذلك، ويكررونه نحو مائتي مرة، وإضافتهم ما يليق بذلك المجلس الخاشع الضارع.

(*) تقدم هذا الكلام مجملا في الجزء الخامس من هذه "الفهرسة".

هكذا كان الحال فيما أدركناه في صبانا وشبابنا، إلى أن قست القلوب، وأظلم جوّنا بكثرة الأوزار والذنوب. بل وخالط قلوب عامة الشباب داء الإلحاد، وشِيبَت عقائدهم بسموم الارتياب. فإنا لله وإنا إليه راجعون، وبما قضى وقدّر راضون ومسلمون، والحمد لله رب العالمين.

[ختام المجلد السابع من "النعيم المقيم"]

وهنا اقتضى الحال إيقاف الاستمرار في هذا المجلد السابع، والزيادة في تضخيمه، والانتقال للمجلد الثامن، سائلا من الباري جل جلاله، الإعانة لي والتوفيق، حتى يتأتى لي كماله، كما فعل سبحانه فيما مضى من المجلدات. إنه سبحانه لا يرد دعاء من دعاه، ولا يخيب رجاء من رجاه. والصلاة والسلام على خاتم الأرسال، وعلى كل من اتبع شريعته وسنته، وخصوصا من حملوا ذلك إلينا من الأصحاب والآل. آمين.

[وفيما يلي فهرس مباحث وتراجم هذا الجزء:]

فهرس مواد الجزء السابع،
من كتاب "النعيم المقيم، في ذكرى مدارس العلم ومجالس التعليم"

* * *

(تمّ بعون الله وتوفيقه)

تخريج وتنسيق: أحمد بن محمد المُريـر.
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين، آمين.
تطوان (المغرب): 1430 هـ 2009 م.

الثمن: 80 درهما

العنوان
ساحة 9 أبريل تطوان. ص.ب. 633 . الهاتف: 25 20 70 39 05
www.asmir.web.ma Email : tetouan.asmir@caramail.com